

بيان البلاغة العمرية

تحليل بلاغي وشرح لغوي لمواطن البيان ومواضع الفصاحة والبلاغة في أقوال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه

الإعداد

معتز المحتسب - خالد الشرادقة - أحمد عاشور

المراجعة

نصر بركات - مصطفى عبد الحفيظ

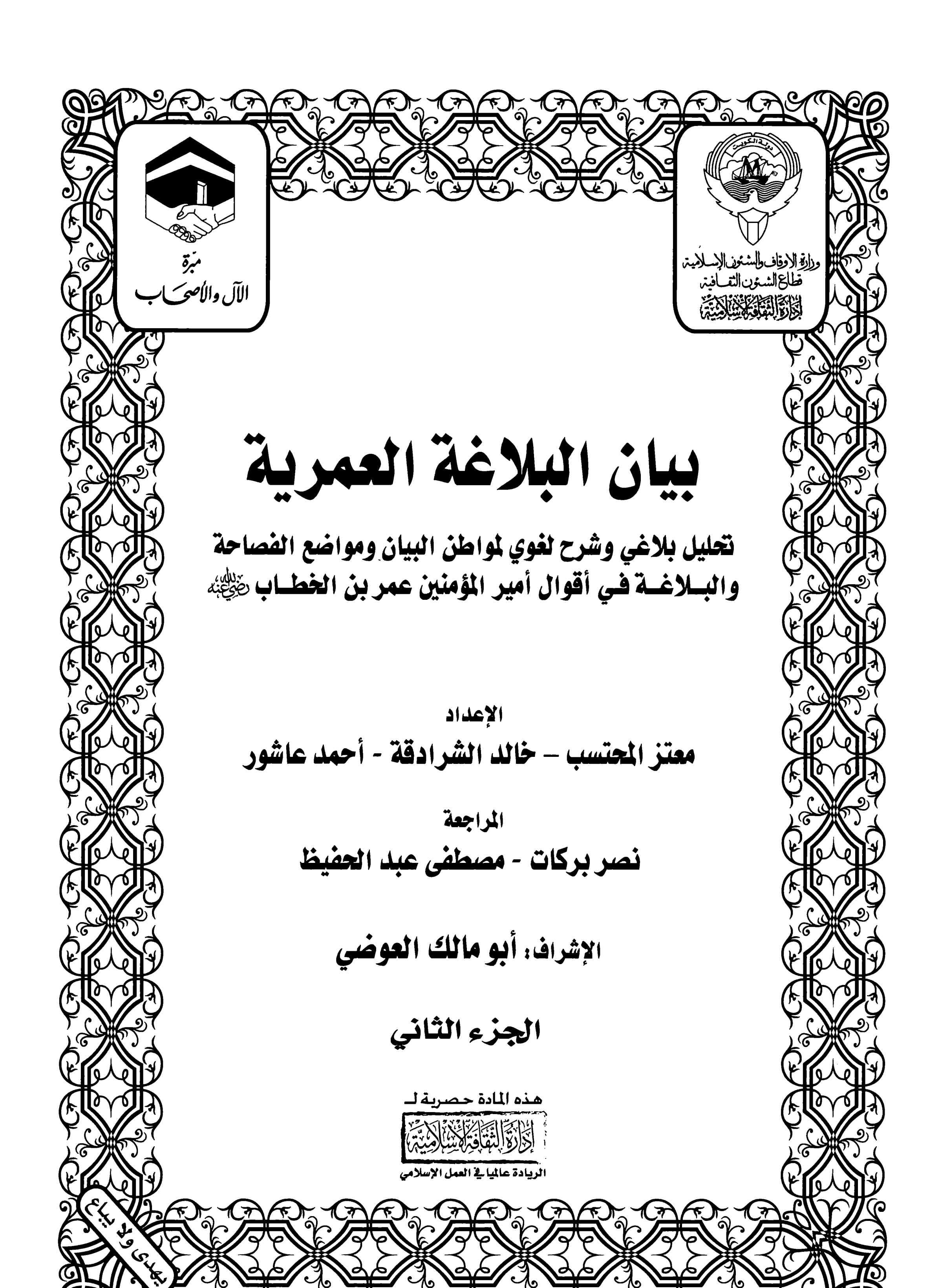
الإشراف: أبو مالك العوضي

الجزء الثاني

هذه المادة حصرية لـ

إدارة الثقافة الإسلامية

الريادة عالميا في العمل الإسلامي



بيان البلاغة العمرية

تحليل بلاغي وشرح لغوي لمواطن البيان ومواضع الفصاحة والبلاغة في أقوال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه

الإعداد
معتز المحتسب - خالد الشرادقة - أحمد عاشور

المراجعة
نصر بركات - مصطفى عبد الحفيظ

الإشراف: **أبو مالك العوضي**

الجزء الثاني

هذه المادة حصرية لـ
إدارة الثقافة الإسلامية
الريادة عالميا في العمل الإسلامي

الطبعة الأولى - دولة الكويت

وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

إدارة الثقافة الإسلامية

الموقع الإلكتروني: www.islam.gov.kw/thaqafa

تم الحفظ والإيداع بمركز المعلومات بوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

رقم الإيداع: 186 / 2017

[١٣٤]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

لِرَجُلَيْنِ مِنْ أَهْلِ الطَّائِفِ فِي الْمَسْجِدِ النَّبَوِيِّ

«لَوْ كُنْتُمَا مِنْ أَهْلِ الْبَلَدِ لَأَوْجَعْتُكُمَا، تَرْفَعَانِ أَصْوَاتَكُمَا فِي مَسْجِدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ؟!»[1].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: المكان هو المسجد النبوي، وفيه رجلان غريبان يرفعان أصواتهما بالحديث، فيراهما عمر على تلك الحال، فيوجه إليهما هذا الخطاب.

لطائف لغوية: قوله (أصواتكما) فيه إضافة الجمع إلى المثنى، كما في قوله تعالى: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ﴾ وقوله ﴿فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا﴾، وللعرب في هذا الباب مسالك: أولها وأشهرها استعمال الجمع كما هنا، والثاني: استعمال المفرد كقوله تعالى: ﴿قَدۡ أُجِيبَت دَّعۡوَتُكُمَا﴾ وقوله: ﴿خَطۡبُكُمَاۖ﴾، وهو أقل من استعمال الجمع، وأكثر استعماله إذا كان دالا على الجمع كما في الآيتين. والثالث: استعمال المثنى؛ كقول الفرزدق:

بما في فؤادَينا من الهم والأسى ... فيبرأ منهاض الفؤاد المشعف

البيان والبلاغة: افتتح عمر رضي الله عنه كلامه بقوله (لو) وهي أداة شرط، ولما كان

١- رواهُ البخاريُّ في «صحيحِه» (٤٧٠)، وعبدُ الرَّزَّاقِ في «المُصنَّفِ» (١٧١٢)، والبيهقيُّ في «السُّنَنِ الكُبرَى» (٤٣٤٦).

الشرط يقتضي تحقق المشروط عند حصوله، كان ذلك الافتتاح مؤذنا بأنه ذو قوة وسطوة وسلطان، وفي هذا تخويف للسامع يناسب المقام؛ إذ هما مخطئان بها فعلا من رفع الصوت في المسجد، فمجرد سماع أسلوب الشرط فيه تخويف للسامع، حتى إذا وصل إلى ذكر الشرط انقلب الخوف إلى أمن؛ لأنهما ليسا من أهل البلد، فمهما كان من عقوبة لهذا الشرط فلن تتحقق، و(أل) في البلد للعهد الحضوري، أي هذا البلد الذي أنتم فيه الآن، وفيه أيضا إشارة إلى رِفعة شأنه وأنه بلد معروف لا يحتاج إلى تعريف، أو يكون المقصود بالتعريف التفخيم والاحترام، وإنما عمم جميع من في البلد بالعقوبة المشروطة ليدل على قوته في تطبيق الشرع، وأن أوامره تصل لجميع أهل البلد، فلا يعذرون بجهل مثل هذا الأمر الواضح. وقوله (لأوجعتكما) فيه حذف للتمييزِ تخويفا؛ إذ لا يدري السامع هل يقصد (لأوجعتكما ضربا) أو (بطشا) أو (تنكيلا) أو غير ذلك، ولما كان ذهن السامع مستعدا بما سبق من التمهيد التخويفي للعقوبة كان الحذف أقوى أثرا.

فأنت ترى الشطر الأول من العبارة كيف اجتمع لعمر ﷺ فيه: تخويف السامع، ثم تأمينه، ثم الإشارة إلى القدرة والسلطان، ثم الإشارة إلى احترام البلد ورفع شأنه.

وأما الشطر الثاني من العبارة ففيه إيضاح وتفسير لما سبق من الحكم والعقوبة الافتراضية، وكأنه توقع سؤالا من سائل يقول: «لم تقول هذا الكلام؟» فأجاب بذكر سبب العقوبة، ولذلك نلاحظ أن الشطر الثاني يختلف تماما عن الشطر الأول، فالأول فيه إبهام واختصار وحذف وإجمال، والشطر الثاني فيه إيضاح وبسط وتقرير وتفصيل؛ لأن الشطر الثاني مبني على أن السامع لم يفهم المراد فاقتضى البسط والإيضاح، ففي الكلام تفصيل بعد إجمال، وهذا يفيد التشويق

وجذب اهتمام السامع.

وقوله (تَرْفَعَانِ) يحتمل أن يقصدَ به التقرير، ويكون التقديرُ: (لأنكما ترفعان..)، ويحتمل أن يقصد به الاستفهام ويكون التقدير (أترفعان؟) أو (كيف ترفعان؟)، والاحتمال الثاني أقوى أثرا وأعظم بلاغة؛ لأنه - وإن كان في صيغة استفهام - يدل بالتضمن على أن المذكور هو سبب العقوبة، فكأنه جمع بين ذكر العقوبة والاستفهام عن سبب الفعل. والغرض من الاستفهام هنا هو التهويل والاستفظاع؛ أي كيف يمكن أن يصدر منكم مثل هذا الفعل في هذا المكان العظيم المحترم؟!

[١٣٥]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«لَوْ هَلَكَ حَمَلٌ مِنْ وَلَدِ الضَّأْنِ ضَيَاعًا بِشَاطِئِ الْفُرَاتِ خَشِيتُ أَنْ يَسْأَلَنِي اللهُ عَنْهُ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يتحدَّث عن عِظَم مسؤوليَّة الخلافة التي وقعت عليه.

البيان والبلاغة: بدأ كلامه بـ(لو) الشرطية إشارة إلى تحقُّق الجزاء إذا وقع الشرط، واستعمل الفعل (هلك) ليشمل كلَّ نوع سقوط وتلف، وأمَّا انتصاب المصدر (ضياعًا) على أنَّه نوع للهلاك فليس بقيد؛ بل ذكره لأنَّه أقلُّ أنواع الهلاك، وما فوقه داخل في الحكم مِن باب أولى، وتنكير (حمل) للتصغير، وقوله: (بشاطئ الفرات) قيد لا مفهوم له، وإنَّما ذكره للتمثيل لبعد المسافة بينهما، والغرض بيان أنَّه مسؤول عن رعيَّته وأملاكهم حتى في أقصى البلاد. وقوله: (خشيتُ أن يسألني الله عنه) لم يأت باللام في جواب (لو)، وكأنَّ هذا الأمر متحقِّق لا محالة مِن غير حاجة إلى تأكيد.

١- رواه ابنُ أبي شيبةَ في «المُصنَّفِ» (٣٥٦٢٧)، والبلاذريُّ في «أنسابِ الأشرافِ» ١٠/ ٣٥٤، والخلَّالُ في «السُّنَّةِ» (٣٩٦).

[١٣٦]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«أَحَبُّكُمْ إِلَيْنَا - مَا لَمْ نَرَكُمْ - أَحْسَنُكُمُ اسْمًا، فَإِذَا رَأَيْنَاكُمْ فَأَحَبُّكُمْ إِلَيْنَا أَحْسَنُكُمْ خُلُقًا، فَإِذَا اخْتَبَرْنَاكُمْ فَأَحَبُّكُمْ إِلَيْنَا أَصْدَقُكُمْ حَدِيثًا وَأَعْظَمُكُمْ أَمَانَةً»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يبيِّن أحبَّ المسلمين إليه.

البيان والبلاغة: استعمل أسلوب التقسيم لبيان أحبِّ الناس إليه، فجعل ذلك على ثلاث مراتب: الأولى لمن لم يرَهم، والثانية لمن رآهم دون أن يختبرهم، والثالثة لمن رآهم واختبرهم. وهذه القِسمة حاصرة، وقد ذكر عمر رضي الله عنه هذه المراتب متدرِّجًا مِن الأبعد إلى الأقرب. وقوله: (أحبُّكم إلينا) كرَّر هذه العبارة بلفظها لتقرير معناها. وفي قوله: (فإذا اختبرناكم) إيجاز بالحذف لدلالة السياق على المحذوف، والتقدير: (فإذا رأيناكم واختبرناكم). وفي قوله: (أصدقكم حديثًا وأعظمكم أمانة) عدل مِن اشتقاق اسم التفضيل مِن (الحُسْن) إلى اشتقاقه مِن (الصدق) و(العظمة)، وذلك أنَّه رتَّب هذا التفضيل على الاختبار، ومجرَّد (الحُسن) لا يكفي بعد الاختبار، فلا بدَّ أن يكون التفضيل في أمر أخصِّ منه.

١- رواه ابنُ أبي الدُّنيا في «الصَّمتِ» (٤٨٤).

[١٣٧]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ رضي الله عنه

وَقَدْ قَالَ لَهُ رَجُلٌ: اتَّقِ اللهَّ

«لَا خَيْرَ فِيهِمْ إِنْ لَمْ يَقُولُوهَا لَنَا، وَلَا خَيْرَ فِينَا إِنْ لَمْ نَقْبَلْ»، وَأَوْشَكَ أَنْ يَرُدَّ عَلَى قَائِلِهَا(١).

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يبيِّن أهمِّيَّة نُصح الحاكم.

البيان والبلاغة: هذه العبارة الموجزة بيَّن فيها عمر رضي الله عنه دور المحكوم في نصح الحاكم، ودور الحاكم في قبول النصح، فنفى جنس الخيريَّة عن المحكوم إن ترك نصح الحاكم، ونفاها أيضًا عن الحاكم إن لم يقبل مِن المحكوم، وقوله: (إن لم يقولوها لنا) استخدم الضمير في (يقولوها) لحمل السامع على تحرِّي مرجع الضمير ومعرفة تلك الكلمة التي قالها ذلك القائل فتستقر في نفسه، وقيَّد الفعل (يقولوها) بالجارِّ والمجرور (لنا) ليشير بدلالة لام التبليغ الدَّاخلة على ضمير المتكلِّمين إلى أنَّ تلك الكلمة ينبغي أن تصل مِن القائل إلى الحاكم مباشرة لا أن تقال على الملأ، وأمَّا عند حديثه عن دور الحاكم فقد قال: (ولا خير فينا إن لم نقبل) فحذف مفعول (نقبل)

١- رواه أبو يوسفَ في «الخراجِ» ص٢٢.

ولم يقيِّده بالجارِّ والمجرور (منهم)، ليشير بذلك إلى أنَّ الحاكم ينبغي أن يقبل كلَّ نصح، لا أن يقتصر قبوله على تلك الكلمة فقط، وكذا ينبغي له أن يقبل النُّصح مِن كلِّ أحدٍ، وليس مِن رعيَّته فقط.

[١٣٨]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ رضي الله عنه

لأَبِي مَحْذُورَةَ رضي الله عنه

«أَمَا خَشِيتَ أَنْ يَنْخَرِقَ مُرَيْطَاؤُكَ[1]؟» قَالَ أَبُو مَحْذُورَةَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، قَدِمْتَ فَأَحْبَبْتُ أَنْ أُسْمِعَكُمْ أَذَانِي. فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: «إِنَّ أَرْضَكُمْ - مَعْشَرَ أَهْلِ تِهَامَةَ - حَارَّةٌ؛ فَأَبْرِدْ ثُمَّ أَبْرِدْ» مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا، «ثُمَّ أَذِّنْ، ثُمَّ ثَوِّبْ آتِكَ»[2].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: (المُرَيْطاء): الجلدة ما بين السُّرَّة والعانة. و(ثوِّب): أقم الصلاة.

مقتضى الحال: يخاطِب أبا محذورة أحد مؤذِّني النبي ﷺ حين قدم عمر مكَّةَ فسمعه يؤذِّن للظُّهر مبالغًا في رفع صوته.

البيان والبلاغة: قوله: (**أَمَا خَشِيتَ أَنْ يَنْخَرِقَ مُرِيطَاؤُكَ؟**) الاستفهام هنا فيه معنى التعجُّب والإنكار، واستعمل معه الكناية في الإنكار؛ إذ لم يقل له: (لِمَ بالغتَ في رفع صوتك؟)، وإنَّما ذكر له ما يمكن أن ينتج عن المبالغة في رفع الصوت، وهو أن ينخرق الجلدُ الذي في أسفلِ سرَّتِه، لكثرة ما يعصر بطنه ليُخرج أعلى صوته،

١- هي الجلدةُ الَّتي بينَ السُّرَّةِ والعانةِ. وهي في الأصلِ مُصغَّرَةُ مَرْطَاءَ، وهي الملساءُ الَّتي لا شعرَ عليها، وقد تُقصَر. «النِّهاية» لابنِ الأثيرِ (مرط).

٢- رواهُ عبدُ الرَّزَّاقِ في «المُصنَّفِ» (٦٨١٦)، وابنُ أبي شيبةَ في «المُصنَّفِ» (٣٣٠٣).

فأشعره عمر في هذا الإنكار بشفقته عليه، وقوله: (ينخرق) جاء بالفعل بصيغة (ينفعل) لإفادة معنى المطاوعة؛ أي مطاوعة المفعول في المعنى للفاعل، كأنَّه قال له: (أما خشيتَ أن تخرقَ مُرَيطاءَك فينخرق؟). وقوله: (**إِنَّ أَرْضَكُمْ - مَعْشَرَ أَهْلِ تِهَامَةَ - حَارَّةٌ فَأَبْرِدْ ثُمَّ أَبْرِدْ**) هنا انتقل عمر إلى معنى آخر، فبين هذه الجملة وما قبلها كمال انقطاع، ففصل بينهما ولم يعطف بالواو. وقد أمره عمر بالإبراد؛ أي: بتأخير أذانِ صلاة الظهر إلى حين تنكسر حِدَّة الشمس، وأتى عمر بجملة النداء (معشر أهل تهامة) معترضة بين اسم (إنَّ) وخبرها لتخصيص المخاطَب بالكلام، وكرَّر قوله: (أبرد) مرَّتين أو ثلاثًا للتقرير وإطالة الحدث. وقوله: (**ثمّ أَذِّنْ، ثُمَّ ثَوِّبْ آتِكَ**) أتى بالفعل (آتك) جوابًا للطلب (أبرد) بعد تلك المعطوفات ليبيِّن له إنَّ جواب الطلب يتحقَّق بعد تحقُّق تلك المعطوفات كلّها.

[١٣٩]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

لِابْنِ عَبَّاسٍ

«اعْقِلْ عَنِّي ثَلَاثًا: الْإِمَارَةُ شُورَى، وَفِي فِدَاءِ الْعَرَبِ مَكَانَ كُلِّ عَبْدٍ عَبْدٌ، وَفِي ابْنِ الْأَمَةِ عَبْدَانِ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يخاطِب ابن عبَّاس رضي الله عنهما يبيِّن له أمورًا ثلاثة.

البيان والبلاغة: بدأ كلامه بقول: (اعقل عنِّي ثلاثًا) ليحمل المخاطَب على الإصغاء ويشير إلى أهمِّيَّة ما سيذكر له، وأنَّه ينبغي أن يُعقَل ويقيَّد، وذكر عدد الأمور التي سيذكرها له ليستعد لضبطها وحفظها. وقوله: (الإمارة شورى) عبَّر بهذه الجملة المقتصرة على المسند والمسند إليه، وكأنَّه يقول له: (يكفي أن تعرف حقيقة الإمارة، ولا داعي لإطالة الكلام في بيانها). وقوله: (في فداء العرب: مكان كلِّ عبدٍ عبدٌ، وفي ابن الأمَة عبدانِ) قدَّم ذكر الجارِّ والمجرور (في فداء العرب) ليشير للمخاطَب بأنَّ ما سيذكره له بعد مقيَّد بهذا القيد، وهذان الأمران هما في الحقيقة واحد لأنَّهما في الفداء، ولكنَّه اعتبر في العدِّ كلَّ واحد منهما مستقلًا بذاته ليضبط

١- رواه عبدُ الرَّزَّاقِ في «المُصنَّفِ» (٩٧٦٠) و(١٨٥٢٧) و(١٩١٨٦)، والقاسمُ بنُ سلَّامٍ في «الأموالِ» (٣٦١).

المخاطَبُ كلَّ واحد منهما على حدة، وتنكير (عبد) في الموضع الأوَّل للإفراد، وفي الثاني لقصد عدم التعيين؛ يعني يصلح للفداء أيُّ عبد، وكذا في تنكير (عبدانِ).

[١٤٠]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ رضي الله عنه

«أَهْلُ الشُّكْرِ مَعَ مَزِيدٍ مِنَ اللَّهِ؛ فَالْتَمِسُوا الزِّيَادَةَ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ -: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٢]»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يبيِّن فضل الشاكرين ويحث على شُكر النِّعم.

البيان والبلاغة: قوله: (أهل الشكر) أضاف كلمة (أهل) إلى (الشُّكر) مشيرًا بذلك إلى أنَّ الشاكرين تجمعهم رابطة واحدة. وقوله: (مع مزيد مِن الله) استعمل الظرف (مع) ليبيِّن المعيَّة الحاصلة لأهل الشكر التي تربطهم بالجزاء المترتِّب على شكرهم، وفائدة هذه المعيَّة بيان أنَّ ذلك الجزاء لا ينفكُّ عنهم ما داموا شاكرين. وقوله: (مزيد) استعمل المصدر الميمي في التعبير عن الزيادة لأنَّ المصدر الميمي أبلغ وأقوى في أداء المعنى مِن غيره من المصادر. وفي قوله: (فالتمسوا الزيادة) هذه كناية عن طلب مداومة الشكر، وقد بيَّن مقصده مِن هذه الكناية حين ساق الآية الكريمة، وفائدة استعمال هذه الكناية شحذ الهمَّة على تنفيذ الطلب ببيان ما يترتَّب عليه، وقد عدل هنا إلى استعمال المصدر العادي بعد أن استعمل قبلُ المصدر الميمي، ومِن لطيف ذلك بيان أنَّ مَن التمس مِن الله الزيادة أعطاه الله المزيد؛ أي: أعطاه فوق طلبه.

١- رواهُ الدِّينوريُّ في «المجالسةِ وجواهرِ العلمِ» (٢٦٨٧).

[١٤١]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ رضي الله عنه

وَقَدْ سَأَلَهُ وَفْدُ أَهْلِ الْكُوفَةِ عَنْ نَهْيِهِ أَنْ يَبْنُوا بُنْيَانًا فَوْقَ الْقَدْرِ

«مَا لَا يُقَرِّبُكُمْ مِنَ السَّرَفِ، وَلَا يُخْرِجُكُمْ مِنَ الْقَصْدِ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يخاطِب أهل الكوفة يبيِّن لهم ما المأذون لهم به في البناء.

البيان والبلاغة: بيَّن لهم القدر المأذون لهم به في البنيان، واستعمل في ذلك أسلوب المقابلة بعبارة وجيزة، فقابل بين (لا يقرِّبكم مِن السَّرَف) و(لا يخرجكم مِن القصد)، ليكون المأذون به بينهما، لذا جعل الجملتين صلة للاسم الموصول (ما)، ووصف البنيان المأذون لهم به بـ(ما) الموصولة هذه بقصد الوصف بصلتها. و(أل) الداخلة على (السَّرَف) و(القصد) للعهد؛ أي: السَّرَف والقصد المعهودان في عرف الناس والشَّرع.

١- رواهُ الطَّبريُّ في «تاريخِه» ٤/ ٤٤.

[١٤٢]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ

لِقَيْسِ بْنِ مَرْوَانَ(١) وَقَدِ اشْتَكَى إِمْلَاءَ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَهْلَ الْكُوفَةِ الْمَصَاحِفَ عَنْ ظَهْرِ قَلْبِهِ

«وَيْحَكَ، وَاللهِ مَا أَعْلَمُهُ بَقِيَ مِنَ النَّاسِ أَحَدٌ هُوَ أَحَقُّ بِذَلِكَ مِنْهُ، وَسَأُحَدِّثُكَ عَنْ ذَلِكَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لَا يَزَالُ يَسْمُرُ عِنْدَ أَبِي بَكْرٍ اللَّيْلَةَ كَذَاكَ فِي الْأَمْرِ مِنْ أَمْرِ الْمُسْلِمِينَ، وَإِنَّهُ سَمَرَ عِنْدَهُ ذَاتَ لَيْلَةٍ، وَأَنَا مَعَهُ، فَخَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَخَرَجْنَا مَعَهُ، فَإِذَا رَجُلٌ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمَسْجِدِ، فَقَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَسْتَمِعُ قِرَاءَتَهُ، فَلَمَّا كِدْنَا أَنْ نَعْرِفَهُ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَقْرَأَ الْقُرْآنَ رَطْبًا كَمَا أُنْزِلَ؛ فَلْيَقْرَأْهُ عَلَى قِرَاءَةِ ابْنِ أُمِّ عَبْدٍ»**. ثُمَّ جَلَسَ الرَّجُلُ يَدْعُو، فَجَعَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَقُولُ لَهُ: **«سَلْ تُعْطَهْ، سَلْ تُعْطَهْ»**. وَاللهِ لَأَغْدُوَنَّ إِلَيْهِ فَلَأُبَشِّرَنَّهُ». قَالَ: «فَغَدَوْتُ إِلَيْهِ لِأُبَشِّرَهُ، فَوَجَدْتُ أَبَا بَكْرٍ قَدْ سَبَقَنِي إِلَيْهِ فَبَشَّرَهُ، وَلَا وَاللهِ مَا سَابَقْتُهُ إِلَى خَيْرٍ قَطُّ إِلَّا سَبَقَنِي إِلَيْهِ»(٢).

١- قيسُ بنُ مروانَ الجُعفِيُّ، خرجَ إلى الجزيرةِ أيَّامَ عليٍّ، وكانَ شريفًا كريمًا على معاويةَ، وهو أوَّلُ مَن نزلَ سُورًا مِن جُعْفَى، ولهُ يقولُ الشَّاعِرُ:

مَا زِلْتُ أَسْأَلُ عَنْ جُعْفَى وَسَيِّدِهَا ... حَتَّى دُلِلْتُ عَلَى قَيْسِ بْنِ مَرْوَانَ

«الطَّبقات الكُبرَى» ٦/ ١٤٦.

٢- رواهُ أحمدُ في «المُسنَدِ» (١٧٥)، وأبو يعلى في «المُسنَدِ» (١٩٤)، وابنُ خزيمةَ في «صحيحِه» (١١٥٦)، والطَّحاويُّ في «شرحِ مُشكِلِ الآثارِ» (٥٥٩٢)، والحاكمُ في «المُستدرَكِ» (٢٨٩٣)، والبيهقيُّ في «السُّنَنِ الكُبرَى» (٢١٢٩)، وابنُ عساكرَ في «تاريخِ دمشقَ» ٣٣/ ٩٧-٩٨.

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يردُّ على قيس بن مروان في اعتراضه على ابن مسعود ﵁ حين أملى الناسَ القرآنَ مِن حفظه.

لطائف لغوية: قوله: (**فَلَمَّا كِدْنَا أَنْ نَعْرِفَهُ**) أدخل (أن) على المضارع الواقع خبرًا لـ(كاد) وهو قليل، وورد غير مرَّة في كلام عمر ﵁، فلعلها لغة اعتادها.

البيان والبلاغة: قوله: (**وَيْحَكَ، وَاللهِ مَا أَعْلَمُهُ بَقِيَ مِنَ النَّاسِ أَحَدٌ هُوَ أَحَقُّ بِذَلِكَ مِنْهُ، وَسَأُحَدِّثُكَ عَنْ ذَلِكَ**) بدأ عمر ﵁ ردَّه على قيس بكلمة: (ويحك)، ليشعره بعِظَم ما اجترأ عليه، وقوله: (ما أعلمه) الضمير في (أعلمه) ضمير الشأن، فهو إضمار في موضع إظهار، وفائدته لفت انتباه السامع ليشغل ذهنه في البحث عن مفسِّر الضمير، فإذا سمع مفسِّره - وهو جملة (بقي مِن الناس أحد هو أحقُّ بذلك منه) - استقرَّ هذا المعنى في نفسه، وتنكير (أحد) في سياق النفي يفيد العموم، واستعمال اسم الإشارة (ذلك) في الموضع الأوَّل لبيان علوِّ شأن المشار إليه، ثمَّ أعاد استعماله لتقرير ذلك. وقوله: (**كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لَا يَزَالُ يَسْمُرُ عِنْدَ أَبِي بَكْرٍ اللَّيْلَةَ كَذَاكَ فِي الْأَمْرِ مِنْ أَمْرِ الْمُسْلِمِينَ**) استعمل (كان) للدلالة على المداومة، وأكَّد ذلك بقوله: (لا يزال). و(أل) في (الليلة) للاستغراق، ولما أفرد (الليلة) ونصبها على الظرفية أفاد أنَّ الحدث - وهو السَّمَر - يستغرق هذه الليلة، وبدلالة (كان) المتقدِّمة مع (لا يزال) أفاد أنَّ ذلك كان يحدث كلَّ ليلة. وقوله: (كذاك في الأمر مِن أمور المسلمين) شبَّه سَمَر النَّبي ﷺ مع أبي بكر ﵁ بفعل ابن مسعود ﵁، وذكر وجه الشبه وهو أنَّ إمضاء الوقت في كلٍّ يكون في أمر مِن أمور المسلمين، وإنَّما ذكر وجه الشبه ليبيِّن فضل ابن مسعود وشرف ما يصنع. وقوله: (**فَخَرَجَ رَسُولُ اللهِ**

ﷺ، **وَخَرَجْنَا مَعَهُ، فَإِذَا رَجُلٌ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمَسْجِدِ**) استعمال (إذا) الفجائيَّة إشارة إلى أنَّهم فوجئوا بذلك الرجل الذي في المسجد قائمًا وحده يصلي؛ لعظيم فعله، وتنكير (رجل) مع ما ذكر مِن عظيم صنعه يحمل المخاطَب على التلهُّف ليعرف شخص ذلك الرجل. وقوله: (**فَقَامَ رَسُولُ الله ﷺ يَسْتَمِعُ قِرَاءَتَهُ**) أشار بقوله: (فقام) إلى أنَّ النبي اهتمَّ لأمر ذلك الرجل فتركَ ما خرج لأجله مِن أجل الاستماع لقراءة ذلك الرجل. وقوله: (**فَلَمَّا كِدْنَا أَنْ نَعْرِفَهُ**) أشار بقوله هذا إلى أنَّهم لم يعرفوه ابتداءً في ظلمة الليل حتى مع استماع قراءته إلا أنَّ النبي ﷺ كان قد عرفه. وقوله: (**ثُمَّ جَلَسَ الرَّجُلُ يَدْعُو**) لم يذكر عمرُ رضي الله عنه ابنَ مسعود رضي الله عنه باسمه مع أنَّه قد عرفه، وإنَّما قال: (جلس الرجل) بإدخال (أل) التي للعهد الذكري على (رجل) ليبيِّن للمخاطَب أنَّ ذلك الرجُل الذي فوجئوا بصلاته وحده في المسجد هو نفسه الذي جلس يدعو بعدُ، وهو نفسه الذي قال فيه النبي ﷺ: (**مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَقْرَأَ الْقُرْآنَ رَطْبًا كَمَا أُنْزِلَ، فَلْيَقْرَأْهُ عَلَى قِرَاءَةِ ابْنِ أُمِّ عَبْدٍ**) فابن أمِّ عبد هو عبد الله بن مسعود رضي الله عنه . وقوله: (**وَالله لَأَغْدُوَنَّ إِلَيْهِ فَلَأُبَشِّرَنَّهُ**) هذا التأكيد بالقسم وإدخال اللام على جواب القسم والفعلَ المعطوف عليه، وكذا إدخال نون التوكيد الثقيلة على جواب القسم والفعل المعطوف عليه = كلُّ ذلك يؤكِّد فرح عمر بقول النبي ﷺ في ابن مسعود رضي الله عنه وعزمه على تبشيره به. وقوله: (**وَلا وَالله مَا سَابَقْتُهُ إِلَى خَيْرٍ قَطُّ إِلَّا سَبَقَنِي إِلَيْهِ**) زيادة (لا) في كلامه تفيد التوكيد، وتنكيرَ (خير) في سياق النفي يفيد العموم فيدخل في ذلك كل أنواع الخير، والقصر في قوله: (إلا سبقني) حقيقي تحقيقي.

[١٤٣]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

إِذَا اسْتَعْمَلَ رَجُلا، وَأَشْهَدَ عَلَيْهِ رَهْطًا مِنَ الْأَنْصَارِ وَغَيْرِهِمْ

«إِنِّي لَمْ أَسْتَعْمِلْكَ عَلَى دِمَاءِ الْمُسْلِمِينَ وَلَا عَلَى أَعْرَاضِهِمْ، وَلَكِنِّي اسْتَعْمَلْتُكَ عَلَيْهِمْ لِتَقْسِمَ بَيْنَهُمْ بِالْعَدْلِ وَتُقِيمَ فِيهِمُ الصَّلَاةَ، وَاشْتَرَطَ عَلَيْهِ أَنْ لَا يَأْكُلَ نَقِيًّا وَلَا يَلْبَسَ رَقِيقًا، وَلَا يَرْكَبَ بِرْذَوْنًا وَلَا يُغْلِقَ بَابَهُ دُونَ حَوَائِجِ النَّاسِ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يخاطِب بهذا الكلام عمَّاله حين يكلِّفهم، يبيِّن لهم واجباتهم.

البيان والبلاغة: قوله: (**إِنِّي لَمْ أَسْتَعْمِلْكَ عَلَى دِمَاءِ الْمُسْلِمِينَ وَلَا عَلَى أَعْرَاضِهِمْ**) بدأ كلامه بهذا النفي لأمر معلوم أنه مِن الواجبات على مَن استُعمل في ولاية؛ فحِفظ دماء المسلمين وأعراضهم مِن أهمِّ ما يجب عليه، فليس النفي هنا على ظاهره، وإنَّما بدأ كلامه بنفي هذه الواجبات ليسترعي استماع المخاطَب ويجلب انتباهه ويبيِّن له أنَّ الواجبات عليه لا تقتصر على هذه الأمور المعلومة. وقوله: (**وَلَكِنِّي اسْتَعْمَلْتُكَ عَلَيْهِمْ لِتَقْسِمَ بَيْنَهُمْ بِالْعَدْلِ وَتُقِيمَ فِيهِمُ الصَّلَاةَ**) دلَّ بـ(لكنَّ) على أنَّ هذا الأمر

١- رواهُ ابنُ أبي شيبةَ في «المُصنَّفِ» (٣٣٥٩١).

الذي سيذكره أهمُّ مِن سابقه، وإنَّما كان أهمَّ منه لأنَّ إقامتَهُ أصعب والتقصير فيه أكثر. وتقديم الجارِّ والمجرور (عليهم) على المفعول به (الصلاة) للرعاية والاهتمام.

[١٤٤]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«إِنَّهُ مَنْ يَعْمَلْ بِالْهَوَى وَالْمَعْصِيَةِ يَسْقُطْ حَظُّهُ وَلَا يَضُرَّ إِلَّا نَفْسَهُ، وَمَنْ يَتَّبِعِ السُّنَّةَ وَيَنْتَهِ إِلَى الشَّرَائِعِ، وَيَلْزَمِ السَّبِيلَ النَّهْجَ ابْتِغَاءَ مَا عِنْدَ اللهِ لِأَهْلِ الطَّاعَةِ، أَصَابَ أَمْرَهُ، وَظَفِرَ بِحَظِّهِ، وَذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ - عَزَّ وَجَلَّ - يَقُولُ: ﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾، وَقَدْ ظَفِرَ أَهْلُ الْأَيَّامِ وَالْقَوَادِسِ بِمَا يَلِيهِمْ، وَجَلَا أَهْلُهُ، وَأَتَاهُمْ مَنْ أَقَامَ عَلَى عَهْدِهِمْ، فَمَا رَأْيُكُمْ فِيمَنْ زَعَمَ أَنَّهُ اسْتُكْرِهَ وَحُشِرَ، وَفِيمَنْ لَمْ يَدَّعِ ذَلِكَ وَلَمْ يُقِمْ وَجَلَا، وَفِيمَنْ أَقَامَ وَلَمْ يَدَّعِ شَيْئًا وَلَمْ يَجْلُ، وَفِيمَنِ اسْتَسْلَمَ؟ فَأَجْمَعُوا عَلَى أَنَّ الْوَفَاءَ لِمَنْ أَقَامَ وَكَفَّ لَمْ يَزِدْهُ غَلَبُهُ إِلَّا خَيْرًا، وَأَنَّ مَنِ ادَّعَى فَصُدِّقَ أَوْ وَفَّى فَبِمَنْزِلَتِهِمْ، وَإِنْ كُذِّبَ نُبِذَ إِلَيْهِمْ وَأَعَادُوا صُلْحَهُمْ، وَأَنْ يُجْعَلَ أَمْرُ مَنْ جَلَا إِلَيْهِمْ، فَإِنْ شَاءُوا وَادَعُوهُمْ وَكَانُوا لَهُمْ ذِمَّةً، وَإِنْ شَاءُوا تَمُّوا عَلَى مَنْعِهِمْ مِنْ أَرْضِهِمْ وَلَمْ يُعْطُوهُمْ إِلَّا الْقِتَالَ، وَأَنْ يُخَيِّرُوا مَنْ أَقَامَ وَاسْتَسْلَمَ: الْجِزَاءَ، أَوِ الْجَلَاءَ، وَكَذَلِكَ الْفَلَّاحُ»[١].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: (جلا أهلُهُ) خرجوا من بلادهم إلى غيرها.

مقتضى الحال: قال عمر رضي الله عنه هذا الكلام بعد أن وصله كتاب مِن سعد بن أبي وقَّاص رضي الله عنه بعد فتح القادسيَّة، يطلب فيه أمره في أهل الذِّمَّة مِن عَرَب العراق الذين نقضوا عهدهم في حال ضعف المسلمين.

١- رواهُ الطَّبريُّ في «تاريخِه» ٣/ ٥٨٥.

البيان والبلاغة: قوله: (**إِنَّهُ مَنْ يَعْمَلْ بِالْهَوَى وَالْمَعْصِيَةِ يَسْقُطْ حَظُّهُ وَلا يَضُرَّ إِلا نَفْسَهُ، وَمَنْ يَتَّبِعِ السُّنَّةَ وَيَنْتَهِ إِلَى الشَّرَائِعِ، وَيَلْزَمِ السَّبِيلَ النَّهجَ ابْتِغَاءَ مَا عِنْدَ اللهِ لأَهْلِ الطَّاعَةِ، أَصَابَ أَمْرَهُ، وَظَفَرَ بِحَظِّهِ**) في افتتاحه خطبته بهذا الكلام براعة استهلال؛ إذ فيها إشعار بمضمون خُطبته، وفيها نوع تشويق حين أتى بضمير الشَّأن في: (إنَّه) ليحمل المخاطَب على تأمُّل الكلام ليعرف تفسير هذا الضمير، وقد فسَّر هذا الضمير مِن خلال أسلوب المقابلة التي قابل فيها بين: (مَن يعمل بالهوى والمعصية يسقط حظَّه ولا يضرُّ إلا نفسه) و(مَن يتبع السُّنَّة وينتهِ إلى الشرائع ويلزم السبيل النهج ابتغاء ما عند الله أصاب أمره وظفر بحظِّه)، واستعمل أسلوب الشرط في الجملتين إشارةً إلى تحقُّق الجواب عند تحقُّق الشرط، إلا أنَّه عدل عن الإتيان بجواب الشرط في الجملة الثانية فعلًا مضارعًا - كما فعل في الأولى، وهو قوله: (يسقط حظُّه ..) - إلى الإتيان به في فعلًا ماضيًا - وهو قوله: (أصاب أمره) -، وفي ذلك إشارة إلى أنَّ هذا الجواب متحقِّق لا محالة عند حصول شرطه، أمَّا الأولى فقد يعفو الله تعالى عن مَن اتَّبع هواه ويهديه فلا يتحقَّق معه جواب الشرط، وهذا مِن رحمة الله تعالى بعباده. وفي قوله: (يسقط حظُّه) عبَّر بالسقوط إشارة إلى أنَّ حظَّ الإنسان ونصيبه يكون في علوٍّ والمعصية تسقطه وتطيح به، وهذا التعبير يخوِّف مَن يريد الإقدام على المعصية، وأكَّد هذا المعنى حين قابله - في حديثه عن مَن اتَّبع السُّنة - بقوله: (ظفر بحظِّه) أي ظفر بنصيبه في مكانه المرتفع العالي ولم يسقط فيضيع منه. والقصر في: (لا يضرُّ إلا نفسه) حقيقي تحقيقي. وقوله: (يتَّبع السُّنة وينته إلى الشرائع) شبَّه السُّنة -على سبيل الاستعارة - بطريقٍ مَن اتَّبعها فإنَّها توصله إلى شرع الله تعالى الذي ارتضاه لعباده. وقوله: (**وَذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ:** ﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًاۗ وَلَا يَظۡلِمُ

رَبُّكَ أَحَدًا () استعمل اسم الإشارة (ذلك) ليجمع في ذهن المخاطَب المعنى السابق كله فتستبين له دلالة الآية عليه.

وقوله: (**وَقَدْ ظَفَرَ أَهْلُ الأَيَّامِ وَالْقَوَادِسِ بِمَا يَلِيهِمْ، وَجَلا أَهْلُهُ**) أكَّد ثبوت نصر المسلمين في القادسيَّة بـ(قد) ومجيء الفعل بصيغة الماضي. وفي إضافة (أهل) إلى (الأيام والقوادس) تشريف لهم ورفعة لشأنهم. وفي قوله: (بما يليهم) استعمل (ما) الموصول التي تفيد العموم لتشمل كلَّ ما يلي المنطقة التي ظفر بها المسلمون في القادسية. وقوله: (وجلا أهله) ذكَّر الضمير في (أهله) مراعاة للفظ (ما) في قوله: (ما يليهم). وقوله: (**وَأَتَاهُمْ مَنْ أَقَامَ عَلَى عَهْدِهِمْ، فَمَا رَأْيُكُمْ فِيمَنْ زَعَمَ أَنَّهُ اسْتُكْرِهَ وَحُشِرَ، وَفِيمَنْ لَمْ يَدَّعِ ذَلِكَ وَلَمْ يُقِمْ وَجَلا، وفيمن أَقَامَ ولَمْ يَدَّعِ شَيْئاً ولَمْ يجْلُ، وفيمَنِ استَسْلَمَ**) هنا أتى عمر ﵁ على مقصده، وهو أخذ المشورة فيمن أقام في أرض القادسية بعد فتحها وأعطى العهد، ثمَّ خالف في بعض الأمر أو زعم ما ليس بصحيح، فأشار عمر ﵁ إلى طلب المشورة بقوله: (فما رأيكم فيمن...) ثم استعمل أسلوب التقسيم لبيان أحوال مَن أعطى العهد، ليأخذ رأي مَن استشارهم في كلِّ قِسم على حدة، فأوَّل أقسام مَن أعطى العهد: (مَن زعم أنَّه استُكره)، والثاني: (مَن لم يدَّعِ ذلك ولم يُقِم وجَلا)، والثالث: (مَن أقام ولم يدَّعِ شيئًا ولم يجلُ)، والرابع: (مَن استسلم)، بدأ بالأشد متدرِّجًا إلى الأخفِّ.

[١٤٥]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

لِلْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حِينَ بَعَثَهُ إِلَى الْكُوفَةِ

«يَا مُغِيرَةُ، لِيَأْمَنْكَ الْأَبْرَارُ، وَلْيَخَفْكَ الْفُجَّارُ»[1].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يخاطِب المغيرة بن شعبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حين بعثه إلى الكوفة واليًا عليها.

البيان والبلاغة: بدأ كلامه بنداء المخاطَب ليلفت انتباهه ويسترعي سمعه، ثمَّ بيَّن له بأسلوب المقابلة كيف يعامل الناس، فقابل بين: (ليأمَنْك الأبرارُ) و(ليخَفْك الفجَّارُ)، وتضمَّنت هذه المقابلة تقسيم الناس إلى: (أبرار) و(فجَّار)، فيعامل كل قسم بحسبه.

١- رواهُ الطَّبريُّ في «تاريخِه» ٤/ ١٦٥، وابنُ الأثيرِ في «الكاملِ في التَّاريخِ» ٢/ ٤١٤.

[١٤٦]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

وَقَدْ قَدِمَ عَلَيْهِ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ بِمَالٍ مِنْ مِصْرَ

«مَا جَبَيْتَ إِلَّا هَذَا؟» قَالَ عَمْرٌو: أَتَسْتَقِلُّ هَذَا؟ قَالَ: «إِنَّ الْأَرْضَ حَفَلَتْ حَفْلًا لَمْ تَحْفِلْ مِثْلَهُ، فَحَلَبْتَ وَبَقِيَتْ» فَقَالَ عَمْرٌو: صَدَقْتَ، وَأَنَا أُعْطِيكَ عَهْدًا أَلَّا أَخُونَكَ، وَأَعْطِنِي مِثْلَهُ أَلَّا تُصَدِّقَ عَلَيَّ. فَقَالَ عُمَرُ: «أَمْسِكْ عَلَيْكَ، إِنِّي لَا آمَنُ إِنْ فَعَلْتُ أَنْ تَهُمَّ، وَإِنْ هَمَمْتَ حَنِثْتَ، وَايْمِ اللهِ لَأُكَمِّمَنَّ أَفْوَاهَكُمْ عَنْ هَذَا الْمَالِ كَمَا ظَلَفْتُ نَفْسِي عَنْهُ، فَلَوْ قَدْ مُتُّ لَتُكَافِحُنَّ عَلَيْهِ بِالسُّيُوفِ»[1].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: (حَفَلتْ): جمعتْ الماء، و(ظَلَفْتُ نفسي): كففتُها ومنعتُها.

مقتضى الحال: يخاطب عمرو بن العاص رضي الله عنه واليه على مصر.

البيان والبلاغة: قوله: (**مَا جَبَيْتَ إِلا هَذَا؟**) هذا الاستفهام للتعجُّب، وحذف أداة الاستفهام استغناء بنبر الصوت، واستعمل اسم الإشارة (هذا) لتقليل شأن المشار إليه، والقصر هنا حقيقي تحقيقي. وقوله: (**إِنَّ الأَرْضَ حَفَلَتْ حَفْلًا لَمْ تَحْفَلْ مِثْلَهُ فَحَلَبْتَ وَبَقِيتَ**) استعمل أسلوب الكناية في قوله: (حفلتْ حفلًا) للدلالة على كثرة المطر وما ينتج عنه مِن زرع وثمار وخير، وبالغ في إثبات ذلك حين قال: (لم

١- رواهُ البَلاذُرِيُّ في «أنسابِ الأشرافِ» ١٠/ ٣٧٩.

تحفل مثله)، وقوله: (فحلبتْ وبقيتْ) شبَّه الأرض بالناقة - على سبيل الاستعارة - حين يحفل اللبن في ضرعها ويجتمع ثم تُحلب ويبقى ضرعها ممتلئًا لغزارة اللبن فيه. وفي قوله: (فحلبتْ وبقيتْ) إيجاز بالحذف لعِلم المخاطَب بالمحذوف، والتقدير: (فحلبتْ لبنها وبقيتْ ممتلئة لبنًا). وقوله: (**أَمْسِكْ عَلَيْكَ، إِنِّي لا آمَنُ إِنْ فَعَلْتُ أَنْ تَهِمَّ، وَإِنْ هَمَمْتَ حَنَثْتَ، وَايْمُ اللهِ لأُكَمِّمَنَّ أَفْوَاهَكُمْ عَنْ هَذَا الْمَالِ كَمَا ظَلَفْتُ نَفْسِي عَنْهُ، فَلَوْ قَدْ مُتُّ لَتُكَافِحُنَّ عَلَيْهِ بِالسُّيُوفِ**) حذف مفعول (أمسك) ليلفِتَ انتباه المخاطَب، والتقدير: (أمسك عليك نفسك)، وحذف مفعول (فعلتُ) اختصارًا لسبق ذكره، وحذف متعلِّق (تهمَّ) لكراهة ذكره، والتقدير: (أن تهمَّ بالأخذ مِن المال لنفسك)، وفي قوله: (وإن هممتَ حنثتَ) أتى بفعل الشرط وجوابه فعلين ماضيين إشارة إلى تحقُّق حصولهما. وقوله: (لأكمِّمَنَّ أفواهكم عن هذا المال) عبَّر عن منعهم مِن أخذ المال بتكميم الأفواه لأنَّ أكل المال هو أكثر وجوه الانتفاع به، وقوله: (كما ظلفتُ نفسي) هنا عبَّر عن المنع بالظَّلْف لما فيه مِن معنى الشدَّة؛ ليشير إلى أنَّه لا يتهاون مع نفسه بل ربَّما يتشدَّد معها أكثر ممَّا يتشدَّد مع غيره. وقوله: (فلو قد متُّ) أدخل (قد) على الفعل (متُّ) ليشير إلى أنَّ الأمر محقَّق حصولُهُ لا محالة. وقوله: (لتكافحنَّ عليه بالسيوف) إشارة إلى ما يحصل مِن شِدَّة التنازع على المال.

[١٤٧]

وَمِنْ كَلَام لَهُ

لَمَّا أَتَاهُ فَتْحُ الْقَادِسِيَّةِ، بَعْدَ أَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْفَتْحِ

«إِنِّي حَرِيصٌ عَلَى أَلَّا أَدَعَ حَاجَةً إِلَّا سَدَدْتُهَا مَا اتَّسَعَ بَعْضُنَا لِبَعْضٍ، فَإِذَا عَجَزَ ذَلِكَ عَنَّا تَأَسَّيْنَا فِي عَيْشِنَا حَتَّى نَسْتَوِيَ فِي الْكَفَافِ، وَلَوَدِدْتُ أَنَّكُمْ عَلِمْتُمْ مِنْ نَفْسِي مِثْلَ الَّذِي وَقَعَ فِيهَا لَكُمْ، وَلَسْتُ مُعْلِمَكُمْ إِلَّا بِالْعَمَلِ. إِنِّي - وَاللَّهِ - مَا أَنَا بِمَلِكٍ فَأَسْتَعْبِدَكُمْ، وَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُ اللهِ عَرَضَ عَلَيَّ الْأَمَانَةَ، فَإِنْ أَبَيْتُهَا وَرَدَدْتُهَا عَلَيْكُمْ، وَاتَّبَعْتُكُمْ حَتَّى تَشْبَعُوا فِي بُيُوتِكُمْ وَتَرْوَوْا، سَعِدْتُ. وَإِنْ أَنَا حَمَلْتُهَا، وَاسْتَتْبَعْتُهَا إِلَى بَيْتِي، شَقِيتُ، فَفَرِحْتُ قَلِيلًا وَحَزِنْتُ طَوِيلًا، وَبَقِيتُ لَا أُقَالُ وَلَا أُرَدُّ فَأُسْتَعْتَبَ»[1].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يخاطِب الناس بعد فتح القادسية.

البيان والبلاغة: قوله: (**إِنِّي حَرِيصٌ عَلى أَلا أَدَعَ حَاجَةً إِلا سَدَدْتُهَا مَا اتَّسَعَ بَعْضُنَا لِبَعْضٍ، فَإِذَا عَجَزَ ذَلِكَ عَنَّا تَآسَيْنَا فِي عَيْشِنَا حَتَّى نَسْتَوِيَ فِي الْكَفَافِ**) تنكير (حاجة) للإفراد، والقصر في (إلا سددتها) حقيقي تحقيقي. وقوله: (اتَّسع بعضنا لبعض) كناية عن التوافق بينهم والألفة واحتمال بعضهم بعضًا، وقوله: (فإذا عجز ذلك عنَّا) قلب الإسناد؛ إذ مقتضى الكلام أن يقول: (فإذا عجزنا عن ذلك) ولكنَّه لم

١- رواهُ الطَّبريُّ في «تاريخِه» ٣/ ٥٨٣، وابنُ كثيرٍ في «البدايةِ والنِّهايةِ» ٩/ ٦٣٦.

يسند العجز لهم كراهة له وتفاؤلًا بعدم وقوعه. وقوله: (**وَلَوَدِدْتُ أَنَّكُمْ عَلِمْتُمْ من نَفْسِي مِثْلَ الَّذِي وَقَعَ فِيهَا لَكُمْ**) أكَّدَ كلامه باللام والقسَمِ الذي دلَّتْ عليهِ و(أنَّ)؛ لتأكيد المعنى في نفسِ السامعِ والإشارةِ إلى حرصِه على وقوع طلبِهِ. وقوله: (مِثْلَ الَّذِي وَقَعَ فِيهَا لَكُمْ) أضاف (مثل) إلى الاسم الموصول (الذي) ليكسبه المعنى المتضمَّن في جملة صلة الموصول. وقوله: (**وَلَسْتُ مُعْلِمَكُمْ إِلا بِالْعَمَلِ**) استعمل اسم الفاعل (مُعْلِمَكُمْ) للدلالة على ثبوت الحدث، فلمَّا أدخل عليه (ليس) دلَّ ذلك على ثبوت النفي، لذا كان القصر حقيقيًّا تحقيقيًّا. وقوله: (**إِنِّي وَالله مَا أَنَا بِمَلِكٍ فَأَسْتَعْبِدَكُمْ، وَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُ الله عَرَضَ عَلَيَّ الْأَمَانَةَ، فَإِنْ أَبَيْتُهَا وَرَدَدْتُهَا عَلَيْكُمْ وَاتَّبَعْتُكُمْ حَتَّى تَشْبَعُوا فِي بُيُوتِكُمْ، وَتُرْوَوْا، سَعِدْتُ، وَإِنْ أَنَا حملتها واستتبعتها إِلَى بَيْتِي شَقِيتُ، فَفَرِحْتُ قَلِيلًا، وَحَزِنْتُ طَوِيلًا، وَبَقِيتُ لا أُقَالُ وَلا أُرَدُّ فَأُسْتَعْتَبُ**) هنا بدأ بمعنى جديد، فبين هذا الكلام وما قبل كمال انقطاع، لذا فصل ولم يعطف بالواو. وقوله: (إنِّي – والله – ما أنا بمَلِك) أكَّد الكلام بـ(إنَّ) والقَسَم وأكَّد النفي بـ(ما) بإدخال الباء على خبرها. وقوله: (إنَّما أنا عبد الله) القصر هنا حقيقي تحقيق، وقد وصف المقصور عليه بقوله: (عَرَضَ عليَّ الأمانةَ) ليقيِّد القصر به. وقوله: (الأمانة) كنَّى بها عن الخلافة وولاية أمور المسلمين لبيان حقيقتها. ثمَّ استعمل أسلوب المقابلة ليبيِّن أنَّ حاله مع الأمانة تحتمل أحد أمرين، فقابل بين: (إن أنا أبيتها ورددتها عليكم واتَّبعتكم حتَّى تشبعوا في بيوتكم وتُرووا سعدتُ) و(إن أنا حملتها واستتبعتها إلى بيتي شقيتُ) وبدأ بذكر الاحتمال الأوَّل للرعاية والاهتمام. ثمَّ حين وضَّح قوله: (شقيتُ) استعمل المقابلة مرَّة أخرى، فقابل بين: (ففرحتُ

قليلًا) و(حزنتُ طويلًا) وكان مقتضى السياق أن يقابل (قليلًا) بـ(كثيرًا) لكنَّه عدل إلى (طويلًا) إشارة إلى استمرار الحزن. وقوله: (فبقيت لا أُقال ولا أُرَدُّ فأُستعتَب) بنى هذه الأفعال الثلاثة للمفعول تأكيدًا لعدم وجود فاعل يقوم بها.

[١٤٨]
وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«لَوْلَا أَنْ أَسِيرَ فِي سَبِيلِ اللهِ، أَوْ أَضَعَ جَنْبِي للهِ فِي التُّرَابِ، أَوْ أُجَالِسَ قَوْمًا يَلْتَقِطُونَ طَيِّبَ الْكَلَامِ كَمَا يُلْتَقَطُ طَيِّبُ التَّمْرِ؛ لَأَحْبَبْتُ أَنْ أَكُونَ قَدْ لَحِقْتُ بِاللهِ»[1].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يذكر الأمر الذي يمنعه مِن الرغبة في الموت.

البيان والبلاغة: استخدم (لو لا) الامتناعية لبيان ما يمنعه مِن طلب الموت؛ ليشير إلى أنَّ الرَّغبة عنده حاصلة في طلب الموت ولم يمنعه مِن ذلك إلا وجود الأمور التي سيذكرها، وأكَّد هذه الرغبة بقوله في جواب (لولا): (لأحببتُ ...). وقوله: (أسير في سبيل الله) كناية عن السعي في كلِّ ما يرضي الله تعالى، وقوله: (أضع جنبي لله في التراب) كناية عن التواضع لله تعالى، وقوله: (أجالس قومًا يلتقطون طيِّب الكلام) كناية عن شهود حلقات العلم والذكر والقرآن خاصَّة؛ إذ القرآن هو أطيب الكلام، وقوله: (لحقتُ بالله) كناية عن طلب الموت. وقد استعمل عمر ﷺ هذه الكناية القريبة الواضحة في المواضع الأربعة ليحمل نفس المخاطَب على تأمُّل معاني ومقاصد هذه الكنايات فيستقر فيها معانيها. وتشبيه التقاط طيِّب الكلام بالتقاط طيِّب التمر لأنَّ أصحاب الفطر السليمة تحرص على كلٍّ.

١- رواهُ ابنُ أبي شيبةَ في «المُصنَّف» (١٩٧٦٥)، والبَلاذُرِيُّ في «أنسابِ الأشرافِ» ١٠/ ٣٤٢.

[١٤٩]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

وَقَدْ قَرَأَ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾[الجن: ١٦]، «حَيْثُ كَانَ الْمَاءُ كَانَ الْمَالُ، وَحَيْثُ كَانَ الْمَالُ كَانَتِ الْفِتْنَةُ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يبيِّن كيف يكون الماء استدراجًا للفتنة، كما في الآية الكريمة.

لطائف لغوية: (كان) الواردة في هذا النصِّ في المواضع الأربعة تامَّة.

البيان والبلاغة: استخدم أسلوب الشرط بـ(حيث) المكانية لبيان أنَّ المكان الذي يكون فيه الماء يكون فيه الخير والمال، ثمَّ استخدم الأسلوب نفسه ليبيِّن أنَّ المكان الذي يكون فيه المال تحدثُ فيه الفتنة. وبين (الماء) و(المال) جناس ناقص.

١- رواهُ ابنُ أبي الدُّنيا في «إصلاحِ المالِ» (٤٠).

[١٥٠]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«اللَّهُمَّ لَا يُدْرِكْنِي أَبْنَاءُ الْهَمَذَانِيِّين وَالْإِصْطَخْرِيِّينَ الَّذِينَ قُلُوبُهُمْ قُلُوبُ الْعَجَمِ، وَأَلْسِنَتُهُمْ أَلْسِنَةُ الْعَرَبِ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يدعو الله تعالى يطلب منه أن يقيه شرَّ أبناء الفُرس.

البيان والبلاغة: قوله: (**اللَّهُمَّ لَا يُدْرِكْنِي أَبْنَاءُ الْهَمَذَانِيِّينِ وَالْإِصْطَخْرِيِّينَ**) أدخل (لا) الناهية على الفعل (يدركني) المسند إلى (أبناء) وليس هذا النهي على ظاهره، وإنَّما يطلب مِن الله تعالى أن يَحول دون أن يُدركوه بمكرهم وشرِّهم، وابتداؤه الكلام بنداء الله تعالى فيه إشارة إلى ذلك. وجاء في روايةٍ (**اللهمَّ لا تُدركنِي أبناء الهمذانيات والإصطخريات**) أضافهم إلى أمهاتهم ولم يضفهم إلى آبائهم؛ تحقيرًا لهم وتنبيهًا إلى الأمر الذي خشيه منهم وهو المكر الذي يُعرف به النساء، وكذا أنَّث الفعل (تدركني) لهذا المعنى.

١- رواهُ ابنُ كثيرٍ في «مُسنَدِ الفاروقِ» ٢/ ٦٢٥، وعزاهُ للإسماعيليِّ.

[٣٠١]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

لسَعِيدِ بْنِ الْعَاصِ[١]

«إِنِّي أَرَاكَ كَأَنَّ فِي نَفْسِكَ شَيْئًا، أَرَاكَ تَظُنُّ أَنِّي قَتَلْتُ أَبَاكَ، إِنِّي لَوْ قَتَلْتُهُ لَمْ أَعْتَذِرْ إِلَيْكَ مِنْ قَتْلِهِ، وَلَكِنِّي قَتَلْتُ خَالِيَ الْعَاصَ بْنَ هِشَامِ بْنِ الْمُغِيرَةِ[٢]، فَأَمَّا أَبُوكَ فَإِنِّي مَرَرْتُ بِهِ وَهُوَ يَبْحَثُ بَحْثَ الثَّوْرِ بِرَوْقِهِ[٣]، فَحِدْتُ عَنْهُ[٤]، وَقَصَدَ لَهُ ابْنُ عَمِّهِ عَلِيٌّ فَقَتَلَهُ»[٥].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: قوله: (**يبحثُ بحْثَ الثَّور بِرَوْقِه**): قال في المصباح المنير في غريب الشرح الكبير: «بَحَثَ عن الأمر بحثًا، مِن باب نفع: استقصى، وبَحَثَ في الأرض: حفرها، وفي التنزيل: ﴿**فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ**﴾ [المائدة: ٣١]». وفي غريب الحديث للخطابي: «كالثَّور يَحمي أنفه برَوْقِه، معناه: يَذُبُّ عن

١- سعيدُ بنُ العاصِ بنِ أبي أُحَيْحَةَ الأُمَوِيُّ، قُتِلَ أبوهُ يومَ بدرٍ مشركًا، وخلفَ سعيدًا طفلًا. وكان أميرًا، شريفًا، جوادًا، مُمدَّحًا، حليمًا، وَقُورًا، ذا حزمٍ وعقلٍ، يصلحُ للخلافةِ. ولي أمرَ الكوفةِ لعثمانَ بنِ عفَّانَ، وغزا طبرستانَ فافتتحها، وكان يومَ الدَّارِ معَ الْمُقاتِلةِ يذبُّ عن عثمانَ. وقدِ اعتزلَ الفتنةَ، فأحسنَ، ولم يقاتلْ معَ معاويةَ. «سير أعلام النُّبلاء» ٣/ ٤٤٤-٤٤٥.

٢- وذلك أنَّ أبا لهبٍ وجَّه العاصَ بنَ هشامٍ المخزوميَّ مكانَه، وكانَ قد لاعبه على إمرةٍ مطاعةٍ، فقمرَه، فبعثَه إلى بدرٍ بديلًا منهُ، فقتَله عمرُ بنُ الخطَّابِ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ -. «أنساب الأشراف» ٤/ ٣٠٣.

٣- الرَّوْقُ: القَرْنُ. انظر: «النِّهاية» لابنِ الأثيرِ (روق).

٤- فائدة: قال الحافظُ ابنُ كثيرٍ في «مُسنَدِ الفاروقِ» ٢/ ٤٦٤: (فأمَّا ما يذكرُه بعضُ مَن لا يَعلَمُ مِن أنَّ عمرَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - قتلَ أباهُ - أي الخطَّابَ - يومَ بدرٍ؛ فغلطٌ، ولم يكن أبوه حيًّا يومئذٍ، بل لم يحضرْ بدرًا معَ المشركينَ أحدٌ مِن بني عديٍّ بإجماعِ أمَّهاتِ المغازي).

٥- رواهُ ابنُ هشامٍ في «السِّيرةِ النَّبويَّةِ» ٢/ ٢٠٢.

نَفْسه بقَرْنِه، والرَّوْق: القَرْن، وقال الشاعر:

فظَلَّ يعجم أعلى الرَّوْق منقبضًا في حالِك اللَّون صِدْق غَير ذي أوَدِ».

مقتضى الحال: ورد في الروض الأنف للسهيلي مناسبة هذا النَّص: «بينما عمر بن الخطاب ﵁ جالس في المسجد - وعمر يومئذ أمير المؤمنين - إذ مرَّ به سعيد بن العاص ﵁، فسلَّم عليه، فقال له عمر: ...» هذا النَّص.

لطائف لغوية: ورد في النَّص قوله: (**إنِّي أراك كأنَّ في نفسِك شيئًا**)، والذي يشتهر عن (**كأنَّ**) وهي إحدى أخوات (**إنَّ**) أنها للتشبيه، وإلى هذا ذهب بعض العلماء ولم يجعلوا لها معنى غيره، وما خرج عن معنى التشبيه أوَّلوه بمعناه. والذين جعلوها لغير التشبيه جعلوا لها معاني أخرى، ننقلها بإيجاز من كلام المرادي في الجَنى الداني في حروف المعاني: «وجملة معاني (كأنَّ) أربعة معانٍ: الأوَّل: التَّشبيه، ولم يثبت لها أكثر البصريين غيره. الثاني: التحقيق. ذهب الكوفيون، والزجاجي إلى أنها قد تكون للتحقيق دون تشبيه، وجعلوا منه قول عمر بن أبي ربيعة:

كأنَّني حين أُمسي لا تكلمني ذو بغية، يشتهي ما ليس موجودا

الثالث: أن تكون للشَّك، بمنزلة ظننت. ذهب إلى ذلك الكوفيون، والزجاجي، قالوا: إن كان خبرها اسما جامدا كانت للتشبيه، وإن كان مشتقًّا كانت للشَّك، بمنزلة ظننت. وإلى هذا ذهب ابن الطراوة، وابن السيد. قال ابن السيد: إذا كان خبرها فعلا أو جملة أو صفة = فهي للظَّن والحسبان، نحو: كأنَّ زيدًا قام، وكأن زيدًا أبوه قائم، وكأن زيدًا قائم.

الرابع: التقريب. هذا مذهب الكوفيين؛ ذهبوا إلى أنَّ (كأنَّ) تكون للتقريب،

وذلك في نحو: كأنَّك بالشتاء مقبل، وكأنَّك بالفَرَج آتٍ، وقول الحسن البصري: (كأنَّك بالدنيا لم تكن، وكأنَّك بالآخرة لم تزل)، والمعنى على تقريب إقبال الشتاء، وإتيان الفَرَج، وزوال الدنيا، ووجود الآخرة».

البيان والبلاغة: افتتح عمر ﷺ خطابه مخاطبا سعيد بن العاص ﷺ بقوله: (**إني أراك كأنَّ في نفسِك شيئًا**)، فالجملة مؤكَّدة بـ (**إنَّ**) الثقيلة التي تفيد التوكيد المنافي للشَّك والمزيل للظنون، فهو يؤكد على ما يقول؛ لوثوقه بما عنده من العِلم، وجاء هذا التأكيد متناسقًا مع كلمة (**أراك**) التي هي من الرأي، وهو العِلم الذي ينافي الشَّك؛ فمعنى العبارة: (علمي مؤكَّد ...). وهذا التناسب بين الكلمتين الأوليين قد يعكِّره ما في الكلمة الثالثة من الشَّك؛ فإنَّ (**كأنَّ**) كما سبق من كلام المرادي تفيد الشَّك - عند بعضهم -، ولو أخذنا بهذا الرأي فيكون مجيء الشَّك مع هذين التوكيدين؛ لاستبقاء شيء من العذر لسعيد حيث يدع له سعة من القول لينفي عنه ما اتهمه به عمر ﷺ ، فكأنه يقول له: (أنت على سعة من قبول اللوم الموجَّه لك أو نفيه). وينتفي الإيراد على ما سبق بجعل (**كأنَّ**) للتشبيه - على رأي بعضهم -، فيكون معنى الجملة: (إني أراك وحالك يشبه حال الذي في نفسه شيء)؛ ليكون في الجملة تشبيه مع حذف المشبَّه به. وقوله: (**شيئًا**) نكرة أفادت العموم؛ فيكون هذا الشيء الذي في نفس سعيدٍ ﷺ قابلا للتخمين؛ هل في نفسه حزن، أم غضب، أم ماذا؟ ولكن هذا التخمين لا يطول حتى يجد تفسيرا، وهو قوله: (**أراك تظن أني قتلت أباك**)، فانكشف الإبهام في كلمة (**شيئًا**) بهذه الجملة وخُصص بها؛ حيث هو غضب سعيد من عمر ﷺ لظنه أنه قاتل أبيه. وقوله: (**أراك**) كرَّرها مرة أخرى، وهذا التكرار فائدته التنويه على أهمِّية المكرَّر؛ ليدل على أنَّ عمر ﷺ مهتم بما يلج

في نفس سعيد. وجاءت هذه الجملة مفصولة عن سابقتها ولم تتصل بها بشيء من حروف الربط؛ ليؤسِّس لجملة جديدة، وفائدة هذا التأسيس التأكيد على المعنى الذي تتضمنه هذه الجملة. وفي هذه الجملة عاد إلى الظن مرة أخرى بقوله: (**تظن أني قتلت أباك**)، ولكن قد يكون الظن - هنا - بمعنى العِلم والاعتقاد؛ حيث (ظنَّ) من الأضداد، وعلى الحالتين فالظن هذه المرَّة من سعيد لا من عمر، فيكون المعنى: (أظنك تظن أني ...). وهنا يفتح عمر ﵁ قضية عظيمة، وهي أنَّ رجُلا يواجه آخر يظنُّ أنه قتل أباه من قبل، ولابد أنَّ سامع الحوار بين الرجلين يترقب ما يكون بعد ذلك. ثم يستأنف بجملة جديدة بينها وبين التي تليها فصل، تستقل بمعنى جديد مرتبط بما سبقه، وهو قوله: (**إني لو قتلته لم أعتذر إليك من قتله**)، ولكن هل سيعتذر عمر ﵁ لسعيد إن كان قتل أباه؟! أم يطلب منه تبرئته، ويؤكد له على أنه ليس مَن قتله ليطيب خاطره؟! ليس هذا ولا ذاك، بل إنه يبرِّئ نفسه من قتل العاص الأموي لا معتذرًا ولا متأسفًا، وينبئه بقتل العاص المخزومي، وهو خال عمر، وهو أعز على قلبه من أبي سعيد؛ ذلك أنَّ عمر ﵁ قتل خاله العاص ببدر، فكأنه يقول له لا تهتم لقتل أبيك، كما أنني لا أهتم لقتل خالي، وهذه هي مزية عمر عن الناس أنه لا تأخذه في الله لومة لائم، فهو يقول له: (**ولكني قتلت خالي العاص بن هشام بن المغيرة**)، فكأنه يقول له: (لو كنت قتلت أباك فلن آسى على قتله، وأنت فلا تأسَ على قتله، لأنني لم آسَ على قتل خالي). وهذا المعنى يشعر به الاستدراك الذي وقع في كلمة (**لكنَّ**) التي تفيد الاستدراك، فهو يستدرك على سعيد ظنه وفهمه بتخطئته ويطالبه بتصحيح علمه. وإيراد عمر ﵁ لاسم خاله كاملا، ليس لرفع الإيهام عنه فلو كان قال: (خالي العاص) لكفى؛ لشهرة خاله، وشهرة عمر، فالرجل العَلم بين الناس لا يخفى عليهم حاله، ولا مَن هو عمه أو

خاله، هذا وإنَّ العاص بن هشام كان من سادات مخزوم، ولكنه ذكر اسمه تامًّا على طريقة العرب في حال فخرها بآبائها. وكأنَّ عمر ﷺ يريد إعلامه بأنَّ هذا الذي ذكرتُ لك آباءه وأجداده - وهم مَن علمتَ من السيادة والرياسة، ومع هذه السيادة فهو خالي - فقد مددت يدي إليه بالقتل، فقتل أبيك - يا سعيد - عندي أهون. وفيما سبق من النَّص تكررت كلمة (إني) ثلاث مرات، مرَّتين بكسر الهمزة، ومرَّة بفتحها، وهذا شائع في كلام عمر؛ حيث هو من المكثرين للتوكيد. وفي جملة (**أراك كأن في نفسك**) تكررت الكاف ثلاث مرات فأعطت لحنًا جميلا. وورد الفعل (**قتل**) ومشتقاته ثلاثًا، ورابعة تأتي فيما بعد، وهذا التكرار يشبه الذي حصل لكلمة ﴿ٱلنَّاسِ ﴾ في سورة النَّاس؛ حيث إنَّه لما كان الحديث جارٍ عن قتل رجُل تكررت الكلمة؛ لتستوفي المعنى في بيان مَن هو القاتل. وفي قوله: (**أراك**) وقوله: (**أباك**) جناس ناقص وسجع. وقوله: (**فأمَّا أبوك فإني مررت به يبحث بحث الثور برَوقه**): في هذه الجملة يبيِّن عمر ﷺ لسعيد الحال التي قُتل بها أبوه مصوِّرًا له الحالة بتشبيه أبيه بالثور في حال بحثه بقرنه، ونوع هذا التشبيه هو التشبيه التمثيلي؛ حيث يصوِّر لنا مشهدًا كاملا؛ حيث الشخوص والزمن والقصة، وذلك أدعى لاستيعاب الحال وتصوره تصورا كاملا. والظاهر أنَّ المراد بالبحث في قول عمر ﷺ ما بينته غير رواية من أنَّ البحث هو الحفرُ في الأرضِ كناية عن الإصابة والسقوط في الأرض، فيكون حاله حال الثور الصريع في الأرض، وقد جاء في الروض الأنف للسهيلي قال: «زعموا أن عمر قال: رأيته يبحث التراب كأنه ثور». وفي قوله: (**فحدتُ عنه**): بيان أنَّ الحال على عكس ما كان يظنُّ سعيد، وهو عزوف عمر عن قتله، وإنما قاتِله - كما في النص - هو عِليٌّ ﷺ ، وهذا قوله: (**وقصد له ابن عمِّه عليٌّ فقتله**). وفي قوله: (**حدتُ**) وقوله: (**قصد**) طباق.

[٣٠٢]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«عَلَيْكُمْ بِالْجَمَالِ وَاسْتِصْلَاحِ الْمَالِ، وَإِيَّاكُمْ وَقَوْلَ أَحَدِكُمْ: مَا أُبَالِي»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: ليس في النَّص ما يبين حال ولا زمان ولا مكان هذا القول.

لطائف لغوية: قوله: (**عليكم**)، و(**إيَّاكم**): الأوَّل اسم فعل أمر سبق الحديث عنه في النَّص رقم أربعة وعشرين ومئتين، والثَّاني أسلوب تحذير سبق الحديث عنه في النَّص رقم واحد ومئتين، فليراجعهما المستزيد.

البيان والبلاغة: افتتح عمر رضي الله عنه خطابه بمعنى صارم وقول حازم، باسم فعل الأمر (**عليكم**)، والأمر في اللغة طلب يقتضي التنفيذ، وكونه من خليفة ذي سلطان يجعل الطلب أقوى، وكونه من رجُل كعمر رضي الله عنه من حيث قوَّته في دين الله وكون طاعته مرضاة لله، وكونه رجلا ذا قوة ومهابة وشدَّة = كل ذلك كافٍ ليكون الأمر قد بلغ من القوة مبلغًا عظيمًا. وليس هذا وكفى، بل للصيغة التي أوردها عمر رضي الله عنه ما يزيد على تلك القوة كِفلا راجحًا؛ حيث أورد الأمر بصيغة اسم فعل الأمر في قوله: (**عليكم**)، وهذه الصيغة يستحسنها علماء اللغة لما فيها من الخفَّة والسُّرعة والاختصار والإيجاز والمبالغة. قال ابن يعيش: «والغرض منها الإيجاز، والاختصار، ونوع من المبالغة»، ومعنى اسم الفعل - هنا - الزموا. و(**الباء**) بعد اسم الفعل بقوله: (**عليكم بالجِمال**) تفيد معنى الاستعانة فيكون مجموع المعنيين،

١- رواهُ ابنُ أبي الدُّنيا في «إصلاحِ المالِ» (٦٤) و(١٥٥).

أعني (**عليكم**) و(**الباء**): الزموا استعانتكم بالجِمال. وخصَّ الجِمال عن سائر ما يُركَب؛ لقوَّتها حيث تحمل ما لا يحمله غيرها، وتعمل ما لا يعمله غيرها، وكونها مما اختص به العرب عن غيرهم، وشهرتها في بلادهم أكثر منها في غيرهم، ولشرفها، حيث عظَّم الله - تعالى - أمرها في كتابه بقوله: ﴿**أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ**﴾ [الغاشية: ١٧]. ثم عطف على الجملة الأولى جملة أخرى، وذلك قوله: (**واستصلاح المال**). وعلاقة هذه الجملة بالتي قبلها: أنَّ الإبل في تربية الإبل والاهتمام بها صلاحًا للمال؛ لما سبق بيانه من قدرتها على الحمل، وكونها سفينة العرب في صحرائهم؛ فهي التي جعلتهم ينتقلون صيفًا وشتاءً بين الشام واليمن في رحلتي الصيف والشتاء؛ فالإبل بذاتها جزء من المال، واتخاذها للعمل جزء من استصلاح المال. والعطف بين الجملتين من باب عطف العام على الخاص؛ حيث المال أعم من الجِمال، وسبق لنا - في النَّص رقم ثلاثة وثمانين ومئة - أن نقلنا كلامًا لمعنى المال وكونه عامًّا لكل ما يملكه الناس من ذهب وفضة وعقار وحيوان وغير ذلك. وتقديمه الجِمال - وهي الأخص - على المال؛ لكون الجِمال أنفس أموال العرب، وأحظاها عندهم. وفي الجملة إيجاز بالحذف تقديره: وعليكم باستصلاح المال. والجملتان السابقتان فيهما أمر يقتضي الطاعة، وسجع ظاهر، وفيهما طلب فعل، وجاءتا متصلتين برابط الوصل (الواو)، وفيهما إيجاز بالقِصَر حيث الجُمل القصيرة ذات المعاني الكثيرة.

أمَّا القِسم الثاني من النَّص؛ فهو: نهي وطلب ترك، وذلك قوله: (**وإياكم وقول أحدكم: ما أبالي**). فلمَّا فرغ في الجملتين الأوليين من الأمر وطلب الفعل، حثَّ النَّاس في الجملة التي تليها على التَّرك ومجانبة الفعل؛ ليجتمع لهم خيران: خير

العمل والترك. وجاء النَّهي باستخدام أسلوب من أساليب العربية، وهو التحذير، وفي هذا الأسلوب من قوة المعنى ما في استعمال اسم الفعل من المعنى؛ حيث القصر والإيجاز والاختصار مع المبالغة وزيادة المعنى، وتقدير الجملة: أحذِّركم واحذروا قول أحدكم: ما أبالي. ويظهر مما سبق أنَّ في الجملة حذفًا كثيرا؛ ففي أولها حذف فعل الأمر وما عطف عليه، وفي آخرها حذف المفعول من جملة **(ما أبالي)**؛ حيث لم نعلم ما هو الشيء الذي لا يبالي به، وهذا الحذف يبعد المعنى عن التخصيص ويجعله أكثر عمومية، ويبقي للتخمين مجالا واسعًا؛ حيث قد يكون المعنى: ما أبالي بالجِمال، ولا صلاح المال، أو: ما أبالي أخسرتُ مالي أم ربحتُ، أو أي شيء يصلح ليكون دالًّا على المحذوف الذي يتحدث في سياقه عن المال والكسب. ونرى أنَّ الجملتين السابقتين فيهما طلب فعل، وليس في الجملة الثالثة طلب ترك فعل، بل طلب ترك قول، ومما لابد من فهمه أنَّ طلب الكف عن الفعل يكون من باب أولى؛ حيث النَّهي عن القول يستلزم النهي عن الفعل، وهذا يسمَّى قياس الأَوْلى. وفي الجملة طباق حيث **(عليكم)** ضد **(إياكم)**.

[٣٠٣]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ

«أَيُّهَا النَّاس، إِنَّ بَعْضَ الطَّمَعِ فَقْرٌ، وَإِنَّ بَعْضَ الْيَأْسِ غِنًى، وَإِنَّكُمْ تَجْمَعُونَ مَا لَا تَأْكُلُونَ، وَتَأْمُلُونَ مَا لَا تُدْرِكُونَ، وَأَنْتُمْ مُؤَجَّلُونَ فِي دَارِ غُرُورٍ. كُنْتُمْ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ تُؤْخَذُونَ بِالْوَحْيِ، فَمَنْ أَسَرَّ شَيْئًا أُخِذَ بِسَرِيرَتِهِ، وَمَنْ أَعْلَنَ شَيْئًا أُخِذَ بِعَلَانِيَتِهِ؛ فَأَظْهِرُوا لَنَا أَحْسَنَ أَخْلَاقِكُمْ، وَاللهُ أَعْلَمُ بِالسَّرَائِرِ؛ فَإِنَّهُ مَنْ أَظْهَرَ شَيْئًا وَزَعَمَ أَنَّ سَرِيرَتَهُ حَسَنَةٌ لَمْ نُصَدِّقْهُ، وَمَنْ أَظْهَرَ لَنَا عَلَانِيَةً حَسَنَةً ظَنَنَّا بِهِ حُسْنًا. وَاعْلَمُوا أَنَّ بَعْضَ الشُّحِّ شُعْبَةٌ مِنَ النِّفَاقِ، فَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ، وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ.

أَيُّهَا النَّاس، أَطِيبُوا مَثْوَاكُمْ، وَأَصْلِحُوا أُمُورَكُمْ، وَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ، وَلَا تُلْبِسُوا نِسَاءَكُمُ الْقَبَاطِيَّ[١]؛ فَإِنَّهُ إِنْ لَمْ يَشِفَّ[٢] فَإِنَّهُ يَصِفُ.

أَيُّهَا النَّاس، إِنِّي لَوَدِدْتُ أَنْ أَنْجُوَ كَفَافًا لَا لِي وَلَا عَلَيَّ، وَإِنِّي لَأَرْجُو إِنْ عُمِّرْتُ فِيكُمْ يَسِيرًا أَوْ كَثِيرًا أَنْ أَعْمَلَ بِالْحَقِّ فِيكُمْ إِنْ شَاءَ اللهُ، وَأَلَّا يَبْقَى أَحَدٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ - وَإِنْ كَانَ فِي بَيْتِهِ - إِلَّا أَتَاهُ حَقُّهُ وَنَصِيبُهُ مِنْ مَالِ اللهِ، وَلَا

١- جمع قُبطية؛ قال ابن الأثير في «النهاية» ٤/ ٦: (القُبْطِيَّةُ: الثَّوبُ مِن ثِيابِ مِصرَ رَقيقةً بيضاءَ، وكأنَّه منسوبٌ إلى القِبْطِ، وهم أهلُ مِصرَ. وضمُّ القافِ مِن تغييرِ النَّسَبِ، وهذا في الثِّيابِ، فأمَّا في النَّاس فقِبْطِيٌّ، بالكسرِ).

٢- قال ابنُ الأثيرِ في «النِّهايةِ» ٢/ ٤٨٦: (يقالُ: شَفَّ الثَّوبُ يَشِفُّ شُفُوفًا: إذا بدا ما وراءَه ولم يَستُرْهُ؛ أي إنَّ القَباطِيَّ ثيابٌ رِقاقٌ ضعيفةُ النَّسْجِ، فإذا لَبِستْها المرأةُ لَصِقَتْ بأَردافِها فوَصَفَتْها، فنَهى عن لُبْسِها، وأَحَبَّ أن يُكْسَيْنَ الثِّخَانَ الغِلاظَ).

يُعْمِلُ إِلَيْهِ نَفْسَهُ، وَلَمْ يَنْصُبْ إِلَيْهِ يَوْمًا. وَأَصْلِحُوا أَمْوَالَكُمُ الَّتِي رَزَقَكُمُ اللهُ، وَلَقَلِيلٌ فِي رِفْقٍ خَيْرٌ مِنْ كَثِيرٍ فِي عُنْفٍ. وَالْقَتْلُ حَتْفٌ مِنَ الْحُتُوفِ، يُصِيبُ الْبَرَّ وَالْفَاجِرَ، وَالشَّهِيدُ مَنِ احْتَسَبَ نَفْسَهُ. وَإِذَا أَرَادَ أَحَدُكُمْ بَعِيرًا فَلْيَعْمِدْ إِلَى الطَّوِيلِ الْعَظِيمِ فَلْيَضْرِبْهُ بِعَصَاهُ، فَإِنْ وَجَدَهُ حَدِيدَ الْفُؤَادِ فَلْيَشْتَرِهِ»[١].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: (الشُّح): قال في العين: «والشُّح: البخل، وهو الحرص. وهما يتشاحان على الأمر: لا يريد كل واحد منهما أن يفوته. والنعت: شحيح وشحاح، والعدد: أشحة. وقد شح يشح شحا». وقال الأزهري في تهذيب اللغة: «وفي حديث عمر ﵁: **(لا تلبسوا نساءكم القباطي؛ فإنه إلا يشف فإنه يصف)**. ومعناه: أنَّ قَباطِيَّ مِصر: ثيابٌ دِقاق، وهي مع دِقَّتِها صَفِيقَة النَّسج؛ فإذا لبستها المرأة لَصِقَت بأردافِها فوصفتها، فنهى عمر ﵁ عن إلباسها النساء؛ لأنها تلزق بِبَدَن المرأة؛ لِرِقَّتِها فيُرى خَلْقُها وراءها من خارج ناتِئًا يَصِفُها، وأمر أن يُكْسَين من الثِّياب ما غَلُظ وجَفا؛ لأنه أستر لِخَلْقِها». وأمَّا **(الكَفاف)** في قوله: **(إِنِّي لوددت أن أنجو كَفافا)**، فقد قال الزمخشري في أساس البلاغة: «وعنده كفاف من العيش: ما كفَّ عن الناس، أي: أغنى، ونفقته الكفاف، وليس فيها فضل. وليتني أنجو منه كفافًا لا لي ولا عليَّ. ودعني كفاف: تكفُّ عني وأكف عنك. قال رؤبة:

فليت حظّي من نداك الضّافي والنفع أن تتركني كفاف».

١- رواهُ الطَّبريُّ في «تاريخِه» ٤/ ٢١٥-٢١٦. وشطرُه الأوَّلُ: «تَعْلَمُونَ أَنَّ الطَّمَعَ فَقْرٌ، وَأَنَّ الْإِيَاسَ غِنًى، وَأَنَّهُ مَنْ أَيِسَ مِمَّا عِنْدَ النَّاسِ اسْتَغْنَى عَنْهُمْ» رواهُ ابنُ المباركِ في «الزُّهدِ» (٦٣١) و(٩٩٨)، ووكيعٌ في «الزُّهدِ» (١٨٢)، وابنُ وهبٍ في «الجامعِ» (٤١٨)، وأحمدُ في «الزُّهدِ» (٦١٣)، وابنُ شبَّةَ في «تاريخِ المدينةِ» ٢/ ٧٦٧، والدِّينوريُّ في «المُجالَسةِ وجواهرِ العلمِ» (٥٥١)، وابنُ المُقرِئ في «المُعجَمِ» (٢٤١)، وأبو نُعَيمٍ في «حِلْيةِ الأولياءِ» ١/ ٥٠، وابنُ عساكرَ في «تاريخِ دمشقَ» ٤٤/ ٣٥٧.

مقتضى الحال: ليس في النَّص ما يبيِّن الحال ولا المكان الذي قال فيه عمر ﷺ هذا النَّص، قد يكون في خطبة جمعة، أو موعظة من مواعظه في المسجد، أو في السوق، أو دار الخلافة، والله تعالى أعلم.

لطائف لغوية: وردت الفاء الفصيحة كثيرًا في النَّص، فما هي الفاء الفصيحة؟ يقول الشيخ عبد الغني الدقر في معجم القواعد العربية: «الفاء الفصيحة: هي التي يحذف فيها المعطوف عليه مع كونه سببًا للمعطوف من غير تقدير حرف الشرط، وقيل: سمِّيت فصيحة؛ لأنها تفصح عن المحذوف، وتفيد بيان سببيته، وقال بعضهم: هي داخلة على جملة مسببة عن جملة غير مذكورة، نحو قوله تعالى: ﴿ **فَقُلْنَا اَضْرِب بِّعَصَاكَ اَلْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ** ﴾ [البقرة: ٦٠]، أي: ضرب فانفجرت، ونحو قوله تعالى: ﴿ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ [الصافات: ١٦٨ - ١٧٠]، التقدير: فجاءهم محمد ﷺ بالذكر فكفروا به، ومثله قول أبي تمام:

قالوا خراسان أقصى ما يراد بنا ثم القفول فقد جئنا خراسانا».

والهاء في (**فإنه**) من قوله: (**فإنه مَن أظهر شيئًا**): ضمير الشأن، وقد سبق الحديث عنها في النَّص رقم ثمانية وسبعين ومئة، فليراجع هناك.

البيان والبلاغة: افتتح عمر ﷺ خطابه بقوله: (**أيها الناس**)، وقد سبق بيان فائدة النداء بهذه الصيغة = عند شرح النَّص رقم اثنين وثلاثين ومئتين، وبيَّنا هناك لماذا لم يقلْ: يا ناس أو يا مؤمنون أو نحوها. ثمَّ لعلَّه من المناسب أنْ نقسِّم هذا النصَّ إلى جزأين: الأوَّل: من بدايته حتى بداية الجزء الثاني، الذي يبدأ بقوله: (**أيها الناس، إني**

لوددت ...)؛ حيث يختلف الجزءان من حيث الصيغة الكلامية والبيانية والموضوع؛ فموضوع الجزء الأول عن الزُّهد والتقلُّل من الدنيا وما يشبه ذلك، والثاني عن المال واقتنائه وإصلاحه. وقوله: (**إنَّ بعض الطمع فقر، وإنَّ بعض اليأس غنى**): هاتان الجملتان بينهما موازنة، وهو تشابه الوزن والمقاطع، وهذا سيتكرر معنا في هذا النَّص كثيرًا، بل وبعضها فيه ما يسمَّى الترصيع، وهو - زيادة على ما في الموازنة - تشابه القافية مع الوزن والمقاطع، كما أن الجُمل يكثر فيها التوكيد بـ (**إنَّ**) المثقلة، والتوكيد يزيد من ثقة السامع بكلام المتكلم، وثقة المتكلم بكلام نفسه، ونفي الشك من نفس السامع، وهذا سيكثر في هذا النَّص، وقد قدمنا الحديث عنه هنا لنستغني عن إعادته كلما ورد. كما اتصفت جُمل هذا النَّص بالقصر مع الإيجاز، وهذا القصر والإيجاز لابد منهما في نص طويل، وإلا لفسدت البلاغة وترهل الكلام لو طال، ولاجتمَع للمتكلم طول النَّص مع طول الجمل، وهذه مفسدة للبلاغة والفصاحة الذين يجعلان الإيجاز بلا خلل من سمات الفصحاء، ولذا سيكون الإيجاز كثيرًا هنا. نعود إلى الجُملة الأولى في النَّص وقوله: (**إن بعض الطمع فقر، وإن بعض اليأس غنى**): على الأغلب أن يحصل الطامع على الغنى واليائس على الفقر، ولكن لما كان بعض الطمع بدون حاجة كان هذا الطمع فقرا؛ لأن صاحب الطمع لم يشبع من الدنيا، وهذا لن يشبعه شيء؛ لفقر نفسه، وسيجتهد في الدنيا اجتهاد الفقراء وطلبهم وتعبهم على غناه وعدم عوزه، ومثله اليائس من الدنيا والمكتفي منها بما يعطيه الكفاف فهو غني النفس لن يسعى في الأرض سعي المجهدين الفقراء، وسيكف باكتفائه من الدنيا عن الكد كما يفعل الأغنياء. وقوله: (**وإنكم تجمعون ما لا تأكلون، وتأملون ما لا تدركون**): في هذه الجملة ما تحدثنا عنه من السجع والإيجاز والترصيع، كما أن هذه الجملة مفسِّرة ومزيلة للإيهام في سابقتها، والجملة

التي تليها جاءت كخاتمة للجُمل السابقة، وهي قوله: (**وأنتم مؤجلون في دار غرور**). والجُمل السابقة ارتبطت ببعضها برابط (**الواو**) العاطفة، فبينها وصل، على خلاف الجُملة الآتية التي انفصلت عن الجُمل السابقة، فلا رابط بينها وبين ما سبقها من معنى ولا لفظ إلا روح السياق، والجملة هي قوله: (**كنتم على عهد رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - تؤخذون بالوحي**). فقوله: (**تؤخذون**) على صيغة ما لم يسمَّ فاعله، وهذا الإبهام في الفاعل يفتح بابًا للتأويل؛ حيث يجعل العقل يفكر، مَن هو الذي يأخذهم بالوحي؟ و(**الفاء**) في قوله: (**فمن أسرَّ شيئًا أخذ بسريرته**) تسمَّى الفصيحة، وهي التي تعطف على محذوف تدل عليه هذه الفاء، والمحذوف - هنا - يقدَّر بأن تقول: وأخذكم بالوحي فمَن أسرَّ شيئًا أخذ بسريرته. وقوله: (**أخذ بسريرته**): قد يكون معنى الأخذ هنا العذاب والحساب، فيكون معنى الجملة عذَّبه الله بسريرته، أو فضحه بها كما فضح المنافقين. وجاءت كلمة (**شيئًا**) نكرة فأفادت العموم. والباء في قوله: (**أخذ بسريرته**) هي السببية، أي: أخذ بسبب سريرته، وقال الشيء نفسه في الجملة التي تليها (**ومَن أعلن شيئا أخذ بعلانيته**). وفي الجملة - كما أسلفنا - موازنة، وفيها ما يسمَّى بالمقابلة؛ وهو: أن يكون في الجملة أكثر من طباق؛ حيث (**أسرَّ**) و(**سريرته**) ضد (**أعلن**) و(**علانيته**) وبالترتيب. ثم تأتي (الفاء الفصيحة) مرَّة أخرى في قوله: (**فأظهروا لنا أحسن أخلاقكم**): والمحذوف الذي تدل عليه الفصيحة - هنا - يقدَّر بقولك: من أجل ما سبق ذكره فأظهروا لنا أحسن أخلاقكم، أي: قد ذهب زمن الأخذ بالسِّرِّ لذهاب زمن الوحي، أمَّا الآن فلا نحكم إلا بالظاهر، ولا ترونا من ظاهركم إلا خيرًا، والله - تعالى - له الحكم على السرائر. والفاء الفصيحة - أيضًا - في الجملة التي تليها: (**فإنه مَن أظهر شيئًا وزعم أنَّ سريرته حسنة لم نصدقه**). وبعد

الفاء التوكيد بـ (إنَّ)، وضميرُ الشأن الذي سمي بهذا الاسم لأنه يعلي من شأن الشيء قبل سماعه والتحدث عنه، فهو أرجع الضمير إلى شيء لم يذكر بعد لتتهيأ الأسماع إلى سماعه وتتنبه له، وهنا يبيِّن أنَّ زعم النوايا الحسنة قد ولَّى ولا حكم إلا بالظاهر، والذي يظهر العلانية الحسنة نظن به الحسنى، وهذا قوله: (**ومن أظهر لنا علانية حسنة ظننا به حسنا**). وفي كلمتي (**سريرته**) و(**علانية**) طباق. ثم رجع إلى الأسلوب الذي بدأ به، فقال: (**واعلموا أن بعض الشح شعبة من النفاق**)، غير أنه زاد في هذه الجملة قوله: (**اعلموا**)؛ لتفيد الحث على العِلم، وتؤكِّد على هذه الجملة، وتدل على عدم نسيانها. ولماذا لم يقل في الجُمل المشابهة لها قبل قليل (**اعلموا**)؟ قد يكون الجواب لأنَّ هذه الجملة فيها معنى يختلف؛ حيث الأمر المقرر - هنا - أهم منه هناك، هناك كان يتحدث عن الفقر والغنى والطمع واليأس، وهنا يتحدث عن النِّفاق والشُّح، ولكن كيف يكون بعض الشح نفاقًا؟ عندما يكون طلب الإنفاق في الجهاد ونصرة الحقِّ والجهاد = فإن من يُعرِضُ عن ذلك - مع قدرته - لا يكون إلا من المنافقين غالبا، ثم استشهد بقوله تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩]. ثم عاد إلى أول النَّص في قوله وندائه: (**أيها الناس**) تلاها خمس جمل: الأولى والثانية والثالثة أمر، والرابعة نهي، والخامسة تعليل للنهي؛ والأمر قوله: (**أطيبوا**) (**أصلحوا**) (**اتقوا**)، وهذه الأوامر يربطها حرف العطف (**الواو**)، وقد يظن الظَّانُّ - بادي الرأي - ألَّا تناسب في الترتيب بين هذه الثلاثة، غير أن التناسب موجود؛ حيث ذكر طيب المثوى، وهو إمَّا مثواه في الآخرة أو القبر، ثم ذكر إصلاح الأمر الذي هو سبب في طيب المرء، ثم ذكر الأمر بتقوى الله - تعالى -، والذي هو سبب في الصلاح وطيب المثوى. ثم جاء بالنهي وهو قوله: (**ولا تلبسوا نساءكم القباطي**)، وقد يقول القائل: وما علاقة ما سبق

من الأمر بهذا النهي، فقد كان يتحدث عن الآخرة وتقوى الله - تعالى - وإصلاح الأمور، وهنا يتحدث عن لبس النساء الذي هو من الأحكام الفرعية، فما مناسبة هذا بهذا؟ نقول: لما انتهى من الوعظ والتذكير بالله وتقواه وأمر الآخرة، ضرب لكل ذلك مثلا من الأمثلة التي يجب أن نتقي الله بها وجعلها خاتمة للموضوع، وقد يقال: إن لبس القباطي كان من المشاكل التي اشتهرت بين الناس، فناسب التذكير بها؛ لإلحاح الحال على ذلك، أو ربما ما ساق تلك المواعظ إلا من أجل هذه القضية، فبدأ بتذكير الناس بالله - تعالى - ليلتزموا بما بعده، ثم علَّل النَّهي عن هذا اللباس بالجملة الأخيرة بقوله: (**فإنه إن لم يشِفّ فإنه يصف**): وهذه العبارة فيها لطف وجمال؛ حيث توفر السجع، مع جعل خبر (**إن**) جملة تبدأ بـ (**إن**)؛ حيث (**إنَّ**) واسمها يشبهان في اللفظ والتركيب الخبر.

ظل النَّص الذي بين أيدينا حتى الآن يحتفظ بأسلوب متقارب من حيث تركيب الجمل، وذلك هو الجزء الأول من النَّص. والجزء الثاني منه يبدأ هنا؛ حيث راق لعمر رضي الله عنه أن يغير الأسلوب، وأعاد ما بدأ به النَّص، وهو النداء على النَّاس بقوله: (**أيها النَّاس**)، ولعله لما أطال الكلام خشي ملل النَّاس وتشتت أذهانهم فناداهم؛ ليوقظ الغافل منهم، وينبِّه مَن أصابه الملال، ويعيدهم إليه مستمعين. وقوله: (**إني لوددت أن أنجو كفافًا لا لي ولا علي**): قد سبقت هذه العبارة في النَّص رقم واحد وخمسين ومئة بلفظ قريب، فراجعها هناك. وقوله: (**وإني لأرجو إن عُمِّرتُ فيكم يسيرًا أو كثيرًا أن أعمل بالحق فيكم - إن شاء الله -**): هذه الجملة ابتدأت بتوكيدين: (**إنَّ**) و(**اللام**)، ثم الرجاء، ولم يذكر في الجملة مَن هو الذي يرجوه، ولابد أنه يرجو الله، وهذا يدل على أنَّ في الجملة حذفًا تقديره: أرجو من الله - تعالى - .... وهذا الإيجاز

بالحذف قابله إطناب، فما نقص هنا سُرعان ما تمَّ وزاد بعدُ، بل تكرَّر الإطناب في الجملة مرَّتين؛ الأولى في قوله: (**إن عُمِّرتُ فيكم يسيرًا أو كثيرًا**)، والمرة الثانية في نهاية الجملة عند قوله: (**إن شاء الله**). وفي قوله: (**إن عُمِّرتُ فيكم يسيرًا أو كثيرًا**): بنى الفعل على ما لم يسمَّ فاعله، وعدم تسمية الفاعل جاءت بسبب العِلم به وهو الله - تعالى -. وقوله: (**يسيرا أو كثيرا**): في اللفظين طباق. وفي الجملة بيان أنه على كل حال من الأحوال؛ طال العمر أم قصر فإنه سيبقى على الحال التي هو عليها من العمل بالحق، وهذا قوله: (**أن أعمل بالحق**). وجاء المصدر مؤوَّلا؛ ليتسنى له ذكر الفعل المضارع الذي يفيد التجدد والاستمرار والتكرار والدوام، ومثله الفعل المضارع في قوله: (**ألّا يبقى أحد من المسلمين - وإن كان في بيته - إلا أتاه حقه ونصيبه من مال الله**). وفي الجملة حصر؛ حيث حصر ما قبل (**إلا**)، وهو قوله: (**ألَّا يبقى أحد**)، بما بعدها، وهو قوله: (**أتاه حقه ونصيبه**). إذن، فلن يشذ أحد من الناس إلا أتاه الحق والنَّصيب من مال الله - تعالى -. وجاءت كلمة (**أحد**) نكرة في سياق النَّفي، وهذا يدل على العموم في كل أحد من الناس، ولكن هذا العموم خصص بقوله: (**من المسلمين**)، وهذا من الإطناب، وفائدته التخصيص. وفي قوله: (**حقه ونصيبه**) عطف الكلمة على معناها، وهذا من الإطناب، وفائدته زيادة التأكيد في الحق والنَّصيب. وقوله: (**من مال الله**) تذكير للناس أنَّ المال الذي بين يديه هو من مال الله - تعالى - وأنه لا يعطيهم من ماله ولا مال أبيه، وهذا من التواضع أن يذكِّر الناس بحقِّهم عنده. وفي الجملة السابقة تكررت الجملة الاعتراضية مرتين، وهذه الجملة - وهي قوله: (**وإن كان في بيته**) - جملة معترضة جاءت بصيغة الشرط، غير أن هذا الشرط حُذِف منه الجواب وبقي فعل الشرط، وتقديره: وإن كان في بيته فلن يبقى، ولكن كيف سيصل إليه حقه من مال الله - تعالى -؟ الجواب في

قوله: (**ولا يعمل إليه نفسه، ولا ينصب إليه يومًا**)، أي: لا يعمل للذهاب إليه ولا ينصب ويتعب في طلبه، وإنما يأتيه الحق في بيته؛ فهاتان الجملتان تفسير وتوضيح لقوله: (**وإن كان في بيته**). تحدَّث النَّص في بدايته عن شيء مما يخص المال، ولكنه اختص به أكثر عند قوله: (**إني لوددت أن أنجو كفافا**)، ومازال الحديث بخصوص المال مستمرًا، حتى نحى منحى النَّصح باستعمال المال والتدبير، فقال: (**وأصلحوا أموالكم التي رزقكم الله**)، ولم يبيِّن في النَّص كيف يُصلِح الرجل ماله، هل بالتدبير، أم بالتجارة أم بغير ذلك؟ فترك الأمر ليكون أكثر عمومية. وقوله: (**أموالكم**): جمع مال، والمال يجمع لتعدد أنواعه؛ كالأنعام، والعقار، والذهب والفضة وغيرها. وهو يؤكد على المسلمين أنَّ هذا المال كله من عند الله - تعالى - بقوله: (**التي رزقكم الله**)، وقوله: (**ولقليل في رفق خير من كثير في عنف**)، ويؤكد على هذه الجملة بـ (**اللام**) التي هي للتوكيد. وفي الجملة مقابلة؛ حيث إنَّ فيها أكثر من طباق؛ فالكلمات (**قليل**) و(**رفق**) ضد الكلمات (**كثير**) و(**عنف**) وبالترتيب. كما أنَّ مقاطع هذه الجملة ووزنها متشابهة، وهذا يسمى بالموازنة. وقوله: (**والقتل حتف من الحتوف، يصيب البرَّ والفاجر**): (**اللام**) في قوله: (**القتل**) للاستغراق، بحيث تستغرق كل نوع من أنواع القتل، و(**مِن**) في قوله: (**حتف من الحتوف**): بيانية تفيد بيان نوع القتل وبأنه من الحتوف. وفي كلمتي: (**البرَّ**) و(**الفاجر**) طباق. ثم اختار أحد أصناف المقتولين، وهو الشهيد، فقال: (**والشهيد مَن احتسب نفسه**). وفي الجملة حذف تقديره: ومَن كان حتفه القتل، وكان احتسب نفسه عند الله - تعالى - وهو يقاتل = فهو الشهيد. وفي نهاية النَّص اتجه الحديث إلى الخصوص، خارجًا عن العموم؛ حيث كان النَّص يقدم نصائح لإصلاح المال، وكيفية تعامل الناس مع أموالهم، ثم ختم بمثال خاص، يبيِّن فيه كيف يشتري الرجل بعيرًا، وهذا كما

وقع في خاتمة الجزء الأول من النَّص؛ حيثُ ضرب مثالا على ما سبق من القول، وبخاتمة الجزء الثاني منه ضرب مثالا آخر على ما كان ينصح الناس به من القول، وذلك قوله: (**وإذا أراد أحدكم بعيرا فليعمد إلى الطويل العظيم فليضرب بعصاه**). وهذه الجملة الشرطية تقوم على شرط يتحقق بتحقق شيء، ولا يتحقق هذا الشرط إلا بتحقق هذا الشيء؛ فأمَّا الشرط فهو إذا أراد أحد شراء بعير، والمطلوب منه أن يعمد إلى الطويل العظيم .... وفي الجملة حذف تقديره: وإذا أراد أحدكم أن يشتري بعيرًا فليعمد .... وفي قوله: (**فليضربه بعصاه**): (**الفاء**) هي الفصيحة، تدل على معطوف عليه محذوف، تقديره: وقد عمد إلى الطويل العظيم فليضربه بعصاه. وقوله: (**بعصاه**) ولم يقل (**بالعصا**)، ليرشد الشاري بأن يضربه بعصاه لا بعصا غيره، وأن يهتم بشأن نفسه فتكون له عصا، وهذا تنبيه منه ﵁ وإرشاد منه إلى أن الرجل ينبغي له اقتناء ما لابد له من الآلة التي يصلح بها أعماله ومعاشه. و(**الفاء**) الفصيحة شاهدة في هذا النَّص بكثرة، وهي في قوله: (**فإن وجده حديد الفؤاد فليشتره**)، وسبق أن قلنا: الفاء الفصيحة تكون عطفا على محذوف، وتقدير المحذوف - هنا -: وقد ضربه - أو وبعد ذلك - فإن وجده حديد الفؤاد فليشتره. وهذه الجملة الأخيرة جملة شرط، القول فيها كالقول السابق فيما مرَّ بنا من الجمل الشرطية في النَّص. ختامًا؛ هذا النَّص مليء بضروب البيان والبديع والبلاغة، وهذه الكثرة من صنوف البلاغة يسميها العلماء بالإبداع.

[٣٠٤]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«أَمَّا بَعْدُ؛ فَإِنِّي أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللهِ الَّذِي يَبْقَى وَيَهْلِكُ مَنْ سِوَاهُ؛ الَّذِي بِطَاعَتِهِ يَنْتَفِعُ أَوْلِيَاؤُهُ، وَبِمَعْصِيَتِهِ يُضَرُّ أَعْدَاؤُهُ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ لِهَالِكٍ هَلَكَ مَعْذِرَةٌ فِي تَعَمُّدِ ضَلَالَةٍ حَسِبَهَا هُدًى، وَلَا فِي تَرْكِ حَقٍّ حَسِبَهُ ضَلَالَةً. وَإِنَّ أَحَقَّ مَا تَعَهَّدَ الرَّاعِي مِنْ رَعِيَّتِهِ تَعَهُّدُهُمْ بِالَّذِي للهِ عَلَيْهِمْ فِي وَظَائِفِ دِينِهِمُ الَّذِي هَدَاهُمُ اللهُ لَهُ؛ وَإِنَّمَا عَلَيْنَا أَنْ نَأْمُرَكُمْ بِمَا أَمَرَكُمُ اللهُ بِهِ مِنْ طَاعَتِهِ، وَأَنْ نَنْهَاكُمْ عَمَّا نَهَاكُمُ اللهُ عَنْهُ مِنْ مَعْصِيَتِهِ، وَأَنْ نُقِيمَ أَمْرَ اللهِ فِي قَرِيبِ النَّاسِ وَبَعِيدِهِمْ، وَلَا نُبَالِيَ عَلَى مَنْ كَانَ الْحَقُّ.

أَلَا وَإِنَّ اللهَ فَرَضَ الصَّلَاةَ، وَجَعَلَ لَهَا شُرُوطًا، فَمِنْ شُرُوطِهَا: الْوُضُوءُ، وَالْخُشُوعُ، وَالرُّكُوعُ، وَالسُّجُودُ.

وَاعْلَمُوا أَيُّهَا النَّاس أَنَّ الطَّمَعَ فَقْرٌ[1]، وَأَنَّ الْيَأْسَ غِنًى، وَفِي الْعُزْلَةِ رَاحَةٌ مِنْ خُلَطَاءِ السُّوءِ. وَاعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ لَمْ يَرْضَ عَنِ اللهِ فِيمَا أُكْرِهَ مِنْ قَضَائِهِ؛ لَمْ يُؤَدِّ إِلَيْهِ فِيمَا يُحِبُّ كُنْهَ شُكْرِهِ.

وَاعْلَمُوا أَنَّ للهِ عِبَادًا يُمِيتُونَ الْبَاطِلَ بِهَجْرِهِ، وَيُحْيُونَ الْحَقَّ بِذِكْرِهِ، رَغِبُوا فَرُغِبُوا، وَرَهِبُوا فَرُهِبُوا، إِنْ خَافُوا فَلَا يَأْمَنُوا، أَبْصَرُوا مِنَ الْيَقِينِ مَا لَمْ يُعَايِنُوا فَخَلَصُوا بِمَا لَمْ يُزَايِلُوا. أَخْلَصَهُمُ الْخَوْفُ فَهَجَرُوا مَا يَنْقَطِعُ عَنْهُمْ لِمَا

١- رواهُ ابنُ المباركِ في «الزُّهدِ والرَّقائقِ» (٩٩٨)، وابنُ وهبٍ في «الجامعِ» (٤١٨) بلفظِ: «وَإِنَّ الطَّمَعَ فَقْرٌ حَاضِرٌ».

يَبْقَى عَلَيْهِمْ، الْحَيَاةُ عَلَيْهِمْ نِعْمَةٌ، وَالْمَوْتُ لَهُمْ كَرَامَةٌ»[١].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: قوله: (**فخلصوا لما لم يزايلوا**): قال الرازي في مختار الصحاح: «وزيَّله فتزيَّل؛ أَيْ: فَرَّقه فتفرَّق، ومنه قوله تعالى: ﴿**فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ**﴾ [يونس: ٢٨]، والمزايلة: المفارقة، يقال: زايله مزايلة و زيالًا، أي: فارقه. والتزايل: التباين».

مقتضى الحال: ليس في النَّص ما يبيِّن حال هذا النَّص إلا كونه ورد في خطبة كما وقع في مقدمة النَّص من رواية أبي يوسف في كتاب الخراج ما نصه: «خطب عمر الناس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: ...» هذا النَّص، ولم يبيِّن: إن خطبة جمعة، أو غير ذلك.

لطائف لغوية: ابتدأ النَّص بقوله: (**أمَّا بعد**)، وقد سبق الحديث عن معناها وفائدتها وأحكامها عند شرح النص رقم اثنين وسبعين ومئتين. و(**ألا**) في قوله: (**ألا، وإن الله فرض الصلاة**): قد سبق الحديث عنها وبيان أحكامها وفائدتها في شرح النَّص رقم تسعة وخمسين ومئة، كما سبق الحديث عن (**الواو**) بعدها عند شرح النَّص رقم اثنين وخمسين ومئة، وسنعيده هنا لأننا سنحتاج إليه بعد قليل، وقد قلنا هناك: ولا يقولنَّ قائل: الواو للعطف والعطف وصل لا فصل، فإن المباركفوري في «تحفته» أعرب الواو - نقلًا عن القاري - في الحديث: «**ألا، وإن لكل مَلِكٍ حِمَى**» أعربها استئنافية، والاستئناف فصل لا وصل، فقال: «قال القاري في المرقاة: الأظهر أن الواو هي الابتدائية التي تسمي النُّحاة الاستئنافية الدالة على انقطاع ما بعدها عمَّا قبلها في الجُمَل، كما ذكره صاحب المغني». وهي إذا اعتبرناها عاطفةً فليستْ عاطفة على ما قبل ألا، قال الكازروني: «إنه معطوف على لفظ «الإنباه» ...

١- رواهُ أبو يوسفَ في «الخراجِ» ص٢٣.

والأَوْلى أن يقال: الواو استئنافية دالة على انقطاع ما بعدها عمَّا قبلها». وقوله: **(وفي العزلة راحة من خلطاء السوء)**: في هذه الجملة قدَّم الخبر على المبتدأ وجوبا، وقد سبق بيان أحكام ذلك - أيضا - عند شرح النَّص رقم ثلاثة ومئتين. ووردت الفاء الفصيحة في النَّص أكثر من مرَّة، وقد تحدَّثنا عن معناها وفائدتها في النَّص السابق وغيره، فليراجع ذلك المستزيدُ.

البيان والبلاغة: افتتح عمر ﷺ خطابه بقوله: **(أما بعد)**، وقد سبق الحديث عنها مطولا في النَّص رقم اثنين وسبعين ومئتين، ثم قال: **(فإني أوصيكم بتقوى الله)**، وكنا تكلمنا في النَّص المشار إليه عن الحذف في جملة **(أما بعد)**، وهذا الحذف أعقبه حذف مثله فيما بعد دلَّت عليه الفاء، وهي الفصيحة، وهي التي تعطف على محذوف، ثم أتى بـ **(إنَّ)** التي للتوكيد؛ ليؤكِّد على كلامه، وقد ناسب التكثير من الحذف، والتأكيد؛ كون النَّص طويلا. وجاء الفعل **(أوصي)** مضارعًا؛ ليدل على الاستمرار والتجدد والتكرار. والباء في قوله: **(بتقوى)** للاستعانة، أي: فاستعينوا بتقوى الله - تعالى -، ولما طلب منهم التقوى بين لهم علة وسبب التقوى والاستعانة بالله؛ ليساعدهم ذلك على قبول الطلب الذي طلبه منهم، فقال: **(الذي يبقى ويهلك مَن سواه)**. وجاء الفعل **(يبقى)** بصيغة المضارع، وقد ذكرنا قبل قليل ما في المضارع من الميزة عن غيره. وفي كلمتي: **(يبقى، ويهلك)** طباق. ثم تابع بوصف الله - تعالى - والثناء عليه؛ ليذكِّر الناس بأنه لم يطلب منهم أن يتقوا إلا عظيمًا، فتابع قائلا: **(الذي بطاعته ينتفع أولياؤه، وبمعصيته يُضر أعداؤه)**. وفي هذه الجملة ما يسمى بالترصيع؛ وهو: تشابه مقاطع الجمل بالوزن والقافية، والذي فيه يقول قدامة الكاتب: «وأحسن البلاغة: الترصيع والسجع ...». وفي الجملة - كذلك - ما

يسمى بالمقابلة؛ وهو: أن يكون في الجملة أكثر من طباق واحد، كما في جملتنا؛ حيث الكلمات: (**بطاعته**) و(**ينتفع**) و(**أولياؤه**) ضد الكلمات (**معصيته**) و(**يضر**) و(**أعداؤه**) وبالترتيب نفسه. وقد سبق الحديث عن (**باء الاستعانة**) قبل قليل، وهي موجودة في قوله: (**بطاعته**) وقوله: (**بمعصيته**)، كما سبق الحديث عن دلالة الفعل المضارع، وهو هنا قوله: (**ينتفع**) و(**يُضر**). وقوله: (**فإنه ليس لهالك هلك معذرة في تعمد ضلالة حسبها هدى، ولا في ترك حق حسبه ضلالة**): هذه الجملة ابتدأت بضمير الشأن وهو إرجاع الضمير على ما لم يذكر بعد، وفائدة هذا الرجوع إلى ما لم يسمَّ = تحفيز العقل للتفكير والتدبر والتخمين، فينتبه العقل ويستعد الذهن لسماع ما يأتي. وفي كلمة (**هالك**) وكلمة (**هلك**) جناس ناقص، وفيهما ما يسمى باشتقاق اللفظ من اللفظ. وفي قوله: (**تعمد ضلالة حسبها هدى**)، وقوله: (**ترك حق حسبه ضلالة**) مقابلة؛ حيث الكلمات (**تعمد**) و(**ضلالة**) و(**هدى**) ضد الكلمات (**ترك**) و(**حق**) و(**ضلالة**)، وفيه موازنة؛ لتشابه الجملتين في المقاطع والوزن، وفيه ما يسمى بعكس اللفظ؛ حيث عكس الألفاظ وأخرج منها جملة جديدة، ولولا اختلاف القافية لوجد فيها ترصيع. وقوله: (**وإن أحق ما تعهد الراعي من رعيته تعهدهم بالذي لله عليهم في وظائف دينهم الذي هداهم الله له**): جاءت هذه الجملة طويلة طولا لم يعهد من عمر ﷺ الذي تعودنا على نصوصه الموجزة القصيرة، ولعل طول الجملة ناتج عن احتياج أمير المؤمنين ﷺ إلى تقرير مسألة تحتاج إلى تدليل وبرهان. وفي لفظة (**الراعي**) و(**الرعية**) ما يسمى باشتقاق اللفظ من اللفظ، ومثله في كلمتي (**تعهَّد**) و(**تعهُّدهم**). وقوله: (**وإنما علينا أن نأمركم بما أمركم الله به من طاعته، وأن ننهاكم عما نهاكم الله عنه من معصيته**): بدأ الجملة بقوله (**إنما**) المكونة من (إنَّ)، و(ما)، و(إنَّ) تفيد التوكيد، و(ما) كافَّة، لا

تكف التوكيد ولا تبطله، وإنما تكف الإعراب فحسب. وفي هذه الكلمة حصرٌ؛ حيث حصر أمر الرعية بما أمرهم به الله من الطاعة لا بغيره. وفي الجملة التي تليها عطف هذا الحصر؛ فحصر نهيه لهم بما نهاهم الله به من المعصية لا بغيرها. وفي الجملة حذف تقديره: وإنما وجب علينا أن ... ، وسبق أن بيَّـنَّا - كثيرًا - فائدة استخدام المصدر المؤوَّل دون الصريح، وأنه إنما يكون لبيان الزمن الذي وقع به الحدث، وهو - هنا - المضارع الذي يفيد التكرار والدوام والاستمرار، وذلك في قوله: (**أن نأمركم**) و(**أن ننهاكم**)؛ ليكون أمره بالطاعة ونهيه عن المعصية مستمرًا غير منقطع. والباء التي تفيد الاستعانة متوفرة بالنَّص، وهي في قوله: (**بما أمركم**) وقوله: (**بما نهاكم**). وحرف الجر (مِن) الذي جاء في قوله: (**من طاعته**) وقوله: (**من معصيته**) يفيد البيان؛ حيث يبيِّن نوع الأمر الذي أمر الله - تعالى - به، وهو الأمر بالطاعة، ونوع النهي الذي نهى عنه، وهو المعصية. والجملة - كما يتضح - تشبه ما سبق أن بيناه قبل قليل في جملتين سبقتا في النَّص من حيث المقابلة والترصيع؛ والمقابلة وقعت في الكلمات: (**نأمركم**) و(**أمركم**) و(**طاعته**) التي تقابل (**ننهاكم**) و(**نهاكم**) و(**معصيته**) وبالترتيب. والجملتان بينهما وصل لما بينهما من الشبه باللفظ والصياغة والترابط بالمعنى. وقوله: (**وأن نقيم أمر الله في قريب الناس وبعيدهم**): هذه الجملة موصولة بالتي سبقتها؛ لتواصل إتمام المعنى. والفعل المضارع (**أن نقيم**) جاء في المصدر المؤول، وذكرنا فائدته قبل قليل، ومثله في الجملة التي تليها في قوله: (**لا نبالي**)، وقوله: (**على من كان الحق**)؛ حيث (**على**) حرف استعلاء، والحق فوق كل أحد، فأي أحد عليه الحق، فالحق فوقه، وهو دون الحق. وفي قوله: (**قريب**) و(**بعيد**): طباق. وقوله: (**ألا، وإن الله فرض الصلاة وجعل لها شروطًا**): كما أشرنا فيما سبق - في اللطائف اللغوية -؛ إذا اعتبرنا (**الواو**) زائدة توكيدية، أو استئنافية

فلا حذف، ولا يقال: ثمة حذف؛ لأن التقدير: ألا فانتبهوا؛ لأن التنبيه حصل من معنى (**ألا**)، فهي بمعنى التنبيه. وإن كانت واو عطف، فإمَّا أن يكون العطف على محذوف مقدر كقولك: (أنبه)، أو على معنى التنبيه الذي تتضمنه أداة التنبيه، وعليه نقرر هل في الجملة فصل أو وصل. وقوله: (**إن الله فرض الصلاة**)، ولم يقل: (الصلاة فرضت)، ولا (فرض الله الصلاة)، فقدَّم اسم الله؛ ليقع في القلوب من الهيبة والإكبار لاسم الله الأعظم، ومن أجل هذا ابتدأ به. وكون الجملة اسمية دلت على الثبوت، لاسيَّما والخبر جملة فعلها ماضٍ، والفعل الماضي يدل على التحقق واليقين. وقوله: (**فمِن شروطها**): الفاء الفصيحة تعطف على محذوف، تقديره: وإن سئلت عن الشروط فمن .... وحرف الجر (مِن) للتبعيض؛ فهو يقول: سأسمي لك بعض الشروط، ثم شرع في تسميتها، فقال: (**الوضوء، والخشوع، والركوع، والسجود**). وهنا ندرك ما وقع من الاختلاف في المصطلحات الشرعية على مر العصور؛ حيث الركوع والسجود، من أركانها، وكذلك الخشوع فمن واجباتها، ولا مشاحة في الاصطلاح. وهذا الترتيب جاء مناسبا ومتناسقا، وقد ترقَّى بها من حيث المبتدأ إلى الذي يليه. وذكره لهذه الأربعة ليس اقتصارًا منه عليها - رغم أهميتها - غير أنَّ بعض ما يساويها أهمية لم يذكره؛ كالقيام واستقبال القبلة، فذكرها من باب ذكر المثال لا المهم والأهم، وليدلل على ضرورة الاعتناء بجزئيات الصلاة، ولو عددها كلها لطال المقال وكان الملال، فاكتفى بالمثال. ويجمع بين هذه الأربعة أنَّ فسادها يفسد الصلاة، وجميعها على وزن (فُعول)؛ حيث يجمعها لحن وتنغيم حسن، وهذا يسمونه في البلاغة اعتدال الوزن. وثمة سجع في كلمتي (**الخشوع**) و(**الركوع**). وربما ظنَّ الخليفة أنَّه أكثر في موعظته، فأحب أن يغيِّر أسلوبه ويصرف وجوه الناس إليه، فقال لهم: (**واعلموا أيها الناس أنَّ الطمع فقر**)،

وِمِن أجل ذلك احتاج إلى ندائهم فقال: (**أيها الناس**)؛ ليفيق الغافل، وينتبه مَن شَغله شاغل. وفي قوله: (**اعلموا**): يؤكد على الناس ويوجهم للسماع منه وطلب العِلم منه. وقوله: (**أنَّ الطمع فقر، والغنى يأس**): في هذه الجملة ما سبق وبيَّـنَّاه من الموازنة والمقابلة. ثم ترك الموازنة في الجملة التي تليها؛ لكسر الرتابة، ولحاجته لتكثير اللفظ من أجل بلوغ الغاية من المعنى، فقال: (**وفي العزلة راحة من خلطاء السوء**)، وهنا حصر الراحة في العزلة من خلطاء السوء، وإن لم يكن حصرًا فزيادة اهتمام؛ حيث أخَّر المبتدأ وقدَّم الخبر، ثم عاد يحثهم مرَّة أخرى ليستمعوا إليه، ويأخذوا علمهم عنه، فقال: (**واعلموا أنه**). وهذا الشيء الذي أمرهم بعلمه أكَّده حاثًّا عليه بـ (**أنَّ**) التي هي للتوكيد، وقد أشار إليه بالضمير (**الهاء**)، وهو ضمير الشأن الذي يعود على شيء لم يذكر بعد، وإنما يذكر لاحقا، ونوَّه إليه بضمير الشأن قبل ذكره؛ لتهييج النفوس، ولتتطلع إليه وتتشوق، ثم ذكره بعد ذلك بقوله: (**مَن لم يرضَ عن الله فيما أكره من قضائه، لم يؤدِّ إليه فيما يجب كنه شكره**)، وهذه جملة شرطية يتوقف تاليها على أولها؛ فمَن لم يحسن الرضا عن قَدَر الله في المكاره، لم يحسن شكر الله في كنه ما يشكر، أي: لا يحسن شكر الله عند النعم، فجعل الرضا بالسراء قرين الشكر على النعماء، فيلزم من وجود الثاني وجود الأول، ويفهم منه - إذا أعملنا مفهوم المخالفة - أنه يلزم من عدم الأول عدم الثاني. ثم عاد ليذكِّرهم بضرورة ما يقول، فوَّجه إليهم طلبًا بأن يعلموا ما يقول، مؤكِّدًا ذلك بـ (**أنَّ**) الثقيلة، فقال: (**واعلموا أنَّ لله عبادًا يميتون الباطل بهجره، ويحيون الحق بذكره**)، وفي هذه الجملة من تمام وصحة المقابلة والترصيع ما يعطي الجملة رونقا وحُسنا وجمالا؛ فقد قابل الكلمات: (**يميتون**) و(**الباطل**) و(**بهجره**) بضدها من الكلمات: (**يحيون**) و(**الحق**) و(**بذكره**) وبالترتيب. وفي الجملة حصرٌ لملكية العباد لله - تعالى -، وهذا

الحصر يدل على أنهم خالصون له من دون الناس، وجاء الحصر بتقديمه خبر (**إنَّ**) و(**لله**) على اسمها (**عبادًا**). وسبق بيان ما في المضارع من الديمومة والاستمرار في قوله: (**يميتون**) و(**يحيون**). وفي هذين الفعلين استعارة تبعية؛ ففي الأولى شَبَّه قمع الباطل بالإماتة بجامع انتهاء كل واحدة منها، ثم استعار اللفظ الدال على المشبه به وهو الموت؛ ليدل على المشبه وهو قمع الباطل على سبيل الاستعارة التصريحية، وكون الكلمة التي أجريت فيها الاستعارة مشتقة؛ سميت الاستعارة تبعية، وعليه يجوز إجراؤها بكلمة (**الباطل**)، فتقول شبَّه الباطل بكائن حي يموت، وحذف المشبه به وأبقى شيئا من لوازمه وهو الموت على سبيل الاستعارة المكنية، ومثله يقال في جملة: (**ويحيون الحق**). والباء في قوله: (**بهجره**) وقوله: (**بذكره**) للاستعانة، أي: مستعينين بذكره وهجره. وقوله: (**رغبوا فرُغبوا**): فيها حذف تقديره: رغبوا إلى الله والدار الآخرة، فرُغبوا من أهل الدنيا، وفيها ما يسمى باشتقاق اللفظ من اللفظ، وفيها جناس ناقص وسجع، ومثله يقال في الجملة التي تليها: (**رهبوا فرُهبوا**). أما الجملتان فيما بينهما ففيهما الترصيع والمقابلة والسجع والجناس الناقص؛ فهاتان الجملتان يحق أن يقال فيهما إبداع، وهو التكثير من المحسنات. وفي الجملة الشرطية: (**إن خافوا فلا يأمنوا**) ما قلناه من لزوم تاليها بلزوم أولها، وفيها طباق وحذف تقديره: إن خافوا الله والآخرة، فلا يأمنوا مكر الله - تعالى -. وقوله: (**أبصروا من اليقين ما لم يعاينوا فخلصوا بما لم يزايلوا**): (**مِن**) هي البيانية، وفي قوله: (**أبصروا**) وقوله: (**لم يعاينوا**): طباق بالسلب. و(**الفاء**) في قوله: (**فخلصوا**) تفيد التعقيب، وهذا دليل على سرعة الجزاء من الله - تعالى -. والباء في قوله: (**بما لم يزايلوا**) للتعدية، ومثالها قول الله تعالى: ﴿**ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ**﴾ [البقرة: ١٧]، فالباء جاءت بمعنى الألف المزيدة للفعل، وهي الألف التي تفيد التعدية، فيكون المعنى: أذهب

الله نورهم، وهنا: (**خلصوا بها لم يزايلوا**)؛ أي أخلصهم ما لم يزايلوا، والمزايلة: المفارقة، وهنا مفارقة الدين والحق، فيكون المعنى فأخلصهم ما لم يفارقوا من الحق والدين، ويشهد لما قلنا قوله في التي بعدها: (**أخلصهم الخوف**)، وقد تكون (**الباء**) للمصاحبة، فيكون المعنى: فخلصوا بها لا يفارقهم من النعيم في الآخرة، أي: فازوا بما لا ينقطع، وهذا له شاهد من الجملة التي تليها، وذلك قوله: (**لما يبقى عليهم**)، وقوله: (**أخلصهم الخوف فهجروا ما ينقطع عنهم لما يبقى عليهم**)؛ فقوله: (**أخلصهم**) وقوله: (**خلصوا بها**) بمعنى واحد، على أن (**الباء**) للتعدية، فنوَّع ﷺ في أسلوبه؛ ليكسر الرتابة، ويحسن اللفظ. والفاء في قوله: (**فهجروا**) للتعقيب كالتي سبقت في قوله: (**فخلصوا**)، وهذا يدل على مسارعتهم لهجران ما ينقطع من الدنيا. والكلمات: (**ينقطع**) و(**عنهم**) ضد الكلمات: (**يبقى**) و(**عليهم**)، فكانت الموازنة. واختتم عمر ﷺ هذا النَّص الطويل المليء بالبلاغة والبيان بقوله: (**الحياة عليهم نعمة، والموت لهم كرامة**)، وهذه الجملة التي فصل بينها وبين التي قبلها تُشعِر بشيء من الكلام محذوف، قد يقدر بقول: فلما فعلوا ما فعلوا وكان منهم ما كان فالحياة ... وعلى كل حال ففي الجملة فصل، والفصل هنا يعلي من رتبة الجملة الجديدة؛ لأنها تستقل بمعنى ينبغي عليها أن توفيه دون خلل، لاسيَّما إذا كان الفصل في اللفظ مع بقاء المعنى متصلا بما قبله، وهو كذلك في جملتنا، وعليه لابد من تقدير شيء يوصل طرفي الجملتين. و(**أل**) في كلمة (**الحياة**) للاستغراق، تستغرق مناحي الحياة الدينية والدنيوية، وهذا التعريف المستغرق سانده التنكير في كلمة (**نعمة**) التي تعم كل نعمة؛ فالكلمتان تدعم إحداهما الأخرى؛ هذه للاستغراق، وتلك للعموم، ومثله يقال في التي تليها. وثمة طباق في كلمتي (**الحياة**) و(**الموت**). وبعدُ: فهذا النَّص عزيز غزير مليء جميل ناضح بالبلاغة والبيان والبديع، واللغة والنحو.

[٣٠٥]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

وَقَدْ ذُكِرَ عِنْدَهُ مُعَاوِيَةُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ

«احْذَرُوا آدَمَ قُرَيْشٍ[١] وَابْنَ كَرِيمِهَا؛ فَإِنَّهُ لَا يَنَامُ إِلَّا عَلَى الرِّضَا، وَيَضْحَكُ عِنْدَ الْغَضَبِ، وَيَتَنَاوَلُ مَا فَوْقَهُ مِنْ تَحْتِهِ»[٢].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: ليس في النَّص مما يبيِّن الحال التي قيل فيها هذا النَّص أزيد من أن معاوية ذُكر عند عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال فيه ما قال، ولم يبين النَّص بأي شيء ذكر معاوية عند عمر رضي الله عنه.

البيان والبلاغة: لما ذُكر معاوية عند عمر رضي الله عنه، وهو رجل من كُرماء مكة، فهو ابن أبي سفيان سيِّد مكة في الجاهلية، وهو معاوية بن أبي سفيان خال المؤمنين في الإسلام، وكاتب الوحي، راح عمر رضي الله عنه وهو رجل من العظماء - يقيِّم ابن أبي سفيان - وهو من العظماء جاهليةً وإسلامًا -، والناس مصغية ماذا سيقول هذا الرجل الذي كلامه لا يمحوه التاريخ عن رجل سيبقى في ذاكرة التاريخ؟! فقال ابن الخطَّاب: (**احذروا آدم قريش**)، وهنا تتشعب الفكرة، وينزل كل جزء منها في وادٍ، أيحذرون صاحب بطش وقوة، في غضبته هلكة وضياع؟! أم يحذرون فارسًا إذا زجر الخيل لم تدبر إلا وللسيف رواء، أليث الغاب، أم طامي العباب؟! ثم يتم

١- في «تاريخ الطَّبريِّ» وغيره: (فَتَى قُرَيْشٍ).
٢- «أنساب الأشراف» ٥/ ٤٩ [ونحوه في عيون الأخبار ١/ ٩، وقد نُسب لعمرو بن العاص أيضا].

عمرُ رضي الله عنه قوله واصفًا إيَّاه: **(وابن كريمها)**، وهنا تخِفُّ الحِدَّة وتتغير الفكرة؛ حيث هوَّن الثناء عليه مما قد تذهب به الظنون. ثم شرع عمرُ رضي الله عنه يبيِّن ماذا يحذرون من أمر معاوية، فقال: **(فإنَّه لا ينامُ إلا على الرِّضا)**، وهذه الجملة بيَّنت الغموض في التي قبلها؛ حيث استعمل الفاء التي هي للسببية، وفصَّلت المجمل؛ حيث الحذر لا من باطش ولا جبَّار، ولكن من رجل لا ينام إلا راضيًا، فالجملة كناية عن صفة وهي الحِلم، ذلك أنه لا ينام واجدًا على خصمه ولا لائمًا أو معتبًا، أو هي كناية عن سرعته في استيفاء حقِّه والثأر لنفسه؛ فهو لا ينام حتى يرضى باستيفاء حقه ممن أساء إليه. وقوله: **(على الرِّضا)**، وقد علمنا أنَّ **(على)** تفيد الاستعلاء، فكأن الرِّضا أصبح - تحت معاوية - فراشًا ينام عليه، فهو متاع يملكه ويتخذه متى شاء. والجملة التي وصفت نومه على الرضا جاءت بصيغة الحصر؛ حيث حصرت النَّوم على الرضا لا على غيره، ليس هذا فحسب بل يزيده عمرُ رضي الله عنه وصفًا، فيقول: **(ويَضْحَكُ عِنْدَ الغَضَبِ)** وهذه أشد من صاحبتها، ألَّا تنام إلا راضيًا يسهل من حيث إن في الزمن ما يكفي للحليم أن ينام راضيًا، فلو خوصم أول النهار رضي آخره، ولكن أن يرضى عند الغضب فهذه أكبر من تلك، وبذا يكون عمر رضي الله عنه قد استعمل في وصف معاوية التَّرقِّي؛ وهو الوصف من الأدنى إلى الأعلى. وقد يكون المقصودُ بقوله: **(ويَضْحَكُ عِنْدَ الغَضَبِ)**: أنَّ معاوية رضي الله عنه يستطيع إخفاء غضبه حتى يفاجئ خصمه باستيفاء حقِّه منه. وقوله: **(عند)** ظرف يدل - هنا - على الزمان، فضحك معاوية وغضبه متلازمان في آن واحد. ثمَّ يتابع عمر رضي الله عنه قائلا: **(ويتناول ما فوقَه من تحتِه)**، وهذه الثالثة لعلها هي السبب في التحذير من معاوية، وهي قدرته بحلمه على الغلبة والظفر؛ حيث لا يأخذ الناس من فوقهم فيتنبهون، وإنما يأخذهم من تحتهم من حيث لا يبصرونه، بحيث يغفلون عنه.

واستعماله الاسم الموصول (**ما**) بدل (مَن)؛ لأنَّ في (ما) عموم أكثر من الاسم الموصول (مَن)؛ حيث (**مَن**) تدل على ذات مَن يعقل، و(**ما**) تدل على ذات مَن لا يعقل وصفة مَن يعقل. وهذا النص فيه دليل على حلم معاوية ﵁ وذكائه وقوة حيلته وسياسته ومقدرته على التحكم في نفسه وفي غضبه. وجاءت جُمل هذا النَّص موجزة من حيث اللفظ، غزيرة المعنى، ليس فيها إيجاز بالحذف، وإنما فيها إيجاز بلاغي، وهو ما يسمَّى بإيجاز القِصَر؛ وهو: ذكر المعنى الكثير في اللفظ القليل، كما خلتْ من الإطناب، وخلوها من القصر والإطناب يسمى بالمساواة؛ فهو لم يحتج للإيجاز لضرورة الوصف، ولم يحتج للإطناب خشية ضياع المعنى المراد في القول الكثير. وفي قوله: (**الرضا**) وقوله: (**الغضب**) طباق، ومثله في قوله: (**فوقه**) وقوله: (**تحته**).

[٣٠٦]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«كُنَّا نَعُدُّ الْمُقْرِضَ بَخِيلًا، إِنَّمَا كَانَتِ الْمُوَاسَاةُ»[١].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: **(المواساة)**: قال في لسان العرب: «والمواساة: المشاركة والمساهمة في المعاش والرزق، وأصلها الهمزة فقلبت واوًا تخفيفًا ... وقيل: لا يكون ذلك منه إلا من كفاف، فإن كان من فضلة فليس بمؤاساة».

مقتضى الحال: ليس في شيء من الرِّوايات ما يبيِّن الحال والزمان والمكان الذي قيل فيه هذا النَّص.

لطائف لغوية: قوله: **(إنَّما)**: كافة ومكفوفة، وقد سبق الحديث عنها في الأثر رقم أربعة وستين ومئتين، فليرجع إليه المستزيد.

البيان والبلاغة: في هذا النَّص القصير يبيِّن الخليفة حال الصحابة ﵃ وما كانوا عليه من الإيثار والكرم حتى قال: **(كنَّا نَعُدُّ المُقرِضَ بَخيلا)**. واستعماله لضمير الجمع يدل على عموم الحال في الصحابة أجمعين، والضمير هنا ليس من باب الدلالة على المفرد ليكون الجمع من باب تعظيم النفس، بل هو ضمير جمع يدل على جمع. واستعماله **(كان)** يدل على انقطاع الزَّمَن، أي أنَّ هذا الشيء حاصل في الزمن الأول ثمَّ انقطع، وهذا يدلُّك على عظمة عصر الصحابة ﵃ وما امتازوا به من الكرم والجود. وجاء هذا النَّص خاليًا من الإطناب؛ حيث المعتاد على مثل هذه الجُمل أن

١- رواهُ الطَّبريُّ في «تاريخِه» ٤/ ٢١٣، والبلاذريُّ في «أنسابِ الأشرافِ» ١٠/ ٣٥٧.

تكون بلفظ (كنَّا نَعُدُّ المُقرِضَ فينا بَخيلًا)، فجاء النَّص خلوًّا من زيادة كلمة (فينا)، ولو وردت هذه الكلمة لكانت من الإطناب الذي يفيد الاحتراز، وإنما استغنى عن هذا الاحتراز لعِلم الناس به، ومعرفتهم أنه إنما يقصد زمن الصحابة في عهد رسول الله ﷺ، فإذا كان المقرض بخيلًا، فماذا كان الحال يومئذ؟ وما هو معهود في أيامنا هذه أن المقرضين من أكرم الناس، وقلَّما تجد في هذا الزمان مَن يُقرِض! الجواب يأتي من تمام قول عمر رضي الله عنه؛ حيث يقول: (**إنَّما كانت المواساة**)؛ حيث حصرت الجملة النَّفقة في المواساة، وهذه الجملة مؤكَّدة بـ (**إنَّ**) ولم تكفَّها (**ما**) الكافَّة عن التوكيد، وإنما كفَّتها عن العمل لا عن المعنى. وفي الجملة إيجاز بالحذف تقديره: إنما كانت الحال مواساة الفقير للغني، هذا على اعتبار (**كان**) ناقصة، وعلى اعتبارها تامَّة فلا حذف ويكون المعنى (إنما وُجدت المواساة). ودلَّت كلمة المواساة على معنى العطيَّة بلا ثمن ولا مقابل، كما مرَّ من كلام ابن منظور، وأنَّ مَن أعطى ما زاد عن حاجته ليس معطيًا عندهم ولا مواسيًا، إنما المواساة تكون مع الكفاف والخصاصة. وقد حوى النص جملتين قصيرتين موجزتين، بينهما تشارك وارتباط؛ حيث جاءت الثانية معلِّلة ومبيِّنة للأولى، وكانت العلاقة بينهما علاقة المقدمة بالنتيجة.

[٣٠٧]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

فِي الِاسْتِخْلَافِ مِنْ بَعْدِهِ

«إِنَّ اللهَ - عَزَّ وَجَلَّ - يَحْفَظُ دِينَهُ، وَإِنِّي لَئِنْ لَا أَسْتَخْلِفْ؛ فَإِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَمْ يَسْتَخْلِفْ، وَإِنْ أَسْتَخْلِفْ فَإِنَّ أَبَا بَكْرٍ قَدِ اسْتَخْلَفَ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يبدو أنَّ الخليفة قال هذا القول مرَّتين، ولكل مرَّة مناسبة، وننقل كلتيهما من رواية مُسلم. أمَّا الأولى فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «دخلتُ على حفصة، فقالت: أعلمتَ أنَّ أباك غير مستخلف؟ قال: قلتُ: ما كان ليفعل. قالت: إنه فاعل. قال: فحلفت أني أكلمه في ذلك، فسكتُّ حتى غدوتُ ولم أكلِّمه. قال: فكنت كأنما أحمل بيميني جبلا حتى رجعتُ فدخلتُ عليه، فسألني عن حال الناس وأنا أخبره، قال: ثمَّ قلت له: إني سمعتُ النَّاس يقولون مقالة، فآليتُ أن أقولها لك، زعموا أنك غير مستخلف، وإنه لو كان لك راعي إبل، أو راعي غنم، ثم جاءك وتركها رأيت أن قد ضيَّع فرعاية الناس أشد، قال: فوافقه قولي، فوضع رأسه ساعة، ثم رفعه إلي، فقال: ...» ثم ذكر النَّص. وأمَّا والرواية الثانية؛ فعن ابن عمر - أيضًا - قال: قال: حضرتُ أبي حين أصيب، فأثنوا عليه، وقالوا: جزاك الله

١- رواهُ مسلمٌ في «صحيحِه» (١٨٢٣)، وأحمدُ في «المُسنَدِ» (٣٣٢)، وعبدُ الرَّزَّاقِ في «المُصنَّفِ» (٩٧٦٣)، وأبو عوانةَ في «المُسنَدِ» (٧٠٠٢)، وأبو نعيمٍ في «حِلْيةِ الأولياءِ» ١/ ٤٤، والبيهقيُّ في «السُّنَنِ الكُبرَى» (١٦٥٧٢)، وابنُ عساكرَ في «تاريخِ دمشقَ» ٤٤/ ٤٣١-٤٣٢.

خيرًا، فقال: راغب وراهب، قالوا: استخلف، فقال: «أتحمَّل أمركم حيًّا وميِّتًا، لوددتُ أن حظي منها الكفاف، لا عليَّ ولا ليَ ...» ثم ذكر النَّص.

لطائف لغوية: ورد في النَّص قوله: (**لئن لا أستخلِف**): واللام في قوله: (**لئن**) تسمَّى الموطِّئة للقَسم، وقد عارَض بعضُهم ذلك، ونقلنا هذا الخلاف في شرح النَّص رقم ثمانية وأربعين ومئتين، فليراجعه المستزيد. و(**الفاء**) في قوله: (**فإنَّ رسول الله** ﷺ) هي التي تقع في جواب الشرط. ولبيان متى ترتبط الفاء بجواب الشرط راجع النَّص رقم خمسة عشر ومئتين. و(**قد**) في قوله: (**قد استخلف**): تأتي - كما يقول النحاة - مع الماضي للتوكيد ومع المضارع للشك. وليس ذلك مضطردًا بل ربَّما خالفت ذلك، وانظر هذه المسألة في شرح النَّص رقم خمسة وثمانين ومئتين.

البيان والبلاغة: افتتح عمر رضي الله عنه خطابه بقوله: (**إن الله - عزَّ وجلَّ - يحفظ دينه**)، مفتتحًا هذه الجملة بـ (**إنَّ**) التي للتوكيد، وقد تكلَّمنا عليها كثيرًا. وجملة: (**عزَّ وجلَّ**) معترضة، وهذا النوع من الجُمل من الإطناب الذي يُراد به الذِّكر إن كان بعد لفظ الجلالة، ويكون للدعاء إن كان بعد اسم نبي أو رسول أو صحابي أو أحد السلف الصالحين، كما هو الحال في جمل: (ﷺ)، و(رضي الله عنه)، و(رحمه الله)، ونحوها. وقوله: (**يحفظ دينه**): فعل مضارع يدل على الاستمرار والتجدد فيدل على أن الله - تعالى - حافظ دينه دون انقطاع وأنه لا يتخلى عنه، كما دل على ذلك قول الله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩]، وقوله تعالى: ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [الصف: ٨]. وقول عمر رضي الله عنه: (**دينه**): أضاف الدين إلى الله - تعالى -؛ حيث الدين كله لله، وهو أولى به، وهذا توكيد من الخليفة على صحة اعتقاد المسلمين، وأن دينهم ليس

محرَّفًا من عند البشر كسائر ما حُرِّف من الأديان. ثم استأنف الكلام بجملة جديدة مبتدئًا بـ (**الواو**) التي للاستئناف، فيقول: (**وإني لئن لا أستخلف**)، وقلنا: كثيرًا إن الاستئناف بين الجُمل لا يقطع صلتها بالتي قبلها، فلا نحتاج للوصل بين الجمل وربطها بحروف الربط الواصلة بينها لتكون مترابطة في المعنى، وإن الجمل المفصولة والجملة المستأنفة جزء منها ليتصل بعضها ببعض؛ لما بينها من المعنى المترابط الذي بعضه يأخذ بعنق بعض، كما يقول الزمخشري. والجملة كالتي سبقتها تبدأ بالتوكيد، غير أن هذه الجملة فيها تأكيدات ثلاثة: (**إنَّ**) الثقيلة، و(**اللام**) التي هي لتوطئة القسم المحذوف، والقسم المحذوف، وهذا التكثير من التوكيد استدعاه ما في الأمر من الأهمية؛ حيث هو لاتخاذ خليفة من المسلمين. وهذه الجملة شرطية يلتزم أحد طرفيها بالآخر وينبني عليه؛ فالطرف الأول من الشرط هو عدم استخلاف عمر رضي الله عنه أحدًا بعده، وهذا مبني على أنَّ رسول الله ﷺ لم يستخلف بعده أحدًا، وهذا اللازم الثاني من الشرط في قوله: (**فإن رسول الله ﷺ لم يستخلف**) وهذا الارتباط برسول الله ﷺ وبفعله دلَّ عليه الشرط. ومثله التزام طرفي الشرط في الجملة التي تليها، وهو قوله: (**وإن أستخلف فإن أبا بكر قد استخلف**)، وهذا تمسك أيضًا بسنة أبي بكر رضي الله عنه. وقوله: (**قد استخلف**): (**قد**) تفيد التحقيق والتوكيد، وهذا – بالفعل – ما كان؛ فإن أبا بكر رضي الله عنه قد استخلف، ولعلَّ عمر رضي الله عنه لشدة حبه لصاحبيه نحى منحى وسطًا فهو لم يستخلف أحدًا بعينه، كما أنَّه لم يترك الاستخلاف كافَّة، وجاء بفعل وسط بين الاستخلاف وتركه فخيَّر الناس بين ستة من أفاضل أصحاب النبي ﷺ. وفي قوله: (**لا أستخلف**) وقوله: (**لم يستخلف**) معًا، وقوله: (**استخلف**) طباق بالسلب، كما أن كلمة: (**يستخلف**) دارت في هذا النَّص القصير أربع مرَّات؛ وذلك كونها محور الحديث. وفي النَّص من الإيجاز ما بلغ أنه – على قلَّة ألفاظه – عبَّر عن نيَّته لفعل أو عدم فعل أمر عظيم من أمور الإسلام، ألا وهو الاستخلاف.

[٣٠٨]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ: تَغَيَّرُ الزَّمَانِ، وَزَيْغَةُ عَالِمٍ، وَجِدَالُ مُنَافِقٍ بِالْقُرْآنِ، وَأَئِمَّةٌ مُضِلُّونَ يُضِلُّونَ النَّاس بِغَيْرِ عَلْمٍ»(1).

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: ليس في الروايات ما يبين سبب أو حال أو زمان أو مكان قول هذا النَّص.

لطائف لغوية: قوله: **(ما أخاف)** مصدر مؤول، وقد مرَّ الكلام عليه وبيان فوائد استعماله في النَّص رقم أربعة وتسعين ومئة، فليراجعه المستزيد.

البيان والبلاغة: افتتح عمر ﷺ خطابه بقوله: **(إنَّ أخوف ما أخاف عليكم)**، وقد سبق نقاش ما في هذه العبارة في النَّص رقم تسعة وخمسين ومئتين وغيره. وقوله: **(تغيُّر الزَّمان)** فهذه أوَّل ما يخافه الراعي على رعيَّته، وهي أن يتغير الزمان، ولكن هل الزمان يتغير؟ ثم لو تغيَّر الزمان فإنَّ ذلك يكون باختلاف الليل والنهار، فماذا يضر أو ينفع؟ إذن هو لم يُرِد تغيُّر الزمان، ولكن مَن حلَّ فيه من الناس؛ فهو أراد الحالَّ فيه وأطلق المحل، وهذا مجاز مرسل علاقته الحالية، ولذلك الله – تعالى – في الحديث القدسي عن الذي يسب الدهر: «**يُؤْذِيْنِي ابْنُ آدَمَ**»؛ لأن الزمان نفسه لا يعمل شيئًا ولكن الله – تعالى – يبدل فيه ما يشاء، والناس بأيديهم يصنعون ما يشاءون. أمَّا الثانية: فـ **(زيغة عالم)**، وكما يقال: زلَّة العالِمِ زلَّة عالَمٍ، والعلماء

١- رواهُ أبو الجهمِ في «جُزئِه» ص٥٤، وابنُ عبدِ البرِّ في «جامعِ بيانِ العلمِ» (١٨٦٧)، والآجُرِّيُّ في «تحريمِ النَّردِ والشِّطرنجِ والملاهي» (٤٩).

هم الرأس في هذه الأمَّة، وفسادهم يؤذن بفساد الأمَّة. والثالثة: **(وجدال منافق بالقرآن)**، وذلك لما يخلفه الجدال الذي يتولاه المنافقون من إخفاء الحق، والطعن في دين الله - تعالى - وكتابه، وتأويل النَّص على غير مراده، والتشكيك بمسلَّمات الدِّين والنَّصوص، وزرع الفتن في نفوس الناس، وزعزعة اتصال الناس بدينهم. وفي الجملة حذف تقديره: وأثر جدال المنافق بالقرآن. والرابعة: قوله: **(وأئمة مضلُّون يضلون النَّاس بغير علم)**: لما فرغ من ذكر الذين يختصون بالعِلم من العلماء، أو المشككين فيه من المنافقين = ذكر أهل الرياسة والسياسة، وهم رؤساء النَّاس في شئون الدنيا، وهم كالعلماء يفسد ويصلح الزمان بهم؛ فالله - تعالى - يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن، كما صح عن عمر وعثمان رضي الله عنهما . وفي هذه الرابعة زاد عن الأمور الثلاثة السابقة بأنَّه لم يكتفِ بذكر الأئمة المضلين، وإنما فسَّر سبب ضلالهم بقوله: **(يضلون الناس بغير عِلم)**، فكشف لنا ما وقع في الجملة من الإبهام؛ حيث بيَّن كيف يُضل الأئمة المضلون الناس، فجاءت جملة **(بغير علم)** لبيان ذلك. فترتيب المذكورات في الجملة جاء متناسقًا ومتناسبًا؛ حيث ذكر في الأولى الأعم وهم سواد الناس في قوله: **(تغير الزمان)**، ثم بدأ يعطف الخاص على العام، فذكر صنفين منه، وهذان الصنفان كلاهما ممن يختص بدين الله - تعالى -، وهم العلماء والمنافقون، وذَكَر العالِم الزائغ عن دين الله قبل المنافق؛ حيث ضرره أكبر، ثم ذكر أهل الرياسة والسلطة، وكل العطف كان من باب عطف الخاص على العام. وذكر في النَّص الأحوال السابقة مبتدءًا بالمصدر **(تغير)**، و**(زيغة)**، و**(جدال)**، وفي الرابعة لم يقل: (ضلال الأئمة)، وهذا الخروج عن النسق أقل ما يستفاد منه التنويع، وكسر الرتابة، وقد يقال إن أئمة الضلال هم بأنفسهم فساد عريض؛ لما كثر فيهم الضلال والزيغ، وبهم يصلح الناس وبهم يفسدون، فقدَّمهم للتنويه بشأنهم.

[٣٠٩]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

لِكَعْبِ الْأَحْبَارِ، وَقَدْ نَشَرَ أَمَامَ عُمَرَ التَّوْرَاةَ وَسَأَلَهُ: أَيَقْرَؤُهَا؟

«إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّهَا التَّوْرَاةُ الَّتِي أُنْزِلَتْ عَلَى مُوسَى يَوْمَ طُورِ سَيْنَاءَ، فَاقْرَأْهَا آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ، وَإِلَّا فَلَا». فَرَاجَعَهُ كَعْبٌ، فَلَمْ يَزِدْهُ عُمَرُ عَلَى ذَلِكَ[١].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: قوله: **(آناء الليل وآناء النهار)** :قال القرطبي في تفسيره: «آناء الليل: ساعاته، وأحدها إنى وأنى وإني».

مقتضى الحال: جاء في رواية أبي مصعب الزهري لموطأ مالك بيان سبب هذا القول، فقال: «عن زيد بن أسلم، أنه قال: جاء كعب الأحبار إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقام بين يديه، فاستخرج من تحت يده مصحفًا، قد تشرمت حواشيه، فقال: يا أمير المؤمنين، في هذه التوراة فأقرؤها؟ فقال عمر: ...» هذا النَّص.

لطائف لغوية: في قوله: **(وإلا فلا)**: جملة شرطية حذف فعلها وجوابها. قال الأستاذ سعيد الأفغاني في «الموجز في قواعد اللغة العربية» في بيان الجملة التي يحذف فيها فعل الشرط وجوابه: «الفعل والجواب معا: يجوز حذفهما إن بقي من جملتيهما ما يدل عليهما مثل: (مَن يُلبِّك فأكرمه، ومَن لا فلا)، والأصل: (وإن لم يفِ فلا تعطه)».

١- رواهُ مالكٌ في «الموطَّإ بروايةِ أبي مصعبٍ الزُّهريِّ» (٢٧٥).

البيان والبلاغة: رد عمر ﵁ على كعب الأحبار فجعل الجواب بصيغة الشرط، الذي فيه قيام شيء على تحقق آخر؛ فأمَّا الأول مما يجب الالتزام بوجوده هو: أن تعلم بأنَّ هذه التوراة قد أنزلت على موسى، والشيء الثاني: قراءتها إذا تحقق الأول، فيتوقف على الإذن بقراءة التوراة أن تستيقن العِلم بأنها هي المنزَّلة من عند الله – تعالى – على نبيه موسى يوم الطور، ويلزم من فساد الأول فساد الثاني، وعدم تحقق الأول يلزم منه عدم تحقق الثاني. وقوله: (**تعلَم**): يريد العِلم الذي يفيد اليقين وينافي الشك، وناسب بعد العِلم أن يأتي بأداة التوكيد (**أنَّ**) فهي تؤكِّد للعِلم وتثبته. وفي قوله: (**التوراة التي أنزلت على موسى يوم طور سيناء**): هذه الجملة تفيد الاحتراز والاحتراس من ذهاب الذهن إلى توراة أخرى غير التي نزلت على موسى؛ حيث المراد – هنا – التوراة المحرَّفة التي يتداولها معاشر يهود، وفي هذا إثبات منه أن هذه التوراة التي يتداولها اليهود خالطها التحريف. وفي قوله: (**يوم طور سيناء**): احتراز أكثر خصوصية؛ حيث التوراة التي نزلت على موسى كان نزولها في طور سيناء، لا في مكان غيره، وهذا الاحتراز نوع من الإطناب. وقوله: (**فاقرأها آناء الليل وآناء النهار**): هذا هو الطرف الثاني للشرط، الذي لا يتم إلا بعد تحقق الطرف الأول منه، والطرف الثاني هو الإذن لكعب الأحبار أن يقرأ التوراة آناء الليل وآناء النهار. وهو لم يقل: (آناء الليل والنهار)، بل كرر لفظة (**آناء**)؛ لاختلاف آناء الليل عن آناء النهار؛ حيث آناء الليل أشد وطأ وأقوم قيلا. وفي كلمتي (**الليل**) و(**النهار**) طباق. وقوله: (**وإلا فلا**): هذه الجملة شرطية حذف فعل الشرط وجوابه فيها، وتقدير الكلام فيها: وإلا علمت بأنها التي نزلَت على موسى يوم طور سيناء فلا تقرأها. وفي هذا الحذف تسهيل في اللفظ على المتكلم والسامع، مع الدلالة على المعنى، وترك السامع للتخمين في معرفة المحذوف الذي قد يسهل على المتكلم تكثير أو

تورية المعاني في الكلام، ويستطيع السكوت على ما لا يريد الحديث عنه. وقد صحَّ وتمَّ الحذف في جملتنا؛ لدلالة الذي قبله عليه، والذي قبله جملة شرطية مثله، غير أنها جملة ذُكِر فيها فعل الشرط وجوابه.

[٣١٠]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

لِكَعْبِ الْأَحْبَارِ، حِينَ نَزَلَ بَيْتَ الْمُقْدِسِ

«أَيْنَ تُرَى أَنْ أُصَلِّيَ؟» فَقَالَ: إِنْ أَخَذْتَ عَنِّي؛ صَلَّيْتَ خَلْفَ الصَّخْرَةِ، فَكَانَتِ الْقُدْسُ كُلُّهَا بَيْنَ يَدَيْكَ. فَقَالَ عُمَرُ: «ضَاهَيْتَ[1] الْيَهُودِيَّةَ! لَا، وَلَكِنْ أُصَلِّي حَيْثُ صَلَّى رَسُولُ الله ﷺ»، فَتَقَدَّمَ إِلَى الْقِبْلَةِ فَصَلَّى، ثُمَّ جَاءَ فَبَسَطَ رِدَاءَهُ فَكَنَسَ الْكُنَاسَةَ فِي رِدَائِهِ، وَكَنَسَ النَّاس[2].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: قوله: (ضاهيت): قال الجوهري في الصحاح: «المضاهأة: المشاكلة، يقال: ضاهأت وضاهيت يهمز ولا يهمز، وقرئ بهما قوله تعالى: ﴿يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [التوبة: ٣٠]».

مقتضى الحال: المكان بيت المقدس، والحال أن عمر رضي الله عنه لما دخل بيت المقدس سأل عن الصخرة فأُرشِد إلى مكانها، وكنس المكان حتى اتضحت الصخرة وكانت مطمورة، فسأل عمرُ رضي الله عنه كعبَ الأحبار عن موضع الصلاة، ودار بينهما ما هو موجود في النَّص.

١- قالَ ابنُ الأثيرِ في «النِّهايةِ» ٣/ ١٠٦: (أي: شَابهتَها وعارضتَها).

٢- رواهُ أحمدُ في «المُسنَدِ» (٢٦١)، والقاسمُ بنُ سلَّامٍ في «الأموالِ» (٤٣٠)، وابنُ زَنْجُوَيْهِ في «الأموالِ» (٦٤٠)، وابنُ عساكرَ في «تاريخِ دمشقَ» ٢/ ١٧١ و٦٦/ ٢٨٦.

البيان والبلاغة: افتتح عمر ﷺ خطابه بسؤال لكعب الأحبار، وهو من باب سؤال الفاضل للمفضول؛ تشاورا وتواضعا، والسؤال جاء عن شعيرة مهمة من شعائر الإسلام، وهذا يزيد عمر ﷺ قيمة وعظمة؛ حيث السائل أفضل وأعلم من المسئول؛ فهو خليفة المسلمين وأحد العشرة المبشرين وأفضل الناس بعد الأنبياء والصديق أبي بكرٍ. وكون السؤال عن أهم شعيرة في الإسلام وفي أطهر البقاع في بيت المقدس، كل هذا مجتمعا لا يزيد عمر ﷺ إلا عظمة وجلالا. والسؤال هو (**أين ترى أن أصلي؟**)، والسؤال - كما يتضح من نصه - موضوعه يخص فعلا من أفعال أمير المؤمنين؛ فهو يسأله أين يصلي؟ ولما أجابه كعب جوابا لا يرتضيه لم يجامله عمر ﷺ كعادته، فهو الجريء الصلب القوّال للحق. فلما رأى أنه جانب الحق والصواب = قال له: (**ضاهيت اليهودية**)، وفي هذه الجملة إيجاز بالحذف تقديره: لما قلت ما قلت ضاهيت اليهودية بأفعالهم؛ وذلك بجعلك بيت المقدس قِبلة دون الكعبة. وقوله (**لا**): هذا ما بقي من الجملة التي حُذِف أكثرها، ولم يبق منها إلا حرف النفي (**لا**)، وتقدير الجملة: لا أفعل ما أشرتَ عليَّ، ثم استدرك على مستشاره قائلا: (**ولكن أصلي حيث صلى رسول الله ﷺ**)، وهذا الاستدراك فُهِم من أداة الاستدراك (**لكن**). و(**الواو**) استئنافية تؤسس لمعنى جديد، وناسب هذا الاستئناف أن جاء عقبه استدراك؛ حيث الاستدراك والاستئناف ينقلانك من موضوع إلى غيره، ليس مناقضا لما قبله في الاستئناف، ومناقض له في الاستدراك. وقوله: (**أصلي**): مضارع يفيد التجدد والاستمرار والحدوث، أي: سوف أستمر طيلة حياتي على فعل هذه الصلاة وأحافظ عليها. وجملة (ﷺ) إطناب؛ حيث الجملة المعترضة تفيد الدعاء.

[٣١١]
وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«إِنِّي لَأَرَى الرَّجُلَ فَيُعْجِبُنِي، فَأَقُولُ: لَهُ حِرْفَةٌ؟ فَإِنْ قَالُوا: لَا؛ سَقَطَ فِي عَيْنِي»[1].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: ليس في النَّص ما يبيِّن الحال، ولا الزمان، ولا المكان الذي قال فيه عمر رضي الله عنه هذا النَّص.

لطائف لغوية: في قوله: (**لأرى الرجل**): جاءت كلمة (**الرجل**) محلَّاة بـ (**أل**) التعريف، وفي معناها ودلالتها يقول الرعيني في متمِّمَة الآجرومية: «فصل في المعرَّف بالأداة: وأمَّا المعرَّف بالأداة؛ فهو المعرَّف بالألف واللام، وهي قسمان: عهدية وجنسية، والعهدية: إما للعهد الذكري، نحو: ﴿فِي زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ﴾ [النور: ٣٥]، والعهد الذِّهني، نحو: ﴿إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ﴾ [التوبة: ٤٠]، وللعهد الحضوري، نحو: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣]. والجنسية: إمَّا لتعريف الماهية، نحو: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأنبياء: ٣٠]، وإمَّا لاستغراق الأفراد، نحو: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨]، أو لاستغراق خصائص الأفراد، نحو: أنت الرجل علما؛ وتبدل لام (**أل**) ميما في لغة حِمْير».

١- رواهُ الدِّينوريُّ في «المُجالَسةِ وجواهرِ العلمِ» (٢٥١٧).

البيان والبلاغة: قوله: (**إنِّي لأرى الرجل فيعجبني**): ابتدأ هذا النَّص بالتوكيد بـ (**إنَّ**) ثم بـ (**اللام**) التي للتوكيد؛ ليجتمع في النَّص من بدايته توكيدان اثنان، ثم يبيِّن أنَّ الذي يراه رجل لا شيء غير ذلك، والذي دلَّ على ذلك تعريفه (**أل**) التعريف التي هي لبيان ماهية الجنس؛ كيلا يظنُّ الظانُّ أنَّه شيء من غير جنس الرجال. واقتضى التنويه على ذلك بسبب ما وقع في الجملة من الكلام بعد ذلك، فهو يقول بأنه: (**يسقُطُ من عَينِه**). وقد بيَّن أنَّ هذا الرجلَ يدخل قلبه دون تريُّث ولا تمهُّل، ما إن يراه حتى يعجبه، والذي دلَّنا على هذه العجلة في الإعجاب = (**الفاء**) والتي هي للعطف، وتفيد الترتيب والتعقيب، فهذا الرجل يملك من السِّمات والصِّفات ما يجعل رائيه يحبه بلا تمهُّل، ولكن عمر ﵁ لم يبيِّن لنا أي شيء أعجبه بالرجل، هل هو حسن منظر ومظهر، أم حسن خُلُق وعقل ودِين، أم كل هذا؟ ثم يجد أنَّ هذا الإعجاب الذي كان بادي الرأي ما يلبث أن يضمحل ويصير بددا، يبدده جواب المسئول، وقد قيل له: له حرفة؟ فيقال: لا، فما يعود عمر ﵁ به معجبا. وبذا يبدد عمر ﵁ نظرية من نظريات الإعجاب والحب، وهي التي تقول: (الحب أعمى)؛ ليقول لنا: (الحب مبصر ذو عينين واسعتين يقظتين)؛ لأن السؤال عن الحال عِلم، والعِلم بصيرة. وقوله: (**فأقول**) هذه هي (**الفاء**) التي تفيد التعقيب؛ فهو عاجل إلى السؤال؛ ليؤكد إعجابه أو يدحضه، وهذا يدلنا على أن عمر ﵁ لا يعجب إلا بما يقبل الذِّهن والعقل، لا ما يقتحم العين فيغشى على القلب فتعشى منه البصيرة. وقوله: (**فأقول: له حرفة؟**): في النَّص حذف تقديره: فأقول للناس: هل له حرفة؟ ونوع الاستفهام - هنا - حقيقي يراد منه الاستفهام، والسائل خلو من العِلم، وهو يسأل ليعلم. ثم تأتي بعد ذلك جملة شرطية، وقلنا من قبل: إن آخر جملة جواب الشرط يتوقف على تحقق أولها (فعل الشرط)، والجملة هي: (**فإن**

قالوا: لا؛ سقط من عيني). وفي الجملة إيجاز بالحذف تقديره: لا حرفة له. والجملة الأخيرة في النَّص قوله: (**سقط من عيني**): فيها كناية عن صفة، وهي الازدراء، الذي يناقض الإعجاب الذي وقع في نفسه في بداية الأمر، وقد يقال فيها استعارة تمثيلية، كما نقل الآلوسي في تفسيره عن القطب، أنه جعل المعنى في قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيۡدِيهِمۡ ﴾ [الأعراف: ١٤٩]، قال الآلوسي: «وجعل القطب ذلك من باب الاستعارة التمثيلية؛ حيث شبَّه حال النَّدم في النَّفس بحال الشيء في اليد في التحقيق والظهور، ثمَّ عبَّر عنه بالسقوط في اليد». ومثل الذي قاله القطب في اليد نقوله في العين، فنقول: حيث شبَّه حال الازدراء في النفس بحال الشيء في العين في التحقيق والظهور، ثمَّ عبَّر عنه بالسقوط من العين.

[٣١٢]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

فِي أَهْلِ الْكُوفَةِ

«أَعْيَانِي وَأَعْضَلَ بِي أَهْلُ الْكُوفَةِ؛ مَا يَرْضَوْنَ أَحَدًا وَلَا يَرْضَى بِهِمْ، وَلَا يَصْلُحُونَ وَلَا يَصْلُحُ عَلَيْهِم»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: ليس في النَّص ما يبيِّن الحال، ولا الزمان، ولا المكان الذي قال فيه عمر رضي الله عنه هذا النَّص.

لطائف لغوية: في قوله: (**أعياني وأعضل بي**) فعلان لفاعل واحد، وهذا ما يسمى بالتنازع، وقد قال في شأنه الإمام ابن هشام في شرح قطر الندى وبل الصدى: «يسمى هذا الباب باب التنازع، وباب الإعمال - أيضا -، وضابطه: أن يتقدم عاملان أو أكثر، ويتأخر معمول أو أكثر، ويكون كل من المتقدم طالبا لذلك المتأخر. مثال تنازع العاملين معمولا واحدا: قوله تعالى: ﴿ءَاتُونِيٓ أُفۡرِغۡ عَلَيۡهِ قِطۡرًا﴾ [الكهف: ٩٦]، وذلك لأنَّ ﴿ءَاتُونِيٓ﴾ فعل وفاعل ومفعول يحتاج إلى مفعول ثان، ﴿أُفۡرِغۡ﴾ فعل وفاعل يحتاج إلى مفعول، وتأخر عنهما ﴿قِطۡرًا﴾ وكل منهما طالب له. ومثال تنازع العاملين أكثر من معمول: ضرب وأكرم زيد عمرا. ومثال تنازع أكثر من عاملين معمولا واحدا: كما صليت وباركت وترحمت على إبراهيم، فـ (على إبراهيم) مطلوب لكل واحد من هذه العوامل الثلاثة. ومثال تنازع أكثر من عاملين أكثر من معمول: قوله - عليه

١- رواهُ إبراهيمُ بنُ سعدٍ في «جُزئِه» (١٤٥٥)، والفسويُّ في «المعرفةِ والتَّاريخِ» ٢/ ٧٥٤.

الصلاة والسلام -: «تُسَبِّحُونَ وَتَحْمَدُونَ وَتُكَبِّرُونَ - دُبُرَ كُلِّ صَلاةٍ - ثَلاثًا وَثَلاثِينَ»، فـ (دُبُر) منصوب على الظرفية، و(ثلاث وثلاثين) منصوب على أنه مفعول مطلق، وقد تنازعهما كل من العوامل الثلاثة السابقة عليهما. إذا تقرر هذا فنقول: لا خلاف في جواز إعمال أي العاملين أو العوامل شئت، وإنما الخلاف في المختار؛ فالكوفيون يختارون إعمال الأول لِسَبقه، والبصريون يختارون إعمال الأخير لِقُربه». وفي قوله: (**ما يرضَوْن أحدًا، ولا يَرضَى بهم**): تكررت (**لا**) بعد (ما)، وبعد (**لا**) في قوله: (**لا يصلحون ولا يصلح عليهم**)، فما فائدة هذا التكرار؟ قال ابن القيم في بدائع الفوائد في تعليقه على قوله تعالى: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾[الفاتحة: ٧]: «ما فائدة زيادة (**لا**) بين المعطوف والمعطوف عليه؟ ففي ذلك أربع فوائد: أحدها: أنَّ ذكرها تأكيد للنفي الذي تضمَّنه ﴿غَيْرِ﴾، فلولا ما فيها من معنى النفي لما عطف عليها بـ (**لا**) مع الواو، فهو في قوة (لا المغضوب عليهم ولا الضالين) أو (غير المغضوب عليهم وغير الضالين). الفائدة الثانية: أنَّ المراد المغايرة الواقعة بين النوعين، وبين كل نوع بمفرده، فلو لم يذكر (**لا**) وقيل: (غير المغضوب عليهم والضالين) أوهم أنَّ المراد ما غاير المجموع المركَّب من النوعين لا ما غاير كل نوع بمفرده، فإذا قيل: ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ كان صريحا في أنَّ المراد صراط غير هؤلاء وغير هؤلاء، وبيان ذلك أنك إذا قلت: ما قام زيد وعمرو؛ فإنما نفيت القيام عنهما، ولا يلزم من ذلك نفيه عن كل واحد منهما بمفرده. الفائدة الثالثة: رفع توهُّم أنَّ الضالين وصف للمغضوب عليهم، وأنهما صنف واحد وصفوا بالغضب والضلال، ودخل العطف بينهما كما يدخل في عطف الصفات بعضها على بعض، نحو قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون: ١ - ٣] إلى

آخرها؛ فإن هذه صفات المؤمنين، ومثل قوله: ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى ۝١ ٱلَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلى: ١ - ٣]، ونظائره، فلما دخلت (لا) عُلِم أنهما صنفان متغايران مقصودان بالذكر، وكانت (**لا**) أولى بهذا المعنى من (**غير**) لوجوه أحدها: أنها أقل حروفا. الثاني: التفادي من تكرار ... الرابع: أن (**لا**) إنما يعطف بها بعد النفي؛ فالإتيان بها مؤذن بنفي الغضب عن أصحاب الصراط المستقيم كما نفى عنهم الضلال، و(**غير**) وإن أفهمت هذا فـ(لا) أدخل في النفي منها».

البيان والبلاغة: افتتح النَّص بفعل ماض عطف عليه فعلا ماضيا مثله، والفعل الماضي يفيد تحقق الأمر وثبوته، فيقول: (**أعياني وأعضل بي أهل الكوفة**)، وهنا فعلان اثنان لفاعل واحد، وهو (**أهل الكوفة**)، والعي والإعضال كلاهما واقعان على واحد، هو أمير المؤمنين عمر ﷺ، وليس كل أهل الكوفة مَن جلب له هذا العي والإعضال، وإنما أطلق الكل وأراد الجزء، وهذا مجاز مرسل علاقته الكلية. والجملة التي تليها تبين وتفصح عن الإبهام الذي وقع فيها، وتبيِّن السبب الذي من أجله جَهِد أمير المؤمنين ﷺ، وهو قوله: (**ما يرضَوْن أحدًا ولا يرضى بهم**)، ولم يقل: (ما يرضون أحدا ويرضى بهم)، وإنما كرر النفي بزيادة (**لا**)؛ لكي يبيِّن أنَّ الرضا هنا غيره هناك، فهم لم يشتركوا برضا واحد، بل رضاه عنهم غير رضاهم عنه، فكل أنواع الرضا وأشكاله تم نفيه بين أهل الكوفة ومن يحكمهم. والفعل في الجملتين مضارع يدل على الدوام والاستمرار، وهذا هو حال أهل الكوفة، عدم الرضا بينهم وبين غيرهم مستمر غير منقطع. والجملة التي تليها (**لا يصلحون ولا يصلح عليهم**) يقال فيها ما قيل في التي قبلها، وبين الجملتين ترابط ووصل، كون الجملتين لهما المعنى نفسه، وبينهما ما سميناه بالترصيع؛ وهو توافق الوزن والتقفية بين الجملتين.

[٣١٣]

وَمِنْ كَلَام لَهُ

«أَيُّهَا النَّاس، لَقَدْ رَأَيْتُنِي وَمَا لِي مِنْ أَكَالٍ[١] يَأْكُلُهُ النَّاس، إِلَّا أَنَّ لِي خَالَاتٍ مِنْ بَنِي مَخْزُوم، فَكُنْتُ أَسْتَعْذِبُ لَهُنَّ الْمَاءَ، فَيُقَبِّضْنَ لِيَ الْقَبَضَاتِ مِنَ الزَّبِيبِ». ثُمَّ نَزَلَ عَنِ الْمِنْبَرِ، فَقِيلَ لَهُ: مَا أَرَدْتَ إِلَى هَذَا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؟ قَالَ: «إِنِّي وَجَدْتُ فِي نَفْسِي شَيْئًا، فَأَرَدْتُ أَنْ أُطَأْطِئَ مِنْهَا»[٢].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: قوله: (**لقد رأيتُني**): قال ابن حجر في فتح الباري: «بضم المثناة؛ والمعنى: رأيت نفسي». وقوله: (**وما لي من أَكال**): قال الأزهري في تهذيب اللغة: «وما ذقت أكالا، أي: ما يؤكل»، وقال في موضع آخر: «أبو عبيد عن الأصمعي: ما ذُقتُ أكالًا ولا لَمَاجًا ولا شَمَاجًا، أي: ما أكلتُ شيئًا».

مقتضى الحال: كما هو مبين في النَّص؛ أنَّ الخليفة خشي على نفسه شيئا من العُجب؛ فأراد أن يُهذِّب نفسه ويردها إلى دينها وتواضعها، وكما ورد في الروايات أنَّه رقي المنبر، وجمع الناس، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال هذا النَّص.

لطائف لغوية: اللام في قوله: (**لقد رأيتُني**)، سبق الحديث عنها وعن فائدتها عند شرح النص رقم تسعة وستين ومئة. وقوله (**أستعذِب**)، وهي من الفعل (استعذَب) الذي أصله الثلاثي (عَذَب)، وقد زيدت إليها السين والتاء قبلها همزة

١- الأكال: يقالُ: ما ذقتُ أَكالًا، بالفتح، أي: طعامًا. «الصّحاح» ٤/ ١٦٢٥.

٢- رواهُ ابنُ سعدٍ في «الطَّبقاتِ الكُبرَى» ٣/ ٢٩٣، وابنُ عساكرَ في «تاريخِ دمشقَ» ٤٤/ ٣١٥.

وصل، ويأتي هذا الوزن لمعانٍ، راجع لها النَّص رقم سبعة وخمسين ومئة. وقوله: **(قبَضات)** بفتح الباء، لا بإسكانها. وقد سبق بيان القول فيها: متى تسكن ومتى تفتح، فراجع له النَّص رقم ثمانية ومئة.

البيان والبلاغة: افتتح عمر ﷺ خطابه بقوله: **(أيها الناس)** وقد سبق في النَّص رقم اثنين وثلاثين ومئتين الحديث عن قوله: **(أيها الناس)**. أمَّا قوله: **(لقد رأيتني ومالي من أكال يأكله الناس)**: هذه الجملة فيها توكيدان: **(اللام)** التي للابتداء، و**(قد)** التي للتحقيق والتوكيد، والقَسَم المحذوف توكيد ثالث لمن يقول بأن اللام التي ترتبط بـ **(قد)** لام قسم محذوف. وهذه التوكيدات سيقت مقدمة لقوله: **(رأيتُني)**، وهذه عبارة يستخدمها العرب في الإخبار عمَّا وقع منهم من الحدث، وهي - كما مرَّ - بمعنى (رأيت نفسي). والمعتاد أنَّ الإنسان إذا فعل فعلا فإنه لا يخبر به بقوله: (رأيتني) أو (رأيت نفسي)، وإنما يستخدم هذا التعبير في الحديث عن فعل غيره، فيقول: رأيت فلانا يفعل كذا وكذا، فيكون حذفها من باب الإيجاز والعِلم بها، وقد ذكر الرؤية هنا من أجل التوكيد على الخبر الذي يتحدث عنه. والفعل **(رأيت)** يدل على الإدراك بحاسة البصر بالعين، وعليه يكون الخبر أكثر توكيدا؛ كونه قد شوهد بالعين. وقوله: **(وما لي من أكال يأكله الناس)**: هذه جملة حالية تبيِّن حال عمر ﷺ في تلك اللحظة من الزمن. وقوله **(أكال)** نكرة في سياق النفي تعم، و**(مِن)** حرف زائد للتوكيد، والعموم والتوكيد يبينان بجلاء الحال التي كان عليه أمير المؤمنين ﷺ؛ حيث تنفي أي نوع من الأكال - الذي يتوفر مع الناس - أن يكون موجودا عنده، وهذا الأكال، الذي هو غير متوفر قد حصر عدم توفره، عند أمير المؤمنين ﷺ؛ حيث قوله: **(لي من أكال)** تقدم فيها الخبر - وجوبا

- على المبتدأ وهذا يفيد الحصر، فقد حصر نفي وجود الأكال عنده. و(**اللام**) في قوله: (**لي**) للملك، تفيد أنه لا يملك أي نوع من الأكال قل أو كثر. وجملة (**يأكله الناس**): فيها إطناب يستفاد منه الاحتراس؛ خشية أن يظن الظان أنَّ الذي كان يفتقده هو مما يزيد عن الحاجة من المحسنات. وقوله: (**من أكال يأكله**): فيها اشتقاق اللفظ من اللفظ. وهناك ثمَّة اختلاف في المعنى بين كلمة (**الناس**) في قوله: (**أيها الناس**)، وكلمة (**الناس**) في قوله: (**تأكله الناس**)؛ حيث الأولى للناس المخاطبين ممن يسمعونه، والثانية لعموم الناس من العرب والعجم. وقوله: (**إلا أن لي خالات من بني مخزوم**): هذا الاستثناء وقع بعد النفي فأفاد الحصر؛ حيث حصر ماله وما يملكه فيما وقع بعد (**إلا**). وقوله: (**خالات من بني مخزوم**): (**من**) هي البيانية تبيِّن من أي الناس هن خالاته. وجملة (**من بني مخزوم**) فيها إطناب يراد منه الإيضاح، ورفع اللبس فلا يظن أنَّ خالاته من غير بني مخزوم. وقوله: (**فكنتُ أستعذِب لهنَّ الماء**): وقوع الفعل المضارع (**أستعذب**) بعد (**كنت**) يدل على أنه حدث أكثر من مرة، ولو كان لمرة واحدة لقال (كنت استعذبت). وزيادة السين والتاء في قوله: (**أستعذب**) تفيد الطلب، أي كنت أطلب لهن الماء العذب. وقوله: (**لهن الماء**) (**اللام**) هي التي للملك، أي: كنت أطلب الماء العذب لهن لا لغيرهن. وقوله: (**فيقبضن لي القبَضات من الزَّبيب**) يبدو أنَّ خالاته كن لا يؤخرن أجره، ويسارعن لإعطائه أجره، دلَّ على ذلك (**الفاء**) التي للعطف مع الترتيب والتعقيب. وقوله: (**فيقبضن لي القبضات**): هو من اشتقاق اللفظ من اللفظ. وقوله: (**من الزبيب**): (**مِن**) هي البيانية التي تفيد بيان الجنس؛ حيث هذه القبضات من الزبيب. وقوله: (**من الزبيب**): إطناب يفيد الإيضاح والبيان.

[٣١٤]

وَمِنْ كَلَام لَهُ

فِي عَزْلِ الْقُضَاةِ

«لَأَنْزِعَنَّ فُلَانًا عَنِ الْقَضَاءِ، وَلَأَسْتَعْمِلَنَّ عَلَى الْقَضَاءِ رَجُلًا إِذَا رَآهُ الْفَاجِرُ فَرَقَهُ»[١].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: قوله: (**فَرَقه**): قال ابن عاشور في تفسير قوله تعالى: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾ [التوبة: ٥٦]: «والفَرَق: الخوف الشديد». وقال المراغي في تفسيرها: «الفَرَق (بالتحريك): الخوف الشديد الذي يَفرُقُ بين القلبِ وإدراكِه».

مقتضى الحال: وقع في بعض الروايات عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «شكي ضعف أبي مريم الحنفي إلى عمر فأمر بعزله»، وجاء في بعضٍ آخر أنه ولَّى المغيرة بن شعبةَ رضي الله عنه. وفي هذا الأمر جاء هذا النص.

لطائف لغوية: قوله: (**إذا رآه الفاجر فَرَقَه**): (**إذا**) هنا تسمى الظرفية، وقد سبق الكلام عنها في النَّص رقم ستة وسبعين ومئة. وقوله: (**لأنزعنَّ**): أكد هذا الفعل بالنُّون، وقد سبق الحديث - في النَّص رقم اثنين وثمانين ومئة - عن شروط وجوب إضافة نون مشدَّدة آخر الفعل. وقوله: (**الفاجر**): سبق بيان معنى الفجور والفرق بينه وبين الفسق = عند شرح النَّص رقم سبعة وخمسين ومئتين.

١- رواهُ وكيعٌ البغداديُّ في «أخبارِ القُضَاةِ» ١/ ٢٧٠، والبيهقيُّ في «السُّنَنِ الكُبرَى» (٢٠٢٩٩).

البيان والبلاغة: افتتح عمر ﷺ خطابه بـ (**لام**) الابتداء التي تفيد التوكيد، فقال: (**لأنزعن فلانا عن القضاء**). ولأهمية هذا الأمر - الذي هو نزعُ قاضٍ من القضاة -؛ حيث له من القيمة الدينية والدنيوية ما يجعل أمره مُهِمًّا = اقتضى الأمر التوكيد بأحد المؤكدات، هذا لو لم نقل بأن قَسَمًا محذوفا سبق اللام، كما هو رأي كثير من العلماء، وإلا انضمَّ إلا (**اللام**) مؤكدٌ ثان، وهو القسم الذي هو اقوى في التوكيد، فيجتمع في أول الجملة - أو الفعل - توكيدان، تبعهما ثالث جاء في نهاية الفعل، وهو النون المشددة، وليس الأمر بأقل من أن يكون الفعل مسبوقا بتوكيدين، وملحوقا بثالث. وقول الراوي: (**فلانا**)، مبهما من غير تسمية: قد يكون أبا مريم الحنفي؛ حيث هو ممن عُزلوا عن القضاء لضعفهم، وقد يكون الإبهام وقع من غير عمر ﷺ، أي: من أحد الرواة، أو يكون عمر ﷺ لم يفصح عن اسم الرجل من باب الستر، والأول أولى؛ لأنَّ العزل لا ستر فيه، لاسيَّما وقد ذكر الرواة أنه عزله وأمر المغيرة أن يقضي في الناس، وكان المغيرة أمير البصرة. والجملة التالية اتصلت بهذه الجملة وارتبطت بها، وحرف الوصل بينهما (**الواو**). وقوله (**لأستعملنّ**): يقال فيها ما قيل في التي سبقتها. وفي كلمتي (**لأنزعنّ**) و(**لأستعملنّ**) طباق، وقد يكون طباق مثله بين (**عن**) و(**على**) في هذا الموضع على الأقل، فإن كان فيهما طباق، سمي مجموع الطباقين: مقابلة. وكلمة (**القضاء**): كرَّرها مرتين ولم يستعمل الضمير في المرة الثانية؛ وذلك لأهمية الكلمة ومدلولها؛ حيث القضاء من الأهمية بحيث لا يقبل التكنية والإضمار. وقوله: (**رجلا إذا رآه الفاجر فَرَقَه**): جاءت كلمة (**رجلا**) نكرة فتكون الجملة التي تليها صفة لها. وصفة هذا الرجل الذي سيوليه عمر ﷺ (**إذا رآه الفاجر فَرَقَه**): فـ (**إذا**) هنا ليست الشرطية، وإنما هي الظرفية، وهذه الجملة الظرفية الزمانية تبيِّن ارتباط فعلين بزمن واحد؛ حيث يرتبط ويتزامن خوف

الفاجر مع رؤيته للقاضي الذي سيعيِّنه الخليفة على القضاء. وقوله: **(رآه)**: لم يقل: (تقاضى إليه) أو (حكم عليه)، وإنما تكفي الرؤية لتكون رادعا لهذا الفاجر. وقوله: **(الفاجر)**: ولم يقل: (الفاسق) أو (العاصي)؛ حيث **(الفاجر)** هو المنبعث المنهمك بالمعصية، فهذا **(الفاجر)** على ما فيه من الغلظة إذا رأى القاضي يهابه ويفرَق منه. ولم يقل: (خافه)؛ حيث الفَرَق كما مر من كلام المفسرين هو الخوف الشديد، فدلَّت كلمة (فَرَقَ) على الخوف وزيادة، والزيادة هي شدة الخوف، فأن تجد رجلا إذا رآه المنبعث في المعصية انبعث في الخوف، إذن إنه لرجل شديد. وقد بينت الروايات - كما أشرنا آنفا - أن ذلك الرجل كان المغيرة بن شعبة رضي الله عنه.

[٣١٥]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

وَقَدْ قَدِمَ عَلَيْهِ نَاسٌ مِنْ أَهْلِ الْعِرَاقِ، فَرَأَى كَأَنَّهُمْ يَأْكُلُونَ تَعْذِيرًا

«مَا هَذَا يَا أَهْلَ الْعِرَاقِ؟! لَوْ شِئْتُ أَنْ يُدَهْمَقَ لِي كَمَا يُدَهْمَقُ لَكُمْ لَفَعَلْتُ[1]، وَلَكِنَّا نَسْتَبْقِي مِنْ دُنْيَانَا مَا نَجِدُهُ فِي آخِرَتِنَا، أَمَا سَمِعْتُمُ اللهَ قَالَ: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾ [الأحقاف: ٢٠]»[2].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: قوله: (**يُدَهْمَق**): قال القاسم بن سلام في غريب الحديث: «قال الأصمعي قوله: يُدَهْمَق لي؛ الدَّهْمَقَة: لِين الطعام وطيبه ورقته، وكذلك كل شيء ليِّن، قال الأصمعي: وأنشدني خلف الأحمر في نعت الأرض، فقال: جَون روابي تُربِه دهامق، يعني: تربة لينة. وقال غيره: الدهمقة والدهقنة واحد، والمعنى في ذلك كالمعنى في الأوَّل سواء؛ لأن لين الطعام من الدهقنة».

مقتضى الحال: الحال أنَّ ناسا من أهل العراق قَدِموا المدينة، فنزلوا على أمير المؤمنين عمر ﷺ، فقدَّم لهم من الطعام ما لم يرُق لهم، فجعلوا يأكلون مجاملة، فلامهم على رغبتهم في الدنيا، وبيَّن لهم أنَّ خشونة طعامه ليس إلا رغبة بما عند الله تعالى.

لطائف لغوية: في قوله: (**لفعلت**): اللام الواقعة جوابا لـ (**لو**)، سبق الحديث

١- أي: يُليَّن لي الطَّعامُ ويُجوَّد. «النِّهاية» لابنِ الأثيرِ (دهمق).

٢- رواهُ ابنُ أبي شيبةَ في «المُصنَّفِ» (٣٥٦١٢)، وأبو نعيمٍ في «حِلْيةِ الأولياءِ» ١/ ٤٩.

عنها في النَّص رقم خمسة وستين ومئة، فليرجع إليه المستزيد.

البيان والبلاغة: افتتح عمر ﵁ خطابه بقوله: (**ما هذا يا أهل العراق؟**)، مستعملا أداة الاستفهام (**ما**) وهي يُسأل بها عن ذوات ما لا يعقل وصفات ما يعقل؛ فسؤاله ليس عن شيء عاقل، فهو يسأل عن صفة شيء، أو عن ذات غير عاقلة، فكأنه يقول لهم: (صفوا لي ما تفعلون). قوله: (**هذا**) إشارة لقريب، والقرب إما أن يكون قرب زمان أو مكان أو مكانة؛ أمَّا الزمان فنعم، فالحدث شاهد بين يديه، والمكان كذلك، وأما المكانة، فليست كذلك، إلا أن يقال: لما عظم الفعل بقلبه وعقله وأنكرته حواسه، عظم حتى اقترب من نفسه فسأل عنه سؤال القريب. واستعمل لنداء أهل العراق أداة ينادى بها القريب - أيضا -، ولكن لِمَ ناداهم وهم بين يديه شاهدون؟ ذلك أن النداء ينبِّه الغافل، ويزيد يقظة المتيقظ، فهو يريد أن يقول لهم : (انتبهوا)، وزادهم من التنبيه بزائدة بأن نسبهم إلى بلدهم العراق، فلم يقل: (يا رجال) أو (أيها الناس)؛ ليبين لهم أنه إنما يخصهم بالذكر والنداء، دون غيرهم. ونسبتهم إلى بلدهم فيه ما يقرُب وما يبعُد؛ حيث قد يُقرأ الحدث بمعانٍ يعرفها من عرف علاقة عمر ﵁ بأهل العراق؛ ذلك أنهم يكثرون التشكي إليه، وهو يشكو منهم، وقد لا يكون من هذه الجانب، بل نسبهم إلى موطنهم الذي انحدروا منه وهم له محبون - لاسيَّما وهم في بلد اغتراب - وبلدهم الذي يذكرهم به سليل حضارات، فهو يرفع من شأنهم، وهذا الوجه قد يكون وجيها إذا علم أنهم كانوا لا يستسيغون طعامه. وثَمَّ تناسب في الألفاظ وتنغيم جميل في تكرار حرف المد (**الألف**) في نهايات الكلمات الثلاثة الأولى (**ما هذا يا**)، ومثله في كلمة (**العراق**)، ولحرف المد قوَّته في التنبيه؛ حيث المد يترك للمتكلم سعة تجعله يمد به الصوت

ويطيل بما يكفيه ويلبي حاجته. ومثل هذا التناسب تراه في (**الهاء**) في كلمتي (**هذا**) و(**أهل**)، مع (**العين**) في كلمة (**العراق**)؛ كون (**الهاء**) تشترك مع (**العين**) بكونهما حرفين حلقيين، وأضف إليهما (الهمزة) في كلمة (**أهل**). وفي قوله: (**أهل العراق**) مجاز مرسل علاقته الكلية؛ حيث أطلق الكل وأراد الجزء؛ كون الذين حضروا بين يديه ليسوا كل أهل العراق، بل بعضهم. وفي الجملة إطناب وإيجاز بالحذف؛ أما الإطناب ففي قوله: (**يا أهل العراق**)، وأما الإيجاز ففي قوله: (**ما هذا**)، وتقديره: ما هذا الذي تصنعون. والسؤال هنا ليس على الحقيقة؛ فهو لا يسأل ليعلم؛ لأنه رأى ما صنعوا، وإنما يسأل لينكر عليهم فعلهم، فكأنه يقول: ما هذا المنكر الذي تفعلون. وقوله: (**لو شئتُ أن يُدَهْمَق لي كما يُدَهْمَق لكم لفعلتُ**): نعلم أن (**لو**) الشرطية تدخل على الجملة فتجعلها جزأين، لا يتم جزؤها الثاني (**لفعلت**) إلا بتمام الأول (**شئت**)، وهو ما يسمى بالامتناع لامتناع؛ فقد امتنعت المشيئة فامتنع وجود (الفعل) وهو الدهمقة. ومر بنا كثيرا فائدة المصدر المؤول على الصريح: أنه يفيد في تحديد الزمان، وهو هنا في قوله (**يدهمق**) مضارع، أفاد الاستمرار والتجدد والتكرار، فهو غير منقطع، لو شاءه لاستمرَّ ليلا ونهارا. وفي قوله: (**يُدهمق**) استعمل الفعل الذي لم يُسم فاعله؛ لعدم الحاجة إلى معرفته، ولكي يجعل العقل يغور في الاستنباط والتقصي والتساؤل عمَّن سيدهمقُ لأمير المؤمنين ﵁. وهذا العموم الذي تقتضيه صيغة (ما لم يسم فاعله) تبعها خصوص، وهو قوله: (**لي**)، فكل الناس يمكن أن يكون ممن يدمهق له ﵁. وقوله: (**كما يدهمق لكم**): (**الكاف**) للتشبيه، وهو هنا تشبيه حقيقي لا مجازي، وهذه الجملة تشبه سابقتها من حيث الوزن، مع اختلاف في التقفية، وهذه هي الموازنة. وفي قوله: (**لي**) وقوله: (**لكم**) طباق. وقوله: (**لفعلت**): اللام الواقعة في جواب الشرط تفيد التوكيد، وهذا التوكيد يدل على القدرة، أي:

قدرة الخليفة على أن يفعل ما شاء؛ فخزائن الأرض بين يديه من مال الفرس والروم والشام ومصر. وهنا يتحفز العقل ليسأل: وما الذي يحبسه عما يريد؛ أَنَذْرٌ نَذَرَه، أم قُصورٌ في ذوقه فهو لا يصلح لاستعمال ملذات الدنيا، أم ماذا وراء التلة؟ وهنا يقطع عمر ﷺ توارد الفكرة في ذهن صاحبها ويستدرك عليه بحرف الاستدراك **(لكنّ)**، ملتفتا بأسلوب الخطاب من الضمير المفرد كقوله: **(شئت)** إلى ضمير الجمع فقال: **(لكنا)**، وهذا الالتفات جاء متناسقا مع ما سبق من التنبيه والتنويه الذي استخدمه في أول النَّص. وفائدة الالتفات دفع الشرود، والحث على الاهتمام بما يأتي من القول. ثم يقول لمن ذهب بعقله المذاهب كلها: **(لكنا نستبقي من دنيانا ما نجده في آخرتنا)**: وهنا انكشف الغطاء وعُلم ما في الإناء، إذن فهو الزهد وطلب ما عند الله تعالى، لله درُّك يا عمرُ. واستعمال عمر ﷺ لضمير الجمع **(نا)** في حديثه عن نفسه = لا ينافي زهده وتواضعه، والجواب عن ذلك ذو ثلاث شعب: أولها: إنما كان يقصد الجمع على حقيقته، أي: إنا معشر الصحابة ممن يسلك شعب الحق، فمن تربَّى في شِعب أبي طالب لا يدهمق طعاما، ولا يزوق بناء، ولا ينمق رداء. ثانيها: أنه أراد بهذا ألا يحمل زهدُه وتقلله من الدنيا = ألا يحملَ الناس على ازدرائه أو الاستهانة به؛ وما ينبغي للأمير أن يسمح بهذا قط؛ كي يبقي من مهابته ما يستقيم به حكمه ويُخضِع الناس له، لاسيما وهو يخاطب أهل العراق ويعلم ما فيهم من النُّفور والإباء. ثالثها: أنه لما كان يتحدث عن قدرته وسلطته وأنه لوشاء لفعل، ناسب أن يعظِّم من ذاته؛ كي يدرك سامعه أنه قادر مستطيع، وخلو يديه من زينة الدنيا ورياشها ليس إلا من زهده لا ضعفه. والتناسب في اللفظ والوزن بين جملتي **(نستبقي من دنيانا)** و**(ما نجده في آخرتنا)** مع اتحاد الوزن يسمى ترصيعا، وفيهما مقابلة؛ فالكلمات **(نستبقي)** و**(دنيانا)** ضد **(نجد)** و**(آخرتنا)** وبالترتيب. وهو يرد

عليهم تعذيرهم بملامة وإنكار، فينكر عليهم ما ينكرون، وذلك بسؤاله لهم (**أما سمعتم الله...؟**)؛ حيث السؤال هنا لم يخرج على الحقيقة، وإنما خرج مخرج الإنكار عليهم، فكأنه يقول لهم: هل غاب عنكم قول الله تعالى؟ وجاء الفعل (**سمعتم**) ماضيا ليدل على الثبوت وانتهاء الأمر، فهو يقول لهم كان ينبغي أن تكونوا سمعتم وأجبتم. وهذا يبين أن معنى (**سمع**) هنا قد تكون بمعنى استجاب كقولنا: سمع الله لمن حمده، وإن كانت بمعناها الظاهر فتدل على محذوف؛ لأنه لا يسألهم عن مجرَّد السماع، وإنما عن تلبية ما في الآية من معنى. وهذا النَّص سبق له شبيهان: النَّص رقم ستة وثلاثين ومئتين، ورقم اثنين وأربعين ومئتين.

[٣١٦]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

لِأَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ، وَقَدْ دَخَلَ عَلَى عُمَرَ وَمَعَهُ كَاتِبٌ نَصْرَانِيٌّ

«لَا تُكْرِمُوهُمْ إِذْ أَهَانَهُمُ اللهُ، وَلَا تُدْنُوهُمْ إِذْ أَقْصَاهُمُ اللهُ، وَلَا تَأْتَمِنُوهُمْ إِذْ خَوَّنَهُمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: لهذا الحديث قصة ومناسبة جاءت بها الروايات، نورد منها ما جاء في السنن الكبرى للبيهقي: «أن أبا موسى وفد إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنهما، ومعه كاتب نصراني، فأعجب عمر رضي الله عنه ما رأى من حفظه، فقال: (قل لكاتبك يقرأ لنا كتابا)، قال: إنه نصراني، لا يدخل المسجد، فانتهره عمر رضي الله عنه، وهمَّ به، وقال: ...» هذا النَّص.

البيان والبلاغة: يبدأ النَّص بالنَّهي فالأمير والخليفة هو الناهي، وهو مَن هو في مقام الدين؛ المحدَّث الذي لو كان نبي بعد رسول الله ﷺ لكان هو؛ فالنهي له من الجلالة والمهابة والأثر ما يعجز المتحدث عن وصفه، وعلى الرغم من أن المنهِيَّ والمؤدَّب في هذه القصة من عظماء المسلمين، وعلى جلالة أبي موسى وعظمته، لكن هذا لا يمنع من وعظه، وأمره ونهيه، فهو يقول له: (**لا تكرموهم إذ أهانهم الله**). وعلى الرغم من أن الذي أكرمهم في القصة واحد - هو أبو موسى - إلا أن الخِطاب

١- رواهُ ابنُ زَبْرٍ الرَّبَعِيُّ في «شُرُوطِ النَّصارى» (٢٤)، والبيهقيُّ في «السُّنَنِ الكُبرَى» (٢٠٤٠٩)، وفي «شُعَبِ الإيمانِ» (٨٩٣٩).

وُجِّه لعموم الناس، فلم يقل: (لا تكرمهم)، بل قال: (**لا تكرموهم**)، وهذا من حرصه على الخير وتعميمه، ونشر الفضيلة في الناس كافة. كما أن أبا موسى دخل على عمر رضي الله عنه برجل واحد من النَّصارى، ولكنه عمَّم الأمر على النَّصارى أجمعين، فلم يقل: (لا تكرمه) بل قال (**لا تكرموهم**). وقوله: (**إذ**) ظرف للزمن الماضي، أي: قد أهانهم الله - تعالى - وانتهى الأمر، ولا أمر بعد أمر الله - تعالى -. وفي قوله: (**تكرم**) وقوله: (**أهان**) طباق. ثم جاءت بعد هذه الجملة جملتان رُبطت بالتي سبقتها برابط (**الواو**)؛ حيث هي متصلة لا فصل فيها؛ لأن الموضوع بينها متحد ومترابط ومتشابه، والجملتان التاليتان لا تختلفان عن السابقة بشيء، فيقال فيهما ما قيل في السابقة، إلا زيادة عبارة (**عز وجل**) في نهاية الثالثة. وكونها في نهاية النَّص أشعرت بأنها أُجِّلَت في الأولى والثانية؛ لتقال في الثالثة، فتقوم الثالثة بمقام الجملتين السابقتين. وما سبق حديث عن الجمل الثلاثة كل واحدة منها على حدة، أمَّا الثلاثة مجتمعة فبينها تناسب وتناسق في اللفظ وتقارب أو مساواة في الوزن، وهذا هو الترصيع. وكرَّر لفظ الجلالة (الله) في كل الجمل ولم يعبِّر عنه بالضمير؛ وذلك لأهمية ذكره وتعظيما لشأنه، حيث الجمل فيها ثلاث صفات عظيمة، تقابلها ثلاث خلافها؛ فاقتضى تعظيم الله - تعالى - تناسبا مع الجمل المادحة، وإجلالا له من الجمل الذامَّة، لاسيَّما وأن الكلام على مسمع من رجل لا يؤمن بما أنزل الله - تعالى - من الهُدى ولا بنبيه المجتبى صلى الله عليه وسلم؛ فذِكرُ الله - تعالى - على مسمعه يبعث العزة في نفس المسلمين.

[٣١٧]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

فِي شُكْرِ نِعْمَةِ اللهِ - تَعَالَى - عَلَيْهِ وَقَدْ مَرَّ بِضَجْنَانَ[١] بَعْدَ حَجِّهِ

«لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ الْعَظِيمُ الْعَلِيُّ، الْمُعْطِي مَا شَاءَ مَنْ شَاءَ! كُنْتُ أَرْعَى إِبِلَ الْخَطَّابِ بِهَذَا الْوَادِي فِي مِدْرَعَةِ صُوفٍ، وَكَانَ فَظًّا يُتْعِبُنِي إِذَا عَمِلْتُ، وَيَضْرِبُنِي إِذَا قَصَّرْتُ، وَقَدْ أَمْسَيْتُ وَلَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَ اللهِ أَحَدٌ. ثُمَّ تَمَثَّلَ:

لَا شَيْءَ فِيمَا تَرَى تَبْقَى بَشَاشَتُهُ ... يَبْقَى الْإِلَهُ وَيُودِي الْمَالُ وَالْوَلَدُ[٢]

لَمْ تُغْنِ عَنْ هُرْمُزٍ يَوْمًا خَزَائِنُهُ ... وَالْخُلْدَ قَدْ حَاوَلَتْ عَادٌ فَمَا خَلَدُوا[٣]

وَلَا سُلَيْمَانُ إِذْ تَجْرِي الرِّيَاحُ لَهُ ... وَالْإِنْسُ وَالْجِنُّ فِيمَا بَيْنَهَا تَرِدُ[٤]

أَيْنَ الْمُلُوكُ الَّتِي كَانَتْ نَوَافِلُهَا ... مِنْ كُلِّ أَوْبٍ إِلَيْهَا رَاكِبٌ يَفِدُ

١- (ضَجْنَان) فَعَلَان مِن الضَّجَنِ، وهي: حَرَّةٌ شمالَ مكَّةَ يمرُّ الطَّريقُ بِنَعْفِها الغربيِّ، على مسافةِ ٥٤ كيلًا على طريقِ المدينةِ، تُعرفُ اليومَ بِحَرَّةِ المحسنيَّة. «معجم المعالم الجغرافيَّة للسِّيرة النَّبويَّة» ص١٨٣.

٢- اتَّفقتِ المصادرُ على نِسبةِ البيتِ الأوَّلِ فقطْ لِلفاروقِ عُمرَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ -، وروى الطَّبريُّ في «تاريخِه» بإسنادِه الأبياتِ المذكورةَ.

٣- الأبياتُ مِن (لَمْ تُغْنِ عَنْ هُرْمُزٍ) إلى (كَمَا وَرَدُوا)، روى ابنُ بشرانَ في «الأمالي» (١٣٠٢)، وابنُ الجوزيِّ في «المنتظم» ٢/ ٣٧٣ عن ابنِ أبي الزِّنَادِ أنَّها لِوَرَقَةَ بنِ نوفلٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ -، وقال السُّهَيليُّ في «الرَّوضِ الأُنُفِ» ٢/ ١٦١: (نسبه أبو الفرجِ إلى ورقةَ، وفيه أبياتٌ تُنسَبُ إلى أُميَّةَ بنِ أبي الصَّلْتِ).

٤- عِندَ أبي بكرٍ العنبريِّ:

وَلَا سُلَيْمَانُ إِذْ دَانَ الشُّعُوبُ لَهُ ... وَالْجِنُّ وَالْإِنْسُ يَجْرِي بَيْنَهَا الْبَرَدُ

لَقَدْ نَصَحْتُ لِأَقْوَامٍ، وَقُلْتُ لَهُمْ ... أَنَا النَّذِيرُ فَلَا يَغْرُرْكُمُ أَحَدُ

لَا تَعْبُدُنَّ إِلَهًا غَيْرَ خَالِقِكُمْ ... وَإِنْ دُعِيتُمْ فَقُولُوا: بَيْنَنَا جَدَدُ

سُبْحَانَهُ ثُمَّ سُبْحَانًا يَعُودُ لَهُ ... رَبُّ السَّمَاءِ إِلَهٌ وَاحِدٌ أَحَدُ

حَوْضًــا هُنَــالِكَ مَوْرُودًا بِلَا كَـذِبٍ   لابـد مِنْ وِرْدِهِ يَـوْمًا كَـمَا وَرَدُوا[١]

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: (**ضجنان**): قال ياقوت الحموي في معجم البلدان: «ضجَنان؛ بالتحريك ونونين، قال أبو منصور: لم أسمع فيه شيئا مستعملا غير جبل بناحية تهامة يقال له ضجنان، ورواه ابن دريد بسكون الجيم، وقيل: ضجنان جبيل على بريد من مكَّة، وهناك الغميم في أسفله مسجد صلى فيه رسول الله - صلّى الله عليه وسلّم -، وله ذكر في المغازي، وقال الواقدي: بين ضجنان ومكَّة خمسة وعشرون ميلا، وهي لأسلم وهذيل وغاضرة».

مقتضى الحال: الحال أن عمر رضي الله عنه مرَّ - وهو قافل من حجته - بوادي ضجنان فتذكَّر أيام صباه وما كان عليه من الحال والعوز، وما هو عليه الآن من الإمارة، فدفعه ذلك إلى أن قال هذا النَّص الذي بين أيدينا.

لطائف لغوية: (إذا) الظرفية في قوله: (**يتعبني إذا عملت**) قد سبق الحديث عنها في النَّص رقم ستة وسبعين ومئة. وقوله: (**بيني وبين الله**): نقول: (بيني وبينك) بتكرار كلمة (**بين**)، ونقول: (بين الراعي والرَّعيَّة) من غير تكرار كلمة (**بين**)، ولهذا التكرار وعدمه أسباب سبق الحديث عنها في النَّص رقم أربعة وتسعين ومئتين، فليراجعه طالب الزيادة.

١- رواهُ ابنُ سعدٍ في «الطَّبقاتِ» ٣/ ٢٦٦، وابنُ شبَّةَ في «تاريخِ المدينةِ» ٢/ ٦٥٦، وأبو داودَ في «الزُّهدِ» (٨٤)، والبلاذريُّ في «أنسابِ الأشرافِ» ١٠/ ٢٩٩، والطَّبريُّ في «تاريخِه» ٤/ ٢١٩ واللَّفظُ له، وأبو بكرٍ العنبريُّ في «مجلسِه» (١٨)، والخرائطيُّ في «فضيلةِ الشُّكرِ لله على نعمتِه» (٤٣)، وابنُ عساكرَ في «تاريخِ دمشقَ» ٤٤/ ٣١٦.

البيان والبلاغة: افتتح عمر ﵁ خطابه بقوله: (**لا إله إلا الله**)، وهي كلمة التوحيد العظيمة، وقد ناسب البدء بتعظيم الله - تعالى - كون النَّص يتحدث فيما بعد عما بلغه عمر ﵁ من الرفعة والعظمة، وذلك قوله - فيما بعد -: (**وقد أمسيت وليس بيني وبين الله أحد**). أما كلمة التوحيد (**لا إله إلا الله**) ففيها حصر؛ حيث ورد الاستثناء مسبوقا بـ (**لا**) النافية للجنس التي تنفي كل فرد من جنس ما جاء بعدها، وهذا عموم يخصصه ما جاء بعد (**إلا**)؛ حيث حصر الألوهية بالله وحده. ولم يكتفِ عمر ﵁ بما في كلمة التوحيد من الذكر والوصف لله - تعالى - فأعقبها بذكر بعض من أسماء الله الحسنى تناسب الحال، حيث الحديث عن العظمة وبلوغ عمر ﵁ مبلغا عظيما، وهو إمارة المسلمين وهذه الأسماء هي: (**العظيم، العلي، المعطي ما شاء من شاء!**). أما (**العليُّ**) فناسب مع قوله: (**ليس بيني وبين الله أحد**)، وهو يُذَكِّر نفسه وسامعه أنه مهما علا فالله أعلى، لاسيما وقد قالها وهو راجع من الحج الذي فيه إعلاء وتعظيم لله - تعالى -، ويقال في: (**العظيم**) ما قيل في (**العلي**). وقوله: (**المعطي ما شاء من شاء**) ناسب الحديث عن عطاء الله؛ كونه مرَّ في موضع كان فيه راعيا للإبل في مدرعة صوف ثم أصبح (**ليس بينه وبين الله أحد**). وقوله: (**ما شاء من شاء**): في هذه الجملة تناسب في الوزن واللفظ والسجع؛ وهو ما يسمى الترصيع. وقوله: (**ما**) اسم موصول يدل على غير العاقل، و(**من**) تدل على العاقل، فيعطي الله - تعالى - ما لا يعقل لمن يعقل؛ ليحسن تدبيره، فمن أساء فلا عقل له. وتلك المقدمة من الذكر والتعظيم لله - تعالى - وبيان مشيئته قد سيقت لما بعدها، وذلك قوله: (**كنت أرعى إبل الخطاب**). وقد سبق القول أن (**كان**) مع المضارع تفيد التكرار المنقطع، أي: كان يداوم على ذلك ويكثر منه، ولو قال: (كنت رعيت) لدلت على المرة. وقوله: (**إبل الخطاب**) ولم يقل: (إبل أبي): لأن إضافة

الإبل إلى الخطاب تفيد الملك، ولما كان ما يملكه الخطاب هو الإبل التي هي أعز مال العرب ناسب إضافتها إلى صاحبها فذكره باسمه، وقد لا يبعد القول لو قلنا: لم يذكر أبوته له؛ لأنه في موطن ذكَّره بغلظته عليه، والأُبوَّة تناسبها الرحمة والحنوّ والعطف، وما ذكره عن الخطاب من الغلظة والجفاء لا يناسب ذكر الأبوة. وقوله: (**بهذا الوادي**): (**هذا**) اسم إشارة يدل على القريب، والقرب هنا قرب مكان. ثم يتابع عمر رضي الله عنه وصف حاله في الصبا حتى ما فاته أن يذكر ملبسه فيقول: (**في مدرعة صوف**) وهذا من صدق الحديث، ودقة الوصف، وبُعد الذاكرة، فإن تذكر أيام الصبا لاسيما ما شق منها يبعث الحنين والوجد في النفس، وإن الرجل إذا تذكر صباه وأشياءه في صباه صدق ولو كان فيها ما يعيب؛ لأنه يكره أن ينفصل عن ذاته وأن يتبرأ منها، أضف إلى ذلك ما في هذا التذكر من التواضع؛ فالأمير الذي دانت له الفرس والروم لا يخجل من مدرعة الصوف. وهذه الصورة التي ينقلها عمر رضي الله عنه عن حياته الأولى في الأيام الخوالي ناسبت ما هو عليه الآن، فمدرعة الصوف وخشن اللباس ما زال رفيقه، ورعي الإبل لم ينفك عنه، فهو اليوم راع يرعى أمَّة من البشر، فسبحان الذي حوَّله من راعي نَعَم إلى راعي أمم، ويستمر عمر رضي الله عنه بنقل ملامح الصبا؛ حيث اجتمع عليه بُعد المكان عن مسكنه وأقرانه في حرَّة يرعى فيها أغلظ ما يرعى به الرعاة وهي الإبل، وأخشن لباس، ووالد غليظ، فالمكان واللباس والمهنة والوالي اجتمع فيهم من الغلظة ما قسى عليه فزاده طيبا؛ فإن قسوة الحياة إذا سقطت على الكريم صقلته، وإذا سقطت على اللئيم زادته لؤما وجعلته دنيئا، كالنار تسقط على العود فيخرج ريحه إن طيبا فطيب وإن نكدا فنكد. وقوله: (**يتعبني**): بصيغة المضارع تدل على المداومة والكثرة، ومثله في قوله: (**يضربني**). وجملة (**يتعبني إذا عملت**)، وجملة (**يضربني إذا قصرت**) بينهما تناسب في اللفظ

والصيغة مع اتحاد التقفية؛ وهذا هو الترصيع. وفي كلمتي (**قصرت**) و(**عملت**) طباق. ثم راح يبين حاله وما أصبح عليها بقوله: (**وقد أمسيت وليس بيني وبين الله أحد**)، والحرف (**قد**) يفيد التحقيق والتوكيد، وقد كان أيام صباه بينه وبين الناس آحاد وألوف، واليومَ ليس بينه وبين الله أحد.

[٣١٨]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

فِي التَّوَاضُعِ وَالْأَكْلِ مَعَ الرَّقِيقِ، وَقَدْ جَاءَهُ صَفْوَانُ بْنُ أُمَيَّةَ بِجَفْنَةٍ يَحْمِلُهَا نَفَرٌ فِي عَبَاءَةٍ، فَوُضِعَتْ بَيْنَ يَدَيْ عُمَرَ، فَدَعَا لَهَا الْمَسَاكِينَ وَالْأَرِقَّاءَ فَأَكَلُوا مَعَهُ، فَقَالَ عِنْدَ ذَلِكَ:

«فَعَلَ اللهُ بِقَوْمٍ - أَوْ لَحَا اللهُ قَوْمًا[1] - يَرْغَبُونَ عَنْ أَرِقَّائِهِم أَنْ يَأْكُلُوا مَعَهُم». قَالَ صَفْوَانُ: إِنَّا - وَاللهِ - لَا نَرْغَبُ، وَلَكِنَّا نَسْتَأْثِرُ عَلَيْهِمْ، لَا نَجِدُ مِنَ الطَّعَامِ الطَّيِّبِ مَا نَأْكُلُ وَنُطْعِمُهُمْ»[2].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: **(جفنة)**: جَفنة؛ بفتح الجيم، وهي أكبر من الصحفة، وهي أشبه بما يسمى في أيامنا بالطنجرة، قال الأزهري في تهذيب اللغة: «أبو عبيد عن الكسائي: أعظم القصاع الجفنة، ثم القصعة تليها تشبع العشرة، ثم الصحفة تشبع الخمسة ونحوهم، ثم المئكلة تشبع الرجلين والثلاثة، ثم الصحيفة تشبع الرجل». وقوله: **(لحا الله قوما)**: قال ابن القطاع في كتاب الأفعال: «و(لحاه) الله - تعالى - قبَّحه ولعنه».

مقتضى الحال: الحال تبيِّنه الرواية التي جاءت في كتاب الأدب المفرد، برقم واحد ومئتين: قال: أبو مَحْذُورَةَ كنت جالسا عند عمرَ - رضي اللهُ عنه - إذ جاء

١- لَحَا اللهُ قَوْمًا: يعني قبَّحهم اللهُ.

٢- رواهُ الحسينُ بنُ حربٍ في «البِرِّ والصِّلةِ» (٣٥١)، والبخاريُّ في «الأدبِ المفردِ» (٢٠١).

صفوانُ بن أُمَيَّة بِجَفْنَة يحملها نفرٌ في عباءة فوضعوها بين يدَي عمر، فدعا عمر ناسا مساكين وأرقاء من أرقاء النَّاس حوله، فأكلوا معه. ثمَّ قال عند ذلك: ...» هذا النَّص.

لطائف لغوية: ورد في النَّص: (**يرغبون عن أرقائهم**): ما الفرق بين (رغب بالشيء)، و(رغب عن الشيء)؟ قال ابن سيده في المحكم: «ورغب في الشيء، رغبا، ورغبة، ورغبى، ورغبا: أراده، والرغيبة: الأمر المرغوب فيه، ورغب عن الشيء: تركه متعمدا، ورغب بنفسه عنه: رأى لنفسه عليه فضلا».

البيان والبلاغة: يفتتح عمر رضي الله عنه قوله بتنقيص قوم والدعاء عليهم، فيقول: (**فعل الله بقوم - أو لحا الله قوما -**)، والسامع لتنقيصِ عمر رضي الله عنه يفْرَق ويأخذه من الحذر ما يتمنى ألا تصيبه هذه اللعنة، لاسيما والكلام صادر عن أمير ذي سلطان، وواحدٍ من عباد الله الذين يقع كلامهم من الله بمكان، فمن أصابه منه لعنة فقد أصابه ما لا يُرجى بُرؤه، والناس تترقب تمام كلامه، وكل يرجو ألا يبلغه من ذلك شيء، حتى إذا تبين السامع أي الناس قبَّح، فإن كان بلغه من ذلك شيء باء بشرٍّ ما يُنتظر، وإن لم يبلغه من ذلك شيء حمد الله على النجاة. وقوله: (**يرغبون عن أرقائهم أن يأكلوا معهم**): جاء التقبيح ملائمًا لصنيع القوم؛ حيث ما فعلوه قبيح، فكان الجزاء من جنس العمل. وقوله: (**أرقائهم**) ولم يقل: (عبيدهم أو مواليهم)؛ لأن في كلمة (**الرقيق**) ما يدل على ضعف وانكسار وقلة حيلة، وإن التطاول على مَن هذه صفته من الضعفاء قلة عقل وقبح استحق صاحبها لعنة الأمير.

[٣١٩]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

وَقَدْ سَمِعَ رَجُلًا يُثْنِي عَلَى رَجُلٍ

«أَسَافَرْتَ مَعَهُ؟» قَالَ: لَا. قَالَ: «أَخَالَطْتَهُ؟» قَالَ: لَا. قَالَ: «وَاللهِ الَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ، مَا تَعْرِفُهُ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: أنَّ الخليفة سمع رجلا يثني على رجل، ففطن عمر رضي الله عنه لذلك، فأراد أن يبين أن المدح لا ينبغي إلا أن يكون بعد المخالطة والسفر، فسأل الرجل عن ذلك، فأجابه بأنه لم يفعل، فقال هذا النَّص.

البيان والبلاغة: لما سمع ثناءً وإطراءً، ظنَّ أن الرجل خبير بصاحبه، ولا يمدح الرجلُ الرجلَ إلا إن خبره وعلم سيرته وسريرته، فبادر عمر رضي الله عنه إلى سؤاله فقال له: (**أسافرت معه؟**)، والاستفهام هنا على الحقيقة لا مجاز فيه، والخليفة إنما يريد بسؤاله أن يعلم. ولقائل أن يقول: لِمَ سأله عن السفر؟ قلنا: ما سمي السفر سفرا إلا لأنه يسفر عن طبائع الرجال ويكشف عن أحوالهم ويخرج خبيئاتهم؛ لما يتحصل به من الشقة والتعب من نفاد الزاد، وحذر أهل الحرابة، وقلة ذات اليد، وبعد الناصر، ووحشة الغربة، فمَن كان سيئ الطبع فُضِح وعُلم وزنه وشأنه، ومن كان سليم الطبع حسن السيرة والسريرة اتَّضح ذلك منه ومُدح، ولا يخبرك عن معادن الرجال مثل السفر. ثم سأله عن المخالطة التي قد تعني هنا الشركة في التجارة، وقد

١- رواهُ ابنُ أبي الدُّنيا في «الصَّمتِ» (٦٠٣).

سمي الشريك في التجارة خليطا، وهذا يذكرنا بقول نبي الله داودَ - عليه السلام -: ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْۗ ﴾ [ص: ٢٤]، ومنه يفهم أن القليل منهم من لا يبغي على شريكه، وذلك لما في مخالطة التجارة من الطمع في الكسب والاستيلاء على حصة الشريك والاستئثار بالربح والنفع ومَن نجا من هذه فهو كريم الطبع. وقد يكون عنى بالمخالطة الصحبة والرفقة والملازمة، وحري بمن خالط قرينا أن يكشف طبائعه وقد قال رسول الله ﷺ: «**الْمَرْءُ عَلَى دِيْنِ خَلِيْلِهِ؛ فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلْ**»، وقال طرفة:

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه فكل قرين بالمقارن يقتدي

ويقسم الأمير بقسم غليظ بقوله: (**والله الذي لا إله غيره، ما تعرفه**)، وهذا يبيِّن أنَّ الرجل لا يشهد على رجل بخير أو شر حتى يكون ابتلاه إما بسفر أو صحبة أو تجارة. وقد اجترأ عمر رضي الله عنه على هذا اليمين الغليظ ونفى ما أخبر به الرجل عن نفسه؛ ليقينه بألا يكشف عن الرجال إلا ما ذكره من الصفات. وقوله: (**ما تعرفه**) ولم يقل: (لا تعرفه)؛ لأن (ما) تنفي الحال التي يكون عليها صاحبها ولا تنفي ما بعد ذلك، و(لا) تنفي الحال وما استقبل من الزمان، وهذا يشعر أن الرجل قد يعلم في قابل حال صاحبه، فكأنه يقول له: اذهب فاعرفه.

[٣٢٠]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

لِلْأَحْنَفِ بْنِ قَيْسٍ، وَقَدِ احْتَبَسَهُ عِنْدَهُ حَوْلا

«يَا أَحْنَفُ، قَدْ بَلَوْتُكَ وَخَبَرْتُكَ، فَلَمْ أَرَ إِلَّا خَيْرًا، وَرَأَيْتُ عَلَانِيَتَكَ حَسَنَةً، وَأَنَا أَرْجُو أَنْ تَكُونَ سَرِيرَتُكَ مِثْلَ عَلَانِيَتِكَ؛ فَإِنَّا كُنَّا نَتَحَدَّثُ: إِنَّمَا يُهْلِكُ هَذِهِ الْأُمَّةَ كُلُّ مُنَافِقٍ عَلِيمٍ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: الحال أنَّ الأحنف قدم على عمر ﷺ فحبسه حولا، كما جاء في الروايات من قول الأحنف: «قدمتُ على عمر بن الخطاب ﷺ فاحتبسني عنده حولا»، فقال له هذا النَّص بعد الحول.

لطائف لغوية: ورد في النَّص: **(قد بلوتك وخبرتك)**، فما الفرق بين الابتلاء والاختبار؟ يقول أبو هلال العسكري في الفروق: «الفرق بين الابتلاء والاختبار: أنَّ الابتلاء لا يكون إلا بتحميل المكاره والمشاق، والاختبار يكون بذلك وبفعل المحبوب، ألا ترى أنه يقال: اختبَره بالإنعام عليه، ولا يقال: ابتلاه بذلك، ولا هو مبتلى بالنعمة، كما قد يقال أنه مختبر بها. ويجوز أن يقال: إن الابتلاء يقتضي استخراج ما عند المبتلى من الطاعة والمعصية، والاختبار وقوع الخبر بحاله في ذلك، والخبر العلم الذي يقع بكنه الشيء وحقيقته، فالفرق بينهما بيِّن». وورد في النَّص

١- رواهُ ابنُ سعدٍ في «الطَّبقاتِ» ٧/ ٩٤، وأحمدُ في «الزُّهدِ» (١٣٠٠)، والفريابيُّ في «صفةِ المنافقِ وذمِّ المنافقين» (٢٧)، وابنُ عساكرَ في «تاريخِ دمشقَ» ٢٤/ ٣١٠.

ذكر اسم (**الأحنف بن قيس**)، وكلمة (**الأحنف**) عَلَم، والعَلَم معرفة فلا يحتاج للتعريف، وقد سبق بيان سبب دخول (**أل**) التي للتعريف على بعض الأعلام، فراجع لذلك شرح النَّص رقم ثمانين ومئة فراجعه، إن أردت الاستزادة.

البيان والبلاغة: افتتح عمر رضي الله عنه خطابه بنداء الأحنف بقوله: (**يا أحنف**)، وقد ناداه وهو بمقربة منه، وقادر على سماعه ولو لم ينادِه، ولكن النداء - هنا - غرضه التنبيه؛ ليعي المنادى أن الأمر يخصه، فيعتني بقول مناديه، ولا ينشغل باله بغير كلامه، وهذا التنبيه ناسبه ما جاء بعده من التوكيد والتحقيق الذي يستفاد من الحرف (**قد**). وقوله: (**بَلَوْتُك وخبرتك**): قدَّم (**بَلَوْتُك**) على (خبرتك)؛ حيث الثاني نتيجة عن الأول، هذا على أحد الأقوال في الفرق بينهما - كما مر من كلام أبي هلال العسكري - وقيل الابتلاء أخص؛ فهو في المكروه والشاق، والاختبار فيها وبالنعيم والخير. وسواء قلنا بالقول الأول أو الثاني، فالترتيب جاء بالترقي؛ ففي الأول من المقدمة إلى النتيجة، والثاني من الخاص إلى العام. وعمر رضي الله عنه لم يحكم على الأحنف إلا بعد الابتلاء والاختبار، خلافا لما وقع في النَّص السابق من الرجل الذي أثنى على رجل دون أن يبتليه أو يختبره، أو حتى يسافر معه أو يخالطه، ولم يمدح عمر رضي الله عنه الأحنف إلا بعد مرور عام من الابتلاء والاختبار، وبعد مرور العام امتدحه فقال: (**لم أر إلا خيرا**)، وهذا مدح فيه من المبالغة حتى إنه نفى عنه الشرور كلها، وحصر ما يراه منه بالخير، يبين هذا أسلوب الحصر الذي صيغت به الجملة، فلم يصدر من الأحنف بعام كامل إلا خيرا، وهذا الخير جاء عامًّا؛ كونه نكرة في سياق النفي. لكن هذا الخير على عمومه خصص بالعلانية دون السريرة، فقال له: (**ورأيت علانيتك حسنة**)، ومفهوم المخالفة أن السريرة لم تُر

بعد ولم تتضح، ووصفه العلانية بقوله: **(حسنة)** نكرة فيها عموم؛ لتعم كل نوع من أنواع الحسنات، أمَّا السريرة فلم يملك له منها شيئا إلا أن يوكلها لله رب العالمين، ويرجو الله - تعالى - لها الخير. ومن حسن الرجاء أنه استأنف له جملة جديدة مستعملا حرف **(الواو)** الذي للاستئناف، فقال: **(وأنا أرجو أن تكون سريرتك مثل علانيتك)**، وهذا الاستئناف لأجل بيان أهمية الجملة، وذكرنا أن ميزة المصدر المؤول على الصريح أنه يظهر زمن الفعل، الذي هو هنا المضارع، الذي يدل على الاستمرار والدوام، فهو يقول له أرجو لك سريرة حسنة على الدوام. وفي كلمتي **(سريرتك)** و**(علانيتك)** طباق. وقوله: **(فإنا كنا نتحدث: إنما يهلك هذه الأمة كل منافق عليم)**: في الجملة حصر أفادته **(إنما)** التي هي للتوكيد والحصر، والحصر هنا ليس حصرا لكل أنواع الهلاك؛ وإنما لبيان أن المنافق لا يأتي منه إلا الهلاك.

[٣٢١]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

لِمَوْلَاهُ أَسْلَمَ، عَنِ الحُبِّ وَالْبُغْضِ

«يَا أَسْلَمُ، لَا يَكُنْ حُبُّكَ كَلَفًا، وَلَا يَكُنْ بُغْضُكَ تَلَفًا». قَالَ أَسْلَمُ: وَكَيْفَ ذَلِكَ؟ قَالَ عُمَرُ: «إِذَا أَحْبَبْتَ فَلَا تَكْلَفْ كَمَا يَكْلَفُ الصَّبِيُّ[1] بِالشَّيْءِ يُحِبُّهُ، وَإِذَا أَبْغَضْتَ فَلَا تُبْغِضْ بُغْضًا تُحِبُّ أَنْ يَتْلَفَ صَاحِبُكَ وَيَهْلِكَ»[2].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: قوله: (**كَلَفًا**): قال في مقاييس اللغة: «كلف: الكاف واللام والفاء = أصل صحيح يدل على إيلاع بالشيء وتعلق به، من ذلك الكلف، تقول: قد كلف بالأمر يكلف كلفا، ويقولون: (لا يكن حبك كلفا، ولا بغضك تلفا)». وقوله: (**تَلَفًا**): قال في العين: «التلف: عطب وهلاك في كل شيء، والفعل تلف يتلف تلفا».

مقتضى الحال: الحال أن عمر رضي الله عنه أراد تعليم مولاه أسلم كيف يحب ويبغض، فدار بينهما ما في هذا النَّص من الحديث.

١- كَلِفَ الصَّبِيُّ: هو الوُلُوعُ بالشَّيءِ معَ شُغْلِ القلبِ.

٢- رواهُ ابنُ وهبٍ في «الجامع» (٢١٣) و(٢٣٠)، وعبدُ الرَّزَّاقِ في «المُصنَّفِ» (٢٠٢٦٩)، والبخاريُّ في «الأدبِ المفردِ» (١٣٢٢)، والبيهقيُّ في «شُعَبِ الإيمانِ» (٦١٧٣)، والبغويُّ في «شرحِ السُّنَّةِ» (٣٤٨١). [وباختصار في التمثيل والمحاضرة للثعالبي (ص ٢٩)]

لطائف لغوية: قوله: (**إذا أحببت فلا تكلف**): جملة شرطية، اقترن فيها جواب الشرط بالفاء، وقد سبق الكلام عن أحكام اقتران جواب الشرط بالفاء في النَّص رقم خمسة عشر ومئتين، فليراجعه المستزيد.

البيان والبلاغة: افتتح عمر رضي الله عنه الخطاب في هذا النَّص بنداء أسلم: (**يا أسلم**)، فالغرض من نداء مَن بين يديه - وهو سامعه دون أن يناديه - التنبيه، وإيقاظ حسِّه؛ ليكون أكثر إصغاء ووعيا لكلام المتحدث، وبعدما ناداه، وظن منه الإصغاء بدأ بنصحه، فقال: (**لا يكن حبك كلفا، ولا يكن بغضك تلفا**)، وهو نهي من أمير لواحد من رعيته، بل من خدمه، فهو واقع من عال؛ حيث هو إمام دنيا ودين، وساقط على واحد من الرعية يعمل في خدمة الأمير، فواحدة مما مضى تكفي لتكون أُذنا أسلم أكثر اتساعا واستماعا، وقلبه أكثر انصداعا وانصياعا، ثم راح يعلمه الاقتصاد في الحب والبغض، فلا يسرف في المحبة حتى يكلف ولا في البغض حتى يتمنى للخصم التلف. ومن حسن اللفظ وائتلافه أنه أورد كافات ثلاث في كلمات ثلاث متتالية (**يكن حبك كلفا**)، لاسيَّما وقوع الكاف الثانية في آخر كلمة (**حبك**)، ووقوعها في أول الثالثة في كلمة (**كلفا**) أعطت لحنا جميلا ممتعا. وبين جملة (**لا يكن حبك كلفا**) و(**لا يكن بغضك تلفا**) وصل، كان رابطه حرف (الواو)؛ لما بين الجملتين من تكامل في اللفظ والمعنى. وكرَّر قوله: (**لا يكن**) في الجملة الثانية، وهو قادر أن يقول: (لا يكن حبك كلفا وبغضك تلفا)، وهذا إطناب للتنويه، ولأهمية النهي والمعنى في قوله: (**لا يكن**). والجملتان متفقتان في الوزن واللفظ والتقفية، وهذا هو الترصيع. وفي كلمتي (**حبك**) و(**بغضك**) طباق. وفي (**كلفا**) و(**تلفا**) جناس ناقص. وليس في الجملتين إيجاز بالحذف، على ما فيهما من إيجاز

القصر؛ حيث اللفظ القليل مع المعنى الكثير، ووقع الإطناب في تكرار قوله: (**ولا يكن**). غير أن أسلم لم يبلغه المعنى بأتمه، رغم نداء الخليفة له ليصغي، أو ربما أنه لما أصغى ازداد انتباها فسأل؛ ليدرك المعنى باتساعه، فسأل الأمير المعلم غير هيَّاب ولا متوانٍ قائلا: (**وكيف ذلك؟**)، فراح المعلِّم يوسع له في الجواب، فقال مبينا ما سبق: (**إذا أحببت فلا تكلف كما يكلف الصبي، بالشيء يحبه**)، وهذه الجملة تفسر الجملة الأولى، ووقع فيها من الطول أكثر من الجملتين السابقتين؛ لما في الأوليين من الإيجاز والاختصار، ولما في الثالثة - وهي المفسرة للأولى - من البسط والبيان؛ فهي مفسرة لما لم يفهمه أسلم من كلام الأمير، أو لما استزاده من الأمير، فلما كان السامع طالب زيادة كان المتكلم صاحب بسط. وتبدو لنا الجملة الشرطية بجزأيها من جملة الشرط وجوابه؛ حيث الجواب مرتبط بالفعل ارتباط المقدمة بالنتيجة، فالحب يرتبط بترك الكلف. وقوله: (**كما يكلف الصبي**): هذا تشبيه تمثيل؛ شبه صورة الرجل وقد أحب حبيبه وكلف به وبلغ به ما زاد عن الحد بصورة الصبي وقد أحب الشيء وكلف به بما زاد عن الحد، بجامع المبالغة والزيادة عن الحد في كل منهما. وهذا الكلف مرده على ترك التعقل والتفكر إلى حدِّ العمى والصمم، قال أبو الطيب:

وعين الرضا عن كل عيب كليلة   لكن عين السخط تبدي المساويا

وقال آخر:

وكذَّبت طرفي فيك والطرف صادق   وأسمعت أذني فيك ما ليس تسمع

وفي قوله: (**لا تكلف**) و(**يكلف**): طباق بالسلب. وفي الجملة الأخيرة، وهي

قوله: (**وإذا أبغضت فلا تبغض بغضا تحب أن يتلف صاحبك ويهلك**) لما تكلم عن الحب وما أودى = تكلم عن البغض وما آذى، وطالب المبغض أن يقتصد كما طالب المحب أن يقتصد. وفي قوله: (**أبغضت فلا تبغض بغضا**): هذا يسمى اشتقاق اللفظ من اللفظ. وفي قوله: (**تبغض**) وقوله: (**تحب**) طباق. وقوله: (**يتلف**) مع قوله: (**يهلك**) من عطف اللفظ على معناه، وقد يسمى إطنابا. وتبين أن المختلف بين الجملتين في قوله: (**لا يكن حبك كلفا**) أن (**كلفا**) تعود على الضمير المستتر المقدر في المصدر (**حبك**)، وفي الجملة التي تليها تعود (**تلفا**) على الضمير المتصل في المصدر (**بغضك**)؛ ليكون الكلف عائدا على المحب، والتلف عائدا لا على المبغِض، بل على المبغَض.

[٣٢٢]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«كَذَبَ النَّسَّابُونَ، مَا يَرْجُونَ اللهَ تَعَالَى ﴿وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٨]، تَعَلَّمُوا مِنْ أَنْسَابِكُمْ مَا تَصِلُونَ بِهِ أَرْحَامَكُمْ وَتَعْرِفُونَ بِهِ مَوَارِيثَكُمْ، وَتَعَلَّمُوا مِنَ النُّجُومِ مَا تَعْرِفُونَ بِهِ سَاعَاتِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَتَهْتَدُونَ بِهِ السَّبِيلَ وَمَنَازِلَ الْقَمَرِ»[1].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: ليس في الرواية التي بين أيدينا ما يدل على مناسبة هذا النَّص، غير أنه قد سبقت هذه الرواية في تاريخ ابن شبة - مصدر الرواية التي بين أيدينا - رواية أخرى جاء فيها الأمر بتعلم بالأنساب، ولعلها تكون القصة نفسها، على الرغم من اختلاف مخرج الروايتين. ومما جاء في هذه الرواية أنَّ عمر ﷺ قال: «ألا وقد ذكر لي أن رجالا منكم قد أكثروا في إسماعيل وما ولد، والله أعلم بإسماعيل وما ولد، والله لينتهُنَّ عن ذلك، أو لألحقن كل قوم بجمرتهم، ألا وإن أبانا الذي لا يُشك فيه: إبراهيم».

لطائف لغوية: قوله: **(ساعات الليل والنهار)**: قدَّم الليل على النهار، ولهذا التقديم سر كبير في القرآن الكريم، وأمير المؤمنين ﷺ لما ذكره جاء به على نسق القرآن. قال الدكتور فاضل السامرائي في لمسات بيانية: «إن القرآن - كما ذكرت - يقدم الألفاظ ويؤخرها حسبما يقتضيه المقام، فقد يكون سياق الكلام - مثلا -

---

١- رواهُ المُعافى بنُ عمرانَ في «الزُّهدِ» (١٤٦)، وهنَّادٌ في «الزُّهدِ» ٢/ ٤٨٧، وابنُ شبَّةَ في «تاريخِ المدينةِ» ٣/ ٧٩٨ واللَّفظُ له، والنَّجَّادُ في «مُسنَدِ عُمرَ بنِ الخطَّابِ» (٤١).

متدرجا حسب القِدَم والأولية في الوجود، فيرتب الكلمات على هذا الأساس فيبدأ بالأقدم ثم الذي يليه وهكذا، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، فخلق الجن قبل خلق الإنس بدليل قوله تعالى: ﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾ [الحجر: ٢٧]، فذكر الجن أولاً ثم ذكر الإنس بعدهم، ... وجعلوا من ذلك تقديم الليل على النهار والظلمات على النور، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٣] فقدَّم الليل؛ لأنه أسبق من النهار وذلك لأنه قبل خلق الأجرام كانت الظلمة، وقَدَّم الشمس على القمر؛ لأنها قبله في الوجود».

البيان والبلاغة: افتتح عمر ﷺ خطابه بقوله: (**كذب النسابون، ما يرجون الله – تعالى –**)، وتكذيبه للنسابين بسبب ما يقع منهم من الخطأ. و(**كذب**) قد تكون الحجازية التي بمعنى أخطأ، وقد تكون بمعنى الكذب المتعمد، وقد تكون بمعناهما. وقوله: (**ما يرجون الله – تعالى –**): قد تُرجح المعنى الثاني، أعني: الكذب المتعمد؛ حيث إن هذه الجملة موضحة ومفسرة للتي قبلها. ولما كان معناها جزءا من معنى التي قبلها، لم يجعل بينهما وصلا حتى كأنهما جملة واحدة، وأوردها بإيجاز حذف؛ حيث حذف أداة التعليل التي تقديرها: لأنهم ما يرجون الله – تعالى –. وقوله: (**ما**) تنفي الحال الذي هم عليه خلافا لـ (لا) التي تنفي الحال والاستقبال، وهذا لطف منه بالنسابين؛ حيث كذبهم في أمر واحد وليس في كل ما يروونه. ولما كان القول منه في شأن النسابين غليظا حيث كذَّبهم ووصفهم بأنهم (**ما يرجون الله – تعالى –**) خشي أن يظن ظان بأنه يقول ذلك من تلقاء نفسه، أو يجد أحد في

نفسه من قول عمر، فبادر بالاستشهاد بقوله تعالى: ﴿وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا﴾، فلا يبقى في نفس أحد وجدٌ أو ملامة، ولم يقل قبل الآية: (قال الله تعالى)؛ لاستعجاله للاستشهاد بالآية، وكون هذه الآية من المعلوم فلا تخفى على سامع. ثم لما ذكر النسابين بما يسوء، وغضَّ منهم خشي أن يظن بعض الناس أنه إنما يحرِّم علم الأنساب جملة، فاستدرك على صاحب الظن وأفسد عليه ظنه آمرا بتعلم ما ينفع من علم الأنساب، وذلك قوله: (**تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم وتعرفون به مواريثكم**)، وهنا يضع لنا عمر رضي الله عنه قاعدتين شريفتين في أخذ العلم: أولاهما: أن العلم يستند إلى حجة وبرهان، وما سوى ذلك خرطُ قتاد، وكذب وفساد. ثانيهما: علم الأنساب واجب التعلم؛ من أجل صلة الرحم وفقه المواريث. وقوله: (مِن): هي التي بمعنى بعض؛ ليدل على أن علم الأنساب لا يؤخذ منه إلا ما نفع وصح. وقوله: (**أنسابكم**)، ولم يقل: (الأنساب): كي لا يشتغل أحد بنسب غيره فيقع في الخطأ والكذب والطعن في الأنساب. وقدَّم صلة الرحم على المواريث؛ لأنها أوجب، فصلة الرحم فرض عين، وتعلم المواريث من علم الكفايات؛ فيكفي أن يكون في القبيلة عالم واحد في المواريث تأخذ عنه الناس، ولا يكفي واصل رحم واحد بل لا يجوز لواحد من الناس ألّا يصل رحمه. ثم استطرد ليتحدث عن نفر آخرين من الناس وهم المنجمون، الذين حالهم في الكذب كالنسابين، بل هم أشد كذبا منهم وأضر؛ لأنهم يفسدون معتقد الناس ودينهم، ولم يقدم ذكر المنجمين على النسابين؛ لأن الحديث عن النسابين هو سبب المقال وأصله، وإنما ذُكر المنجمون استطرادا فقال: (**وتعلموا من النجوم ما تعرفون به ساعات الليل والنهار**)، وما

قيل في الجملة السابقة من ضرر علم النسب ونفعه، وما قيل في حرف الجر (**من**) يقال في هذه الجملة. وقوله: (**ساعات اليل والنهار**): فيها إيجاز بالحذف، تقديره: ساعات الليل وساعات النهار. وفي كلمة (**الليل**) وكلمة (**النهار**) طباق. وقدَّم كلمة (**الليل**) على كلمة (**النهار**)؛ لأن ظهور النجوم يكون في الليل، أو لأن تمييز ساعات الليل أشق من تمييز ساعات النهار، وكون الليل هو سابق على النهار؛ حيث يبدأ اليوم بغياب الشمس. وقوله: (**وتهتدون به السبيل**): (**الباء**) في قوله: (**به**) تفيد الاستعانة، فيكون المعنى: وتهتدون السبيل مستعينين به. والترتيب في هذه الجملة صحيح؛ حيث تدلى فيها من الأهم إلى المهم؛ حيث معرفة ساعات الليل والنهار التي نحتاجها كل يوم أكثر حاجة من اهتداء السبيل، والعلم بالسبيل يحتاجه كل أحد، أما العلم بمنازل القمر فالحاجة إليه في الشهر مرة.

[٣٢٣]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

فِيمَا يَلْزَمُ الْإِمَامَ مِنْ أَمْرِ الرَّعِيَّةِ

«وَاللهِ مَا أَحَدٌ أَحَقَّ بِهَذَا الْمَالِ مِنْ أَحَدٍ، وَمَا أَنَا بِأَحَقَّ بِهِ مِنْ أَحَدٍ، وَاللهِ مَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَحَدٌ إِلَّا وَلَهُ فِي هَذَا الْمَالِ نَصِيبٌ إِلَّا عَبْدًا مَمْلُوكًا، وَلَكِنَّا عَلَى مَنَازِلِنَا مِنْ كِتَابِ اللهِ، وَقَسْمِنَا مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ؛ فَالرَّجُلُ وَبَلَاؤُهُ فِي الْإِسْلَامِ، وَالرَّجُلُ وَقَدَمُهُ فِي الْإِسْلَامِ، وَالرَّجُلُ وَغَنَاؤُهُ فِي الْإِسْلَامِ، وَالرَّجُلُ وَحَاجَتُهُ، وَوَاللهِ لَئِنْ بَقِيتُ لَهُمْ؛ لَيَأْتِيَنَّ الرَّاعِيَ بِجَبَلِ صَنْعَاءَ حَظُّهُ مِنْ هَذَا الْمَالِ وَهُوَ يَرْعَى مَكَانَهُ»[1].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: ليس في النَّص ما يبين الحال التي قال فيها عمر رضي الله عنه هذا النَّص.

لطائف لغوية: قوله: (**والله ما من المسلمين أحد إلا وله في هذا المال نصيب**): ما نوع (الواو) في قوله: (**إلا وله**)؟ نأخذ الجواب من أبي حيان في تعليقه على قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٞ مَّعۡلُومٞ﴾ [الحجر: ٤]، قال في البحر المحيط: (والواو في قوله: ﴿**ولها**﴾، واو الحال. وقال بعضهم: مقحمة، أي: زائدة، وليس بشيء. وقرأ ابن أبي عبلة: بإسقاطها. وقال الزمخشري: الجملة واقعة صفة

١- رواهُ أبو داودَ في «السُّنَنِ» (٢٩٥٠) مختصرًا، ورواهُ أحمدُ في «المُسنَدِ» (٢٩٢) واللَّفظ له، وابنُ سعدٍ في «الطَّبقاتِ الكُبرى» ٣/ ٢٩٩، وابنُ زَنْجُوَيْهِ في «الأموالِ» (٩٣٧)، ومُحَمَّدُ بنُ عاصمٍ في «جُزئِه» (١٨)، والبلاذريُّ في «أنسابِ الأشرافِ» ١٠/ ٣٥٠، والطَّبريُّ في «تاريخِه» ٤/ ٢١١، والبيهقيُّ في «السُّنَنِ» (١٢٩٧٢)، وابنُ عساكرَ في «تاريخِه» ٤٤/ ٣٣٨، والضِّياءُ المقدسيُّ في «الأحاديثِ المختارةِ» (٢٧٧).

لقرية، ... وهذا الذي قاله الزمخشري وتبعه فيه أبو البقاء = لا نعلم أحدا قاله من النحويين، وهو مبني على أن ما بعد (إلا) يجوز أن يكون صفة، وقد منعوا ذلك ... وقال ابن مالك: وقد ذكر ما ذهب إليه الزمخشري من قوله في نحو (ما مررت بأحد إلا زيد خير منه) أن الجملة بعد (إلا) صفة لأحد: أنه مذهب لم يعرف لبصري ولا كوفي، فلا يلتفت إليه».

البيان والبلاغة: افتتح عمر ﷺ خطابه بقوله: (**والله ما أحد أحق بهذا المال من أحد**)، ويبدأ هذا النَّص بالقَسم الذي هو أحد المؤكدات وأقواها، وهذا القَسَم والتأكيد جيء به؛ كونه يتحدث عن حقوق الناس وقسمة المال والعدل فيه، ولما في طبائع الناس من الميل للمال فجاء القسم مناسبا لهذا الحال. وقوله: (**أحد**): نكرة في سياق النفي تعم؛ حتى تعم كل أصحاب الحقوق، وقد زاد من عمومها حرف الجر الزائد (**من**) الذي يفيد التوكيد ويزيد العموم. وقوله: (**هذا المال**): أشار إليه باسم الإشارة (**هذا**) وهو للقريب، والقرب هنا قد يكون قرب مكان إن كان المال حاضرا بين يديه، أو قرب زمان إن كان فيئا قريبا، أو قرب مكانة؛ لعظمة الحق في هذا المال. وكيلا يظن ظان أنه لمكانته من الخلافة سيستأثر بشيء من المال = بادرهم بقوله: (**وما أنا بأحق به من أحد**). ولما نفى أن يكون أحد يزيد بحقه على أحد بيَّن أن لكل أحد حقا بهذا المال، وهو قوله: (**والله ما من المسلمين أحد إلا وله في هذا المال نصيب إلا عبدا مملوكا**)، وبدأ هذه الجملة بالقسم المؤكد. وقوله: (**من المسلمين**) خصصت العموم الذي ذكرناه في قوله: (**من أحد**)، فأخرجت غير المسلمين ثم عادت النكرة في سياق النفي؛ لتعم كل أحد من المسلمين. وقوله: (**إلا وله**): (**الواو**) حالية، كما سبق بيانه. وقوله: (**إلا عبدا مملوكا**): استثناء من الاستثناء. وفي

هذه الجملة إطناب وإيجاز: أما الإطناب: ففي قوله: (**مملوكا**)، وقد جاء بغرض التوضيح والبيان، فلا يختلط بمن كان عبدا فأُعتق. وأما الإيجاز: فهو إيجاز حذف تقديره: إلا عبدا مملوكا لا حق له. وقوله: (**ولكنا على منازلنا من كتاب الله، وقسمنا من رسول الله ﷺ**): هنا يتبين السبب الذي لأجله ساق عمر رضي الله عنه الاعتذار في قسم المال في أول النَّص؛ لأن الناس لا يأخذون المال بالسوية، وزيادة بعضهم على بعض في القسمة بسبب زيادة الفضل بينهم، وهذا التقسيم جاء بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ. ثم راح يبين عمر رضي الله عنه كيف تكون القسمة بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فقال: (**فالرجل وبلاؤه في الإسلام**)، وفي هذه الجملة حذف دلت عليه (الفاء الفصيحة)، وتقدير هذا الحذف: إن سألت عن قسمته فالرجل وبلاؤه في الإسلام. وقوله: (**في الإسلام**): تخصص البلاء بكونه في الإسلام لا في غيره من البلاء، ويقال مثل ذلك في الجمل التي تكررت فيها جملة (**في الإسلام**). ولكي يزيل ما في نفوس الناس من ظنهم بأن يفوت أحدهم شيء من حقه = قال لهم: (**ووالله لئن بقيت لهم ليأتين الراعي بجبل صنعاء حظه من هذا المال وهو يرعى مكانه**): وهو يقسم بالله على ما سيصنعه إذا أبقاه الله - تعالى -، وعليه أكد ذلك بالقسم و(**اللام**) المؤكدة الواقعة في جملة القسم. وفي قوله: (**لئن بقيت**) حذف تقديره: لئن بقيت حيا. وقوله: (**الراعي بجبل صنعاء**): خص الراعي بالذكر لكونه ممن لا يفطن له كما يفطن لسادات القوم وأعيانهم، وخص صنعاء بالذكر لبعدها - يومئذ - عن بلاد المسلمين، وخص الجبل بالذكر لوعورته، ولم يقل: (ليأتين الراعي في بيته)، بل في مكان عمله في رءوس الجبال، وهذا من مبالغته في إيصال الحقوق إلى أصحابها.

[٣٢٤]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

وَقَدْ سَمِعَهُ النَّبِيُّ ﷺ يَحْلِفُ بِأَبِيهِ، فَنَهَاهُ

«فَوَاللهِ مَا حَلَفْتُ بِهَا مُنْذُ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ نَهَى عَنْهَا، ذَاكِرًا، وَلَا آثِرًا[١]»[٢].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: قوله: **(لا ذاكرا ولا آثرا)**: قال ابن سلام في غريب الحديث: «أما قوله: **(ذاكرا)** فليس من الذكر بعد النسيان، إنما أراد متكلما به، كقولك: ذكرت لفلان حديث كذا وكذا، وقوله: **(ولا آثرا)** يريد: ولا مخبرا عن غيري أنه حلف به، يقول: لا أقول: إن فلانا قال: وأبي لا أفعل كذا وكذا، ومن هذا قيل: حديث مأثور - أي يخبر به الناس بعضهم بعضا، يقال منه: أثرت - مقصورا - الحديث، آثره أثرا، فهو مأثور وأنا آثر،على مثال فاعل. قال الأعشى:

إن الذي فيه تماريتما ... بين للسامع والآثر».

مقتضى الحال: الحال كما جاءت القصة في بعض الروايات: (سمع النبي ﷺ عمر رضي الله عنه وهو يحلف بأبيه، فقال: **«أَلا إِنَّ اللهَ يَنْهَاكُمْ أَنْ تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ»**، فقال عمر رضي الله عنه هذا النَّص.

١- قالَ ابنُ الأثيرِ في «النِّهايةِ» ١/ ٢٢: (أي: ما حَلَفتُ به مُبتدِئًا مِن نفْسي، ولا رَوَيتُ عن أحدٍ أنَّه حَلَفَ بها).

٢- رواهُ البخاريُّ في «صَحيحِه» (٦٦٤٧)، ومُسلِمٌ في «صحيحِه» (١٦٤٦)، والنَّسائيُّ في «السُّنَنِ» (٣٧٦٦)، وابنُ ماجه في «السُّنَنِ» (٢٠٩٤)، وأحمدُ في «المُسنَدِ» (١١٢)، والطَّيالسيُّ في «المُسنَدِ» (١٩٢٣)، والحُمَيديُّ في «المُسنَدِ» (٦٣٧)، وابنُ أبي شيبةَ في «المُصنَّفِ» (١٢٤٠٧).

البيان والبلاغة: افتتح عمر ﵁ كلامه بقوله: (**فوالله ما حلفت بها منذ سمعت الرسول ﷺ**)، والجملة تدل على محذوف لابد من تقديره، يطلبه تمام المعنى، وتقتضيه (**الفاء**) الفصيحة التي تعطف على محذوف، تقديره - كما في بعض روايات النَّص -: منذ نهاني فوالله ما حلفت ... وجاء الحذف تاركا للقسم أن يكون في مفتتح الكلام، والقسم بالله - تعالى - هو من التوكيد، بل هو أشده؛ وذلك كي لا يقع في نفس السامع شك بقوله. ومما يؤكِّد صدقه أنه: لما نفى الحلف بغير الله أكده بأن سبقه بحلف بالله، فاستفدنا من حلفه - غير التوكيد - إثبات صدقه. وهذا النَّص يصلح ليكون نصًّا مشتملا على القول والتطبيق. وجملة (ﷺ) جملة اعتراضيه، وهي من الإطناب المراد به الدعاء والذكر. وفي كلمتي (**ذاكرا**) و(**آثرا**) تناسب في اللفظ والاشتقاق، وفيهما طباق، وفيهما سجع، وجناس ناقص. وقوله: (**ولا آثرا**): فيها إيجاز بالحذف تقديره: ولا حلفت بها آثرا.

[٣٢٥]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

لِغَيْلَانَ بْنِ سَلَمَةَ الثَّقَفِيِّ[١] وَقَدْ طَلَّقَ نِسَاءَهُ الْأَرْبَعَ، وَقَسَّمَ مَالَهُ بَيْنَ بَنِيهِ

«إِنِّي لَأَظُنُّ الشَّيْطَانَ فِيمَا يَسْتَرِقُ مِنَ السَّمْعِ سَمِعَ بِمَوْتِكَ، فَقَذَفَهُ فِي نَفْسِكَ، وَلَعَلَّكَ أَنْ لَا تَمْكُثَ إِلَّا قَلِيلًا، وَايْمُ اللهِ لَتُرَاجِعَنَّ نِسَاءَكَ، وَلَتَرْجِعَنَّ فِي مَالِكَ؛ أَوْ لَأُوَرِّثُهُنَّ مِنْكَ، وَلَآمُرَنَّ بِقَبْرِكَ فَيُرْجَمُ كَمَا رُجِمَ قَبْرُ أَبِي رِغَالٍ[٢]»[٣].

١- غَيْلانُ بنُ سَلَمَةَ بنِ شُرَحْبِيلِ الثَّقَفِيُّ، أسلمَ بعدَ فتحِ الطَّائفِ ولم يُهاجِرْ، وكان أحدَ وُجوهِ ثقيفٍ ومُقدَّمِيهِم، وكان عندَه عشرُ نسوةٍ، فأمرهُ رسولُ الله - صلَّى اللهُ عليهِ وآلِه وسلَّمَ - أن يتخيَّرَ منهنَّ أربعًا. وهو ممَّن وفدَ على كِسْرى، وخَبرُه معهُ عجيبٌ، قال كِسْرَى ذاتَ يومٍ: أيُّ ولدِك أحبُّ إليكَ؟ قال: الصَّغيرُ حتَّى يَكبَرَ، والمريضُ حتَّى يبرأَ، والغائبُ حتَّى يؤُوبَ. فقالَ كسرى: زه! ما لَكَ ولهذا الكلامِ! هذا كلامُ الحكماءِ، وأنت مِن قومٍ جُفَاةٍ لا حكمةَ فيهم، فما غذاؤك؟ قال: خبزُ البُرِّ. قال: هذا العقلُ مِن البُرِّ، لا مِن اللَّبنِ والتَّمرِ. وكانَ شاعرًا مُحسِنًا. توفي غيلانُ بنُ سلمةَ في آخرِ خلافةِ عمرَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ -. «الاستيعاب» ٣/ ١٢٥٦.

٢- قَسِيُّ بنُ مُنبِّهِ بنِ النَّبيتِ بنِ يقدمَ، مِن بني إيادٍ، أبو رِغَالٍ: جاهليٌّ، صاحبُ القبرِ الَّذي يُرجَمُ بينَ مكَّةَ والطَّائفِ. كان في الطَّائفِ، وهي دِيارُ ثقيفٍ، وكانت ثقيفٌ تُعيَّرُ به. «الأعلام» ٥/ ١٩٨.

وأبو رِغالٍ هذا، ذكرَ ابنُ إسحاقَ أنَّه هو الَّذي دلَّ أبرهةَ على الطَّريقِ إلى مكَّةَ ليهدمَ الكعبةَ، فلمَّا توفي رجمتْ قبرَه العربُ. «السِّيرة النَّبويَّة» لابن هشام ١/ ٤٧.

قلتُ: وفيهِ يقولُ جريرٌ:

إِذَا مَاتَ الْفَرَزْدَقُ فَارْجُمُوهُ ... كَرَجْمِكُمُ لِقَبْرِ أَبِي رِغَالِ

٣- رواهُ أحمدُ في «المُسنَدِ» (٤٦٣١)، وعبدُ الرَّزَّاقِ في «المُصنَّفِ» (١٢٢١٦)، وأبو يعلى في «المُسنَدِ» (٥٤٣٧)، والرُّويانيُّ في «المُسنَدِ» (١٣٩٩)، وابنُ حبَّانَ في «صحيحِه» (٤١٥٦)، والطَّبرانيُّ في «مُسنَدِ الشَّاميِّين» (٣١٦٠)، وأبو نعيمٍ في «معرفةِ الصَّحابةِ» (٥٦٢٧)، وابنُ عساكرَ في «تاريخِ دمشقَ» ٤٨/ ١٣٦-١٣٧ و٥٩/ ٣٩٣.

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: الحال كما جاء في الروايات «أن غيلان بن سلمة الثقفي: أسلم وتحته عشر نسوة، فقال له النبي ﷺ: اختر منهن أربعا، فلما كان في عهد عمر طلق نساءه، وقسم ماله بين بنيه، فبلغ ذلك عمر، فقال: ...» هذا النَّص.

لطائف لغوية: قوله: (**وايم الله**): الهمزة في (**ايم**) همزة وصل؛ وهو واحدٌ من عشرة أسماء سُمِعتْ همزتها بالوصل على غير قياس. قال الحملاوي في شذا العرف في فن الصرف - باختصار -: «فصل في همزة الوصل؛ ولا تكون في حرف غير (**أل**)، ومثلها ... ولا في فعل مُضارع مطلقًا ولا في ماض ثلاثي كأمَر وأخذ، أو رُباعي كأكرم وأعطى، بل في الخماسي كانطلق واقتدر، والسُّداسي كاستخرج واحرنجم، وأمرهما، وأمر الثلاثي الساكنُ ثاني مضارعه لفظًا كاضرب، بخلاف نحو: هَبْ وعِدْ وقُلْ. ولا في اسم إلا مصادر الخماسي والسداسي، كانطلاق واستخراج، وفى عشرة أسماء مسموعة، وهى: اسمٌ، وَاسْتٌ، وابنٌ، وابنُمٌ، وابنة، وامْرُؤٌ، وامرَأة، واثْنان، واثْنتان، وايُمُن المختصة بالقسم، وما عدا ذلك فهمزته همزة قطع». وفي قوله: (**فيرجم كما رجم قبر أبي رغال**): ورد تشبيه دل عليه أداة التشبيه (**الكاف**)، وهذا التشبيه ليس هو التشبيه المجازي الذي يتحدث عنه البلاغيون، وإنما هو تشبيه حقيقي لا مجاز فيه، ومثاله أن تقول لرجل: (أنت تشبه أخاك) تقصد في شكله، قال ابن أبي الإصبع، في تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر: «التشبيه عبارة عن العقد على أن أحد الشيئين يسد مسد الآخر في حال أو عقد، هكذا حد الرماني، وهذا هو التشبيه العام الذي يدخل تحته التشبيه البليغ وغيره. ثم إن الرماني بعد حده قال: والتشبيه تشبيهان: تشبيه شيئين متفقين بأنفسهما كتشبيه الجوهر بالجوهر، كقولك:

ماء النيل مثل ماء الفرات، وتشبيه العرض بالعرض، كقولك: حمرة الخد كحمرة الورد، وتشبيه الجسم بالجسم، كقولك: الزبرجد مثل الزمرد، وتشبيه شيئين مختلفين بالذات يجمعهما معنى مشترك بينهما: كقولك، حاتم كالغمام، وعنترة كالضرغام، والتشبيه المتفق تشبيه حقيقة، والتشبيه المختلف تشبيه مجاز للمبالغة».

البيان والبلاغة: افتتح عمر رضي الله عنه خطابه بقوله لغيلان: (**إني لأظن الشيطان فيما يسترق من السمع سمع بموتك**): بدأ النَّص بمؤكدين اثنين: (**إنَّ**) الثقيلة و(**اللام**)، وهذا توكيد لما ظنه عمر رضي الله عنه، والظن قد يكون بمعنى الاعتقاد الجازم، والأوجه أنه ليس اعتقادا جازما وإنما هو تشبيه لحال غيلان. وهذا التشبيه جاء بهذه الصورة وبهذا المثل؛ لينبه غيلان إلى شناعة ما صنعه، وأن هذا الفعل من نفث الشيطان. وربَّما أراد أمير المؤمنين رضي الله عنه تهديده بالقتل، فصاغ له هذه القصة التي بطلها الشيطان الذي وسوس له بهذا الصنيع، والتهديد - حينئذٍ - غير حقيقي؛ لأنَّ الذي صنعه غيلان لا تصل عقوبته إلى القتل بحال. وفي كلمتي (**السمع**) و(**سمع**) جناس ناقص، وسجع، واشتقاق اللفظ من اللفظ. وقوله (**فقذفه في نفسك**): (**الفاء**) تفيد التعقيب دلالة على سرعة البشارة من الشيطان، وهذا التعقيب يناسب ما عليه طبع الشيطان من السرعة في العمل والخفة والقدرة الخارقة، فجاءت (**الفاء**) مناسبة للحال. وقوله: (**ولعلك ألّا تمكث إلا قليلا**): (**لعل**) ليست للترجي - هنا -، فقد تأتي بمعنى الشك والظن، فهو لا يترجى موته ويتمناه، وإنما يقول: له أشك بقرب موتك، وقد يقول قائل: لا يمنع أن تكون للترجي لا لأن عمر رضي الله عنه يترجى موته ولكنه يعنِّفه بهذا الترجي. وفي جملة (**لا تمكث إلا قليلا**) حصرٌ لمكوثه بالقلة، وفيها إيجاز بالحذف تقديره: لا تمكث حيا إلا زمنا قليلا. ولما فرغ أمير المؤمنين رضي الله عنه من

تعنيفه وتوبيخه راح يأمره بما يُصلح ما أفسده، فقال له: (**وايم الله لتراجعن نساءك**)، فأثقل عليه بالقول مؤكدا ما أمره به بالقسم و(**اللام**) المؤكدة والنون المشددة، وهذه مؤكدات الثلاث لكي يعلم غيلان أن الأمير جادٌّ في أمره. وفي قوله: (**لتراجعن**) و(**لترجعن**): جناس ناقص، وسجع، واشتقاق اللفظ من اللفظ. وجملة (**أو لأورثهن منك**): خرجت مخرج التهديد، وكذلك قوله: (**ولآمرن بقبرك فيرجم كما رجم قبر أبي رغال**) فهي للتهديد، أيضا. وفي هذه الجملة تشبيه، وهو تشبيه حقيقي لا مجاز فيه، وقد شبهه بأبي رغال؛ لأن كليهما من ثقيف، ولأن صنيع غيلان يشبه صنيع أبي رغال؛ فكلاهما جرَّ السوء والوبال على أهله، فهذا طلَّق نساءه وقسَّم ماله، وذلك تآمَر على قومه فدلَّ الأحباش على طريق كعبة الله ليهدموها.

[٣٢٦]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«لَيَأْتِيَنَّ عَلَى النَّاس زَمَانٌ يَكُونُ صَالِحُو الْحَيِّ فِيهِمْ فِي أَنْفُسِهِمْ، إِنْ غَضِبُوا غَضِبُوا لِأَنْفُسِهِمْ، وَإِنْ رَضُوا رَضُوا لِأَنْفُسِهِمْ، لَا يَغْضَبُونَ لله - عَزَّ وَجَلَّ -، وَلَا يَرْضَوْنَ لله - عَزَّ وَجَلَّ -، فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ الزَّمَانُ؛ فَاحْتَرِسُوا مِنَ النَّاس بِسُوءِ الظَّنِّ»[1].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: ليس في النَّص ما يبين الحال ولا الزمان ولا المكان الذي قيل فيه هذا النَّص، وقد يكون من مواعظه أو خطبه رضي الله عنه.

لطائف لغوية: اللام في قوله: (**غضبوا لأنفسهم**): هذه اللام في الأسماء تضارع (لام كي) في الأفعال، وقد سبق الحديث عنها في النَّص رقم ستين ومئة، فليراجعه المستزيد.

البيان والبلاغة: افتتح عمر رضي الله عنه خطابه بقوله: (**ليأتينَّ على الناس زمان**)، فالنَّص من بدايته مثقل بالتوكيدات: أوَّلها: القسم المحذوف الذي دلت عليه (**اللام**) والنون المشددة في قوله: (**ليأتين**)، وثانيها: (**اللام**) التي هي للقسم المحذوف - إن قلنا به -، فإن لم نقل به - على رأي مَن لا يرى أنَّ ثمة قسما محذوفا - فهي لام الابتداء التي تفيد التوكيد، وثالثها: النون المشددة. وقوله: (**الناس**): (**أل**) التعريف هنا إما للاستغراق، وإما للعهد، والذي يبدو فيما يأتي من النَّص أنها للعهد، وأنه أراد

١- رواهُ الدَّانيُّ في «السُّنَنِ الواردةِ في الفِتَنِ» (٢٣٨).

(المسلمين) لا كل الناس. وقوله: (**زمان**): نكرة، وذلك يدل على أن هذا الزمان غير معلوم ولا مسمى. وثمة حذف في قوله: (**في أنفسهم**)، تقديره: يكون صالحي الحي فيه مشغولين في أنفسهم. وقوله: (**إن غضبوا غضبوا لأنفسهم**): هذه الجملة الشرطية تدل على أمرين لا يتم أحدهما إلا بتمام الآخر؛ فلا يغضب الصالحون إلا إذا غضبوا لأنفسهم. وقوله: (**إن غضبوا غضبوا لأنفسهم**): توالت كلمة (**غضبوا**) مرتين؛ الأولى في نهاية جملة الشرط، والثانية في أول جملة جواب الشرط، وهذا ما يسمى بتشابه الأطراف، كقوله تعالى: ﴿ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ ﴾ [النور: ٣٥]. و(**اللام**) في قوله: (**لأنفسهم**) هي في الأسماء مثل (لام كي) في الأفعال بمعنى لأجل، وفيها إيجاز بالقصر؛ حيث كثير المعنى في قليل اللفظ. ومجيء قوله: (**غضبوا**) في آخر جملة الشرط، ثم وصل هذه الجملة بجملة أخرى، وربط بينهما بحرف (**الواو**) الذي هو للعطف، وذلك قوله: (**وإن رضوا رضوا لأنفسهم**). ويقال في هذه الجملة ما قيل في سابقتها. وفي الجملتين ما نسميه بالترصيع؛ لاتحاد الوزن والتقفية. وفيهما مقابلة حيث كلمتي (**غضبوا**) و(**غضبوا**) ضد الكلمتين (**رضوا**) و(**رضوا**)، وبالترتيب. وقوله: (**لا يغضبون لله - عز وجل -**): هذه الجملة توضيح وإتمام لمعنى لقوله: (**إن غضبوا غضبوا لأنفسهم**)؛ حيث في الجملة الأولى لم يبين غلطهم في أن يغضبوا لأنفسهم، فبينه في هذه الجملة كونه لا يكون لله - تعالى -، وأنَّ الغضب لأنفسهم مقدَّم على الغضب لله. واللام في قوله: (لله) يعني لأجل الله فهي (لام كي). وقوله: (**عز وجل**): إطناب يراد منه تعظيم الله - عز وجل -. ومثل ما قيل في هذه الجملة يقال في الجملة التي تليها (**ولا يرضون لله - عز وجل -**). أما الجملتان معًا فوصل بينهما بـ (**الواو**) التي هي للعطف. وفي الجملتين ما سبق وبيَّناه من الترصيع. وفي كلمتي (**يغضبون**)

و(**يرضون**) طباق. وقوله: (**فإذا كان ذلك الزمان؛ فاحترسوا من الناس بسوء الظن**): هذه الجملة الشرطية سبق في هذا النَّص أن بينا أن أحد طرفيها يلزم بوجود الآخر. وقوله: (**كان**): هي التامة بمعنى إذا جاء ذلك الزمان. وقوله: (**ذلك**): اسم إشارة للبعيد، وبُعد الزمان هنا قد يكون على الحقيقة فيكون عمر رضي الله عنه يرجو ألا يكون قريبا من زمنه وعهده، وقد يكون البعد هنا بعدا معنويا؛ لبعده عن الحق ولغرابته وشناعته. و(**أل**) التعريف في (**الزمان**) للعهد الذكري. و(**الفاء**) في قوله: (**فاحترسوا**) هي التي تقع في جواب الشرط. و(**أل**) التعريف في قوله: (**الناس**) قد تصلح هنا للاستغراق، أو للعهد الذي يعني المسلمين خاصة، كما بيَّنا من قبل. والباء في قوله: (**بسوء الظن**) تفيد الاستعانة؛ أي فاستعينوا بسوء الظن.

[٣٢٧]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ
لِلْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ

وَقَدْ قَالَ لَهُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، أَرَأَيْتَ أَنْ لَوْ جَاءَكَ عَمُّ مُوسَى مُسْلِمًا، مَا كُنْتَ صَانِعًا بِهِ؟ قَالَ: «كُنْتُ - وَاللهِ - مُحْسِنًا إِلَيْهِ». قَالَ: فَأَنَا عَمُّ مُحَمَّدٍ النَّبِيِّ ﷺ. قَالَ: «وَمَا رَابَكَ يَا أَبَا الْفَضْلِ؟! فَوَاللهِ لَأَبُوكَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَبِي». قَالَ: آللهُ؟ قَالَ: «آللهُ؛ لِأَنِّي كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّهُ أَحَبُّ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنْ أَبِي، فَأَنَا أُوثِرُ حُبَّ رَسُولِ اللهِ ﷺ عَلَى حُبِّي»[1].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: تدل النُّصوص على أن العباس قال ما قاله لعمر رضي الله عنهما؛ لأنه كان له مطلب عند عمر، واختُلِف في هذا المطلب. قال ابن سعد في الطبقات: «عن الحسن قال: بقي في بيت مال عمر شيء بعد ما قسم بين الناس، فقال العباس لعمر وللناس ... قال: فأنا أحق به. أنا عم نبيكم ﷺ فكلَّم عمر الناس فأعطوه تلك البقية التي بقيت». وروى البلاذري أن سبب هذا النَّص هو ميازيب تصب في المسجد أمر بها عمر أن تقلع، ويبدو أن للعباس واحدا منها، فقد جاء في أنساب الأشراف للبلاذري: «عن أبي حصين قال: أمر عمر بقلع الميازيب التي تصب في المسجد، فأتاه العباس ... قال: اذهب فاصنع ما شئت».

لطائف لغوية: في قوله: (آلله): ما هذا المد الذي في كلمة لفظ الجلالة، وما

١- رواهُ ابنُ سعدٍ في «الطَّبقاتِ الكُبرَى» ٤/ ٣٠، والبلاذريُّ في «أنسابِ الأشرافِ» ٤/ ١٢.

معناها؟ قال ابن علان في دليل الفالحين: «آلله، بمد الهمزة: والأصل أألله بهمزتين؛ أولاهما للاستفهام والأخرى همزة (أل)، فأبدلت الثانية مدة، وجُرَّ الاسم الكريم، قيل: بالهمزة وهي من حروف القسم، وقيل: إنَّ حرف القسم مقدر بعدها، وهو الذي صححه ابن هشام».

البيان والبلاغة: لما رجا العباس من أمير المؤمنين زيادة توقير لمنزلته من رسول الله ﷺ ضرب له المثل في عم موسى، فلما علِمَ من الأمير أنه لو أدرك عمَّ موسى لأجَلَّه وأكبره؛ حيث قال له: (**كنتُ - والله - محسناً إليه**) فبادره العباس بالقياس، واحتج على أمير المؤمنين بأنه عم رسول الله ﷺ ملمحا بطلب شيء من الإجلال، فكان بينهما ما يأتي من الحوار. أما جواب عمر رضي الله عنه له بقوله: (**كنت - والله - محسناً إليه**)، والقسم المعترض في هذه الجملة استدركه عمر رضي الله عنه على نفسه كيلا يقع في نفس العباس شك فيما يقول. وقوله: (**وما رابك يا أبا الفضل؟! فوالله لأبوك أحب إلي من أبي**): لما أحس عمر رضي الله عنه أن في نفس عمِّ رسول الله ﷺ شيئا ظهر في تعريضه، بادره بالسؤال عما رابه. وقوله: (**رابك**) بصيغة الماضي ولم يقل: (يريبك)؛ لأن الريبة لا تكون إلا من حدث قد وقع فأوجد ريبة حلت بالعباس، فناسب أن يسأل عنها بصيغة الماضي، وقد نقول إن ثقة عمر بصحة ما يفعل وأنه لم يفعل ما يسيء إلى العباس ذهب به الظن إلى شيء جرى منه فنسيه، ولو كان متلبسًا به لكان عمر يعلمه فناسب أن يسأل عنه بصيغة الماضي؛ تحرزا من شيء وقع منه ونسيه. ومن رفق عمر رضي الله عنه بعَمِّ رسول الله ﷺ ناداه متلطفًا به (**يا أبا الفضل**)، وهذا النداء لا حاجة له كونه بين يديه ويحاوره، إذا علمنا أن النداء إنما يكون إما لبعيد أو لخفي عن البصر أو مَن كان شارد ذهن، والذي جرى بين الرجلين لا يدل على شيء من

ذلك، فلم يبقَ للنداء فائدة إلا التلطف والتحبب في ذكر اسمه، ثم لما ذكر اسمه أجراه بأحسن صيغة وهي التكنية، وقد سبق لنا أن قلنا بأن العرب تكثر من التكنية حتى غلبت على كثير منهم كنيته فأنست الناس اسمه - ولا أدلَّ على ذلك من أبي هريرة رضي الله عنه؛ حيث اشتهر في الناس - سلفا وخلفا - بكنيته، ثمَّ اختُلِفَ في اسمه على نجو من أربعين قولا -، والتكنية عند العرب للتوقير والمحبة والتكريم. وفي الجملة إيجاز بالحذف دلت عليه (الفاء) الفصيحة، وتقدير الحذف: إن ارتبت فوالله ... والقسم لتأكيد قوله لاسيما أنه ظن أن في نفس العباس ريبةً، فناسب أن يجيء بهذا التوكيد؛ ليدفع تلك الريبة، وزاد على ذلك التوكيد بتوكيد آخر، وهي **(اللام)** في قوله: **(لأبوك)**، ويحق لسائل أن يسأل: لم يحدث أمير المؤمنين العباس عن أفضلية أبيه على أبيه، وإنما سأله أبو الفضل عن أفضليته عنده؟ ولمجيب أن يجيب بأنَّ أمير المؤمنين رضي الله عنه أراد بذلك المبالغة في تطييب خاطر العباس رضي الله عنه وإزالة الشك في قلبه؛ لأن ما من أحد إلا ويقدم توقير أبيه على نفسه، فكيف إذا قدَّم أبا العباس على أبي نفسه؟! وهذا الأسلوب يسمونه أسلوب الحكيم؛ وهو: أن تُسأل عن شيء فتجيب على ما هو أولى منه. وقوله: **(من أبي)** ولم يقل: (من الخطاب)، كما جاء في نص قريب (كنت أرعى إبل الخطاب)، وقلنا هناك: لم يقل إبل أبي؛ لأنه ذكر هناك أن الخطَّاب كان فظاً وهذا ينافي ما في الأبوة فلم يذكرها، وهنا لما كان الحديث عن المحبة - والأبوة تقتضيها - ناسب أن يقول: (أبي). فلما سمع أبو الفضل من أبي حفص ما يدعو للعجب، ولما رأى أنه أعطاه من الحب ما بلغ الجدود، واستغرق الآباء، ففاض على الأبناء، وأن عمر رضي الله عنه يحب جد رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثر من أبي نفسه = دَهِش، وصاح به **(آلله)**، ولابد أنه مد بها صوته بما يساوي قيمة المد الذي فيها، وهو اللازم؛ وهو الأطول مدا بين المدود! فأجابه عمر رضي الله عنه جوابا يساوي به سؤاله

فقال: (**آلله**). وفي هذه الكلمة من الإيجاز بالحذف ما فيها؛ أما الأولى فتقدير الحذف فيها: أبالله ما تقول إلا حقا، وفي الثانية: بالله ما أقول إلا حقا، وجاء هذا الحذف مناسبا للدهشة التي أسكتت الكلام وعطلته. ثم راح يعلل تلك المحبه بقوله: (**لأني كنت أعلم أنه أحب إلى رسول الله ﷺ من أبي**)، وهذا من عظيم الحب وأكمله بأن تحب ما يحبه حبيبك وتقدمه على ما تحب، وأن تحب ما يتصل به ويدلي إليه بسبب. وفي قوله: (**أوثر حب رسول الله ﷺ على حبي**): الحرف (**على**) يفيد الاستعلاء، أي: إن حب رسول الله ﷺ يعلو ويظهر على حبي.

[٣٢٨]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«إِنَّهُ كَانَ وُلَاةَ هَذَا الْبَيْتِ قَبْلَكُمْ طَسْمٌ، فَاسْتَخَفُّوا بِحَقِّهِ، وَاسْتَحَلُّوا حُرْمَتَهُ، فَأَهْلَكَهُمُ اللهُ. ثُمَّ وَلِيَتْهُ بَعْدَهُمْ جُرْهُمُ، فَاسْتَخَفُّوا بِحَقِّهِ، وَاسْتَحَلُّوا حُرْمَتَهُ، فَأَهْلَكَهُمُ اللهُ. فَلَا تَهَاوَنُوا بِهِ، وَعَظِّمُوا حُرْمَتَهُ»[١].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: (طسم): قال نشوان الحميري في شمس العلوم: «طسم: قبيلة من العرب الأولى كانوا باليمامة، وهم ولد طسم بن لاوذ بن سام بن نوح - عليه السلام -». وعن سكناه مكة قال ابن الأثير في النهاية: «طسم: في حديث مكة: (وسكانها طسم وجديس). هما قوم من أهل الزمان الأول. وقيل طسم: حي من عاد». أما (جُرْهُم): قال القلقشندي في نهاية الأرب: «بنو جرهم - أيضاً - بطن من القحطانية، وهم بنو جرهم من قحطان ... وكانت منازل بني قحطان اليمن، فلما ملك يعرب بن قحطان اليمن ولي أخاه جرهم الحجاز فاستولى عليه وملكه ... ولم يزالوا بمكة إلى أن نزل إسماعيل - عليه السلام - مكة فنزلوا عليه فتزوج منهم وتعلم لغتهم ... ثم استولت جرهم على أمر البيت، وتفرقت قبائل اليمن بسيل العرم، فنزلت خزاعة مكة وغلبوا جُرْهُم عليها فخرجت جرهم من مكة ورجعوا إلى ديارهم في اليمن، فأقاموا بها حتى هلكوا».

١- رواهُ عبدُ الرَّزَّاقِ في «المُصنَّفِ» (٩١٠٧)، والأزرقيُّ في «أخبارِ مكَّةَ» ١/ ٨٠، والفاكهيُّ في «أخبارِ مكَّةَ» (١٤٦٨).

مقتضى الحال: ليس في النَّص ما يبين الحال التي قال فيها عمر رضي الله عنه هذا النَّص، إلا ما جاء في الروايات أنه قاله لقريش.

لطائف لغوية: في قوله: (**إنه كان**): الهاء ضمير الشأن، وقد سبق الحديث عنه في النَّص رقم ثمانية وسبعين ومئة. وقوله: (**فاستخفوا**): أصل الفعل (خفَّ)، ثم زِيد همزة الوصل والسين والتاء، وقد مرَّ معنا من قبل - في النَّص رقم سبعة وخمسين ومئة - فوائد بيان معاني ودلالات هذه الزيادة.

البيان والبلاغة: افتتح عمر رضي الله عنه خطابه بقوله: (**إنه كان ولاة هذا البيت قبلكم طسم**)، فابتدأ النَّص من مفتتحه بالتوكيد بـ (**إنَّ**) المصحوبة بضمير الشأن، وقد قلنا في نصوص سابقة: إن هذا الضمير يعود - في الغالب - على مذكور قبله، أما إذا جاء في أول النَّص فهنا يتشعب الفكر وينشغل العقل في التخمين والاستنتاج والتساؤل: على أي شيء يعود هذا الضمير؟! فينفتح من التخمين ما يحفِّز القلب والخاطر لمعرفة هذا الشيء الذي يعود عليه هذا الضمير. وبعضهم يسمي هذا الضمير بضمير القصة؛ لأنه يدل على قصة آتية، فما هذه القصة المخبأة وراء هذا الضمير؟! ثم يتابع عمر رضي الله عنه سرد قصته عن ولاية بيت الله الحرام؛ فيذكر لنا أن طسما كانوا ولاة هذا البيت. وقوله: (**هذا**) اسم إشارة يدل على القريب، والقرب قرب مكان ومكانة. وقوله: (**طسم**): هو اسم (**إنَّ**) مؤخر، وقدم خبرها عليها لأهميته على اسمها، إذا كلُّ من تولَّى أمر بيتِ الله - تعالى - فقد استفاد شرفًا ورفعة لا تزولُ إلا أن تزيلها معصيته لله - تعالى -، ولم ينشغل بذكر وتقديم (**طسم**) لهوانهم عليه لما وقع عليهم من إهلاك الله - تعالى - لهم، وهذا التأخير جاء مناسبا لأحداث القصة، وهذا من فطنته رضي الله عنه. وقوله: (**فاستخفوا بحقه**): في الجملة إيجاز حذف

دلت عليه الفصيحة، أعني (الفاء)، وهي حرف عطف على محذوف، تقديره: ولوا بيت الله فاستخفوا بحقه. والسين والتاء في قوله: (**استخفوا**): مزيدة على أصل الفعل (خفَّ) إما تفيد الاعتقاد، أي: اعتقدوه خفيف الشأن، أو الاحتقار، أي: لم يعظموه حق التعظيم. وقوله: (**فاستخفوا بحقه**) يدل على أن حقه ثقيل وعظيم. وقوله: (**واستحلوا حرمته**): وُصِلت هذه الجملة بالتي سبقتها برابط حرف العطف (**الواو**) لما في الجملتين من تناسب في المعنى. وفي كلمة (**استحلوا**) وكلمة (**حرمته**) طباق. وقوله: (**فأهلكهم الله**): الفاء هي العاطفة تفيد الترتيب والتعقيب، أي: سرعة إهلاك الله لهم وأنه لم يمهلهم، وهذا جزاء من ألحد في بيت الله. ويتابع عمر رضي الله عنه سرد الحدث وتولية جرهم لبيت الله - تعالى -، وقد جاء السرد التاريخي لولاية بيت الله - تعالى - مرتباً حسب الزمن فتدلى من الأقدم إلى الأحدث ذاكرا ولاية طسم ثم ولاية جرهم وما فعل الله بهم، ثم ألمح أن قريشا وليته بعدهم ولم يذكره نصا، بل دل عليه الحذف الذي يقتضيه المعنى؛ حيث بدأ النَّصيحة لقريش؛ ليُفهم أن قريشا وليته بعد ذلك، ودل عليه أيضا (**الفاء**) الفصيحة في قوله: (**فلا تهاونوا به**)، وتقدير المحذوف: وقد وليتموهُ فلا تهاونوا به. وقوله: (**تهاونوا**): فيه حذف التاء تخفيفا؛ إذ أصله (تتهاونوا). وقوله: (**وعظموا حرمته**): عطف هذه الجملة على جملة (**ولا تهاونوا به**)، وهذا من عطف اللفظ على معناه؛ حيث عدم التهاون هو التعظيم، أو يقتضي التعظيم. وفي قوله: (**تهاونوا**) وقوله: (**عظموا**): طباق. وكان من الممكن أن يكون النَّص أوجز من ذلك لو قال: (إنه كان ولاة هذا البيت قبلكم طسم وجرهم، فاستخفوا بحقه واستحلوا حرمته فأهلكم الله)، ولكنه لم يفعل، وأفرد لكل جملة ما ترتب عليها؛ لبيان الأهمية، وبيان عظمة ما فعلوا، وقوة بطش الله - تعالى - بهم، وإهلاكه لهم.

[٣٢٩]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

فِي الْعَطَاءِ مِنَ الْفَيْءِ

«لَأَزِيدَنَّهُمْ مَا زَادَ الْمَالُ، لَأَعُدَّنَّهُ لَهُمْ عَدًّا، فَإِنْ أَعْيَانِي كِلْتُهُ لَهُمْ كَيْلًا، فَإِنْ أَعْيَانِي حَثَوْتُهُ بِغَيْرِ حِسَابٍ»(١).

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: ليس في النَّص ما يبين الحال التي قال فيها عمر رضي الله عنه هذا النَّص، وربما قاله في وقت جاءه فيه شيء من الفيء.

لطائف لغوية: قوله: **(حثوته بغير حساب)**: الباء - هنا - باء العوض والمقابلة. وللباء معانٍ أخرى ألمح إليها ابن الصائغ في اللمحة في شرح الملحة - بشيء من الاختصار -: «ولها معان: أحدها: الإلصاق، كقولك: (مسحت يدي بالمنديل)، وتكون بمعنى الاستعانة، كقولك: (ضربت بالسيف)، وتكون بمعنى (على)، قال عمرو بن قميئة:

بودك ما قومي على أن تركتهم   سليمى إذا هبت شمال وريحها

وتكون بمعنى **(من أجل)**، قال لبيد: غلب تشذر بالذحول ... وتكون للتعدية، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ﴾ [البقرة: ٢٠] ... وتكون للمصاحبة، كقولك: (بعتك الدار بأثاثها)، وتكون بمعنى (في)، كقولك: (أقمت

١- رواهُ ابنُ زَنْجُوَيْهِ في «الأموالِ» (٨١٢)، والبلاذريُّ في «أنسابِ الأشرافِ» ١٠/ ٣٥٣.

بالمدينة)، وتكون زائدة مع الفاعل، كقوله تعالى: ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٧٩])، ومع المفعول، كقوله تعالى: ﴿وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ﴾ [المائدة: ٦]، ومع المبتدأ، كقولك: (بحسبك زيد)، ومع الخبر، كقولك: (ما زيد بقائم)، وتأتي بمعنى (عن)، كقول الشاعر:

فإن تسألوني بالنساء فإنني   عليم بأحوال النساء طبيب

وتأتي بمعنى (من)، كقوله تعالى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ﴾ [الإنسان: ٦]، قيل: تكون بمعنى (يشرب منها)، وبمعنى (يشربها)؛ قال الهذلي يذكر السحاب:

شربن بماء البحر ثم ترفعت   متى لجج خضر لهن نئيج».

وقال الرضي في شرح الكافية: «وتكون للمقابلة نحو: اشتريته به، وبدلته به، وتكون مستقرا أيضا، نحو: هذا بذاك».

البيان والبلاغة: افتتح عمر ﷺ خطابه بقوله: (لأزيدنهم ما زاد المال) حيث التوكيد يحضر بأول النَّص، وهذه عادة يكثر منها عمر ﷺ، وقد سبق أن نبهنا على مثل هذا فيما سبق. والتوكيدات هنا ثلاثة، على خلافٍ في دلالة اللام على قسم محذوف، وقد سبق تفصيل ذلك غير مرَّة. وأمَّا المؤكِّدان اللذان لا خلاف حولهما، فهما اللام ونون التوكيد الثقيلة. وقوله: **(ما زاد المال)**: مصدر مؤول، واستعمل المصدر المؤول ولم يستعمل الصريح لما سبق وذكرنا أن المؤول يستفاد منه في دلالة الزمن؛ حيث عُلم بهذا أن الزيادة من أمير المؤمنين ﷺ لهم تستغرق الزمن الذي تستغرقه الزيادة في المال، وأنه لا يقطع عنهم الزيادة ما دام المال يزيد. وقوله **(لأزيدنكم)**: جاء بصيغة المضارع الدال على الاستمرار والتجدد والحدوث

والدوام. ثم راح عمر رضي الله عنه يبين الطريقة التي سيزيد بها المال للناس، فيقول: (**لأعدنه لهم عدًّا**): يؤكد على ذلك بـ (**اللام**) المؤكدة، والنون الثقيلة. وقوله: (**عدًّا**) مصدر فائدته تأكيد الفعل وبيانه؛ فهو يبيِّن أنَّ العد أكيد ولابد منه، وأنه سيعدُّه (عدًّا) لا بطريقة غير العدِّ، ولكن العد يحتاج إلى زمن يطول وعمل يرهق فيصاب العادُّ بالتعب فيعيى، إذن فالكيل، ولكن الكيل يعيي إن كان المال كثيرا وطالبوه كُثرا، إذن فالحثو الذي هو أسهل السبل، فلا يحتاج لعادٍّ، ولا لميزان ولا مكيال، والحثو أسرع الثلاثة وأسهلها، وهذا الترتيب في طريقة منح الناس للمال صحيح؛ حيث بدأ بالعد، وهذا يحتاج أن يمسك كل درهم ودينار من الدراهم والدنانير من أجل أن يستقيم العد، والأسهل منه المكيال، وهو أن يحمل بيده مكيالا حتى يمتلأ ويعطي كل أحد ما قُدِّر له من الكيل، وهذه الطريقة أسهل وأسرع وأسخى، أما الطريقة الأخيرة وهي الحثو، بأن يحثو بيده أو بيد من يعطيه فلا يحتاج بها لمكيال، وهذه أسرع من الطريقتين السابقتين وأسخى وأسهل، ومن أجل هذا قال في نهايتها: (**بغير حساب**). و(**الباء**) في قوله: (بغير حساب) للاستعانة أو العوض والمقابلة؛ فإن كانت للاستعانة فيكون المعنى: غير مستعينين بالحساب ولن نحسب على أحد ما نعطيه، وإن كانت للعوض فيكون المعنى: فلا نحسب عليكم أي شيء مقابل وعوض ما أعطيناكم. وفي قوله: (**لأعدنه لهم عدا**)، وقوله: (**كلته كيلا**) موازنة، وفيهما اشتقاق اللفظ من اللفظ؛ حيث اشتق المصادر من أفعالها.

[٣٣٠]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«مَا هَبَّتِ الصَّبَا إِلَّا بَكَيْتُ عَلَى أَخِي زَيْدٍ[١]» وَكَانَ إِذَا لَقِيَ مُتَمِّمَ بْنَ نُوَيْرَةَ[٢] اسْتَنْشَدَهُ قَصِيدَتَهُ فِي أَخِيهِ:

وَكُنَّا كَنَدْمَانَيْ جَذِيْمَةَ حِقْبَةً مِنَ الدَّهْرِ حَتَّى قِيلَ: لَنْ نَتَصَدَّعَا

فَلَمَّا تَفَرَّقْنَا كَأَنِّي وَمَالِكًا لِطُولِ اجْتِمَاعٍ لَمْ نَبِتْ لَيْلَةً مَعَا[٣].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: (**الصَّبا**) في قوله: (**ما هبَّت الصَّبا**): ريح من الرياح. قال ابن النحاس في عمدة الكتاب - باختصار -: «معظم الرياح أربعٌ: الصبا، وهي تسمى أيضاً: القبول؛ لأنها تأتي في هبوبها من قبل المشرق، فتقابل المغرب ... والدبور تقابلها، وقيل لها: دبورٌ؛ لأن من استقبل المشرق استدبرها ... والشمال؛ لأنها عن

١- زيدُ بنُ الخطَّابِ بنِ نُفَيْلٍ العَدَوِيُّ: أخو أميرِ المؤمنينَ عمرَ، وكانَ أسنَّ مِن عمرَ، وأسلمَ قبلَه، شهد بدرًا والمشاهدَ، وكان قد آخى النَّبيُّ - صلَّى اللهُ عليهِ وآلِه وسلَّمَ - بينَه وبينَ معنِ بنِ عديٍّ العجلانيِّ. وقال له عُمرُ يومَ بدرٍ: «الْبَسْ دِرْعِي». قال: إنِّي أريدُ مِن الشَّهادةِ ما تريدُ. فتركاها جميعًا. وكانت رايةُ المسلمين معَه يومَ اليمامةِ، فلم يزلْ يقدمُ بها في نحرِ العدوِّ، ثمَّ قاتلَ حتَّى قُتِلَ، فوقعتِ الرَّايةُ، فأخذها سالمٌ مولى أبي حُذَيفةَ. وحزن عليه عمرُ، وكان يقولُ: أسلمَ قبلي، واستشهدَ قبلي. «سير أعلام النُّبلاء» ١/ ٢٩٧-٢٩٨.

٢- مُتَمِّمُ بنُ نُوَيْرةَ اليَرْبُوعِيُّ التَّمِيمِيُّ، أسلمَ هو وأخوه مالكٌ، وبعثَ النَّبيُّ - صلَّى اللهُ عليهِ وآلِه وسلَّمَ - مالكًا على صدقاتِ بني تميمٍ، وكان قد أسلمَ هو وأخوه مُتمِّمٌ. ومُتمِّمٌ صاحبُ المراثي الحسانِ في أخيه، وهو صاحبُ البيتِ السَّائرِ:

فَلَمَّا تَفَرَّقْنا كَأَنِّي وَمَالِكًا لِطُولِ افْتِرَاقٍ لَمْ نَبِتْ لَيْلَةً مَعًا

«الإصابة» ٥/ ٥٦٦.

٣- رواهُ الدِّينوريُّ في «المجالسةِ وجواهرِ العلمِ» (٦٨٧) و(٢٠١٦)، والمدائنيُّ في «التَّعازي» (٤٨)، وابنُ عساكرَ في «تعزيةِ المسلم» (١٧) و(١٩).

شمال من استقبل المشرق، وهي: البحرية ... والجنوب؛ لأنها على الجانب الأيمن ممن استقبل المشرق».

وقال البقاعي في نظم الدرر: «وقال ابن القاص: وهي - أي الصبا - ريح معها روح وخفة، ونسيم تهب مما بين مشرق الشتاء ومطلع سهيل، ولها برد يقرص أشد من هبوبها، وتلقح الأشجار، ولا تهب إلا بليل، سلطانها إذا أظلم الليل إلى أن يسفر النهار وتطلع الشمس، وأشد ما يكون في وقت الأسحار وما بين الفجرين».

مقتضى الحال: ليس في النَّص ما يبيِّن سببا رئيسا واضحا لهذا النَّص، ولكن هناك سبب عام كما في التعازي لأبي الحسن المدائني: «عن عوف، قال: كان عمر بن الخطاب ﵁، إذا أصابته مصيبةٌ قال: فقدت زيداً فصبرت، وكان يقول: ما هبت الصبا إلا وجدت نسيم زيدٍ».

لطائف لغوية: قال: (**بكيت على أخي**) ولم يقل: (بكيت أخي) فما الفرق بينهما؟ قال في تاج العروس: «وقيل: بكاه: للتألم، وبكى عليه: للرقة، ومنه قول بعض المولدين: ما إن بكيت زمانا إلا بكيت عليه». وفي قوله: (**أخي زيد**) كلمة (**زيد**) عطف بيان، وقد تكون بدلا، فما الفرق بين عطف البيان والبدل؟ قال الغلاييني في جامع الدروس العربية - باختصار -: «يجب أن يكون عطف البيان أوضح من متبوعه وأشهر، وإلا فهو بدل نحو: (جاء هذا الرجل)، فالرجل بدل من اسم الإشارة، وليس عطف بيان ... البدل يكون هو المقصود بالحكم دون المبدل منه، وأما عطف البيان فليس هو المقصود، بل إن المقصود بالحكم هو المتبوع، وإنما جيء بالتابع (أي عطف البيان) توضيحا له وكشفا عن المراد منه. كل ما جاز أن يكون عطف بيان جاز أن يكون بدل الكل من الكل ... يكون عطف البيان جملة، كقوله

تعالى: ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴾ [طه: ١٢٠]، فجملة ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ ﴾ عطف بيان على جملة ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾. وقد منع النحاة عطف البيان في الجمل، وجعلوه من باب البدل، وأثبته علماء المعاني، وهو الحق».

البيان والبلاغة: علمنا أن عمر رضي الله عنه وجد وجدا شديدا إثر موت أخيه زيد، وعُلِم أن موته ملأ جوف عمر رضي الله عنه حزنا وشغل قلبه واستدرَّ مدامعه، وعلمه صنعة الرثاء حتى أَنِس بمجالس أصحاب الرثاء كمتمِّم بن نويرة، فجاء عنه في تعزية المسلم: «فلم يكن شيء أحب إليه من أن يلقى حزينا»، حتى أُثر عنه بعض الكلام الذي أشبه الشعر، ومنه قوله: (**ما هبت الصبا إلا بكيت على أخي زيد**)، وقد درج هذا القول عند العرب، أعني: قولهم: (ما هبت الصبا إلا ...)، واختيارهم الصبا دون غيرها لما تجلبه من الإبراد، فإذا شعروا بهذه المتعة تذكروا من يحبون أن يشاركهم هذه النعمة. وفي الجملة استثناء وقع بعد نفي فأفاد الحصر؛ حيث حصر هبوب الصبا بتذكر زيد. وقوله: (**أخي زيد**): (**زيد**) هنا عطف بيان، فهي تبين مَن هو أخوه، فلو قال: (**أخي**) وسكت؛ لاحتجنا لبيان أي أخ هو من إخوانه، فلما قال: (**زيد**)، انجلى واتضح واستبان المبهم.

[٣٣١]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

لِابْنِهِ عَبْدِ الله وَقَدْ بَلَغَهُ أَنَّهُ ابْتَاعَ مِنْ مَغْنَمِ جَلُولَاءَ بِأَرْبَعِينَ أَلْفًا

«لَوْ عُرِضْتُ عَلَى النَّارِ، فَقِيلَ لَكَ: افْدِهِ. أَكُنْتَ مُفْتَدِيًا؟» قَالَ ابْنُ عُمَرَ: وَاللهِ، مَا مِنْ شَيْءٍ يُؤْذِيكَ، إِلَّا كُنْتُ مُفْتَدِيَكَ مِنْهُ. فَقَالَ عُمَرُ: «كَأَنِّي أُشَاهِدُ النَّاسَ حِينَ تَبَايَعُوا، فَقَالُوا: عَبْدُ الله بْنُ عُمَرَ، صَاحِبُ رَسُولِ الله ﷺ، وَابْنُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، وَأَحَبُّ النَّاسِ إِلَيْهِ. أَنْتَ كَذَلِكَ. فَكَانَ أَنْ يُرَخِّصُوا عَلَيْكَ بِمِئَةٍ أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنْ أَنْ يُغْلُوا عَلَيْكَ بِدِرْهَم. وَإِنِّي قَاسِمٌ مَسْؤُولٌ، وَأَنَا مُعْطِيكَ أَكْثَرَ مَا رَبِحَ تَاجِرٌ مِنْ قُرَيْشٍ، لَكَ رِبْحُ الدِّرْهَمِ دِرْهَمًا». ثُمَّ دَعَا التُّجَّارَ، فَابْتَاعُوهُ مِنْهُ بِأَرْبَعِمِئَةِ أَلْفٍ، فَدَفَعَ إِلَيَّ ثَمَانِينَ أَلْفًا، وَبَعَثَ بِالْبَقِيَّةِ إِلَى سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ، فَقَالَ: «اقْسِمْهُ فِي الَّذِينَ شَهِدُوا الْوَقْعَةَ، وَمَنْ كَانَ مَاتَ مِنْهُمْ فَادْفَعْهُ إِلَى وَرَثَتِهِ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: الحال أن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما تاجر تجارة كانت جاءته من مغنم جلولاء، فربح بها ربحا عظيما، فرأى عمر رضي الله عنه أن ذلك المغنم كان بسبب قرابته منه وصحبته من رسول الله ﷺ، فأخذ منه المال وأعطاه ربح المثل وقسم باقيه على مَن شهد جلولاء.

لطائف لغوية: قوله: (وإني قاسم مسؤول)، لم يعطف الصفتين على بعضهما،

١- رواهُ القاسمُ بنُ سلَّامٍ في «الأموالِ» (٦٣٨)، وابنُ زَنْجُويْهِ في «الأموالِ» (٩٧٣)، والبلاذريُّ في «أنسابِ الأشرافِ» ١٠/ ٣١٠، وابنُ عساكرَ في «تاريخِ دمشقَ» ٤٤/ ٣٢٣.

فلماذا؟ قال ابن كيكلدي في الفصول المفيدة في الواو المزيدة: «وقد تقدم أن الجملة إذا كانت في معنى الصفة لا تعطف، فالصفة الحقيقية أولى بذلك؛ لأنها متحدة بالموصوف، والعطف يقتضي المغايرة؛ ولهذا جاءت صفات الله - تعالى - غير معطوفة غالبا كقوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الحشر: ٢٢]، ﴿ٱلۡمَلِكُ ٱلۡقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلۡمُؤۡمِنُ ٱلۡمُهَيۡمِنُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡجَبَّارُ ٱلۡمُتَكَبِّرُ﴾ [الحشر: ٢٣]، ﴿ٱلۡخَٰلِقُ ٱلۡبَارِئُ ٱلۡمُصَوِّرُ﴾ [الحشر: ٢٤]؛ لأنها صفات أزلية أبدية وافقت الذات في القِدم وليست مغايرة، وجاء في القرآن العظيم: ﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُ﴾ [الحديد: ٣]، وقوله تعالى: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِ﴾ [غافر: ٣] بعطف ﴿وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ﴾ دون غيرها، وقوله تعالى: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ١١٢] ... ولهذا كله جوَّز جماعة عطف الصفات بالواو مطلقا ... ولا شك أن تجويز هذا على الإطلاق ينقض قاعدتين كبيرتين: إحداهما: ... أن الصفة والموصوف كالشيء الواحد، والثانية: أن العطف يقتضي المغايرة». وقوله: **(ومن كان مات منهم)**: **(كان)** هنا زائدة. قال الشيخ الحازمي في فتح رب البرية: «والنوع الثالث من أنواع (كان): كان الزائدة، وهذه لا تحتاج إلى مرفوع ولا إلى منصوب ... وزيادة (كان) خلاف القياس؛ لأن القياس المطرد عند أهل اللغة أن الذي يزاد هو الحرف، وأما الفعل والاسم فالأصل عدم الزيادة إلا ما ثبت باستقراء وكان مطردا في لغة العرب؛ مثل: (كان) الزائدة، ولكن زيادتها مقيدة بأن تزاد في حشو يعني في أثناء الكلام، ولا تزاد أولا ولا آخرا، فلا يقال في مثل: (كان زيد قائما)، أن (كان) هذه زائدة، أو (زيد قائم كان) أنها زائدة، بل لابد أن تكون في أثناء الكلام، ولا تزاد إلا

بلفظ الماضي، وأن تزاد بين شيئين متلازمين، ليسا جارا ولا مجرورا، كالصفة مع الموصوف، تقول: جاء زيد كان العالم، وقعت (كان) زائدة بين الموصوف وصفته وهذا مسموع. وسمع أيضا: لم يوجد كان مثلك، زيدت بين الفعل والفاعل، وبين المبتدأ والخبر: زيد كان قائم، وبين الفعل ومفعوله، إلا أنه لا يقاس إلا في موضع واحد، وهو صيغة التعجب، كما مثَّل ابن مالك - رحمه الله - بذلك:

وقد تزاد كان في حشوكما   كان أصح علم من تقدما

ما كان أحسن زيدا، فأصل التركيب: ما أحسن زيدا، فزيدت (كان) بين ما التعجبية وفعل التعجب، وهذا قياس مطرد، وما عداه فهو مسموع. يعني ليس لك أن تزيد (كان) إلا في هذا الموضع فقط، وما عداه إنما يكون مبناه على السماع، والنقل عن لغة العرب، كذلك زيادتها بصيغة الفعل المضارع».

البيان والبلاغة: افتتح عمر ﵁ خطابه، يلوم ابنه عبد الله قائلا: (**لو عُرِضتُ على النار، فقيل لك: افده، أكنت مفتديا؟**) وهو بهذا يعلِّمه الحلال والحرام لا بطريق مباشر وإنما يضرب له المثل؛ لكي يسوقه إلى ما يريد بطريقة أكثر تشويقا، وهي أدعى لتكون أسرع حفظا وأخلد في الذاكرة، فلو قال له: إن الذي فعلته حرام فهذا قد يؤدي إلى النسيان، كما أن القصة المشوقة أوعظ وأجدر بالتذكير بالله - تعالى -، لاسيَّما وأنه ساق له القصة بأسلوب فيه من العاطفة ما فيه، والصورة التي عرضها عمر على ابنه ﵄ فيها من التنفير ما يدعو إلى الاتعاظ وترك المعصية. وقوله: (**كأني أشاهد الناس حين تبايعوا**): يشبه عمر ﵁ نفسه بمن كان حاضرا تلك المبايعة ومشاهدا لها، وعلمنا هذا التشبيه من (الكاف) في قوله: (**كأني**)، وهو تشبيه حقيقي لا مجاز فيه. ويؤكد على ما يتصوره ويتخيله بـ (إنَّ)، فهو متأكد من هذا التخيل

والتصور حتى كأنه حقيقة لا ريب، فيها فأكَّده بـ (**إنَّ**). وقوله: (**فقالوا**): (**الفاء**) للتعقيب تدل على سرعة بيع الناس لابن عمر ورغبتهم فيها، وجاءت هذه (**الفاء**) الدالة على التعقيب مناسبة لما ذكره - بعدُ - من رغبة الناس أن يبايعوا ابن عمر ولو بالخسران. ثم راح يتخيل ما جرى في تلك المبايعة وما فعل الناس، وقالوه في رغبتهم للبيع لابن أمير المؤمنين، ثم رتب ما قالوه ترتيبا صحيحا متدليا من الأهم إلى المهم، وذلك قوله: (**عبد الله بن عمر، صاحب رسول الله ﷺ، وابن أمير المؤمنين، وأحب الناس إليه**)، فبدءوا بالتعريف به باسمه الذي لا يعرف إلا به ثم بوصفه، وأحسن صفة لابن عمر أنه (**صاحب رسول الله ﷺ**) والصفة الثانية (**ابن أمير المؤمنين**)، وقدَّم صحبته لرسول الله ﷺ على كونه ابنا لأمير المؤمنين، ثم كونه (**أحب الناس إليه**)، وكما قلنا هذا ترتيب صحيح. وقوله (**أنت كذلك**) هذه الجملة يؤكد فيها عمر رضي الله عنه قول الناس، ولعله أراد الثالثة، وهي قولهم: (**وأحب الناس إليه**)؛ حيث الأوليان لا يحتاجان لشهادة، فكل الناس تعرف أنه صاحب رسول الله ﷺ وابن أمير المؤمنين، أما الذي يحتاج لتأكيد منه بنفي أو إثبات، فهو قولهم: (**وأحب الناس إليه**). وفي الجملة تشبيه دلت عليه (الكاف)، ثم راح يبين ما في هذه الصفات التي يتصف بها ابن عمر من ضرر المحاباة في البيع، فقال: (**فكان أن يرخصوا عليك بمئة أحب إليهم من أن يغلوا عليك بدرهم**)، وفي الجملة حذف تقديره: فكان بيعهم أن يرخصوا عليك الثمن بمئة درهم أحب إليهم من أن يغلوا عليك الثمن بدرهم. وفي كلمتي (**يرخصوا**) و(**يغلوا**) طباق. وفي جملة (**يرخصوا عليك بمئة**) وجملة (**يغلوا عليك بدرهم**) موازنة. ثم أبطل بيعه لما ذكرنا من الحال وأحدث له بيعا جديدا بقوله: (**وإني قاسم مسؤول**)، وهذه الجملة مستأنفة؛ فـ (**الواو**) للاستئناف، وهذا الفصل بين الجملتين يؤسس لجملة جديدة ومعنى جديد، بينه وبين ما سبق

وصل في المضمون. وفي الجملة تأكيد بـ (**إنَّ**) الثقيلة. ولم يجعل بين كلمتي (**قاسم**) و(**مسؤول**) حرف عطف؛ لأنها صفات وفي حالة تعداد الصفات لا تعطف (بالواو)، كما سبق في اللطائف. وفيهما تنويع في الاشتقاق؛ فكلمة (**قاسم**) اسم فاعل، وكلمة (**مسؤول**) اسم مفعول. وفي قوله: (**وأنا معطيك أكثر ما ربح تاجر من قريش**): خصَّ تجار قريش دون غيرهم؛ كون قريش أمهر العرب في التجارة، وذلك وصفهم في القرآن ﴿ إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ ﴾[قريش: ٢]، ولكون ابن عمر من قريش؛ فالقياس في إلحاق الحقوق يكون على أقرب الناس إليه. وجملة (**ولك ربح الدرهم درهما**): مبينة وموضحة للجملة التي قبلها. وفي الجملة حذف تقديره: أعطي لك ربح الدرهم درهما. والعامل الذي نصب كلمة: (**درهما**) هو المصدر (**ربح**). وجاءت كلمة (**الدرهم**) الأولى معرفة بـ (**أل**) التي للعهد الذهني، يعني: لك بكل درهم دفعته درهما تربحه، وبقيت كلمة (**درهم**) الثانية نكرة؛ كونها لم ترد بعد لا في الذكر ولا في الذهن. وقوله: (**اقسمه في الذين شهدوا الوقعة، ومن كان مات فادفعه إلى ورثته**)، أي: بين الذين شهدوا الوقعة؛ حيث من معاني (**في**) بين، كما في قوله تعالى: ﴿نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ﴾ [الأنعام: ١٢٢]، قال الآلوسي في معناها: (في الناس، أي: فيما بينهم). و(**كان**) زائدة، تفيد توكيد المعنى.

[٣٣٢]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ، إِنَّ اللهَ قَدْ أَفَاءَ عَلَيْكُمْ مِنْ بِلَادِ الْأَعَاجِمِ، مِنْ نِسَائِهِمْ وَأَوْلَادِهِمْ، مَا لَمْ يُفِئْ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَلَا عَلَى أَبِي بَكْرٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ -، وَقَدْ عَرَفْتُ أَنَّ رِجَالًا سَيُلِمُّونَ بِالنِّسَاءِ، فَأَيُّمَا رَجُلٍ وَلَدَتْ لَهُ امْرَأَةٌ مِنْ نِسَاءِ الْعَجَمِ فَلَا تَبِيعُوا أُمَّهَاتِ أَوْلَادِكُمْ؛ فَإِنَّكُمْ إِنْ فَعَلْتُمْ أَوْشَكَ الرَّجُلُ أَنْ يَطَأَ حَرِيمَهُ وَهُوَ لَا يَشْعُرُ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: ليس في النَّص ما يبين مناسبة هذا الحديث إلا أنه على منبر رسول الله ﷺ كما جاء في الرواية عن عبد الله بن سعيد، عن جده، أنه سمع عمر بن الخطاب رضي الله عنه على منبر رسول الله ﷺ يقول: ....، ولعلها في خطبة جمعة.

لطائف لغوية: قوله: (**ما لم يفئ على رسول الله ﷺ ولا على أبي بكر رضي الله عنه**): سبق الحديث عن فائدة تكرار (**لا**) في قوله: (**ولا**)، وذلك عند شرح النص رقم اثني عشرَ وثلاثمئة.

البيان والبلاغة: افتتح عمر رضي الله عنه خطابه بالنداء مناديا على المسلمين، قائلا: (**يا معشر المسلمين**) والمعشر: هم كل جماعة أمرهم واحد، وهذا من تكريمه لهم لما ناداهم بالمعشر، فكأنه قال لهم: أيها الناس الذين أمرهم واحد. وبعد ندائهم بهذا النداء الذي يحبون، قال لهم: (**إن الله قد أفاء عليكم من بلاد الأعاجم من نسائهم**

١- رواهُ البيهقيُّ في «السُّنَنِ الكُبرَى» (٢١٧٧٤).

وأولادهم ما لم يفئ على رسول الله ﷺ)، وقد أكد مقاله بـ (إنَّ) و(قد)؛ لأنه حقٌّ قد وقع وتمَّ وهو حريصٌ ألا يخالطه شيء من الريب والشك. وقوله: (**إن الله قد أفاء عليكم**) تذكير بنعمة الله - تعالى - عليهم فلم يقل: (قد غنمتم)، بل ردَّ الفعل إلى الله - تعالى -. وقوله: (**من نسائهم وأولادهم**): (من) بيانية، وهي - هنا - تبين نوع هذا الفيء، وهو النساء والأولاد، وذكره النساء قبل الأولاد تدلى به من الكبير إلى الصغير، وكذلك ذكره لرسول الله ﷺ قبل أبي بكر رضي الله عنه تدلى به من الفاضل إلى المفضول. وفي قوله: (**أفاء**) وقوله: (**لم يفئ**) طباق بالسلب. وقوله: (**وقد عرفت أن رجالا سيلمون بالنساء**): (**قد**) تفيد التحقيق والتوكيد، وهذه المعرفة قد تكون من الظن والتجربة مع الناس وسابق أحوالهم، أو من باب أن أحدا أنمى إليه الخبر. وفي قوله: (**رجالا**) وقوله: (**النساء**): طباق، وكذلك قوله بعد قليل: (**رجل**) و(**امرأة**). وقوله: (**سيلمون**) في المستقبل، وهذا دليل على أنهم لم يلموا بهن بعد، وإنما حذَّر منه تحسبا واستباقا. وقوله: (**فأيما رجل ولدت له امرأة من نساء العجم فلا تبيعوا أمهات أولادكم**): في قوله: (**فأيما رجل ولدت له امرأة**) إيجاز بالحذف دلت عليه (**الفاء**) الفصيحة، تقديره: وقد علمتم ذلك؛ فأيما رجل ... وصيغة هذه الجملة تدل على العموم المستفاد من الشرط، ولاسيَّما (**أي**) والتوكيد في (**ما**) الزائدة، والعموم الذي في تنكير كلمة (**رجل**) و(**امرأة**)؛ فقد قال الغزالي معلقا على حديث: «**أَيُّمَا امْرَأَةٍ نَكَحَتْ بِغَيْرِ إِذْنِ وَلِيِّهَا فَنِكَاحُهَا بَاطِلٌ**». قال في المستصفى: «ونحن نعلم أن العربي الفصيح لو اقترح عليه بأن صيغة عامة دالة على قصد العموم مع الفصاحة والجزالة لم تسمح قريحته بأبلغ من هذه الصيغة». وفي قوله: (**فلا تبيعوا**) التفات من المفرد الغائب في قوله: (**أيما رجل**) إلى الجمع المخاطب، وفي الالتفات تفننٌ في جذب انتباه السامع. وهذا الالتفات عكسه من بعد؛ فانتقل من ضمير الجمع

المخاطب إلى المفرد الغائب، وذلك في قوله: (**فإنكم إن فعلتم أوشك الرجل أن يطأ حريمه وهو لا يشعر**)، وتنقُّله بين هذه الضمائر يكون حسب الحاجة، فلما كان الأمر من أجل الوعظ والنهي خاطبهم بالجمع المخاطب، ولما كان بضرب المثل ضربه على رجل مفرد غائب، وهذا من حسن الأدب معهم فكأنه يقول: فاعل ذلك ليس منكم، وحاشاكم أن تفعلوا ذلك، وناسب هذا الأدب ما جاء في آخر الجملة؛ حيث قال: (**وهو لا يشعر**) وهذه تبرئة لهم وله - أعني الرجل الذي ضربه كمثل - عن قصد الفاحشة والمنكر. وهذا يذكرنا بأدب النملة التي برأت سليمان - عليه السلام - وجنوده فقالت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ [النمل: ١٨].

[٣٣٣]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ رضي الله عنه

«اللَّهُمَّ إِنَّكَ ذَكَرْتَ وَقُلْتَ: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ﴾ [آل عمران: ١٤]، وَقُلْتَ: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [الحديد: ٢٣]، وَإِنَّا لَا نَسْتَطِيعُ أَنْ لَا نَفْرَحَ بِمَا زَيَّنْتَهُ لَنَا، اللَّهُمَّ فَاجْعَلْنِي أُنْفِقُهُ فِي الْحَقِّ، وَأَعِذْنِي مِنْ شَرِّهِ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: ورد في بعض الروايات أن عبد الله بن الأرقم صاحب بيت مال المسلمين في زمن أبي بكر رضي الله عنه أتى عمر، فقال: يا أمير المؤمنين إن عندنا حلية من حلية جلولاء، آنية من ذهب ووَرِق فانظر أن تفرغ لذلك يوما وترى فيه رأيك، فقال: إذا رأيتني فارغا فآذني فجاءه يوما، فقال: أراك اليوم فارغا. فقال: أجل، فابسط لي نطعا ثم أتى بذلك المال فصب عليه فدنا عمر رضي الله عنه حتى وقف عليه، وقال هذا النَّص.

١- رواهُ البخاريُّ في «صَحيحِه» تعليقًا، ووصله الدَّارقُطنيُّ في «غرائبِ مالكٍ» كما في «تغليقِ التَّعليقِ» (٥/ ١٦٤) بإسنادينِ: الأوَّلُ عن زيدِ بنِ أسلمَ، وهو منقطعٌ بينَ زيدٍ وعمرَ. والثَّاني: مِن طريقِ عبدِ العزيزِ بنِ يحيى عن مالكٍ عن زيدِ بنِ أسلمَ عن أبيهِ. قال الحافظُ: وهذا موصولٌ، لكنَّ سندَه إلى عبدِ العزيزِ ضعيفٌ. «فتح الباري» ١١/ ٢٥٩.
ورواهُ ابنُ أبي الدُّنيا في «الإشرافِ» (٢٢٣)، وابنُ عساكرَ في «تاريخِ دمشقَ» ٤٤/ ٣٢٥.

لطائف لغوية: قوله: (**اللهم**): سبق الحديث عن هذه اللفظة ومعناها في الأثر رقم تسعة وسبعين ومئة، فليراجعه المستزيد. وقوله: (**فاجعلني**): وجعل - هنا - بمعنى صيَّر لا خلَق، والتفريق بينهما ينبني عليه - أحيانا - خلاف عقدي؛ فالمعتزلة فسروا قوله تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا ﴾ [الزخرف: ٣] بمعنى خلقناه؛ ليوافق مذهبهم الذي يقول بخلق القرآن، وهذا قول فاسد يرد عليه ابن أبي العز الحنفي في شرح العقيدة الطحاوية بقوله: «وأما استدلالهم بقوله تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا ﴾ [الزخرف: ٣]، فما أفسده من استدلال! فإن (جعل) إذا كان بمعنى (خلق) يتعدى إلى مفعول واحد كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ [الأنعام: ١]، وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٠]، ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [الأنبياء: ٣١]، ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا﴾ [الأنبياء: ٣٢] وإذا تعدى إلى مفعولين لم يكن بمعنى (خلق)، قال تعالى: ﴿وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾ [النحل: ٩١]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٤]، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ [الحجر: ٩١]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ﴾ [الإسراء: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ [الإسراء: ٣٩]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا﴾ [الزخرف: ١٩]، ونظائره كثيرة فكذا قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾».

البيان والبلاغة: افتتح عمر رضي الله عنه خطابه بالدعاء، فقال: (**اللهم إنك ذكرت وقلت**)، وقوله: (**اللهم**) بمعنى (يا الله)، ثم أكد الجملة بأداة التأكيد (**إنَّ**) فهو

يؤكد ما قاله الله - تعالى -؛ لإيمانه بأن الله - تعالى - لا يقول إلا حقا. وعطفه قوله: **(قلت)** على قوله: **(ذكرت)** من عطف الشيء على معناه؛ حيث إن الذي قاله هو ما ذكره، أو يقال: هو من عطف الخاص على العام، ومثله يقال في قوله: **(قلت)** في المرة الثانية؛ فالآيتان إحداهما تبين إباحة الزينة في الدنيا بقوله: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ﴾، والثانية تبخس من شأنها، بقوله: ﴿وَلَا تَفْرَحُواْ﴾. وجمع عمر ﷺ بين هذين المعنيين الذين يظن أنهما متناقضان أحسن جمع يصلح لكي يكون تفسيرا لدرء ما يظن أنه من التعارض، وذلك قوله: **(وإنا لا نستطيع أن لا نفرح بما زينته لنا، فاجعلني أنفقه في الحق وأعذني من شره)**. وهذه الجملة مؤكدة بـ **(إنَّ)**، والجملة تبين الحال التي هم عليها. وقوله: **(إنا)** بضمير المتكلمين - لا المتكلم - فيه بيان حاله وحال الناس من قومه الذين يعيشون معه، فهو يبين أنه لا يستطيع ألا يفرح بزينة الله - تعالى -. و**(الباء)** في قوله: **(بما زينته لنا)**، أي: بسبب ما زينته لنا، وقد تكون للاستعانة، أي: لا نستطيع ألا نفرح مستعينين بالذي زينته. والفاء في قوله: **(فاجعلني)**: فصيحة تدل على المحذوف، وتقديره هنا: وقد كان ما كان فاجعلني. ومعنى **(اجعلني)** - هنا - من الفعل (جعل) بمعنى صيَّر، لا بمعنى خلق؛ لاتخاذها مفعولين اثنين، والتي بمعنى (خلق) تكتفي بواحد. والمفعولان هما: الضمير (الياء)، وجملة **(أنفقه في الحق)**. ثم لما ذكر ما في المال وإنفاقه من الحق، وهو الوجه الصحيح لإنفاقه، لم يفته أن يكون دعاؤه كاملا؛ فاستعاذ من الوجه الفاسد في إنفاقه، وهو قوله: **(وأعذني من شره)**.

[٣٣٤]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ رضي الله عنه
وَقَدْ نَظَرَ إِلَى شَابٍّ نَكَّسَ رَأْسَهُ

«يَا هَذَا! ارْفَعْ رَأْسَكَ؛ فَإِنَّ الْخُشُوعَ لَا يَزِيدُ عَلَى مَا فِي الْقَلْبِ، فَمَنْ أَظْهَرَ لِلنَّاسِ خُشُوعًا فَوْقَ مَا فِي قَلْبِهِ؛ فَإِنَّمَا أَظْهَرَ نِفَاقًا عَلَى نِفَاقٍ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: الحال - كما ورد في رواية أخرى[٢] -: عن محمد بن عبد الله القرشي، عن أبيه؛ قال: «نظر عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى شاب قد نكس في الصلاة رأسه ...»، وقد تكون في صلاة جماعة والخليفة يجهز الصفوف، أو يكون صلاها منفردا.

البيان والبلاغة: افتتح عمر رضي الله عنه خطابه بحرف النداء **(يا)**، وهو حرف ينادى به القريب والبعيد، وهو هنا للقريب، دل على ذلك أن المنادَى الذي لم يعرف عمر رضي الله عنه اسمه، ناداه بقوله: **(يا هذا)**؛ حيث **(هذا)** اسم إشارة للقريب، والقرب هنا قرب مكان. وكون حرف النداء **(يا)** ينتهي بحرف جوفي صلح لمد الصوت بحيث يكتفي المنادِي بتنبيه من يناديه، وزد على ذلك أن كلمة **(هذا)** حوَتْ حرفين اثنين من هذا الحرف الجوفي؛ لتصبح هذه العبارة على قِصَرها محتوية على ثلاثة حروف جوفية متقاربة. وهذا النداء الذي تتابع فيه هذا الحرف الجوفي = كان كافيا ليجعل

١- رواهُ الدِّينوريُّ في «المجالسةِ وجواهرِ العلم» (١٦٩١).

٢- انظر: «المجالسة وجواهر العلم»، رقم (٣١٩١).

المنادى متيقظا ومنتبها لما سيقوله الأمير، فقال له: (**ارفع رأسك**): فـ (**ارفع**) فعل أمر يراد به الإرشاد، ثم هو يفسر سبب أمره له برفع رأسه بقوله: (**فإن الخشوع لا يزيد على ما في القلب**). والذي يبين أن هذه الجملة تفسير لما قبلها (**الفاء**) وهي السببية؛ حيث يكون ما بعدها سببا لما قبلها، وهذه الجملة تصلح لتكون تعريفا لمصطلح الخشوع. وحصره الخشوع في القلب يدل على أن الجوارح خشوعها في الطاعة والعمل على ما يرضي الله - تعالى -. وقد أكد عمر رضي الله عنه هذا الحصر بـ (**إنَّ**) الثقيلة. وقوله: (**في القلب**): جعل القلب ظرفا ومكانا يحل به الخشوع؛ حيث (**في**) ظرف مكان هنا. ثم راح يبين أثر الخشوع على الجوارح وتقسيمه إلى فاسد وصحيح، فإن زاد ظهوره على الجوارح أكثر مما هو في القلب فهو خشوع فاسد علته النفاق، وإن وافقه فخشوع صحيح سببه الإيمان. وقوله: (**فإنما أظهر نفاقا على نفاق**): حصر الخشوع الزائد عما في القلب بالنفاق وأنه لا يكون شيئا غير النفاق، ودل على هذا الحصر أداة الحصر (**إنما**) التي تدل على التوكيد أيضا. وقوله: (**نفاقا على نفاق**) قصد به نفاق العمل الظاهر على الجوارح، ونفاق القصد الذي محله القلب.

[٣٣٥]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

وَقَدْ رَأَى رَجُلًا يَخْطِرُ[١] وَيقُولُ: أَنَا ابْنُ بَطْحَاءِ مَكَّةَ كُدَيًّا فَكُدَاهَا[٢]

«إِنْ يَكُنْ لَكَ دِينٌ فَلَكَ كَرَمٌ، وَإِنْ يَكُنْ لَكَ عَقْلٌ فَلَكَ مُرُوءَةٌ، وَإِنْ يَكُنْ لَكَ مَالٌ فَلَكَ شَرَفٌ، وَإِلَّا فَأَنْتَ وَالْحِمَارُ سَوَاءٌ»[٣].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: كلمة (**يخطِر**): قال ابن سيده في المخصص: «خطر في مشيه يخطر خطرا وخطرانا: حرَّك يده في مشيته، وهو من التبختر، و(الغطر) لغة في الخطر، مرَّ يغطر بيديه أي: يخطر». و(**كُدَيًّا فكُداها**): قال ابن دريد في جمهرة اللغة: «وكُداء وكُدَيّ: جبلان أو موضعان قريبان من مكة. قال عبيد الله بن قيس الرقيات:

أقفرت بعد عبد شمس كداء   وكدي فالركن فالبطحاء».

مقتضى الحال: جاء في الروايات أن عمر بن الخطاب ﷺ خرج يمشي وبين يديه رجل يخطِر، وهو يقول: أنا ابن بطحاء مكة كديا فكداها، فوقف عليه عمر، وقال هذا النص.

١- الخاطِرُ: المُتبختِرُ. يُقالُ: خَطَرَ يَخطِرُ؛ إذا تَبَخْتَرَ. «لسان العرب» ٤/ ٢٥٠.

٢- كَدَاءُ، بالفتح والمدِّ: جبلٌ بأعلى مكَّةَ عندَ المُحَصَّبِ، بينَ جبلِ الحَجُونِ وقُعيقانَ، تصلُ بينَ وادي ذي طُوًى والأَبْطَحِ، وتُعرفُ الآنَ باسمِ الحَجُونِ أو الحَجُولِ. وكُدَيٌّ، بالضَّمِّ والتَّنوينِ: ثَنِيَّةٌ بمكَّةَ يَخرجُ منها الطَّريقُ مِن الحرمِ إلى جَرْوَلٍ، تفصلُ بينَ نهايةِ قُعيقانَ في الجنوبِ الغربيِّ وجبلِ الكعبةِ، وتعرفُ الآنَ بريعِ الرَّسامِ. انظر: «معجم البلدان» ٤/ ٤٣٩، و«معجم معالم الحجاز» ٧/ ١٩٦- ٢٠٢.

٣- رواهُ ابنُ أبي الدُّنيا في «الإشرافِ» (٢٣٤)، والدِّينوريُّ في «المجالسةِ وجواهرِ العلمِ» (٢٠٨٨).

لطائف لغوية: جاءت (كان) في قوله: **(إن يكن)** تامة، وقد تحدثنا عنها في النَّص رقم سبعة وأربعين ومئتين، فراجعه هناك.

البيان والبلاغة: لما رأى عمر ﷺ من الرجل كبرا وتعاليا على خلق الله أجابه جوابا يكسر كبره ورفعته على الناس ويعلمه مقامه بقوله: **(إن يكن لك دين فلك كرم)**، وهذه جملة شرطيه لا يتحقق آخرها إلا بتحقق أولها؛ فلا يتحقق كرم ابن آدم إلا بتحقُّقِ الدين في نفسه. والفعل **(يكن)** هنا تام، فالجملة بمعنى: إن وجد لك دين. وفي الجملة حذف تقديره: إن يكن لك دين يكن لك كرم. فجاءت هذه الجملة قصيرة وموجزة مع ما حملته من المعنى الكبير والكثير. ويقال في الجملتين اللتين بعد هذه الجملة ما قيل فيها. وبين الجمل الثلاثة ما يسمى بالموازنة؛ حيث اتحاد الوزن مع اختلاف التقفية، وبينها وصل اقتضاه تناسق المعنى واتصال اللفظ وتتابع السياق. والترتيب في الجمل جاء صحيحا؛ حيث تدلى به من الأعلى إلى الأدنى (الدين فالعقل فالمال)، وما رتبه على وجود هذه الخصال الثلاث جاء متسقا مع الحال، فمن نزع منه الدين فلا كرامة له عند الله - تعالى - لا في دنيا ولا آخرة، ومن نزع منه العقل ضاعت مروءته وجنح إلى الطيش والسفه، ومن فقَد المال فقَد ما يشرفه الناس به في الدنيا، ومن فقَدها جميعا فقَد الدنيا والآخرة وباء بالأخسرَين، ورحم الله - تعالى - من قال:

ما أجمل الدين والدنيا إذا اجتمعا وأقبح الكفر والإفلاس بالرجل

وهذا القبح عبر عنه عمر ﷺ بقوله: **(وإلا فأنت والحمار سواء)**، وفي الجملة إيجاز حذف تقديره: وإن لم يكن ذلك فيك فأنت والحمار سواء؛ فالذي لا كرامة له ولا مروءة ولا شرف هو الحمار. وجاء هذا الوصف اللاذع من عمر ﷺ لما في عمر

من الجِد والجرأة في قول الحق، مع شيء من الحدة التي زادته جمالا وأناقة ومحبة؛ لأن حدته تثلج صدر المتبع للحق، فرجل مثل هذا يفخر على خلق الله بآبائه وأجداده ويحتقر قوما أكرمهم الله = ليس كثيرا ما قيل فيه، بل إن رسول الله ﷺ قال فيه أشد مما قاله عمر، فقد قال ﷺ: «**إِذَا سَمِعْتُمْ مَنْ يَعْتَزِي بِعَزَاءِ الْجَاهِلِيَّةِ، فَأَعِضُّوهُ، وَلَا تُكَنُّوا**»، فلا ملامة على عمر رضي الله عنه ولا تثريب.

[٣٣٦]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«أَعْرِبُوا الْقُرْآنَ؛ فَإِنَّهُ عَرَبِيٌّ، وَتَفَقَّهُوا فِي السُّنَّةِ، وَأَحْسِنُوا عِبَارَةَ الرُّؤْيَا، فَإِذَا قَصَّ أَحَدُكُمْ عَلَى أَخِيهِ فَلْيَقُلِ: اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ خَيْرًا فَلَنَا، وَإِنْ كَانَ شَرًّا فَعَلَى عَدُوِّنَا»(١).

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: قوله: (**أعرِبوا القرآن**): قال السيوطي في الإتقان: «المراد بإعرابه: معرفة معاني ألفاظه، وليس المراد به الإعراب المصطلح عليه عند النحاة، وهو ما يقابل اللحن؛ لأن القراءة مع فقده ليست قراءة ولا ثواب فيها».

مقتضى الحال: ليس في النَّص ما يبين حال ولا زمان ولا مكان هذا النَّص.

لطائف لغوية: قوله: (**إن كان خيرا فلنا**): سبق أن تحدثنا عن اقتران جواب الشرط بالفاء في النَّص رقم خمسة عشر ومئتين. وسبق الحديث عن قوله: (**اللهم**) في النَّص رقم تسعة وسبعين ومئة.

البيان والبلاغة: افتتح عمر رضي الله عنه خطابه بقوله: (**أعربوا القرآن؛ فإنه عربي**)، وهذا فعل أمر لا يقف معناه عند الإرشاد والتوجيه، بل يتعداه إلى الوجوب؛ كون الأمر يختص بتلاوة القرآن وتعلمه وتعليمه، بل هو من أوجب الواجبات التي أمر الله – تعالى – بها عباده. ولمَّا طلب إعراب القرآن علل ذلك بقوله: (**فإنه عربي**)، و(**الفاء**) هنا هي السببية؛ حيث ما بعدها سبب لما قبلها، وأكد عربية القرآن بـ (**إنَّ**) الثقيلة،

١- رواهُ البيهقيُّ في «شُعَبِ الإيمانِ» (٢٠٩٨).

والتوكيد هنا يستفاد منه في قوله: **(أعربوا)**؛ حيث إن توكيد العلة يقتضي توكيد المعلول. ثم عطف على الجملة الأولى **(وتفقهوا في السنة، وأحسنوا عبارة الرؤيا)**، وهذا الترتيب صحيح تدلى به من الأعلى إلى ما هو دونه؛ فالقرآن يعلو على السنة، والسنة تعلو على تعبير الرؤى. واختياره الأفعال (أعربوا، وتفقهوا، وأحسنوا) جاء مناسبا؛ حيث الغلط في القرآن يأتي من سوء إعرابه وفهم مدلولاته، والغلط في السنة يأتي من قِبل عدم الفقه بها، والغلط في الرؤيا يأتي من إساءة التعبير. ثم راح يبين كيف يحسن الرجل تعبير الرؤى، فقال: **(فإذا قصَّ أحدكم على أخيه فليقل: اللهم إن كان خيرا فلنا وإن كان شرا فعلى عدونا)**، وهذه الجملة مبينة وموضحة للتي قبلها، وجاءت هذه الجملة بصيغة الشرط؛ الذي ينبني جزؤه الثاني على الأول، ولا يتم إلا به. وقوله: **(على أخيه)** يشعر بألا يقص أحد رؤياه إلا على أخ أو حبيب أو لبيب، وهذا من قوله ﷺ: «**الرُّؤْيَا مُعَلَّقَةٌ بِرِجْلِ طَائِرٍ مَا لَمْ يُحَدِّثْ بِهَا صَاحِبُهَا، فَإِذَا حَدَّثَ بِهَا وَقَعَتْ، وَلَا تُحَدِّثُوا بِهَا إِلَّا عَالِمًا، أَوْ نَاصِحًا، أَوْ لَبِيبًا، وَالرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ جُزْءٌ مِنْ أَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ النُّبُوَّةِ**»[١]. وقوله: **(اللهم)**: سبق أن بينا أن معناها (يا الله)، وهذه جملة للدعاء. وفي جملة **(إن كان خيرا فلنا، وإن كان شرا فعلى عدونا)** إيجاز بالحذف، تقديره: إن كان ما رأيته خيرا فخيره لنا، وإن كان ما رأيته شرا فشره على عدونا. وبين قوله: **(إن كان خيرا فلنا)** وقوله: **(إن كان شرا فعلى عدونا)** مقابلة؛ حيث الكلمات **(خيرا)** و**(لنا)** ضد الكلمات **(شرا)** و**(على عدونا)** وبالترتيب. وفي الجملتين ترصيع أو ما يقاربه؛ حيث اتحدت القافية وتقارب الوزنان.

١- قال في المقاصد الحسنة: «أبو داود وابن ماجة من حديث أبي رزين لقيط بن عامر العقيلي رفعه بهذا، وأخرجه أحمد والدارمي والترمذي ... وقال - يعني الترمذي -: إنه حسن صحيح، وصححه ابن حبان والحاكم وابن دقيق العيد وقال: إنه على شرط مسلم».

[٣٣٧]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

وَقَدْ بَلَغَهُ عَنْ بَعْضِ عُمَّالِهِ شَيْءٌ

«أَيَّتُهَا الرَّعِيَّةُ، إِنَّ لِلرُّعَاةِ عَلَيْكُمْ حَقًّا: الْمُنَاصَحَةُ بِالْغَيْبِ، وَالْمُعَاوَنَةُ عَلَى الْخَيْرِ. أَلَا وَإِنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَى اللهِ مِنْ حِلْمِ إِمَامٍ عَادِلٍ وَرِفْقِهِ، وَلَا جَهْلَ أَبْغَضُ إِلَى اللهِ مِنْ جَهْلِ إِمَامٍ جَائِرٍ وَخُرْقِهِ. وَمَنْ يَأْخُذْ بِالْعَافِيَةِ فِيمَنْ بَيْنَ ظَهْرَيْهِ يُعْطَ الْعَافِيَةَ مِنْ فَوْقِهِ»[1].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: قوله: (وخُرْقِهِ) أي: وحمقه، قال ابن دريد في الجمهرة: «ورجل أخرق؛ أي أحمق، ومثل من أمثالهم: خرقاء وافقت صوفا، يعني رجلا أحمق له مال ينفقه في غير حقه». وقوله: (**بين ظهريه**): قال في العين: «والظهران من قولك: أنا بين ظهرانيهم وظهريهم، وكذلك الشيء في وسط الشيء: هو بين ظهريه وظهرانيه، قال: ألبس دعصا بين ظهري أو عسا».

مقتضى الحال: ليس في النَّص ما يبين الحال التي قال فيها الخليفة هذا النَّص، إلا ما وقع في بعض الروايات أنه قالها بسبب أنه بلغه عن بعض عمَّاله شيء.

لطائف لغوية: قوله: (**أيتها الرَّعية**): سبق الحديث عن النداء بـ (**أيها**) في النَّص رقم اثنين وثلاثين ومئتين. وفي قوله: (**للرعاة عليكم حقا**): قد سبق الحديث عن

١- رواهُ أبو يوسفَ في «الخراجِ» ص٢٢، ووكيعٌ في «الزُّهدِ» (٤١٩)، وهنَّادٌ في «الزُّهدِ» ٢/ ٦٠٢، وابنُ شبَّةَ في «تاريخِ المدينةِ» ٢/ ٧٧٤، والطَّبريُّ في «تاريخِه» ٤/ ٢٢٤.

أحوال تقدم الخبر على المبتدأ وجوبا، في النَّص رقم ثلاثة ومئتين.

البيان والبلاغة: افتتح عمر ﵁ خطابه بنداء الرعية **(يا أيتها الرعية)**، فالمنادَى معرفة محلى بـ **(أل)** وسبقه أي، والهاء للتنبيه، والنداء بهذه الصيغة يحتمل ما قال الرازي في تفسيره: «ونحن نقول: قول القائل: (يا رجل) يدل على النداء، وقوله: (يا أيها الرجل) يدل على ذلك أيضا، وينبئ عن خطر خطب المنادى له، أو غفلة المنادى»، فأي الشيئين أراد ابن الخطاب؟ أما الأول: فمحتمل من جهة عظمة الرعية في قلبه، وأما الثاني: فجاء في الرواية **(قد بلغه عن بعض عماله شيء)**، وليس في الروايات ما يبين هذا الشيء، فقد يكون العامل استخف الرعية واستغفلهم فناسب ذلك النداء، والأول أولى؛ حيث رعية عمر ﵁ وولاته من خيرة الناس الذين ينبغي إجلالهم. وقوله: **(إن للرعاة عليكم حقا)**: لَمَّا عظم الحق وكبر في نفسه أكده بـ **(إنَّ)** الثقيلة. وتقديمه خبر إن **(للرعاة)** على اسمها **(حقا)** يدل على أهمية المتقدم، وهو كونه **(للرعاة)**، وهذا التقديم يفيد الحصر، فجعله محصورا في الرعاة. وقوله: **(حقا)**: نكرة تعم الحقوق كلها. وفي قوله: **(للرعاة)** وقوله: **(عليكم)** طباق. ثم راح يبين هذا الحق ويفصله، فقال: **(المناصحة بالغيب)**، وفي هذه الجملة إيجاز بالحذف تقديره: المناصحة بالغيب من حق الرعاة عليكم. و**(أل)** هنا للاستغراق، تستغرق كل أنواع النَّصيحة بالقول والمكاتبة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وقوله: **(بالغيب)**، يعني: ألا يستعملوا النفاق فيمدحونه بوجهه ويقدحونه بالغيب، وإنما أن ينصحوا له في الغيب - أيضا -. وقوله: **(والمعاونة على الخير)**: بين هذه الجملة وسابقتها = موازنة؛ لاتحاد الوزن، مع اعتداله. واللفظتان **(المناصحة)** و **(المعاونة)** مشتقتان من الفعلين؛ (ناصح) و(عاون) على وزن فاعَلَ

الذي يدل عل المشاركة، وهذا ما ينبغي أن يكون بين الراعي والرعية من التبادل والتشارك في النَّصح والعون. ولَّما قرر ما قرره من التفاعل بين الراعي والرعية نبه الناس ولفتهم إليه طالبا منهم الإصغاء والالتفات إليه، مستعملا أداة التنبيه **(ألا)**، ثم قال: **(ألا وإنه ليس شيء أحب إلى الله من حلم إمام عادل ورفقه)**، وسبق أن قلنا بأن **(الواو)** التي بعد **(ألا)** هي التي للعطف فتدل على محذوف، أو تعطف على المعنى في قوله: **(ألا)** وهو بمعنى **(انتبه)**. والضمير **(الهاء)** في قوله: **(إنه)** ضمير شأن، والضمائر تعود - عادة - على مذكور، إلا ضمير الشأن فإنه يعود على شيء لم يذكر، يقدِّره السامع، وهنا ينطلق الذهن في التخمين فيعطي للأمر شأنا وأهمية؛ ولذا سمي ضمير الشأن، كما يسمى ضمير القصة؛ لأنه يدل على قصة محذوفة. ثم راح يبين هذه القصة أو ذلك الذي له شأن مؤكِّدا إياه بحرف التوكيد **(إنَّ)**. وقوله: **(شيء)** نكرة في سياق النفي تعمُّ، فلا يكون شيء مهما علا قدره أحب إلى الله من حلم إمام عادل ورفقه، وقد يقال: هل يكون الإمام عادلا بدون حلم و رفق؟ ربما يكون عادلا يأخذ بالحق دون عفو، فإن زاد عليه العفو كان حليما، فالحلم أعم من العدل من جهة، والعدل أعم من الحلم من جهة أخرى؛ حيث قد يكون الإمام ظالما حليما، ولكن لا يقال للظالم رفيقا؛ حيث الرفق يقتضي ألا تقع في الظلم، ولهذا قال: **(ورفقه)** ولم يكتف بذكر الحلم؛ لأن الحلم لما في القلب، والرفق لما في العمل، وعليه يكون الإمام عادلا بالحلم والرفق كليهما. وقوله: **(ولا جهل أبغض إلى الله من جهل إمام جائر وخرقه)**: النفي هنا يعمُّ كل شيء؛ حيث **(لا)** النافية للجنس تنفي أصل الشيء ووجوده، وهنا تقع على كل جهل يمكن أن يكون، فليس هو أبغض إلى الله من جهل الإمام. والفرق بين الجهل والخرق: أن الجهل نقص في العلم قد يُزال بالتعلُّم، وأما الخرق فهو نقص في العقل لا يزول بتعلم ولا بشيء. وبين

الجملتين موازنة؛ لاتحاد وزنهما، وفيهما ما يسمى بالمقابلة؛ حيث الكلمات (**أحب**) و(**حلم**) و(**عادل**) و(**رفقه**) ضد الكلمات (**أبغض**) و(**جهل**) و(**جائر**) و(**خرقه**) وبالترتيب. وأنهى خطابه بنصحٍ لمن ولوا من الناس أمرا بأن يأخذوا الناس بالعافية ليأخذهم الله - تعالى - بمثلها، فقال: (**ومن يأخذ بالعافية فيمن بين ظهريه يعط العافية من فوقه**)، وصاغها على صيغة الشرط الذي لا يتم آخره إلا بتمام أوله، فمن أراد أن تأتيه العافية من الله فلينعم بها على من ولي أمرهم. وفي الجملة مقابلة؛ حيث الكلمات (**يأخذ**) و(**بين ظهريه**) ضد الكلمات (**يعط**) و(**من فوقه**) وبالترتيب.

[٣٣٨]

وَمِنْ كَلَام لَهُ

فِي الرَّأْيِ الْمَذْمُومِ

«اتَّهِمُوا الرَّأْيَ عَلَى الدِّينِ؛ فَلَقَدْ رَأَيْتُنِي يَوْمَ أَبِي جَنْدَلٍ[١] وَأَنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِرَأْيِي اجْتِهَادًا إِلَيْهِ مَا آلُو عَنِ الْحَقِّ، وَالْكِتَابُ يُكْتَبُ بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: (**اكْتُبُوا: بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ**). فَقَالَ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو: إِذَنْ قَدْ صَدَّقْنَاكَ بِمَا تَقُولُ، وَلَكِنَّا نَكْتُبُ كَمَا نَكْتُبُ: بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ. فَرَضِيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَأَبَيْتُ عَلَيْهِمْ، حَتَّى قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ: (**تَرَى أَنِّي قَدْ رَضِيتُ، وَتَأْبَى؟!**) قَالَ عُمَرُ: «فَرَضِيتُ»[٢].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: قوله: (**فلقد رأيتُني**) قال ابن حجر في فتح الباري: «بضم المثناة، والمعنى: رأيت نفسي». و(**يوم أبي جندل**): نورد قصة ذلك اليوم مع اختصار من كتاب البداية والنهاية، قال ابن كثير: «فبينا رسول الله ﷺ يكتب الكتاب هو

١- أبو جَنْدَلِ بنُ سُهَيلِ بنِ عَمْرٍو القُرشيُّ العامريُّ: أسلمَ قديمًا بمكَّةَ، فحبسَه أبوه وأوثقَه في الحديدِ، ومنعَه الهجرةَ، ثمَّ أفلتَ بعدَ الحديبيةِ، فخرجَ إلى أبي بَصيرٍ بالعيصِ، فلم يزلْ معهُ حتَّى ماتَ أبو بَصيرٍ، فقدِم أبو جندلٍ ومَن كانَ معَه مِن المسلمينَ المدينةَ على رسولِ الله – صلَّى اللهُ عليهِ وآلِه وسلَّم –، فلم يزلْ يغزو معَه حتَّى قُبِض رسولُ الله – صلَّى اللهُ عليهِ وآلِه وسلَّم –، فخَرجَ إلى الشَّامِ في أوَّلِ مَن خرجَ إليها مِن المسلمينَ، فلم يزلْ يغزو ويُجاهِدُ في سبيلِ الله، حتَّى ماتَ بالشَّامِ في طاعونِ عَمَوَاسَ سنةَ ثماني عشرةَ، في خلافةِ عمرَ بنِ الخطَّابِ، ولم يدعْ أبو جندلٍ عقبًا. «الطَّبقات الكبرى» ٧/ ٤٠٥.

٢- رواهُ أحمدُ في «فضائلِ الصَّحابةِ» (٥٥٨)، والبزَّارُ في «البحرِ الزَّخَّارِ» (١٤٨)، وابنُ الأعرابيِّ في «المُعجَم» (١٠٧٥) و(١٩٤٦)، والطَّبرانيُّ في «المعجمِ الكبيرِ» (٨٢)، والقطيعيُّ في «جزءِ الألفِ دينارٍ» (٣٠٣)، واللَّالكائيُّ في «شرحِ أصولِ الاعتقادِ» (٢٠٨)، والضِّياءُ المقدسيُّ في «الأحاديثِ المختارةِ» (٢١٩).

وسهيل بن عمرو = إذ جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف في الحديد، قد انفلت إلى رسول الله ﷺ ... فلما رأى سهيل أبا جندل قام إليه فضرب وجهه وأخذ بتلبيبه، وقال: يا محمد قد لجت القضية بيني وبينك قبل أن يأتيك هذا، قال: صدقت فجعل ينتره بتلبيبه ويجره، يعني: يرده إلى قريش، وجعل أبو جندل يصرخ بأعلى صوته: يا معشر المسلمين أرد إلى المشركين يفتنونني في ديني! فزاد ذلك الناس إلى ما بهم، فقال رسول الله ﷺ: «**يَا أَبَا جَنْدَلٍ، اصْبِرْ وَاحْتَسِبْ؛ فَإِنَّ اللهَ جَاعِلٌ لَكَ وَلِمَنْ مَعَكَ مِنْ الْمُسْتَضْعَفِينَ فَرَجًا وَمَخْرَجًا؛ إِنَّا قَدْ عَقَدْنَا بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ صُلْحًا وَأَعْطَيْنَاهُمْ عَلَى ذَلِكَ وَأَعْطَوْنَا عَهْدَ اللهِ، وَإِنَّا لا نَغْدِرُ بِهِمْ**» قال: فوثب عمر بن الخطاب مع أبي جندل، يمشي إلى جنبه، ويقول: اصبر أبا جندل، فإنما هم المشركون، وإنما دم أحدهم دم كلب».

مقتضى الحال: يبيِّن عمرُ رضي الله عنه لمستمعيه خطورة الاعتداد الزائد بالرأي والإعجاب به، ثمَّ يدلل لهم على ذلك بذكر طرفٍ مما كان منه يوم الحديبية؛ حيثُ اعترض سهيل بن عمرو على كتابة (بسم الله الرحمن الرحيم) في كتاب الصُّلح بين رسول الله ﷺ وقريش، وقال: نكتب (باسمك اللهم)، فوافق الرسول ﷺ واعترض عمر.

البيان والبلاغة: افتتح عمر رضي الله عنه خطابه آمرا باحترام الدين ومقدِّما إياه على العقل والرأي بقوله: (**اتهموا الرأي على الدين**)، فصاحب الرأي مهما أصاب فلابد أن يلحقه الخلل، وليس ذلك بجائز في الدين. ثم راح يدلل على ما قال ويعلل ذلك بالمثال، ساردا لنا قصة جرت له أصاب فيها الشرعُ وأخطأ رأي عمر، وهو صاحب الرأي والعقل والحكمة والدين، وبدأ يقص علينا ما كان منه بقوله: (**فلقد رأيتني يوم أبي جندل**)، وهذه الجملة فيها توكيدان: (**اللام**) الابتدائية التي تفيد

التوكيد، و(**قد**) التي تفيد التحقيق والتوكيد، هذا إن لم نقدِّر قَسَمًا محذوفا، أما مع تقدير القَسَم المحذوف - على رأي بعضهم - فهي ثلاثة مؤكدات وتكون (**اللام**) هي الواقعة في جواب القسم. وقوله: (**رأيتُني**): بمعنى رأيت نفسي، وفي العادة لا يقول المتحدث: رأيت نفسي أشرب - مثلا -، ولكنه يقول: شربت، وقد جاء بها على هذه الصيغة من باب تأكيد الخبر كأنما تمَّت مشاهدته، فهو ينقل صورة للفعل حتى كأنه حاضر بين أيدينا. وقوله: (**يوم أبي جندل**) فيه حذف تقديره: يوم حدثت قصة أبي جندل، وقد سبق أن ذكرنا القصة. وقوله: (**برأيي اجتهادا**): في الجملة حذف تقديره: أجتهد برأيي اجتهادا، يبين عمر ﵁ الحال التي بلغت منه حتى إنه اجتهد بين يدي رسول الله ﷺ والكتاب يكتب بين يديه. وقوله: (**الكتاب**): (**أل**) للعهدية الذهنية؛ حيث نعلم من التاريخ أنه كتاب الصلح يوم الحديبية. وجاء قوله: (**يُكتب**) بصيغة ما لم يسم فاعله؛ حيث القصة تتحدث عن أمر لا داعي - هنا - لمعرفة الكاتب فأهمل ذكره؛ ولأنه اهتم بغيره كيلا يضيع لب الأمر والبغية من القصة. وقوله في نهاية القصة: (**فرضيتُ**): في الجملة إيجاز بالحذف، تقديره: قال ذلك فرضيت، والفاء هنا هي الفصيحة.

[٣٣٩]

وَمِنْ دُعَاءٍ لَهُ

إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ

«قَدْ تَرَى مَقَامِي، وَتَعْرِفُ حَاجَتِي، فَارْجِعْنِي مِنْ عِنْدِكَ يَا اللهُ بِحَاجَتِي، مُفَلَّجًا مُنَجَّحًا مُسْتَجِيبًا مُسْتَجَابًا لِي، قَدْ غَفَرْتَ لِي وَرَحِمْتَنِي». فَإِذَا قَضَى صَلَاتَهُ، قَالَ: «اللَّهُمَّ لَا أَرَى شَيْئًا مِنَ الدُّنْيَا يَدُومُ، وَلَا أَرَى حَالًا فِيهَا يَسْتَقِيمُ، اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي أَنْطِقُ فِيهَا بِعِلْمٍ، وَأَصْمُتُ بِحُكْمٍ، اللَّهُمَّ لَا تُكْثِرْ لِي مِنَ الدُّنْيَا فَأَطْغَى، وَلَا تُقِلَّ لِي مِنْهَا فَأَنْسَى؛ فَإِنَّهُ مَا قَلَّ وَكَفَى خَيْرٌ مِمَّا كَثُرَ وَأَلْهَى»[1].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: قوله: **(مُفَلَّجًا)**: قال في العين: «والفلج: الظفر بمن تخاصمه. وفلجت حجتك، وفلجت على صاحبك بحقك».

مقتضى الحال: كما جاء في الرواية أن عمر رضي الله عنه كان يقول هذا في دعائه إذا قام من الليل.

لطائف لغوية: قوله: **(قد ترى)**: الأصل في **(قد)** أنها إذا دخلت على المضارع أفادت التقليل والشك، لكنها تفيد التكثير والتحقيق والتوكيد مع المضارع إذا دل السياق على ذلك، ولمزيد من البيان راجع النَّص رقم خمسة وثمانين ومئة. وفي قوله: **(مُفَلَّجا مُنَجَّحا مُستجِيبا مُستَجابا لي)**: في هذا النَّص لم يعطف الصفات بعضها على

١- رواهُ ابنُ أبي شيبةَ في «المُصنَّفِ» (٣٥٦٣٤).

بعض، وقد مر الكلام عليه في النَّص رقم واحد وثلاثين وثلاثمائة.

البيان والبلاغة: افتتح عمر ﵁ خطابه ومناجاتَه ربَّه بقوله: (**قد ترى مقامي، وتعرف حاجتي، فارجعني من عندك يا الله بحاجتي**)، وقد قال هذا بعد أن تحقق وتأكد عنده أن الله - تعالى -يراه، ودل على هذا التحقق والتأكد (**قد**) التي تفيد ذلك. وقوله: (**ترى**) مضارع، والمضارع إذا سبقته (**قد**) أفاد الشك، وقد يراد بها التحقيق والتأكيد، كما في قوله تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَـٰكِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣]، وليس غريبا أن يبدأ مناجاته برؤية الله - تعالى - له، أليس هو من روى قول النبي ﷺ: «**اعْبُدِ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لم تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ**». وجملة: (**ترى مقامي**) بيَّنتِ اعتقاد عمر ﵁ في علم الله - تعالى - بما يظهر من حاله، وجملة: (**تعرف حاجتي**): بيَّنتِ اعتقاد عمر ﵁ في علم الله - تعالى - بما في نفسه وما يخفى منها، ولابد أنَّ العطف تضمن التوكيد والتحقيق الذي أفادته (**قد**) في جملة المعطوف عليه، وعليه يقال: في الجملة إيجاز حذف. ولما ذكر حاله وعِلمَ الله به راح يطلب من الله ما يحتاجه ويرغبه، فقال: (**فارجعني من عندك - يا الله - بحاجتي**). ويصور لنا عمر ﵁ حاله في هذه الجملة كأنه لما قام بين يدي ربه عرج إلى ملكوته، ووقف في رحاب سمائه، ولابد أن الروح قد فعلت وعرجت إلى باريها، فما عجز عنه الجسد لم يُعجز الروح. وقوله: (**من عندك**) يذكرنا بقول امرأة فرعون: ﴿رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ﴾ [التحريم: ١١]، وهذا جوار الجسد في الآخرة، وعمر ﵁ جاورت روحه ربها في الدنيا. وجاء النداء بقوله: (**يا الله**) معترضا هذا الدعاء، فكأني به لما خاطب ربه وعلم أنه يراه فكأنه رأى ربه، فلما رآه قرب منه فناداه، ثم طلب الرجوع من عنده تصاحبه

حاجته، دلَّ على هذه المصاحبة **(الباء)** في قوله: **(بحاجتي)**. وقوله: **(مُفَلَّجًا مُنَجَّحًا مُسْتَجِيبًا مُسْتَجَابًا لي)**: هذه صفات لا يربطها حرف العطف، وقد ذكرنا أن الأصل عند تعداد الصفات ألا يربطها عطف. وفي الجملة حذف كثير قد يقدر بقولنا: مفلجا على عدوي، منجحا في أمري، مستجيبا لربي، مستجابا لي طلبي. وفي قوله: **(مستجيب)** و**(مستجاب)** طباق. كل ذلك وهو قائم بين يدي ربه، فإذا قضى من صلاته ناجى ربه وناداه قائلا: **(اللهم)**، وهي بمعنى (يا الله) حذفت أداة النداء فيها وعوض عنها بـ (الميم)، وقد سبق الحديث عن هذه العبارة وما فيها. وقوله: **(لا أرى شيئا من الدنيا يدوم، ولا أرى حالا فيها يستقيم)**: هذه مقولة المبصر لحال الدنيا الخبير بشؤونها والمدرك لكُنْهِ حقيقتها. وجاء قوله: **(شيئا)** نكرة في سياق النفي فأفاد العموم؛ حيث لا يبقى شيء يدوم فيها، وهذا اقتباس من قوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن: ٢٦]. وقوله: **(من الدنيا)**: إطناب أريد منه الاحتراز من مظنة أن الآخرة لا تدوم كذلك، كما احترز صاحبه أبو بكر على لبيد لما قال:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل

فقال أبو بكر: (إلا نعيم الآخرة فإنه لا يزول). وما قيل في هذه الجملة يقال في التي تليها، وهو قوله: **(ولا أرى حالا فيها يستقيم)**. وقد ربط بين الجملتين بـ **(الواو)**؛ لما في الجملتين من تقارب في اللفظ والمعنى، وهذا التقارب والتشابه في اللفظ مع التشابه في القافية = يسمى الترصيع. وقوله: **(اللهم اجعلني أنطق فيها بعلم)**: لما ذكر الدنيا وزوالها وفناء نعيمها طلب من الله - تعالى - خير ما فيها، وهو العلم والحكم، وهذا يشبه قوله ﷺ: «**الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ، مَلْعُونٌ مَا فِيْهَا إِلَّا ذِكْرَ اللهِ وَمَا وَالَاهُ وَعَالِمٌ أَوْ مُتَعَلِّمٌ**». وقوله: **(اجعلني)** يدل على اعتماده على ربه وعدم اغتراره

بنفسه. وجملة (**وأصمت بحكم**) موصولة مع التي سبقتها يربط بينهما حرف العطف (**الواو**)، وفيهما ترصيع؛ لاتحاد الوزن والقافية، وفيهما - أيضا - طباق؛ فقوله: (**أنطق**) ضد قوله: (**أصمت**). ثم تابع طالبا من الله - تعالى - ما يكفيه فلا يلهيه من هذه الدنيا، فيقول: (**اللهم لا تكثر لي من الدنيا فأطغى**). و(**الفاء**) في قوله (**فأطغى**) هي فاء السببية التي دلَّت على أنَّ الخوف من الطغيان سبب طلبه عدم الإكثار من الدنيا، ومثل ذلك يقال في (**الفاء**) في قوله: (**فأنسى**)؛ لأن قلة الدنيا تسبب نسيان الله - تعالى -، وذلك في قوله: (**ولا تُقلَّ لي فيها فأنسى**). وقد وصل بين الجملتين بـ (**الواو**). وفي الجملتين ترصيع؛ لاتحاد الوزن والقافية، وبينهما مقابلة؛ فالكلمات (**تكثر**) و(**فيها**) و(**أطغى**) ضد الكلمات (**تُقلَّ**) و(**منها**) و(**أنسى**) وبالترتيب. ثم علَّلَ هذه الجملة بجملة ختم بها النَّص، فقال: (**فإنه ما قلَّ وكفى خير مما كثر وألهى**)، وبدأ هذه الجملة بـ (**إنَّ**) الثقيلة المؤكدة. وفي جملتي (**قلَّ وكفى**) و(**كثر وألهى**) ترصيع ومقابلة.

[٣٤٠]

وَمِنْ دُعَاءٍ لَهُ

إِذَا قَنَتَ فِي رَمَضَانَ

«اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ، وَالْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ، وَأَلِّفْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ، وَأَصْلِحْ ذَاتَ بَيْنِهِمْ، وَانْصُرْهُمْ عَلَى عَدُوِّكَ وَعَدُوِّهِمْ، اللَّهُمَّ الْعَنْ كَفَرَةَ أَهْلِ الْكِتَابِ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ رُسُلَكَ وَيُقَاتِلُونَ أَوْلِيَاءَكَ، اللَّهُمَّ خَالِفْ بَيْنَ كَلِمَتِهِمْ، وَزَلْزِلْ أَقْدَامَهُمْ، وَأَنْزِلْ بِهِمْ بَأْسَكَ الَّذِي لَا تَرُدُّهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ. بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْتَعِينُكَ وَنَسْتَغْفِرُكَ، وَنُثْنِي عَلَيْكَ وَلَا نَكْفُرُكَ، وَنَخْلَعُ وَنَتْرُكُ مَنْ يَفْجُرُكَ. بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، اللَّهُمَّ إِيَّاكَ نَعْبُدُ، وَلَكَ نُصَلِّي وَنَسْجُدُ، وَإِلَيْكَ نَسْعَى وَنَحْفِدُ، نَرْجُو رَحْمَتَكَ، وَنَخَافُ عَذَابَكَ، إِنَّ عَذَابَكَ بِالْكُفَّارِ مُلْحِقٌ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: كان عمر رضي الله عنه يقول هذا الدعاء في القنوت في رمضان، كما جاء في الروايات التي ذكرت هذا النَّص.

لطائف لغوية: وردت في النَّص بعض الجمل التي قدَّمت ما حقه التأخير، مثل قوله: (**إياك نعبد**) قُدِّم المفعول على الفعل والفاعل، وقوله: (**لك نصلي**)، وقوله: (**إليك نسعى**) ولم يقل: (نصلي لك) و(نسعى إليك)، فما فائدة هذا التقديم؟ يقول

١- رواهُ عبدُ الرَّزَّاقِ في «المُصنَّفِ» (٤٩٦٨) و(٤٩٦٩)، وابنُ خزيمةَ في «صحيحِه» (١١٠٠) والبيهقيُّ في «السُّنَنِ الكُبرَى» (٣١٤٣).

القزويني في الإيضاح في علوم البلاغة: «والتخصيص في غالب الأمر لازم للتقديم؛ ولذلك يقال في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، معناه: نخصك بالعبادة لا نعبد غيرك، ونخصك بالاستعانة لا نستعين غيرك. وفي قوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٢]، معناه: إن كنتم تخصونه بالعبادة، وفي قوله تعالى: ﴿لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]، أخرت صلة الشهادة في الأول وقدمت في الثاني؛ لأن الغرض في الأول إثبات شهادتهم على الأمم، وفي الثاني اختصاصهم بكون الرسول شهيدا عليهم. وفي قوله تعالى: ﴿لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾ [آل عمران: ١٥٨]، معناه إليه لا إلى غيره، وفي قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَـٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا﴾ [النساء: ٧٩] معناه لجميع الناس من العرب والعجم على أن التعريف للاستغراق ... وكذلك يذهب في معنى قوله تعالى: ﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ٤] إلى أنه تعريض بأن الآخرة التي عليها أهل الكتاب ... ويفاد التقديم في جميع ذلك وراء التخصيص اهتماما بشأن المقدم».

البيان والبلاغة: يناجي عمر رضي الله عنه ربه قائلا: (**اللهم اغفر للمؤمنين والمؤمنات، والمسلمين والمسلمات**)، فلا ينسى عمر رضي الله عنه المسلمين من دعائه، بل فصَّل فيه حتى أفرد المؤمنين عن المسلمين، والمؤمنات عن المسلمات، والمؤمنين والمسلمين عن المؤمنات والمسلمات، فأكثر من الإطناب وكان يكفي أن يقول: (اللهم اغفر للمسلمين) فتدخل المسلمات فيه تبعا، ويكون إفراد المسلمين على التغليب، ويدخل (المؤمنون والمؤمنات) في مسمى الإسلام؛ إذ كل مؤمن مسلم فيشمله الدعاء. وجاء هذا التنويع بالذكر من أجل التأكيد على أهمية المذكورين والتنويه بشأنهم. وبعد أن طلب من الله المغفرة لهم طلب منه أن يؤلف بين قلوبهم فقال: (**وألف بين قلوبهم**)،

وهذا مجاز مرسل علاقته الجزئية؛ حيث ذكر الجزء وهو القلب وأراد الكل، أعني: أراد أن يقول (وألِّف بينهم)، وذَكَر القلوب لأنها محل الألفة والمحبة بين الناس. وقوله: **(وأصلح ذات بينهم)**: هل يقال هذه الجملة من عطف اللفظ على معناه؛ لأن تأليف القلوب هو إصلاح ذات البين؟ نقول: هذا صحيح في تأليف القلوب؛ لأنه لا يكون مع فساد ذات البين، كما يصح أن تتنافر القلوب دون أن يفسد ذات بينهم، فعليه هما مختلفتان، ودل على هذا **(الواو)** التي تفيد المغايرة. وذكره تأليف القلوب قبل صلاح ذات البين ترتيب صحيح؛ حيث لا يصلح ذات بينهم إلا بألفة قلوبهم. ثم طلب من ربه أن ينصرهم على عدوهم، فقال: **(وانصرهم على عدوك وعدوهم)**، وطلبه النَّصر بعد ألفة القلوب وصلاح ذات البين يدل على أنهما شرطان في النَّصر، فلا نصر إلا بهما، وهذا ترتيب حسن؛ حيث كل واحدة لا تكون إلا بالتي سبقتها. وقوله: **(عدوك وعدوهم)** دل على أن مَن عادى مَن ليس عدوا لله فلا نصرة له من الله، وأن العداوة لاتكون إلا لله. وتقديمه **(عدوك)** على **(عدوهم)** مِن تقديم العلَّة على المعلول والمقدمة على النتيجة، وهو ترتيب صحيح تدلى به من الأعلى إلى الأدنى. وقوله: **(العن كفرة أهل الكتاب)** يدل على أن منهم مَن ليس بكافر، وقد يقال بأن الإسلام نسخ دين أهل الكتاب، فمَن بقي منهم على دينه فهو كافر، فلا داعٍ لتقسيمهم إلى كافر ومسلم. وقد يجاب بأن بعضهم لم تبلغه الرسالة، أو يقال بأن من أسلم منهم يسمى مسلم أهل الكتاب على اعتبار ما كان عليه، فصح التقسيم. وهل اللعنة لا تقع على كفرة أهل الكتاب إلا إذا كذَّبوا الرسل وقاتلو الأولياء؟ قد يفهم هذا من قوله: **(اللهم العن كفرة أهل الكتاب الذين يكذبون رسلك ويقاتلون أولياءك)**، وقد لا يكون ذكرهم هنا من باب الشرطية، وإنما ذكرهم في سياق الحديث؛ كونهم فعلوا ذلك، والأول أولى. ثم راح يدعو على أهل الكتاب

بعكس ما دعا للمسلمين والمسلمات، فقال: (**اللهم خالف بين كلمتهم**)، وهذه المخالفة تدل على نفرة قلوبهم وفساد ذات بينهم، فاكتفى بالتعبير عن نفرة القلوب وفساد ذات البين باختلاف الكلمة. وقوله: (**كلمتهم**) مجاز مرسل علاقته الجزئية؛ حيث أطلق الجزء وأراد به الكل، وهو الكلام الكثير والرأي. ثم دعا عليهم بقوله: (**وزلزل أقدامهم**)، وهو - أيضا - مجاز مرسل علاقته الجزئية؛ حيث أطلق الجزء وأراد الكل، وهم الناس، فالمعنى: (اللهم زلزل كفرة أهل الكتاب)، وفيها كناية عن صفة، وهي الفرار وعدم الثبات. ثم تابع يدعو على أعداء الله وأعداء المسلمين قائلا: (**وأنزل بهم بأسك الذي لا ترده عن القوم المجرمين**)، وقد تكون (**الباء**) في قوله: (**بهم**) للاستعلاء بمعنى (على)، فيكون المعنى أنزل عليهم، أو تكون للظرفية بمعنى (في)، فيكون المعنى: (أنزل فيهم). ثم انتقل بدعائه من الدعاء على الكافرين إلى الدعاء للمسلمين، وقد كان الدعاء في الجزء الأول للمسلمين فيما بينهم وبين أنفسهم من صلاح ذات البين وألفة القلوب، ثم انتقل في الجزء الثاني بالدعاء على الكافرين بعكس ما دعاه للمسلمين، وطلب من الله النَّصرة عليهم، ثم عاد في الجزء الثالث من الدعاء يدعو للمسلمين فيما بينهم وبين ربهم من العبادة والإنابة، فقال: (**اللهم إنا نستعينك ونستغفرك ونثني عليك ولا نكفرك**)، وهذا التفات؛ حيث كان يدعو للمسلمين بضمير الغائب، وهنا يدعو لهم بضمير المتكلمين. وقدم الاستغفار على الاستعانة لأن من مستلزمات عون الله - تعالى - لعبده ألَّا يكون من أهل الخطايا، فإذا غفر له ساغت إعانته، وكون الاستغفار عما مضى من الذنب، وطلب العون فيما يأتي فترتيب الزمان يقتضي تقديم الاستغفار على العون. وقوله: (**نثني عليك**): جعلها بعد الطلب من الله - تعالى - وهذا من أدب الطلب، وهو الاعتراف بفضل مَن تطلب منه، ثم ذكر براءته من كل مَن هو عدو له؛ فكانت

هذه البراءة وما سبقها من الثناء = كالشفاعة بين يدي ما سبق من طلب الغفران والإعانة. وفي قوله: (**إياك نعبد**) قدم المفعول على الفعل والفاعل، وتقديم ما حقه التأخير يدل على خصوصيته وأهميته، بل وحصره، فيكون المعنى: (لا نعبد إلا إياك)، ولو قال: (نعبدك) لم يكن هذا نافيا أن نكون عابدين لغيره. وقوله: (**ولك نصلي ونسجد**): قد يقال: هي من عطف الخاص على العام؛ حيث الصلاة والسجود جزء من العبادة. وتقديمه شبه الجملة (**لك**) على قوله: (**نصلي**) يفيد الحصر، فيكون المعنى: (**لا نصلى إلا لك**)، ومثله يقال: في تقديم (**وإليك نسعى**)؛ فلو قال: (نصلي لك) وقال: (نسعى إليك) لا يمنع أن نكون صلينا لغيره وسعينا إلى غيره. وعطف (**نسجد**) على (**نصلي**) من عطف الخاص على العام - أيضا - وذلك أن السجود جزء من الصلاة، وعطف السجود على الصلاة؛ لأهمية السجود على غيره، كما أن في الجملة إيجازَ حذف تقديره: لك نصلي ولك نسجد، وحذف مثله في قوله: (**وإليك نسعى ونحفد**) تقديره: وإليك نسعى وإليك نحفد. وفي هذه الجمل الثلاث ما يسمى بالترصيع؛ لاتحاد الوزن والقافية. وفي جملة (**نرجو رحمتك**) وجملة (**نخاف عذابك**) ترصيع ومقابلة؛ حيث الكلمات (**نرجو**) و(**رحمتك**) ضد الكلمات (**نخاف**) و(**عذابك**)، وبالترتيب.

[٣٤١]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

لِمَوْلَاهُ هُنَيٍّ[١]

«يَا هُنَيُّ؛ اضْمُمْ جَنَاحَكَ[٢] عَنِ الْمُسْلِمِينَ، وَاتَّقِ دَعْوَةَ المَظْلُومِ؛ فَإِنَّ دَعْوَةَ المَظْلُومِ مُسْتَجَابَةٌ، وَأَدْخِلْ رَبَّ الصُّرَيْمَةِ[٣]، وَرَبَّ الغُنَيْمَةِ[٤]، وَإِيَّايَ وَنَعَمَ ابْنِ عَوْفٍ، وَنَعَمَ ابْنِ عَفَّانَ؛ فَإِنَّهُمَا إِنْ تَهْلِكْ مَاشِيَتُهُمَا يَرْجِعَا إِلَى نَخْلٍ وَزَرْعٍ، وَإِنَّ رَبَّ الصُّرَيْمَةِ، وَرَبَّ الغُنَيْمَةِ إِنْ تَهْلِكْ مَاشِيَتُهُمَا؛ يَأْتِنِي بِبَنِيهِ، فَيَقُولُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ. أَفَتَارِكُهُمْ أَنَا، لَا أَبَا لَكَ؟! فَالْمَاءُ وَالْكَلَأُ أَيْسَرُ عَلَيَّ مِنَ الذَّهَبِ وَالوَرِقِ، وَايْمِ اللهِ إِنَّهُمْ لَيَرَوْنَ أَنِّي قَدْ ظَلَمْتُهُمْ، إِنَّهَا لَبِلَادُهُمْ فَقَاتَلُوا عَلَيْهَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَأَسْلَمُوا عَلَيْهَا فِي الإِسْلَامِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْلَا المَالُ الَّذِي أَحْمِلُ عَلَيْهِ فِي سَبِيلِ اللهِ؛ مَا حَمَيْتُ عَلَيْهِمْ مِنْ بِلَادِهِمْ شِبْرًا»[٥].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: قوله: **(ربَّ الصُّرَيْمَة وربَّ الغُنَيْمَة)**: قال الحافظ في الفتح: «والصُّرَيْمَة بالمهملة مصغر، وكذا الغُنَيْمَة، أي: صاحب القطعة القليلة من الإبل والغنم».

١- هُنَيٌّ - بالتَّصغيرِ - مَوْلَى عُمرَ، أدركَ النَّبيَّ ﷺ، واستعملَهُ عمرُ على الحِمَى «الإصابة» ٦/ ٣٠٣.

٢- قالَ ابنُ الأثيرِ في «النِّهايةِ» ٣/ ١٠١: (أي: أَلِن جانبَك لهم، وارفقْ بهم).

٣- الصِّرْمَةُ، بالكسرِ: القِطعةُ مِن الإبلِ ما بينَ العشرينَ إلى الثَّلاثينَ. وقيلَ غيرُ ذلكَ «القاموس» ص١٤٥٨.

٤- قالَ ابنُ الأثيرِ في «النِّهايةِ» ٣/ ٢٧: (يريدُ صاحبَ الإبلِ القليلةِ والغَنَم القليلةِ).

٥- رواهُ البخاريُّ في «صحيحِه» (٣٠٥٩)، و«مُوطَّأ مالكٍ (١)، وابنُ أبي شيبةَ في «المُصنَّفِ» (٣٣٥٩٥)، وابنُ زَنْجُوَيْهِ في «الأموالِ» (١١٠٨)، والبيهقيُّ في «السُّنَنِ الكُبرَى» (١١٨٠٩).

مقتضى الحال: الحال أن عمر ﷺ استعمل على الحِمى مولى له يقال له: (هُنَـيًّا) ثم قال له هذا النَّص يوصيه فيه، ويبين له ما يصنع في تولِّيه الحِمى.

لطائف لغوية: قوله: **(اضمم جناحك)**، هل في كلمة **(جناح)** مجاز أم لا؟ أهل العلم مختلفون في إثبات المجاز ونفيه في اللغة، ولكن كلمة **(جناح)** هنا ليست مجازية؛ لأن من معاني كلمة **(جناح)** الجانب، فجانب كل شيء جناحه، وعليه سننقل كلام العلماء في بيان معنى كلمة (جناح) في مواطن تشبه فيه هذا النَّص كقوله تعالى: ﴿ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ ﴾ [الإسراء: ٢٤]. قال الرازي في بيان وجه المجاز في الآية في تفسيره: «وذكر القفال - رحمه الله - في تقريره وجهين: الأول: أن الطائر إذا أراد ضم فرخه إليه للتربية خفض له جناحه، ولهذا السبب صار خفض الجناح كناية عن حسن التربية، فكأنه قال للولد: اكفل والديك بأن تضمهما إلى نفسك كما فعلا ذلك بك حال صغرك. والثاني: أن الطائر إذا أراد الطيران والارتفاع نشر جناحه وإذا أراد ترك الطيران وترك الارتفاع خفض جناحه، فصار خفض الجناح كناية عن فعل التواضع من هذا الوجه. فإن قيل: كيف أضاف الجناح إلى الذل والذل لا جناح له؟ قلنا: فيه وجهان: الأول: أنه أضيف الجناح إلى الذل، كما يقال: حاتم الجود، فكما أن المراد هناك حاتم الجواد، فكذلك هاهنا المراد، واخفض لهما جناحك الذليل، أي المذلول. والثاني: أن مدار الاستعارة على الخيالات، فهاهنا تخيل للذل جناحا وأثبت لذلك الجناح ضعفا؛ تكميلا لأمر هذه الاستعارة». أما المانعون من المجاز فلهم تفسير غير هذا، قال الشنقيطي في كتابه منع جواز المجاز: «والجواب عن قوله تعالى: ﴿ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ ﴾ أن الجناح هنا مستعمل في حقيقته؛ لأن الجناح يطلق لغة حقيقة على يد الإنسان وعضده وإبطه، قال تعالى:

﴿وَٱضۡمُمۡ إِلَيۡكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهۡبِ﴾ [القصص: ٣٢]، والخفض مستعمل في معناه الحقيقي الذي هو ضد الرفع؛ لأن مريد البطش يرفع جناحيه، ومُظهر الذل والتواضع يخفض جناحيه؛ فالأمر بخفض الجناح للوالدين كناية عن لين الجانب لهما، والتواضع لهما، كما قال لنبيه ﷺ: ﴿ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾[الشعراء: ٢١٥]. وإطلاق العرب خفض الجناح كناية عن التواضع ولين الجانب أسلوب معروف، ومنه قول الشاعر:

وأنت الشهير بخفض الجناح　　فلا تك في رفعه أجدلا».

وقوله: (**وإياي ونَعَم ابن عوف** ...): في هذه الجملة يحذر عمر نفسه، في حين هو يريد تحذير غيره، فهل هذا سائغ في اللغة، وما حكمه وبيانه؟ قال الأشمونى في شرحه لألفية ابن مالك معلقا على متن ابن مالك في قوله:

وشذ (إياي) و(إياه) أشذ　　وعن سبيل القصد من قاس انتبذ

«(وشذ): التحذير بغير ضمير المخاطب، نحو: (إياي) في قول عمر رضي الله عنه: (لتذك لكم الأسل والرماح والسهام، وإياي وأن يحذف أحدكم الأرنب)، والأصل: إياي باعدوا عن حذف الأرنب، وباعدوا أنفسكم عن أن يحذف أحدكم الأرنب. ثم حذف من الأول المحذور ومن الثاني المحذر، ومثل إياي: إيانا وإياه وما أشبهه من ضمائر الغيبة المنفصلة، (أشذ) من (إياي)، كما في قول بعضهم: (إذا بلغ الرجل الستين فإياه وإيا الشواب)، والتقدير: فليحذر تلاقي نفسه وأنفس الشواب، وفيه شذوذان: مجيء التحذير فيه للغائب وإضافة (إيا) إلى ظاهر، وهو (الشواب)، ولا يقاس على ذلك، كما أشار إلى ذلك بقوله: (وعن سبيل القصد من قاس انتبذ)،

أي: من قاس على إياي وإياه وما أشبههما فقد حاد عن طريق الصواب». وقوله: (أفتاركهم أنا): أصل الكلمة (فأتاركهم أنا)، وقد سبق الحديث عن تقديم همزة الاستفهام على حرف العطف في النَّص رقم اثنين وسبعين ومئتين، فارجع إليه غير مأمور.

البيان والبلاغة: افتتح عمر ﷺ خطابه بنداء مولاه (**هُنَيٍّ**) قائلا: (**يا هُنَيُّ**)؛ حيث حرف النداء (**يا**) المنتهي بحرف جوفي يعين على مد الصوت وإطالته؛ ليبلغ المنادِي حاجته من النداء، ويلقي في هذا الصوت طبعه في حال النداء؛ إن غضبا فغضب، أو تحذيرا، أو استنجادا، أو ترهيبا، فذلك كذلك، فيعلم المنادَى قبل أن يحدثه المنادِي ما هي حاله. ويفيد النداء بأنه يشد ذهن السامع ويوقظ قلبه وسمعه، فإن زاد على ذلك بذكر اسمه، علم أنه يخصه بالحديث ويكون وقع الحديث في نفسه أقوى رضا أو غضبا، أو غير ذلك، لاسيَّما إذا كان النداء ممن هو ليس قرينا للمنادَى، فنداء الصغير للكبير كنداء العبد ربه فيه خشوع وخضوع، ونداء الكبير للصغير فيه أمر وموعظة وطلب، ونداء الأم لولدها فيه حنان ورحمة، وكل حسب حاله؛ إما من حيث المكانة أو من حيث الطبع، كل ذلك يبينه ويجليه حرف النداء والاسم المنادَى. وفي نصنا نداء من أمير للمؤمنين، شديد الطبع، صاحب الدِّرَّة، مع رقة وتواضع وزهد - لاسيما في نصنا هذا -. هذا من حيث الدنيا، ومن حيث الدين: فخير الناس بعد صاحبيه الذَين سبقاه، وأحد العشرة، وهو المحدَث الملهم، وكل ذلك وقع على مولى من الموالي، ولكن النَّص يبين لنا أنه كان رفيقا به واعظا معلما، أنزله منه منزلة الولد أو التلميذ أو الصاحب، يقول له: (**اضمم جناحك عن المسلمين**)، ومما لم يختلفوا فيه أن معنى هذه العبارة وأشباهها مما ورد في القرآن: ألن

لهم جانبك، ولكن هل هي على الكناية أم الاستعارة، فمن لم يجز المجاز ومنع منه لم يجعل فيها استعارة، كما سبق في اللطائف، وجعلها كناية كما اتضح من كلام الشيخ الشنقيطي، ومن جعل فيها مجازا أجرى فيها الاستعارة المكنية كما سبق من نقل الرازي عن القفال - في تفسيره مفقود -. فإنْ قيل بالقول الثاني كان فيها استعارة مكنية؛ حيث شبه **(هُنَيًّا)** بطائر يخفض جناحه، فحذف الطائر وهو المشبه به مبقيا شيئا من لوازمه، وهو ضم الجناح حال هبوطه وخضوعه، على طريقة الاستعارة المكنية. وقوله: **(عن المسلمين)**: قَيْدٌ؛ حيث غيرُهم لا يدخل في هذا اللين؛ فالعزة لله ولرسوله وللمؤمنين. ولما فرغ من طلب لين الجانب وطلب التواضع، طلب منه أن يجافي الظلم ويحذر دعوة المظلوم، فقال: **(واتق دعوة المظلوم)**. ويتضح لنا من بداية النَّص أن نداء عمر رضي الله عنه لمولاه كان نداء رحيم ومعلم يعلم تلميذه، فهو يطالبه بالتواضع ولين الجانب وترك الظلم. وهذا الترتيب جاء بالترقي من المهم إلى الأهم، ومن الداني إلى العالي؛ حيث الظلم واقترافه أسوء من ترك التواضع واللين؛ إذ يشمل الأول الثاني وليس بالضرورة أن يشمل الثاني الأول، أعني: كل ظالم هاجر لِلِّين والتواضع، وليس كل هاجر للين ظالما. ثم راح يبين علة طلبه اتقاء دعوة المظلوم بقوله: **(فإن دعوة المظلوم مستجابة)**، فكرر قوله: **(دعوة المظلوم)** ولم يقل: (فإنها)؛ للأهمية والتنويه على خطرها، فاستجابة الله - تعالى - لدعوة المظلوم علة تجعل المسلم يخشى الظلم ويتقيه، ودلنا على كونها العلة **(الفاء)** التي هي للتعليل. والفرق بين فاء التعليل وفاء السببية: أن الأولى علة لما قبلها، والثانية سبب لما بعدها، فلو قال: (دعوة المظلوم مستجابة فاتقها)، كانت الفاء هنا السببية. ثم راح يبين له كيف يجتنب دعوة المظلوم دون أن يقول له: (هكذا يكون اجتنابها)؛ لدلالة السياق عليه؛ ففي الجملة حذف كالذي ذكرناه يقدره السياق،

وهو معلوم من قوله: (**وأدخل رب الصُّرَيْمَة، ورب الغُنَيْمَة**)، ففي الجملة حذف تقديره: وأدخل الحمى رب الصريمة، وأدخل الحمى رب الغنيمة. وفي جملتي (**رب الصُّرَيْمَة**) و(**رب الغُنَيْمَة**) ترصيع؛ لتناسب الوزن والتقفية. والتصغير في كلمتي (**الصريمة**) و(**الغنيمة**) تصغير يراد منه التقليل. وقدَّم (**الصريمة**) لأن الإبل أنفس من الغنم. ولم يقل: (رب الصريمة والغنيمة)، خشية أن يفهم من ذلك أنَّ ربهما واحد، فيكون المعنى: (أدخل الرجل الذي يملك الصريمة والغنيمة معا)، ولكنه كرر كلمة (**رب**)؛ ليدل على التغاير بينهما، وقد دلت عليه (الواو) التي تفيد ذلك. ومثله يقال في تكراره كلمة (نَعَم) في قوله: (**وإياي ونعم ابن عوف ونعم ابن عفان**). وهذا أسلوب تحذير تقدير الكلام فيه: أحذر نفسي، وأحذركم. ولكن كيف يحذر نفسه والكلام متجه لغيره، قيل: هو من المبالغة؛ لأنه لما حذر نفسه كان التحذير لغيره أولى؛ ليكون الوعظ أبلغ. قال الحافظ في الفتح - باختصار -: «قوله (وإياي) فيه تحذير المتكلم نفسه ... وإلا فالمراد في التحقيق إنما هو تحذير المخاطب، وكأنه بتحذير نفسه حذره بطريق الأولى، فيكون أبلغ، ونحوه نهي المرء نفسه، ومراده نهي من يخاطبه»، والمعنى: (لا تدخل نَعَم ابن عوف وابن عفان). والنهي ليس على الإطلاق - كما ذكر في الفتح -، ولكن إن ضاق المرعى فصاحب الغنيمة والصريمة أولى. وقوله: (**ابن عوف**) يعني عبد الرحمن ﷺ، لم يسمه لشهرته، فراعى الإيجاز، ولمحبة العرب النسب إلى آبائهم وكبرائهم وعشائرهم، ومثل ذلك يقال في قوله: (**ابن عفان**). والترتيب بين (**ابن عوف**) و(**ابن عفان**) قد يكون راعى فيه كثرة المال، لاسيَّما وقد أضيف النَّعَم إليهما، وإذا كان الحديث بشأن النعم والمال، فمال ابن عوف أكثر، وإلا فعثمان أولى بالتقديم؛ لفضله على عبد الرحمن وسنه، ومصاهرته لرسول الله ﷺ. وقد يقال إن الصفات التي ذكرتُها هي التي منعته من

تقديمه على عبد الرحمن؛ لأنه في سياق منع، فتقديم عبد الرحمن في المنع أولى من عثمان؛ لغلبة عثمان في الصفات عليه. ثم علل منعهما عن غيرهما بقوله: (**فإنهما إن تهلك ماشيتهما يرجعا إلى نخل وزرع**)، وتوكيده الجملة بـ (**إنَّ**) الثقيلة دليل على كثرة مالهما وشهرته. وتقديمه النخل على الزرع؛ لفضيلة النخل على الزرع، وهذا لا يخفى. وفيه دليل على تنوع المال والثراء عندهما رضي الله عنهما من ماشية ونخل وزرع، فهما أصبرُ على الفقد من غيرهما. ثمَّ استطرد في إتمام بيان العلَّة ذاكرًا حال ربِّ الصريمة والغنيمة، فقال: (**رب الصريمة ورب الغنيمة إن تهلك ماشيتهما يأتيني ببنيه فيقول يا أمير المؤمنين**). والإتيان بالبنين ليدل على حاجته، وصدق حاله، فيستجلب رأفة الأمير. وقوله: (**يا أمير المؤمنين**): فيها إيجاز بالحذف قدَّره الحافظ في الفتح بقوله: يا أمير المؤمنين أنا فقير، يا أمير المؤمنين أنا أحق، ونحو ذلك. ثم لما عرض حاجتهم وما سيكون منهم سأل مولاه قائلا: (**أفتاركهم**)، وأصل الجملة (فأتاركهم)، وتقدَّمَتِ الهمزة لأصالتها، و(الفاء) للعطف. والاستفهام - هنا - ليس على الحقيقة، فهو لا يريد طلب علم من مولاه عن نفسه، إذ هو أعلم بنفسه من المسئول، ولكنه لينكر أنه يتركهم، فالاستفهام للإنكار، فهو يريد أن يقول: لست تاركهم. ولم يقل هذا الكلام مباشرة لما في أسلوب الاستفهام من تأكيد المعنى، وما يجلبه على الجملة من التوكيد على عدم الترك. وجملة (**لا أبا لك**) جملة مجازية لا يراد منها حقيقتها، فهو لا يدعو على أبيه بالموت كما يدل ظاهر اللفظ. وقوله: (**فالماء والكلأ أيسر عليَّ من الذهب والورق**): لعل (**الفاء**) تشير إلى محذوف قد يقدر بقولك: لا تمنعهم عن الحمى؛ فالماء والكلأ أيسر ... وهذا سبب آخر لسماح عمر رضي الله عنه لهم بالرعي في الحمى غير الذي ذكره سابقا، ذلك أنهم إن لم يجدوا مرعى سيطلبون منه المال من الذهب والورق، فالماء والكلأ أيسر منهما. وترتيبه للماء قبل الكلأ، والذهب

قبل الورق ترتيب صحيح، فالماء أهم من الكلأ فالناس إليه أحوج، وهو سبب في نبات الكلأ، والذهب أنفس من الورق، فتدلى بهما من الأعلى إلى الأدنى. ثم أنشأ جملة تزدحم بالمؤكدات يقول: (**وايم الله، إنهم ليرون أني قد ظلمتهم**) فالقسم، و(**إنَّ**) و(**اللام**) مؤكِّدات لجملة (**يرون** ...)، والقسم نفسه و(**إنَّ**) و(**قد**) مؤكدات لجملة (**ظلمتهم**)، وهذا من خبرته بالناس أنه لا يرضيهم شيء. وقريب من ذلك ما سبق أن أحدهم يأتي ببنيه، ويقول: يا أمير المؤمنين. وفي رواية أنه قال: (**يُرون**)، أي أن أصحاب الدسائس هم من يسولون لهم ذلك. والفعل (**يرون**) هنا بمعنى يعتقدون. ثم بين علة قولهم هذا، فقال: (**إنها لبلادهم فقاتلوا عليها في الجاهلية**). وهذه الجملة الثالثة التي يعلل فيها عمر ﵁ كلامه، وقد سبق جملتان هما: (**فإن دعوة المظلوم مستجابة**) وجملة (**فإنهما إن تهلك ماشيتهما** ...)، وكلُّها عللها مبتدئا بـ (**إن**)، وهنا يؤكد أن البلاد لهم بـ (**إنَّ**) و(**اللام**)، فكأنه يلتمس لهم شيئا من العذر لما رأوا أنه ظلمهم. وقوله: (**فقاتلوا عليها في الجاهلية**): لو قال: (قاتلوا عليها) من دون (**الفاء**) لما كان في الجملة حذف، أما (**الفاء**) فلا يؤتى بها إلا لحاجة، وهي هنا الدلالة على المحذوف؛ فهي الفاء الفصيحة، وتقدير الحذف: قاتلهم الناس فقاتلوا عليها. وفي قوله: (**في الجاهلية**) وقوله (**في الإسلام**) طباق. ثم لما بسط حجتهم لما رأوا أنه ظلمهم راح يبسط حجته بأنه غير ظالم لهم، مقسما على ذلك بالذي نفسه بيده، فيقول: (**والذي نفسي بيده لولا المال الذي أحمل عليه في سبيل الله ما حميت عليهم من بلادهم شبرا**). و(**لولا**) هي التي تفيد الامتناع للوجود؛ فقد وجد المال الذي يحملهم عليه في سبيل الله فامتنع قوله: (**ما حميت عليهم**). وكلمة (**المال**) هنا خاصة بما يركب من الدواب التي تستعمل في الجهاد، وفي الجملة حذف تقديره: لولا المال الذي أحمل عليه المجاهدين. وقوله: (**في سبيل الله**) كناية عن الجهاد.

وقوله: (**شبرا**) نكرة في سياق النفي فأفادت العموم، أي: ما حميت عليهم أي شبر من الأرض قلَّ أو زاد. وفي قوله: (**أحمل**) و(**حميت**) جناس ناقص.

[٣٤٢]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ الْمُنَافِقُ الْعَلِيمُ». قَالُوا: كَيْفَ يَكُونُ مُنَافِقًا عَلِيمًا؟ قَالَ: «عَالِمُ اللِّسَانِ، جَاهِلُ الْقَلْبِ وَالْعَقْلِ»[1].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: الحال أن عمر ﷺ قال هذا النَّص على منبر رسول الله ﷺ وبخطبة من خطبه، أما كونه على المنبر فقد دلت عليه رواية المروزي - في تعظيم قدر الصلاة -، وفيها أنه كان يكرر ذلك كثيرا: «قال أبو عثمان النهدي: سمعت عمر بن الخطاب، وهو على منبر رسول الله ﷺ يقول أكثر من عدد أصابعي هذه ...»، وكونها خطبة من خطبه كما ورد في رواية الفريابي - في صفة النفاق وذم المنافقين -: «عن أبي عثمان النهدي، قال: كنت عند عمر بن الخطاب ﷺ فسمعته يقول في خطبته: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ...».

لطائف لغوية: **(ما أخاف)** من قوله: **(أخوف ما أخاف)** مصدر مؤول، وقد سبق الكلام عن الفرق بينه وبين الصريح، وميزته على الصريح = في النَّص رقم أربعة وتسعين ومئة، فليراجعه المستزيد.

البيان والبلاغة: افتتح عمر ﷺ خطابه بقوله: **(إن أخوف ما أخاف على هذه الأمة)**، وسبق لنا - في النَّص رقم تسعة وخمسين ومئتين - أن تحدثنا عن هذه

١- رواهُ المروزيُّ في «تعظيمِ قدرِ الصَّلاةِ» (٦٨٥)، والفريابيُّ في «صفةِ النِّفاقِ وذمِّ المنافقينَ» (٢٦)، والضِّياءُ المقدسيُّ في «الأحاديثِ المختارةِ» (٢٣٦)، وابنُ كثيرٍ في «مُسنَدِ الفاروقِ» ٢/ ٦٦٠.

العبارة. وقوله: (**المنافق العليم**): فسَّر عمر ﷺ كيف يجتمع النفاق وسعة العلم، وذلك بعد سؤالهم له: (**كيف يكون منافقا عليما؟**)، فأجابهم بقوله: (**عالم اللسان، جاهل القلب والعقل**)، فالمنافق العليم هو: من أعطاه الله لسانا عالما، أي: حجة وبيانا وفصاحة، ولم يعطه الفهم والعقل. وقوله: (**عالم اللسان**)، بمعنى: لسانه عالم. وكذلك قوله: (**جاهل القلب والعقل**) بمعنى: قلبه وعقله جاهلان. وفي كلمتي (**عالم**) و(**جاهل**) طباق، واعتدال في الوزن. ولم يكن ذلك الاعتدال في قوله: (**المنافق العليم**)؛ لتحوله من صيغة اسم الفاعل إلى الصفة المشبهة، ولم يعطف الصفات على بعضها بالواو كما مر بنا قبل نصوص، وهذا يدل على جواز العطف وتركه على الإطلاق؛ حيث قيل: يترك العطف في الوصف ما لم يتباين الوصفان، وهنا قد تباينا؛ فالجهل والعلم متباينان، فيبقى جواز ذلك على الإطلاق.

[٣٤٣]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«التَّوْبَةُ النَّصوحُ: أَنْ يَجْتَنِبَ الرَّجُلُ الْعَمَلَ السُّوءَ كَانَ يَعْمَلُهُ، يَتُوبُ إِلَى اللهِ - عَزَّ وَجَلَّ - مِنْهُ، ثُمَّ لَا يَعُودُ فِيهِ أَبَدًا»[١].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: قوله: (**التوبة النَّصوح**): هي التوبة الصادقة، وكلمة (**نَصوح**) صيغة مبالغة، وهي من (**نصحَ الثوبَ**) بمعنى: خاطه؛ وكأنَّ التائب يرقع ما خرقه بالمعصية. وقيل: من قولهم: (عسلٌ ناصحٌ)، أي: خالص.

مقتضى الحال: ليس في النَّص ما يبين الحال التي قال فيها عمر رضي الله عنه هذا النَّص.

لطائف لغوية: قوله: (**... السوء كانَ يعملُه**): وصفٌ للعمل من حيث المعنى، فتحتمل أن تكون نعتًا له؛ لأنَّ (أل) الداخلة عليه جنسيَّة فلا تعرَّف، والجملة بعد النكرة نعت لها، وتحتمل أن تكون حالًا له، لأنَّه نكرة مخصَّصة بالوصف، والأوَّل أظهر. وقوله: (**لا يعود فيه أبدا**)، ما الفرق بين (أبدا) و(قط)؟ قال أبو سهل الهروي في إسفار الفصيح: «ومعنى (**أبدا**): هو الزمان والدهر المستقبل الذي يأتي، وهو نقيض (قط)، وهو الزمان والدهر الماضي ... تقول: لن أفعله أبدا، أي: فيما استقبل من الزمان في عمري، ولم أفعله قط، أي: فيما مضي من الزمان». وقوله: (**التوبة النَّصوح**): لم يؤنث النَّصوح، وهنا نسأل متى يذكَّر المؤنث؟ ذكر العلماء حالات كثيرة نذكر منها ما كان على وزن (فعول) بمعنى فاعل، أو (فعيل)

١- رواهُ الطَّحاويُّ في «شرحِ مُشكِلِ الآثارِ» (١٤٦٣).

بمعنى مفعول، قال الغلاييني موضحا ذلك جامع الدروس العربية: «(فعول) بمعنى فاعل؛ كصبور وغيور، أو (فعيل) بمعنى مفعول؛ كقتيل وجريح ... وإن كان (فعول) بمعنى (مفعول) تلحقه التاء كأكولة بمعنى مأكولة، وركوبة بمعنى مركوبة، وحلوبة بمعنى محلوبة. ويقال أيضا: أكول وركوب وحلوب. وإن كان (فعيل) بمعنى (فاعل) لحقته التاء ككريمة وظريفة ورحيمة. وقد يجرد منها كقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦]، وإن كان بمعنى (مفعول)؛ فإن أريد به معنى الوصفية، وعلم الموصوف، لم تلحقه في الأكثر الأغلب كامرأة جريح، وقد تلحقه على قلة؛ كخصلة حميدة وفعلة ذميمة، وإن استعمل استعمال الأسماء لا الصفات لحقته التاء كذبيحة وأكيلة ونطيحة. وكذا إن لم يعلم الموصوف أمذكَّر هو أم مؤنَّث؟ مثل: (رأيت جريحة). أما إذا علم فلا، نحو: (رأيت امرأة جريحا) أو (رأيت جريحا ملقاة في الطريق)، ونحو: (كوني صبورا على المصائب، حمولا للنوائب)».

البيان والبلاغة: يقدم لنا عمر ﷺ في هذا النَّص تعبيرا جميلا للتوبة النَّصوح، فيقول: **(التوبة النَّصوح أن يجتنب الرجل العمل السوء كان يعمله)** ولم يقل: (التوبة النَّصوحة) وقد علمنا أن الصفة تتبع الموصوف في التذكير والتأنيث، غير أن العلماء استثنوا من ذلك ما كان على وزن (فعول) أو (فعيل)، على ما سبق بيانه في اللطائف. ومن ذلك قول امرئ القيس:

وتضحى فتيت المسك فوق فراشها نؤوم الضحى لم تنتطق عن تفضل

و(أل) التعريف هنا للاستغراق تعم كل توبة، لكن الصفة التي بعدها **(النَّصوح)** خصصت ذلك العموم. وفي الجملة حذف تقديره: التوبة النَّصوح؛ هي أن يجتنب

... وجاءت جملة (**أن يجتنب**) مصدرا مؤولا فائدته بيان الزمن، فلم يقل: (التوبة النَّصوح اجتناب ...)، والزمن هنا هو المضارع الذي يدل على التجدد والحدوث والاستمرار، وعليه يكون الاجتناب دائما ومستمرا. وقوله: (**يجتنب**)، ولم يقل: (يترك) أو (يقلع) عن العمل السوء؛ لأن في الاجتناب زيادة معنى، حيث تعني ترك العمل السوء والبعد عنه، وعدم مخالطته؛ بحيث يكون الرجل في جانب والعمل السوء في جانب آخر. وقوله: (**كان يعمله**): هذا القيد يدل على أن من اجتنب العمل السوء ولم يكن يعمله لا يقال هو تاب عنه؛ لأنه لم يعمله أصلا. وقوله: (**يتوب إلى الله - عز وجل - منه**): قيد لابد منه؛ لكي تكون التوبة نصوحا، فربَّ رجل اجتنب العمل السوء لا توبة إلى الله، بل لعجز أو خوف أو غير ذلك، ولا يكون اجتناب المعاصي توبةً إلا إذا كان لله - تعالى -. وعبَّر بالفعل المضارع (**يتوب**) للدلالة على الاستمرار وضرورة تجديد التوبة. ولهذا الفعل متعلّقان: الأوَّل: (**إلى الله**) والثاني: (**منه**)، وتقديم المتعلّق الأوَّل على الثاني فيه إشارة إلى مسألة مهمَّة في التَّوبة، وهي الإخلاص لله عزَّ وجلَّ، أي: أن تكون التوبة خالصة لله بغضِّ النظر عن نوع الذنب الذي وقع فيه العبد. أما كونها نصوحا فيأتي من قوله: (**ثم لا يعود فيه أبدا**). وقوله: (**أبدا**) للزمن المستقبل، أي: لا يعود فيه مدى الزمن الآتي كله. وقوله: (**يعود فيه**): (**في**) للظرفية، أي: لا يتلبس به، فجعل المعصية ظرفا والعاصي داخل فيه.

[٣٤٤]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ أَحَدَ رَجُلَيْنِ: رَجُلٌ مُؤْمِنٌ قَدْ تَبَيَّنَ إِيمَانُهُ، وَرَجُلٌ كَافِرٌ قَدْ تَبَيَّنَ كُفْرُهُ. وَلَكِنْ أَخَافُ عَلَيْكُمْ مُنَافِقًا يَتَعَوَّذُ بِالْإِيمَانِ، وَيَعْمَلُ غَيْرَهُ»[1].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: قوله: (**يتعوذ بالإيمان**): قال الأزهري في تهذيب اللغة: «عَوَذَ: يقال: عاذ فلان بربه، يعوذ عوذا، إذا لجأ إليه واعتصم به. قال الله - جل وعز -: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ [النحل: ٩٨]، معناه: إذا أردت قراءة القرآن، فقل: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ووسوسته. وعاذ وتعوَّذ واستعاذ بمعنى واحد».

مقتضى الحال: ليس في النَّص ما يبين الحال ولا الزمان ولا المكان الذي قال فيه عمر رضي الله عنه فيه هذا النَّص.

البيان والبلاغة: في هذا النَّص يبين لنا عمر رضي الله عنه من يخافه من الرجال على أمته ومن لا يخافه، فيقول: (**ما أخاف عليكم أحد رجلين**). وجاء النفي بحرف النفي (**ما**) وهو نفي للحال، أي: في الحال التي أنتم عليها الآن، ولو قال: (لا أخاف) فهو نفي للحال والاستقبال. وتخوفه على أمته أو عدم تخوفه عليهم دليل على اعتنائه بهم. وهذا الأسلوب الذي جاء به النَّص يسمى التوشيع؛ ومثاله أن تقول: مررت برجلين؛ أحدهما معلم، والثاني طالب. وفائدة التوشيع أنه يجعل السامع ينتظر بشوق تتمة الحديث؛ حيث إخبارك له بأنك مررت برجلين يشغل باله؛

١- رواهُ الفريابيُّ في «صفةِ النِّفاقِ وذمِّ المنافقينَ» (٢٨)، وعنهُ ابنُ كثيرٍ في «مُسنَدِ الفاروقِ» ٢/ ٦٦١.

ليعلم من هم الرجلان، فيُحدِث عنده اهتماما يقود إلى التشويق، فلو قال: مررت بمعلم فالسامع لا ينتظر منه أنه مر بطالب أو بأحد آخر؛ لأنه لم يقدم لذلك، كما أن التوشيع ينظم حديث المتكلم وينظم اهتمام السامع. وقوله: (**رجلين**): يدخل فيه النساء تبعا؛ حيث هن كما قال ﷺ: «**النِّسَاءُ شَقَائِقُ الرِّجَالِ**»، فذكر الرجال ليس تخصيصا لهم، لكن هو على التغليب. ولما شوقنا لمعرفة هذين الرجلين بهذه المقدمة لاسيَّما أنه يتحدث عن الخوف والأمن راح يبين لنا حالهما فقال: (**رجل مؤمن قد تبين إيمانه**)، وهذا هو الرجل الأول؛ المؤمن الذي تحقق إيمانه، دلنا على هذا التحقق (**قد**) التي تفيد للتحقيق والتوكيد. وقوله: (**قد تبين إيمانه**)، أي: ظهر ظهورا لا يحتمل خلاف الإيمان. أما الرجل الثاني فهو (**رجل كافر قد تبين كفره**). ويقال في تحقق كفره بـ (**قد**) ما قيل فيما سبق. وفي الجملتين ترصيع؛ لاتحاد الوزن والقافية، ومقابلة؛ حيث الكلمات (**مؤمن**) و(**إيمانه**) ضد الكلمات (**كافر**) و(**كفر**) وبالترتيب. ثم استدرك عمر رضي الله عنه ليقطع أمنه وعدم خوفه بخوف وعدم أمن، وجاء هذا الاستدراك بأداة الاستدراك (**لكن**)؛ حيث يقول: (**ولكن أخاف عليكم منافقا يتعوذ بالإيمان ويعمل غيره**). وما زال عمر رضي الله عنه يؤكد لنا خوفه على الناس، وهذا من اهتمامه بشؤون الرعية. وفي الجملة حذف يمكن تقديره بقولنا: يتعوذ بالإيمان في العلن، ويعمل غيره في السر. وقوله: (**منافقا**) نكرة خصصها ما بعدها، وهو قوله: (**يتعوذ بالإيمان**)، وهذه الجملة صفة لهذا المنافق؛ كونها وقعت بعد نكرة. و(الباء) في قوله: (**بالإيمان**) بمعنى الاستعانة، أي: يستعين بالإيمان على إخفاء كفره، وهذا هو معنى النفاق، فهو بهذه العبارة عرَّف لنا معنى النفاق. وقوله: (**ويعمل غيره**) فيها إيجاز بالحذف دل عليه ما سبقه من كلام.

[٣٤٥]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

وَقَدْ بَلَغَهُ أَنَّ رَجُلًا بِالْبَصْرَةِ ارْتَدَّ فَضُرِبَتْ عُنُقُهُ

«أَفَلَا حَبَسْتُمُوهُ ثَلَاثًا، وَأَطْعَمْتُمُوهُ كُلَّ يَوْمٍ رَغِيفًا، وَاسْتَتَبْتُمُوهُ؛ لَعَلَّهُ يَتُوبُ وَيُرَاجِعُ أَمْرَ اللهِ؟! اللَّهُمَّ إِنِّي لَمْ أَحْضُرْ، وَلَمْ آمُرْ، وَلَمْ أَرْضَ إِذْ بَلَغَنِي»[1].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: أن رجل من قِبَل أبي موسى الأشعري قدم على عمر بن الخطاب - كما ورد في بعض الروايات -، فسأله عمر عن الناس، فأخبره. ثم قال له عمر: هل كان فيكم من مغربة خبر؟ فقال: نعم، رجل كفر بعد إسلامه، قال: فما فعلتم به؟ قال: قرَّبناه فضربنا عنقه، فقال عمر هذا النَّص.

لطائف لغوية: قوله: (**ضُرِبَتْ عُنُقُه**) أنَّثَ العُنُق، فما القول في تأنيثها؟ قال أبو الحسين الكاتب في المذكر والمؤنث: «ويجوز التذكير والتأنيث في اللسان والقفا والعنق». وقد ميَّز بعضهم بين كون النون ساكنة أو متحركة، كما قال ابن الأنباري في البلغة في الفرق بين المذكر والمؤنث: «وكذلك (**العنق**) يذكر ويؤنث. وقيل: إن ضُمَّت النون كان مؤنثا وإن سكنت كان مذكرا. وقال الأصمعي: لا أعرف فيه التأنيث». وقوله: (**أفلا حبستموه**): سبق في النَّص واحد وأربعين وثلاثمائة بيان

١- رواهُ مالكٌ في «المُوطَّإ» (٢٧٢٨)، والشَّافعيُّ في «المُسنَدِ» (١٦٠٨)، وعبدُ الرَّزَّاقِ في «المُصنَّفِ» (١٨٦٩٥)، وابنُ أبي شيبةَ في «المُصنَّفِ» (٣٤٥٢١)، والبيهقيُّ في «السُّنَنِ الكُبرَى» (١٦٨٨٧)، و«معرفةِ السُّنَنِ والآثارِ» (١٦٦٢٠).

نوع الفاء، وأن الأصل تقدمها على الاستفهام. وقوله: **(حبستموه ثلاثا)**: حذف الهاء من قوله: **(ثلاث)**، والأصل في العدد مخالفة المعدود، قال النووي في شرحه على مسلم: «وقوله ﷺ: **(ستا من شوال)** صحيح، ولو قال (ستة) بالهاء جاز أيضا. قال أهل اللغة: يقال صمنا خمسا وستا، وخمسة وستة، وإنما يلتزمون الهاء في المذكر إذا ذكروه بلفظه صريحا فيقولون صمنا ستة أيام، ولا يجوز ست أيام، فإذا حذفوا الأيام جاز الوجهان. ومما جاء حذف الهاء فيه من المذكر إذا لم يذكر بلفظه قوله تعالى: ﴿يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البقرة: ٢٣٤]، أي: عشرة أيام».

البيان والبلاغة: افتتح عمر رضي الله عنه خطابه حاذفا بعض الكلام وموجزا، ولعل فجيعة الخبر الذي سمعه وبرأ منه جعله يختصر بعض الكلام ليصل إلى ما يريد فيقول: **(أفلا حبستموه ثلاثا؟!)** دلَّنا على هذا الحذف سياق الكلام، و**(الفاء)** الفصيحة؛ حيث أصل الجملة (فألا)، وتقدير هذا الحذف: إذا ارتد أفلا حبستموه؟! والاستفهام هنا ليس على حقيقته؛ فعمر رضي الله عنه لا يسأل ليعلم، وفي هذا الاستفهام ما فيه من التعجب والإنكار والإرشاد والتوجيه وتعظيم ما فعلوا، كما لا يخفى. وجملة **(حبستموه)** جملة كاملة فيها فعل وفاعل ومفعول وحرف زائد، وهو (الواو) الذي جيء به للإشباع وليسهل النطق بالعبارة لما عسرت بتوالي الحركات. ومثله يقال في قوله: **(أطعمتموه)**، وقوله: **(استتبتموه)**. وقوله: **(ثلاثا)** فيه إيجاز بالحذف، وهنا نسأل هل المحذوف تقديره: ليال، أم أيام؟ إذ لا يمكن الاعتماد في معرفة المعدود المحذوف على تذكير العدد؛ لأنَّ كون المعدود غير مذكور يجوز تذكير العدد وتأنيثه حتى ولو كان المعدود مذكرا، كما سبق بيانه. وجملة **(وأطعمتموه كل يوم رغيفا)** معطوفة على التي قبلها، والوصل بينهما يقتضيه سياق الكلام من أجل تمام المعنى،

وكون هذه الأعمال بعضها يرتبط ببعض، ومثله يقال في الجملة التي تليها، وهي (**استتبتموه**). وقوله: (**كل يوم**) يعم الأيام كلها؛ حيث (**كل**) من ألفاظ العموم بل هو أقواها. وقوله: (**استتبتموه**)، أي: طلبتم منه أن يتوب إلى الله - تعالى -. ونرى أن جملة (**أطعمتموه كل يوم رغيفا**) توسطت جملتين تدلان على أمرين عظيمين في التعامل مع المرتد وهما: الحبس والاستتابة، وأما إطعامه الرغيف والرفق به فهذا خارج عن أصل المسألة. وجاء رفق عمر ﷺ به ولين جانبه رجاء أن يتوب هذا السجين إلى ربه ويعود إلى دينه، ودلنا على رجائه هذا (**لعل**) التي تفيد الترجي. وجملة (**يراجع أمر الله**) من عطف الخاص على العام؛ فالتوبة إلى الله والدخول في دينه أعم من مراجعة أمور الله وأمور الإسلام من صلاة وصيام وغير ذلك، إلا أن يكون عنى بقوله: (**يراجع أمر الله**): أن يعود إلى الإسلام بعد ردَّته. وفي الجملة إيجاز بالحذف تقديره: يتوب إلى الله ويراجع أمر الله. ويستأنف عمر ﷺ جملة جديدة يبدأها بالدعاء مناديا ربه بقوله: (**اللهم**)، وقد رجا عمر ﷺ إلى ربه لما رأى ما وقع فيه الناس من الخطأ، فخشي أن يدركه شيء من ذلك كونه راع ومسئول عن رعيته، وخشي أن يصيبه من ظلم هذا الرجل شيء = فراح يبرئ نفسه أمام ربه فناداه وناجاه قائلا: (**اللهم**)، وهي بمعنى (يا الله)، وقد سبق الحديث عنها كثيرا. واكتفى بعرض حاله على ربه دون أن يطلب منه شيئا؛ لعلم الله بما يريده من طلب براءته، وقد أكد على الحال التي هو فيها بـ(**إنَّ**)، وجاء هذا التأكيد لضرورة الموقف. وترتيبه لقوله: (**اللهم إني لم أحضر، ولم آمر، ولم أرض إذ بلغني**) ترتيب صحيح؛ حيث تدلى به من العالي إلى الداني، فأشد الأمر أن يكون حضر ظلم الرجل، ولو حضر لكان أمَرَ؛ كونه الأمير، ولو أمر لكان رضي؛ لأنه لا يجبر على فعل شيء لا يريده؛ وذلك كونه أميرا أيضا، وهذه المراتب الثلاث هي مراتب النهي عن المنكر

الواردة في قوله ﷺ: «**مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ**»؛ قوله: (**لم أحضر**) عذر عن التغيير باليد، وقوله: (**لم آمر**) عذر عن التغيير باللسان، وقوله: (**لم أرضَ**) يقابل قوله: (**فبقلبه**).

[٣٤٦]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«مَنِ اسْتَعْمَلَ رَجُلًا لِمَوَدَّةٍ أَوْ لِقَرَابَةٍ، لَا يَسْتَعْمِلُهُ إِلَّا لِذَلِكَ؛ فَقَدْ خَانَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالْمُؤْمِنِينَ»[1].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يظهر من سياق الكلام أنَّ عمر رضي الله عنه وجَّه هذا الكلام لعُمَّاله تحذيرًا لهم من استعمال غير الأكْفاء، وهذا معروف في سيرته رضي الله عنه.

لطائف لغوية: كلمتا **(مودَّة)** و**(قرابة)** يحتملان أن يكونا مصدرين، إلا أنَّهما في هذا السياق اسمان محضان؛ لذا دخلت لام التعليل على **(مودَّة)**، ولو كانتا مصدرين لجاز انتصابهما على المفعول لأجله، إذ هما في المعنى علَّة للفعل **(استعمل)**، واللام الداخلة على **(قرابة)** يجوز حذفها؛ للاستغناء عنها بالعطف على اللام الأولى، وثبوتها للتوكيد. وهذه (اللام) قد سبق الحديث عنها في النَّص رقم ستين ومئة. وقوله: **(قد خان)** سبق الحديث عن معنى **(قد)** مع االفعل المضارع والماضي في النَّص رقم خمسة وثمانين ومئة.

البيان والبلاغة: افتتح عمر رضي الله عنه خطابه بجملة شرطية يلزم من وجود آخرها وجود أولها، وذلك قوله: **(من استعمل رجلا لمودة أو لقرابة، لا يستعمله إلا لذلك، فقد خان الله ورسوله والمؤمنين)**؛ حيث يلزم من استعمال الولاة لعمالهم لكونهم من أقربائهم وأهل مودتهم = خيانةٌ لله ورسوله والمؤمنين. وكلمة **(رجلا)**

١- رواهُ ابنُ كثيرٍ في «مُسنَدِ الفاروقِ» ٢/ ٥٣٦ - ٥٣٧.

نكرة خصصها قوله: (**لمودة أو لقرابة**)، ليكون المعنى: رجلا ذا ود، أو رجلا قريبا. وقوله: (**استعمل**)، أي: اتخذه عاملا. و(**اللام**) في قوله (**لمودة**) هي التي بمعنى (لام كي) في الأفعال، والتي تعني (لأجْل)، ومثله يقال في قوله: (**لقرابة**). وجاءت الكلمتان (**مودة**) و(**قرابة**) نكرتين فأفادتا العموم؛ فلم يبين لنا أي نوع من المودة أو القرابة. والجملة التي بعدها (**لا يستعمله إلا لذلك**) جاءت لتؤكد المعنى السابق وتحصره؛ حيث الاستثناء بـ (**إلا**) بعد النفي بـ (**لا**) يفيد الحصر؛ حيث حصر الاستعمال بالمودة والقرابة، وجاءت بين فعل الشَّرط وجوابه؛ للاحتراس؛ فقد يكون ذو المودَّة أو القرابة كفئًا فلا يدخل في التحذير، وإنَّما المنع من استعمال ذي المودَّة أو القرابة لمجرَّد مودَّته أو قرابته. و(**اللام**) التي في قوله: (**لذلك**) مثل (اللام) التي في قوله: (**لمودة**) و(**لقرابة**)، وقد سبق القول فيها قبل قليل. ثم جاءت جملة جواب الشرط مقرونة بـ (**الفاء**) لوقوع (**قد**) في أول جواب الشرط، و(**قد**) تفيد التحقيق والتوكيد؛ لتؤكد جملة (**خان الله ورسوله والمؤمنين**). والترتيب في الجملة صحيح، تدلى به من الأعلى إلى الذي هو أدنى؛ فـ (**الله**) أعلى من (**رسوله**)، الذي هو أعلى من (**المؤمنين**).

[٣٤٧]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

إِذَا بَعَثَ الْجُيُوشَ، وَعَقَدَ لَهُمُ الْأَلْوِيَةَ أَنْ يُوصِيَهُمْ بِتَقْوَى اللهِ الْعَظِيمِ، وَيَقُولَ:

«بِاسْمِ اللهِ، وَعَلَى عَوْنِ اللهِ، وَامْضُوا بِتَأْيِيدِ اللهِ، بِالنَّصرِ، وَبِلُزُومِ الْحَقِّ، وَالصَّبْرِ، فَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ مَنْ كَفَرَ بِاللهِ، وَلَا تَعْتَدُوا؛ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ. لَا تَجْبُنُوا عِنْدَ اللِّقَاءِ، وَلَا تُمَثِّلُوا عِنْدَ الْقُدْرَةِ، وَلَا تُسْرِفُوا عِنْدَ الظُّهُورِ، وَلَا تَقْتُلُوا هَرِمًا، وَلَا امْرَأَةً، وَلَا وَلِيدًا، وَتَوَقَّوا قَتْلَهُمْ إِذَا الْتَقَى الزَّحْفَانِ، وَعِنْدَ حُمَّةِ النَّهَضَاتِ[1]، وَفِي شَنِّ الْغَارَاتِ. وَلَا تَغُلُّوا[2] عِنْدَ الْغَنَائِمِ، وَنَزِّهُوا الْجِهَادَ عَنْ عَرَضِ الدُّنْيَا، وَأَبْشِرُوا بِالرَّبَاحِ فِي الْبَيْعِ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ، وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ»[3].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: قوله: **(التقى الزحفان)**: يعني الجيشان، واحده زحف وهو الجيش. قال الزمخشري في أساس البلاغة: «وزحَفَ العسكر إلى العدو: مشوا إليهم في ثقل لكثرتهم، ولقوهم زحفاً». وقوله: **(النهضات)**: جمع نهضة. قال في اللسان: «وتناهض القوم في الحرب، إذا نهض كل فريق إلى صاحبه». وأما **(حمة النهضات)**: فقد قال الخطابي في غريب الحديث: «وحمة النهضات: شدتها ومعظمها، وحمة كل

١- حُمَّة النَّهَضَاتِ: أي شِدَّتها ومُعظَمها. وحُمَّةُ كلِّ شيءٍ: مُعظَمُه. «لسان العرب» ١٢/ ١٥٣.
٢- الغُلُولُ: الخيانةُ في المغنم، والسَّرَقُ مِن الغنيمةِ. «لسان العرب» ١١/ ٥٠٠.
٣- رواهُ ابنُ قتيبةَ في «عيونِ الأخبارِ» ١/ ١٨٥-١٨٦ [طبعة أخرى ١/ ١٠٧-١٠٨].

شيء: معظمه، يقال: حمة الحر، ويقال: حم له قضاء الله، بمعنى: قدر له، وحم الأمر: قدره، قال الشاعر:

وصاحب ليل كنت حم مبيته وقد حان من نجم العشاء خفوق

وقوله (**شن الغارات**): قال ابن فارس في مقاييس اللغة: «وأما إشنان الغارة: فإنما هو مشتق من الشنين، وهو قطران الماء من الشنة، كأنهم تفرقوا عليهم فأتوهم من كل وجه، ويقال: شننت الماء، إذا صببته متفرقا. وهو خلاف سننت».

وقوله: (**ولا تغلُّوا**): الغلول هو السرقة من الغنائم، قال ابن سلام في غريب الحديث: «وأما الغلول: فإنه من المغنم خاصة»، وقال ابن قتيبة في غريب الحديث: «والغلول في المغنم أصله أن الرجل كان إذا اختار من المغنم شيئا غلَّه، أي: أدخله في أضعاف متاعه وستره؛ فسمي الخائن غالا، يقال: غللت الشيء فانغل؛ أي أدخلته». وقوله: (**رباح**): بمعنى الربح، قال في الصحاح: «ربح في تجارته، أي: استشف. والرِبح والرَبَح مثال: شِبه وشَبَه: اسم ما ربحه. وكذلك الرَباح بالفتح. وتجارة رابحة: يربح فيها. وأربحته على سلعته، أي: أعطيته ربحا. وبعت الشئ مرابحة».

مقتضى الحال: الحال أن هذا النَّص كان يقوله عمر ﷺ كلما سير جيشا؛ يوصيهم بما فيه من الوعظ، وقد ورد في رواية عيون الأخبار لابن قتيبة بيان هذا السبب قال: «عن حيوة بن شريح قال: كان عمر بن الخطاب ﷺ إذا بعث أمراء الجيوش أوصاهم بتقوى الله العظيم، ثم قال عند عقد الألوية: ...» هذا النص.

لطائف لغوية: كثر في النَّص إيراد حرف (**الباء**)، ولحرف الباء معان كثيرة

ذكرها ابن حيان في تفسيره للآية الأولى في الفاتحة، وهي قوله تعالى: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: ١]، ننقلها هنا للفائدة، قال في البحر المحيط: «باء الجر تأتي لمعان: للإلصاق، والاستعانة، والقسم، والسبب، والحال، والظرفية، والنقل. فالإلصاق حقيقة: مسحت برأسي، ومجازا: مررت بزيد. والاستعانة: ذبحت بالسكين. والسبب: ﴿فَبِظُلۡمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا﴾ [النساء: ١٦٠]. والقسم: بالله لقد قام. والحال: جاء زيد بثيابه. والظرفية: زيد بالبصرة. والنقل: قمت بزيد. وتأتي زائدة للتوكيد: شربن بماء البحر. والبدل: فليت لي بهم قوما، أي: بدلهم. والمقابلة: اشتريت الفرس بألف. والمجاوزة: ﴿تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلۡغَمَٰمِ﴾ [الفرقان: ٢٥]، أي: عن الغمام. والاستعلاء: ﴿مَنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِقِنطَارٍ﴾ [آل عمران: ٧٥]. وكنَّى بعضهم عن الحال بالمصاحبة، وزاد فيها كونها للتعليل. وكنى عن الاستعانة بالسبب، وعن الحال، بمعنى: مع، بموافقة معنى اللام». ولم يبين ابن حيان نوع الباء في هذه الآية، ولم يختر لنا معنى منها، ولكن الآلوسي اختار في روح المعاني، فقال: «فالباء: إما للاستعانة أو المصاحبة أو الإلصاق أو الاستعلاء أو زائدة أو قسَمِيَّة، والأربعة الأخيرة ليست بشيء، وإن استؤنس لبعض ببعض الآيات. واختلف في الأرجح من الأوَّلَين؛ فالذي يشعر به كلام البيضاوي أرجحية الأول، وأُيِّدَ بأنَّ جعْلَه للاستعانة يُشعِر بأنَّ له زيادةَ مدخل في الفعل، حتى كأنه لا يتأتى ولا يوجد بدون اسم الله تعالى، ولا يخلو عن لطف. وما يدل عليه كلام الزمخشري = أرجحيةُ الثاني، وأُيِّدَ بأنَّ باء المصاحبة أكثر في الاستعمال من باء الاستعانة، لاسيَّما في المعاني وما يجري مجراها من الأفعال، وبأن التبرك باسم الله تعالى تأدب معه وتعظيم له بخلاف جعله للآلة؛ فإنها مبتذلة غير مقصودة بذاتها، وأن ابتداء المشركين بأسماء آلهتهم كان على وجه التبرك فينبغي أن يرد عليهم في ذلك، وأن الباء إذا حُمِلَت على

المصاحبة كانت أَدَلَّ على ملابسة جميع أجزاء الفعل لاسم الله تعالى منها إذا جُعِلَت داخلة على الآلة». وقوله ﷺ: **(وذلك هو الفوز العظيم)**: ورد الفوز في القرآن موصوفا بثلاث صفات: ﴿ٱلْعَظِيمُ﴾، و﴿ٱلْكَبِيرُ﴾، و﴿ٱلْمُبِينُ﴾، وهذه الحالات الثلاث قال فيها الدكتور فاضل السامرائي - في برنامج لمسات بيانية، مع تصرف يسير -: «الله يذكر في كتابه العزيز ثلاثة أنواع من الفوز: ﴿ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾، و﴿ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ﴾، و﴿ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ﴾؛ أعلاها فضلا: ﴿ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾، وأقل منه ﴿ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ﴾، وأقل منهما ﴿ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ﴾. ولذلك لو لاحظنا الاستعمال في القرآن الكريم لَمَّا ذكر ﴿ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ﴾ ذكره في موضعين: في صرف العذاب، والإدخال في رحمته - سبحانه وتعالى -، من غير ذكر لدخول الجنة في الحالين، وذلك في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الأنعام: ١٥ - ١٦]، فذكر صرف العذاب ولم يذكر دخول الجنة، وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الجاثية: ٣٠]، فذكر الإدخال في الرحمة ولم يذكر الجنة. وأمَّا ﴿ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ﴾ فورد في موطن واحد في سورة البروج، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ﴾ [البروج: ١١]، فذكر دخول الجنة من غير ذكر الخلود أو ألوان وأنواع النعيم فيها. أما الوصف بالعظيم فيزيد على ذلك في الجزاء إما بذكر الخلود أو ذكر المساكن الطيبة وما إلى ذلك، ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [المائدة: ١١٩]».

البيان والبلاغة: افتتح عمر ﷺ خطابه بقوله (**باسم الله**)، وقد سبق من كلام الآلوسي ما يكفي لبيان الخلاف في معنى (**الباء**) هنا؛ فإذا كانت (**الباء**) للاستعانة فما أشرفه من معنى يبتدئ به أمير المؤمنين، فالاستعانة باسم الله طرحٌ لكل ما سواه - سبحانه وتعالى - وطلب العون منه وحده، وقد يُرَجِّحُ هذا المعنى ما تلاه من قوله: (**وعلى عون الله**)، فتكون هذه الجملة من عطف الشيء على معناه، وقد يقول قائل: إن (**الواو**) تفيد المغايرة، فلابد أن يكون معنى (**الباء**) ليس للاستعانة. وإن قلنا: للمصاحبة، فيكون المعنى كأنه يقول لهم: سيروا، والله صاحبكم في السفر إلى موطن القتال وفي الحرب والنَّصر. وهذا يذكرنا بما نقوله في دعاء السفر: «**اللَّهُمَّ أَنْتَ الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ**»، فكأن عمر ﷺ يقول: اللهم اصحبهم في غزوهم هذا. ومن كان الله صاحبه فمن خصيمه؟! وعلى المعنيين، ففي هذه الجملة إيجاز بالحذف تقديره: باسم الله سيروا. وحذفه للفعل من باب الاكتفاء باسم الله - تعالى - وطلب الاختصار في اللفظ. ولما سيَّرهم باسم الله سارع لطلب العون منه قائلاً: (**وعلى عون الله**)، وحرف الجر (**على**) حرف يفيد الاستعلاء، فكأن العون من الله بساط والجيوش الفاتحة تسير فوقه مستعينة به. وفي الجملة إيجاز بالحذف يقدر بقولنا: سيروا على عون الله. وبعد أن استعان بالله وأمرهم به، قال لهم: (**وامضوا بتأييد الله**)، فكأنَّ الْمُضِي سبقه شرطان لا يتم إلا بهما؛ وهما: الاستعانة بسم الله، وطلب العون منه. و(**الباء**) في قوله (**بتأييد**) للاستعانه - أيضا -، أي: فاستعينوا بتأييد الله. وهذا النَّص مليء بالاستعانة بالله إما لفظا صريحا أو معنى يفهم من النَّص. ثم راح يبين هذا التأييد فجعل تأييد الله لهم (**بالنَّصر، وبلزوم الحق، والصبر**). وتقديمه النَّصر على غيره لأنه الطلب الأسمى، لاسيما في هذا الموقف. وفي كلمتي (**النَّصر**) و(**الصبر**) جناس ناقص. وقوله: (**لزوم الحق**) يشمل لزومه مع العدو فلا

يعتدي الجيش على حرمات الله، وهذا من قوله: (**فلا تعتدوا؛ إن الله لا يحب المعتدين**). ولَمَّا كان لزوم الحق صعبا لاسيما في الحروب كان أحوج ما يكون إلى الصبر فنبه عليه عمر ﷺ وطلب الاستعانة به بقوله: (**والصبر**)؛ فيكون الترتيب صحيحا تدلَّى به من الأعلى - وهو النَّصر - إلى الأدنى - وهو الصبر -. وهنا يتحوَّل الحديث من نصيحةٍ للجندِ بتصحيح النيات وصدق التوكل والاستعانة بالله - تعالى - قبل المعركة إلى نصيحة للجند عما ينبغي أن يفعلوه خلال المعارك وبعدها، فابتدأ قائلاً: (**فقاتلوا في سبيل الله من كفر بالله**)، وفي هذه الجملة حذف دلت عليه (**الفاء**) الفصيحة، يمكن تقديره بقولنا: فإن سرتم بعون الله وتأييده فقاتلوا. وأول نصيحة وجهها للجيش - وقد بلغوا موطن القتال - أن يقاتلوا في سبيل الله، وقوله: (**في سبيل الله**) إطناب يراد منه الاحتراز؛ خشية أن يكون في سبيل غير الله، ومثله يقال في قوله: (**من كفر بالله**)، فهذان قيدان لمن أراد أن يقاتل؛ حيث لا يكون القتال إلا في سبيل الله ولمن كفر بالله. ومفهوم المخالفة من كلامه: لا تقاتلوا في سبيل الدنيا ولا لعرض من أعراضها ولا تقاتلوا إخوانكم المسلمين. ثم لما بين أسس القتال وأهم ما فيه - وهما ما ذكرنا من كونه في سبيل الله وكونه لمن كفر بالله - راح يبين لنا آداب القتال. وأول أدب يحدثنا عنه في قوله: (**ولا تعتدوا**)؛ وكونهم يقاتلون في سبيل الله فلابد أن يقاتلوا في سبيله كما يحب، و﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾. وهذه العبارة مقتبسة من القرآن الكريم، فهي جزء من الآية تسعين ومئة من سورة البقرة والآية رقم سبعة وثمانين من سورة المائدة. وفي كلمتي (**تعتدوا**) و(**المعتدين**) ما يسمى باشتقاق اللفظ من اللفظ. والأدب الثاني من آداب القتال جاء في قوله: (**ولا تجبُنوا**)، وهذا الأدب يختلف عن سابقه وعن لاحقه؛ فالسابق واللاحق يتحدثان عن الاعتداء في المعركة، والجبن ليس من

الاعتداء على أحد، بل هو نقص من النقائص؛ حيث يؤدي إلى الفرار وعدم الدخول في العراك، وأما الاعتداء فلا يكون إلا بعد دخول العراك، بل والنَّصر به. ولعلَّه ذكَّر به تحوطاً من وقوعه، وإلا فالذي يظهر من وصاياه أنه قد توقع النَّصر والغلبة، دلَّ على ذلك ما سيأتي من كلامه في الوصية بعدم المبالغة في الأذية، ولا تكون المبالغة إلا من قوي منتصر. والغالب المنتصر في المعارك يكون قويًّا ظاهرًا على عدوِّه؛ فربَّما حصل بذلك التمثيل والإسراف. ثم أوصى بآداب خارجة عن ساحة المعركة، أو هي داخل المعركة مع من لا يقاتل ولا يحمل سيفا، وهم الضعفاء من الناس: الهَرِم الطاعن في السن، والمرأة، والوليد، فقال: (**ولا تقتلوا هَرِما، ولا امرأة، ولا وليدا**)، والجامع بين هؤلاء = ضعفُهم وكونهم لا يحملون السلاح ولا يقاتلون ولا يقوون على ذلك. والترتيب بينهم صحيح؛ حيث بدأ بالهَرِم وهو الأكبر سنا ورأيا، ثم المرأة، ثم الوليد الذي هو أقل قوة ورأيا، فالقتال منه أبعد. وكرر (**لا**) في قوله: (**ولا امرأة ولا وليدا**)، وكان قادرا أن يقول: (لا تقتلوا هرما وامرأة ووليدا)، وهذا التكرار للتأكيد على من تكررت الأداة معه. وكما أن في هذا النَّص تكرارًا، ففيه إيجاز، وذلك كونه لم يقل: (**ولا تقتلوا هرما ولا تقتلوا امرأة ولا تقتلوا وليدا**). والكلمات الثلاث جاءت نكرات في سياق النفي فأفادت العموم؛ حيث لم يستثن النَّص أحدا من هؤلاء، بل لم يستثن حالا من الأحوال يكونون عليه، فذكر كل الحالات التي يمكن أن يلتقي الجيش بها مع هؤلاء القوم، وهي في قوله: (**وتوقوا قتلهم إذا التقى الزحفان، وعند حمة النهضات، وفي شن الغارات**)، وهذا من معرفته - رضوان الله عليه - للحرب وأحوالها، وحسن أدبه وسياسته التي تعجز الأمم عن بلوغ مثلها. ثم جاء بالدليل على عجز الهرم والمرأة والوليد عن القتال = في قوله: (**اتقوا قتلهم**)، ولم يقل (قتالهم) من الفعل (قاتل) الذي يدل على المفاعلة؛

حيث القتال يكون بين طرفين، والقتل من طرف واحد وهو القاتل، وهذا دليل - أيضا - على عجزهم عن حمل السلاح وخوض المعركة. وقوله: (**اتقوا قتلهم**) معرضا عن قول (لا تقتلوهم)؛ لأنَّ اتقاء القتل فيه معنى النهي وزيادة، وذلك بجعل وقاء بينهم وبين القتل؛ فهم ليس فقط لن يقتلوا، بل وسيجعلون بينهم وبين القتل حاجزا ووقاء. و(**إذا**) - هنا - هي الظرفية، تبين زمان اتقاء ذلك، وهو عند التقاء الجيشين. وتوالي القافات في جملة (**وتوقوا قتلهم إذا التقى الزحفان**) أعطت الكلام نغما جميلا. والموقف الثاني، الذي يتقون فيه قتلهم: هو عند (**حمة النهضات**)، أي: عند شدة الحرب وقوتها، والثالث: عند شن الغارات، وهو تفريقها وجعلها في جهات عدة، ولا تكاد الحرب تخرج عن هذه الأحوال الثلاثة، فيكون المعنى: لا تقتلوهم في جميع حالات الحرب، وإن كان للحرب حالات غيرها، فإنما جاء بالثلاثة كمثال على غيرها. وذكرُ هذه الثلاثة دون غيرها فيه تنويه على كثرة استعمالها، وشدتها. وفي النَّص إيجاز؛ حيث لم يقل: (وتوقوا قتلهم إذا التقى الزحفان، وتوقوا قتلهم عند حمة النهضات، وتوقوا قتلهم في شن الغارات). وإن أكثر معاصي الحروب هي الإسراف في القتل والاعتداء على من لا يستحق القتل، هذا عند قيام الحرب، أما عند انقضائها فتكون المعصية بالغلول؛ وهو: السرقة من الغنائم قبل قسمتها؛ فحذَّر من ذلك قائلا: (**ولا تغُلُّوا عند الغنائم**). وقوله (**عند الغنائم**) إطناب؛ حيث الغلول لا يكون إلا في الغنائم - كما سبق من كلام ابن سلَّام -، ولو قال (**لا تغلّوا**) لكفى. والسامع يدرك أن النهي عن الغلول يكون عند الغنائم، لكن عمرَ رضي الله عنه أورد عبارة (**عند الغنائم**)؛ تنويها على العظمة التي من أجلها حُرِّم الغلول فجُعِل من الكبائر؛ وذلك لأن الغنائم من مال عامة الناس لا خاصتهم، ولكون مقام المجاهدِ مقام إخلاص وتضحية بالنفسِ وذَودٍ عن دين الله - تعالى -،

والغلول منافٍ لذلك كلِّه، دالٌّ على ضعف ودناءةِ نفسِ الغالِّ، فجاء التعظيم بحرمته مناسبا للحال. وتوالي حرفي (**الغين**) في كلمتين متتاليتين أعطى نغما جميلا.

وقوله: (**ونزهوا الجهاد عن عرض الدنيا**): قوله: (**عرض الدنيا**) يشمل العرض المباح والعرض الحرام؛ فإن كان العرض الحرام فيكون معناه الغلول، وعبَّر عنه بقوله: (**عرض الدنيا**)؛ ليبين أنَّ الغلول نقيصة في الجهاد الذي هو من عمل الآخرة. وإن كان عرضا حلالا = أنقص أجر جهاده من غير حرمةٍ ولا إثم. ومثل هذا المعنى سبق شبيهه في أول النَّص عند قوله: (**وامضوا بتأييد الله، بالنَّصر، وبلزوم الحق**)، ومن لزوم الحق تصحيح النية - كما ذكرنا -، فمن صحح نيته تنزه عن عرض الدنيا فنزه جهاده. ولما فرغ عمر ﷺ من كلامه للجيش؛ حيث بين لهم كيف يكون الجهاد الصحيح من أوله إلى آخره = شرع يبشرهم بقوله: (**وأبشروا بالرباح في البيع الذي بايعتم به**)، ولابد أن هذه البشارة مشروطة بكل ما سبق ذكره من الاستعانة بالله وطلب النَّصر منه والاستعانة بالصبر وعدم الإسراف في المعارك لا بقتل ولا غلول، فمن سلم له ذلك وأدَّاه كما طلبه منه الأمير راح بالرباح. وجملة (**في البيع الذي بايعتم به**): تشبيه تمثيلي؛ حيث شبه الذي يقدم نفسه لله - تعالى - ويأخذ عوض ذلك الجنة، بالرجل يتاجر بالدراهم والعرض من عروض الدنيا، فيربح ويصيب من تلك التجارة ربحا عظيما. وقد سبق لنا الحديث عن التشبيه التمثيلي وما فيه من جمال وروعة؛ حيث يجعلك تشاهد قصة تجري أمامك، لها شخوص وحدث وحبكة وزمان ومكان؛ فالشخوص هم الشهداء يتاجرون مع الله تعالى، والحدث بيع وشراء وصفقات وربح وشهادة وجهاد. وأمَّا والزمان والمكان: فالفصل الأول في الدنيا، والثاني في الآخرة في جنة عرضها السموات والأرض، والحبكة موت البطل في معمعات الوغى، وتنحل الحبكة في نهاية القصة ببشارة

البطل بدخول الجنة، فيفوز فوزا عظيما، وهذا ما ختم به عمر ﷺ خطابه، الربحُ والفوز؛ حيث يقول: (**وَذَلِكَ هُوَ الفَوْزُ العَظِيْمُ**)، وهذا اقتباس من القرآن الكريم؛ فهذه الجملة آية من القرآن، وقد تكررت في أكثر من سورة. وقوله: (**ذلك**): اسم إشارة للبعيد يشير به إلى الرِّبح والفوز العظيم الذي يفوز به المجاهد في سبيل الله - تعالى -، والبُعدُ هنا بعدُ مكانة ومنزلة. ثم وصف الفوز بالعظمة، وسبق في اللطائف أن تكلمنا عن أوصاف الفوز في القرآن الكريم، ودلالات كلٍّ منها.

[٣٤٨]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

لِابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - حِينَ طُعِنَ

«كُلُّ أَسِيرٍ كَانَ فِي أَيْدِي الْمُشْرِكِينَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فَفَكَاكُهُ مِنْ بَيْتِ مَالِ الْمُسْلِمِينَ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: الحال أن عمر رضي الله عنه قال هذا النَّص حين طُعِن في المحراب في صلاة الفجر قبل موته.

لطائف لغوية: قوله: (**كل أسير**): الصحيح أنَّ (**كل**) من ألفاظ العموم، خلافا لمن أنكر ذلك. ونقتطف - هنا - شيئا من كلام الرازي الطويل في هذه المسألة، فقد قال في المحصول: «صيغة الكل والجميع تفيدان الاستغراق، ويدل عليه وجوه: الأول: أنَّ قوله: جاءني كل فقيه في البلد، يناقضه قوله: ما جاءني كل فقيه في البلد؛ ولذلك يستعمل كل واحد منهما في تكذيب الآخر، والتناقض لا يتحقق إلا إذا أفاد الكل الاستغراق؛ لأن النفي عن البعض لا يناقض الثبوت في البعض. الثاني: أن صيغة الكل مقابلة في اللفظ لصيغة البعض، ولولا أن صيغة الكل غير محتملة للبعض، وإلا لما كانت مقابلة لها ...».

١- رواهُ ابنُ أبي شيبةَ في «المُصنَّفِ» (٣٣٩٣٧).

البيان والبلاغة: افتتح عمر ﷺ خطابه بقوله: (**كل أسير كان في أيدي المشركين من المسلمين**)؛ حيث (**كل**) من ألفاظ العموم، بل هي أقواها؛ لتعم جميع الأسرى، فلم يخص أحدا دون أحد، وهذا من عدله الذي اتصف به - رضوان الله عليه -. والظاهر أنَّ (**كان**) زائدة تفيد التوكيد. وقوله: (**في أيدي المشركين**): (**في**) تفيد الظرفية؛ ذلك أن المشركين محيطون به، وهذا يناسب حال الأسير؛ لضعفه وقلة حيلته وهوانه على من هو في أيديهم. وقوله: (**أيدي**): كناية عن صفة، بمعنى الملك، يعني: بملك وحوزة المشركين. و(**مِن**) في قوله: (**مِن المسلمين**) للبيان، فالذين يفكهم الأمير هم من المسلمين لا من غيرهم، وهذا تخصيص للعموم الذي أفادته (**كل**) كما سبق قبل قليل، فلا يتوهم أحد أنه يفك غير المسلمين. وفي كلمة (**المشركين**) وكلمة (**المسلمين**) طباق. وقوله: (**ففكاكه من بيت مال المسلمين**): في هذه الجملة حذف دلت عليه (**الفاء**) الفصيحة، وهي تعطف على محذوف يمكن تقديره بقولنا: إن سألت عن فكاكه، ففكاكه من بيت مال المسلمين. وكان قادرا أن يقول: (ففكاكه علينا)، أي: على الدولة، ولكنه آثر ذكر بيت مال المسلمين؛ لأن فيه تذكيرا بحقوقهم عليه، وفيه تحفيز لهم بأن يطالبوا بما لهم عند عمر ﷺ، وهذا من تواضعه ونزاهته وحسن رعايته للمال.

[٣٤٩]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ لِشُرَيْحٍ الْقَاضِي(١)

«أَنِ اقْضِ بِمَا اسْتَبَانَ لَكَ مِنْ كِتَابِ الله، فَإِنْ لَمْ تَعْلَمْ كُلَّ كِتَابِ الله؛ فَاقْضِ بِمَا اسْتَبَانَ لَكَ مِنْ قَضَاءِ رَسُولِ الله ﷺ، فَإِنْ لَمْ تَعْلَمْ كُلَّ قَضِيَّةِ رَسُولِ الله؛ فَاقْضِ بِمَا اسْتَبَانَ لَكَ مِنْ أَئِمَّةِ الْمُهْتَدِينَ، فَإِنْ لَمْ تَعْلَمْ كُلَّ مَا قَضَتْ بِهِ أَئِمَّةُ الْمُهْتَدِينَ؛ فَاجْتَهِدْ رَأْيَكَ، وَاسْتَشِرْ أَهْلَ الْعِلْمِ وَالصَّلَاحِ»(٢).

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: هذا النَّص كتاب كتبه عمر رضي الله عنه يعلِّم فيه القاضي شريحا كيف يقضي بين الناس، كما ورد في الروايات عن الشعبي.

لطائف لغوية: قوله: (**أن اقضِ**): (أنْ) هنا تسمى التفسيرية؛ وقد جاءت الرواية عن الشعبي قال: كتب عمر إلى شريح: (**أن اقضِ**). والقول بـ (أن) التفسيرية مذهب البصريين، وجعلها سيبويه بمعنى (أي). وقد رفض الكوفيون تسميتها بالتفسيرية ووافقهم ابن هشام، وعامة النحاة على ما قاله البصريون. قال السيوطي يبين حالها في همع الهوامع: «التفسير: أثبته البصريون، وأنكر الكوفيون كون ذلك

١- شُرَيْحُ القَاضِي أَبُو أُمَيَّةَ بنُ الحارثِ الكِنْدِيُّ، قاضي الكوفةِ. يُقالُ: لهُ صحبةٌ. ولم يَصِحَّ، بل هو ممَّن أسلمَ في حياةِ النَّبيِّ - صلَّى اللهُ عليهِ وآلِه وسلَّمَ -، وانتقلَ مِن اليمنِ زمنَ الصِّدِّيقِ. صحَّ أنَّ عمرَ ولَّاهُ قضاءَ الكوفةِ، فقيلَ: أقامَ على قضائِها سِتِّينَ سنةً. وقد قضى بالبصرةِ سنةً. وفَدَ زمنَ مُعاويةَ إلى دمشقَ. وكانَ يُقالُ له: قاضي المِصْرَينِ. «سير أعلام النُّبلاء» ٤/ ١٠٠.

٢- رواهُ الخطيبُ البغداديُّ في «الفقيهِ والمتفقِّهِ» ١/ ٤٩٠، وابنُ عساكرَ في «تاريخِ دمشقَ» ٢٣/ ١٩.

من معانيها، وهي عندهم الناصبة للفعل. قال أبو حيان: وليس ذلك بصحيح؛ لأنها غير مفتقرة إلى ما قبلها ولا يصح أن تكون المصدرية إلا بتأويلات بعيدة، والكلام على مذهب البصريين، فنقول: أجريت (أن) في التفسير مجرى (أي)، لكن تفارقها في أنها لا تدخل على مفرد، لا يقال: مررت برجل أن صالح، وكأنهم أبقوا عليها ما كان لها من الجملة، وهي في هذا غير مختصة بالفعل بل تكون مفسرة للجملة الاسمية والفعلية، نحو: كتبت إليه أن افعل، وأرسل إليه أن ما أنت وهذا؟ ومنه: ﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ﴾ [الأعراف: ٤٣]، ولـ (أن) التفسيرية شرطان: أحدهما: أن تكون مفسرة لما يتضمن القول أو يحتمله، لا لقول مصرح به أو محذوف أو فعل متأول بمعنى القول، فإن صرح بالقول خلصت الجملة للحكاية ... الثاني: ألا تتعلق بالأول لفظا، فلا تكون معمولة ولا مبنية على غيرها؛ ولذلك لم تكن تفسيرية في قوله تعالى: ﴿وَءَاخِرُ دَعۡوَىٰهُمۡ أَنِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ [يونس: ١٠]؛ لأنها واقعة خبرا للمبتدأ، ولا في قولهم: كتبت إليه بأن قم؛ لأنها معمولة لحرف الجر، فإن لم تأت بحرف الجر جاز فيها الوجهان».

البيان والبلاغة: افتتح عمر رضي الله عنه خطابه الذي يبين فيه لشريح بماذا يقضي، وكيف يقضي في خصومات الناس وشؤونهم، مبتدئًا النَّص بقوله: (**أن اقض بما استبان لك من كتاب الله**)، فهو يحثه أن يستعين بفهمه لكتاب الله عند قضائه؛ حيث (**الباء**) في قوله: (**بما استبان**) تفيد الاستعانة، ولم يقل: (**بكتاب الله**) تحرزا من أن ليس كل الناس يفهم كتاب الله حسب مراد الله، فقد وقع الناس في خلاف عند استنباط معناه، فوكل الأمر إلى فهمه من كتاب الله لا إلى كتاب الله؛ تحرزا من غلط قد ينسبه إلى الله وكتابه. وقوله: (**لك**) في قوله: (**بما استبان لك من كتاب الله**) جيء

بها؛ لترشد شريحا إلى الأخذ بما استبان له في فهم كتاب الله لا بما استبان لغيره، وهذا حث وتحريض من عمر ﵁ لشريح؛ ليجتهد في فهم كتاب الله. وفي النَّص حذف تقديره: اقض بين الناس. وقوله: (**فإن لم تعلم كل كتاب الله**): أراد بقوله: (**تعلم**): الفهم لتأويله، لا الحفظ، وإلا كيف يجعله قاضيا وقد فاته شيء من كتاب الله. وجملة (**فاقض بما استبان لك من قضاء رسول الله ﷺ**) يقال فيها ما قيل في الجملة التي سبقتها. ويرد في هذه الجملة إشكال؛ وهو: كيف نفصل بين كتاب الله وقضاء رسول الله؟ وهل يقال: إن قضاء رسول الله مختلف عن قضاء الله؟ هذا الفهم بعيد، وإنما مراد عمر ﵁ هنا أن ما كان في كتاب الله فوافقه شيء من قضاء رسول الله وسنته إنما هما شيء واحد، والنِّسبة فيه إلى الله من باب التشريف والإجلال لله وحده، فلا يفهم منه أن الأخذ من كتاب الله منفصل عن سنة نبيه، فيكون المعنى: ابحث به فإن لم تجد فامض إلى سنة رسول الله، فمراده ﵁ فيما انفرد به رسول الله ولم يكن له أصل في كتاب الله فيقضى فيه بما انفردت به سنة رسول الله ﷺ. وقوله: (**فإن لم تعلم كل قضية رسول الله فاقض بما استبان لك من أئمة المهتدين**): لا ريب أنَّ القاضي مهما بلغ علمه لابدَّ أنه يفوته شيء من سنة رسول الله ﷺ؛ لعسر الإلمام بها، لاسيَّما أنها لم يكتمل جمعها في ذلك الزمن. وقوله: (**الأئمة المهتدين**): قد يراد به خاصة الصحابة وعامتهم، أو يراد به إضافة إلى ذلك علماء المسلمين من غير أصحاب رسول الله ﷺ، وهذا العموم أولى؛ لجواز إطلاق ذلك اللفظ عليهم. وقوله: (**فاجتهد رأيك، واستشر أهل العلم والصلاح**): تفريقه بين أهل العلم وأهل الصلاح؛ كون ليس كل ذي عِلم صالحا، وليس كل صالح ذا علم. وفي الجملة إيجاز تقديره: أهل العلم وأهل الصلاح. وفي الجملة يرد إشكال على تعميمنا بأن أئمة المهتدين هم العلماء من غير الصحابة؛ حيث قوله: (**واستشر

أهل العلم والصلاح) يدل على أنه لم يقصد به الفضلاء من الطراز الأول، فأولئك عبر عنهم بقوله: (**أئمة المهتدين**)، وقد يقال: هم هم؛ وإنما ذلك على ما قضوا، وهذا على ما يقضون، كأنه يقول: انظر في قضاء الأئمة من أهل الصلاح فخذ بما قضوا به، فإن لم تعلم لهم قضاء فشاورهم؛ لتعلم قضاءهم. وهذا النَّص فيه كثير من الإطناب، وكان عمر ﵁ قادرا على أن يوجزه بنصف ما وقع له من الكلام كأن يقول: (أن اقض بما استبان لك من كتاب الله فإن لم تعلمه فبقضاء رسول الله ﷺ فإن لم تعلمه فبقضاء أئمة المهتدين، فإن لم تعلمه فاجتهد رأيك واستشر أهل العلم)، على ما جاء في جملنا هذه من الإطناب، وأكثر ما وقع الإطناب كان في الجمل التي تكرر اللفظ فيها كجملة (**اقض بما استبان لك**)، وجملة (**فإن لم تعلم**)، وتكرار المذكور آنفا دون رد الضمير إليه، وهذا النوع من الإطناب بالتكرار أريد منه التنويه على شرف المكرر وعلو شأنه والتلذذ بإعادة ذكره، والتنبيه عليه؛ ليعلمه المستمع ويتذكره ولا ينساه.

[٣٥٠]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«قَامَ فِينَا النَّبِيُّ ﷺ مَقَامًا، فَأَخْبَرَنَا عَنْ بَدْءِ الخَلْقِ، حَتَّى دَخَلَ أَهْلُ الجَنَّةِ مَنَازِلَهُمْ، وَأَهْلُ النَّارِ مَنَازِلَهُمْ، حَفِظَ ذَلِكَ مَنْ حَفِظَهُ، وَنَسِيَهُ مَنْ نَسِيَهُ»[1].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: ليس في النَّص ما يبين الحال ولا الزمان ولا المكان الذي قال فيه عمر رضي الله عنه هذا القول.

لطائف لغوية: قوله: **(مَقامًا)** بفتح الميم، يخلط الناس بينها وبين التي بضم الميم (مُقاما)؛ حيث كلتاهما إما مصدر ميمي، أو اسم مكان، غير أن التي بالفتح مصدر للفعل الثلاثي (قام)، قال في اللسان: «قام: يقوم قوما وقياما»، والمصدر الميمي منها (مَقاما) بالفتح، واسم المكان كذلك. والتي بالضم للرباعي (أقام) والمصدر (إقامة)، والميمي منها (مُقامًا)، وذلك قوله: ﴿حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان: ٧٦]؛ لأنها دار إقامة من الفعل (أقام). ولكن ما الفرق بين المصدر الميمي والمصدر الصريح؟ يرى كثيرون أنه لا فرق، وهو رأي أكثر المتقدمين، واكتفى بعضهم بذكر أنه أبلغ، وأكثر عمقا من المصدر الصريح دون زيادة أو توضيح. ورأى الدكتور فاضل السامرائي رأيا ربما هو السابق إليه، خالفه فيه كثير من المعاصرين، ونكتفي هنا بإيراد بعض مما قاله من كتابه معاني الأبنية العربية: «إن المصدر الميمي في الغالب يحمل معه عنصر (الذات) بخلاف المصدر غير الميمي؛ فإنه حدث مجرد من كل

١- رواه البخاريُّ في «صحيحِه» (٣١٩٢).

شيء، فقوله تعالى: ﴿إِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ [لقمان: ١٤] لا يطابق (وإليَّ الصيرورة)؛ فإن ﴿ٱلۡمَصِيرُ ﴾ يحمل معه عنصرا ماديا، وإن كلمة ﴿مُنقَلَبٍ ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَسَيَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾ [الشعراء: ٢٢٧] لا تطابق (انقلاب) في المعنى، فـ (الانقلاب) حدث مجرد و(المنقلب) يحمل ذاتاً، و﴿ٱلۡمَسَاقُ﴾ في قوله تعالى: ﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمَسَاقُ ﴾ [القيامة: ٣٠] يختلف عن قولنا: (إليه السوق) فإن ﴿ٱلۡمَسَاقُ﴾ يحمل معه ذاتا تساق بخلاف (السوق) الذي يدل على فعل السوق مجردا وكذلك الحياة والمحيا، والموت والممات، والنوم والمنام. فالمصدر غير الميمي حدث غير متلبس بشيء آخر، أما المصدر الميمي فإنه مصدر متلبس بذات في الغالب. هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية: إن المصدر الميمي في كثير من التعبيرات يحمل معنى لا يحمله المصدر غير الميمي. فإن ﴿ٱلۡمَصِيرُ ﴾ - مثلاً - يعني نهاية الأمر بخلاف الصيرورة. قال تعالى: ﴿إِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ [لقمان: ١٤]، وقال: ﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمۡ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾[إبراهيم: ٣٠]، أي: منتهى أمركم، وتقول: (مصير الخشب رماد)، أي: نهاية أمره، ولا تقول: (صيرورة الخشب رماد) للمعنى نفسه، وتقول: (صيرورة الذهب خاتما أمر سهل)، وتقول: (يعجبني صيرورتك رجلا)، ولا تقول: (مصيرك رجلا)؛ فالمصير معناه نهاية الأمر بخلاف الصيرورة».

البيان والبلاغة: افتتح عمر رضي الله عنه خطابه بحديثه عن قيام قامه رسول الله صلى الله عليه وسلم، جمع فيه عِلم الأوَّلِين والآخرين، فبدأ حديثه من حيث بدأ الكون، وأنهاه من حيث انتهى ثم بدأ ما بعده من عِلم الآخرة، وقام يصف لهم كل شيء فحفظ من حفظ ونسي من نسي، وعالِم القوم يومئذ أكثرهم حفظا، وأشدهم انتباها وحرصا. فيقول عمر رضي الله عنه: **(قام فينا النبي صلى الله عليه وسلم مقاما)**: قوله: **(فينا)** ظرفية مكانية، أي: كنا متوافرين

حوله سامعين ما يقول، ولو لم يقل: (فينا) لربما ظن الظان أن مَن حضره قلَّة من النَّاس، أو آحاد منهم، ولكن قوله: **(فينا)** تنويه منه على أن أكثرهم حضر، حتى أحاطوه بالأسماع والأبصار، وهذا تنويه منه لعظمة ذلك القيام في ذلك اليوم وعظمة ذلك الحديث. وقوله: **(مقاما)**: إطناب أريد به بيان حال القيام، ولم يقل: **(قياما)** ولو قال ذلك؛ لدل على نوع القيام الذي قامه، وهو القيام بعينه لا جلوسا ولا قعودا، ولكن ليس هذا ما أراده عمر ﷺ، وعليه لم يقل: (قياما)؛ حيث إن هذا المصدر يكتفي ببيان نوع القيام، وكون الرسول ﷺ قام فيهم قياما أو قعودا لا يؤثر كثيرا في المعنى إلا من باب بيان الهيئة التي كان عليها؛ ليعطينا الحدث كما وقع فينقله بصدق كأنك تراه، فيفيدنا أن الناقل صادق، وأن المنقول عنه مهتم بأمر الناس فقام؛ ليبين عظمة قوله. والقيام مستملح للخطيب، وهو من هيئات بل – عند البعض – من واجبات خطبة الجمعة؛ لما يتركه القيام من أثر في نفس السامع وبصره وسمعه. وكل هذه الفوائد من القيام تكون لو قال: (قام قياما) أمَّا (قام مقاما) فالفائدة أعظم، وهي تشمل الذي قلناه وزيادة؛ فقوله: **(مَقاما)** تحتمل أن تكون مصدرا ميميا، وتحتمل أن تكون اسم مكان، فأما كونها مصدرا ميميا فالمصدر الميمي أبلغ من الصريح من جهة زيادة المبنى، ونعلم أن زيادة المبنى تزيد في المعنى، فيقال فيه ما سبق وقلناه فيما لو قال: (قياما) وزيادة؛ حيث الميمي أبلغ من الصريح ويجعلك بعد سماعه تدرك أنَّ في الجملة حذفًا تقديره: قام فينا مقاما عظيما؛ فيتبين بذلك علة أنه عدم قوله: قام فينا قياما. وأما كونه اسم مكان فمحتمل، ويكون ما أراده من المكان ما سبق من قولنا أنه قام فيهم يحيطونه ويلتفون من حوله، وكله محتمل منفردا ومجتمعا. وقوله: **(فأخبرنا عن بدء الخلق)**: هل **(الفاء)** هي التعقيبية، فيكون المعنى: (قام وبعد أن قام أخبرنا)؟ أم هي الفصيحة، فيكون المعنى: (قام

فينا فقال قولا فأخبرنا)؟ كلاهما وارد، ولكلٍّ فائدة ودلالة. و(**أل**) التعريفية قد يراد بها الاستغراق؛ لتعم الخلق كلهم من إنس وجن وحيوان وكواكب ونجوم وكل ما خلق الله - تعالى -، وقد يكون أراد بها (**أل**) العهدية الذهنية، فيكون المعنى خاص بالإنسان، والأول أولى؛ لما روي عن مجاهد، قال: «بدء الخلق: العرش والماء والهواء، وخلقت الأرض من الماء». وقوله: (**حتى دخل أهل الجنه منازلهم وأهل النار منازلهم، حفظ ذلك من حفظه ونسيه من نسيه**): تدلنا (**حتى**) على انتهاء الغاية، وبين البداية والنهاية أشياء لم يذكرها في هذا النَّص، وردت في الروايات عن رسول الله ﷺ وأصحابه. وقوله: (**دخل أهل الجنة منازلهم**): قوله: (**دخل**) فعل ماض، والقيامة لم تقم بعد، فكيف يدخلونها؟ الجواب: هي بمعنى: تحدث عن دخول أهل الجنة منازلهم، ودخول أهل النار منازلهم، وإنما أوردها بصيغة الماضي الذي يدل على الثبات وتحقق الوقوع؛ لأنه لما قال الرسول ﷺ ما قال وقع الخبر في قلب مؤمن مصدق بكل ما يقوله نبيه، فأشبه عنده ما وقع بما لم يقع. وفي هذه الصيغة من تثبيت هذه الحقيقة في نفس السامع بما لا يدع للشك محلا بعدم حدوث هذا. و(**أل**) في قوله: (**الجنة**) وقوله: (**النار**) هي للعهد الذهني، أي: الجنة والنار اللتان تعرفونها، وهما دارا النعيم والشقاء. وفي تلك الجملة لم يقل: (حتى دخل أهل الجنة والنار منازلهم)، ولم يقل: (حتى دخل أهل الجنة وأهل النار منازلهم)، وذلك للاختلاف البائن بين الصنفين من حيث الإيمان والكفر، ومن حيث النعيم والشقاء؛ فلما تباين الحال بينهما كان لابد من التفريق بينهما من حيث إن (**أهل الجنة**) يختلفون كل الاختلاف عن (**أهل النار**)، وأن منازل أهل الجنة تختلف عن منازل أهل النار اختلافا تاما، فناسب أن يفصل بينهما. وقد يقال: إن تسمية (**أهل النار**) و(**أهل الجنة**) بهذا الاسم - وهم الآن ليسوا أهلا لا لنار ولا لجنة - مجاز مرسل،

علاقته اعتبار ما سيكون. وفي جملة (**أهل الجنة منازلهم**) وجملة (**أهل النار منازلهم**) ترصيع؛ لاتفاق الوزن والقافية. وفي كلمتي (**الجنة**) و(**النار**) طباق. وتقديمه (**أهل الجنة**) على (**أهل النار**)؛ لأفضلية المقدم على المؤخر. وجملتا (**حفظ ذلك من حفظه**) و(**نسيه من نسيه**): فيهما ترصيع، ومقابلة؛ حيث الكلمات (**حفظ**) و(**حفظه**) ضد الكلمات (**نسي**) و(**نسيه**) وبالترتيب. وفي الجملتين ما يسمى باشتقاق اللفظ من اللفظ. وقوله: (**ذلك**): اسم إشارة للبعيد، والبعد - هنا - للزمان؛ لأنه يتحدث عن شيء قديم كان في عهد رسول الله ﷺ، وقد يقال: لبعد المكانة.

[٣٥١]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

لِجَبَلَةَ بْنِ الْأَيْهَمِ الْغَسَّانِيِّ[١]

«يَا جُبَيْلَةُ». فَلَمْ يُجِبْهُ، ثُمَّ قَالَ: «يَا جُبَيْلَةُ». فَلَمْ يُجِبْهُ، ثُمَّ قَالَ: «يَا جَبَلَةُ». فَأَجَابَهُ، فَقَالَ: «اخْتَرْ مِنِّي إِحْدَى ثَلَاثٍ: إِمَّا أَنْ تُسْلِمَ، فَيَكُونَ لَكَ مَا لِلْمُسْلِمِينَ وَعَلَيْكَ مَا عَلَيْهِمْ، وَإِمَّا أَنْ تُؤَدِّيَ الْخَرَاجَ، وَإِمَّا أَنْ تَلْحَقَ بِالرُّومِ»[٢].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: قوله: **(الخراج)**: قال ابن منظور - رحمه الله - في لسان العرب: «الخراج لغة: من خَرَجَ يخرُجُ خُرُوجا، أي: بَرَز، والاسمُ الخراج، وأصله ما يخرج من الأرض. والجمع: أَخْراجُ، وأخارِيج، وأَخْرِجَة». وقال صاحب تهذيب اللغة: «قال الليث: الخَرْجُ والخراج واحد، وهو: شيء يخرِجُه القوم في السنة من مالهم بقدر معلوم ... ويقال: خارَجَ فلان غلامَه، إذا اتفقا على ضريبة يردُّها العبد على

١- جَبَلَةُ بنُ الأَيْهَم الغَسَّانِيُّ، مَلِكُ آلِ جَفْنَةَ بالشَّام، أسلمَ، وأهدى للنَّبيِّ - صلَّى اللهُ عليهِ وآلِه وسلَّمَ - هديَّةً، فلمَّا كان زمنُ عمرَ، ارتدَّ ولحِقَ بالرُّوم. وكانَ داسَ رجلًا، فلكمهُ الرَّجلُ، فهمَّ بقتلِه، فقالَ عمرُ: الْطِمْهُ بدلَها. فغضِب، وارتحلَ، ثمَّ ندمَ على ردَّتِه، نعوذُ باللهِ مِن العتوِّ والكِبرِ. هكذا ترجمَ له الذَّهبيُّ في «سيرِ أعلامِ النُّبلاءِ» ٣/ ٥٣٢.

قلتُ: ومِن المُحالِ أن يكونَ جَبَلَةُ قد أسلمَ، ثمَّ تحصلُ له تلك الحادثةُ فيُخيِّرُه عمرُ بينَ الإسلامِ أو الخراجِ أو اللَّحاقِ بالرُّوم! فإمَّا أن تكونَ قصَّةُ إسلامِه ثمَّ ارتدادِه غيرَ صحيحةٍ، أو أنَّ كلامَ عمرَ المذكورَ آنفًا منسوبٌ لهُ ولم يقلْهُ. فإنَّه لا يُمكنُ الجمعُ بينَ المتناقضَينِ. على أنَّ مِن أهلِ العلمِ مَن يذهبُ إلى أنَّ جَبَلَةَ لم يُسلِم قطُّ. انظر: «تاريخَ دمشقَ» ٧٢/ ٢٨.

٢- رواهُ القاسمُ بنُ سلَّامٍ في «الأموالِ» (٧٤)، وابنُ زَنْجُوَيْهِ في «الأموالِ» ص١٣٥.

سيده كل شهر، ويكونُ مخلىً بينه وبين عمله، فيقال: عبد مخارَجٌ. وقيل للجزية التي ضُرِبت على رقاب أهل الذمة: خراج».

مقتضى الحال: يخير أمير المؤمنين ﷺ جبلة بن الأيهم بين ثلاث خصال، وليس في النصِّ ما يبين سبب وروده، وجاء في بعض الروايات - كما في تاريخ دمشق للحافظ ابن عساكر - أن جبلة بن الأيهم اختار أن يلحق بالروم.

لطائف لغوية: قوله: **(يا جُبَيْلَة)**: سبق أن تكلمنا عن الغرض من التصغير عند شرح النَّص رقم تسعة وثمانين ومئة، فليراجعه المستزيد. وقوله ﷺ: **(وإمَّا أن تؤدِّي الخراج)**، سبق تعريف الخراج، لكن ما الفرق بين الخراج والجزية؟ جاء في الموسوعة الفقهية الكويتية: «ووجه الصلة بين الخراج والجزية: أنهما يجبان على أهل الذمة، ويصرفان في مصارف الفيء. ومن الفروق بينهما: أن الجزية توضع على الرءوس، أما الخراج فيوضع على الأرض، والجزية تسقط بالإسلام، أما الخراج فلا يسقط بالإسلام، ويبقى مع الإسلام والكفر».

البيان والبلاغة: قوله: **(يَا جُبَيْلَةُ)**: ناداه بصيغة التصغير؛ رغبة في استمالته، وتلطفًا معه في القول، وليس استكبارا عليه ولا تقليلا من مكانته. فلما لم يُجِبه عَدَل أمير المؤمنين ﷺ عن التصغير إلى غيره، ثم حدد له ما ألقاه عليه من خيارات. وقوله: **(فَقَالَ)**: سُبِق الفعل بالفاء؛ للدلالة على التعقيب والسرعة. ثم قال: **(اخْتَرْ)**: وهو فعل أمر، والغرض منه التخيير، ووضع أمامه جميع الخيارات الممكنة، وتركه ليختار مصيره بيده. وقوله: **(إِمَّا أَنْ)**: أسلوب تخيير، يقدِّم الشيء وبدائله المتاحة؛ كي يحدد المُخَيَّر رأيه واختياره. وكانت الخيارات هي: إما أن يسلم فيكون له ما للمسلمين وعليه ما عليهم، وإما أن يؤدي الخراج، وإما أن يلحق بالروم. وقد اختار جبلةُ أنْ

يلحق بالروم، كما جاء في تاريخ دمشق للحافظ ابن عساكر. وقد جاءت جمل النصِّ موجزةً إيجاز قِصر؛ لعدم احتمال المقام للإطناب، ولوضوح المعنى المراد، والتقدير: اختر مني إحدى ثلاث خصال أو خيارات: إما أن تُسلم لله - تعالى - فيكون لك ما للمسلمين من حقوق وعليك ما عليهم من واجبات، وإما أن تؤدِّي الخراج إلينا، وإمَّا أن ترحل وتلحق بالروم.

[٣٥٢]

وَمِنْ كَلَام لَهُ

«لَا تَشْغَلُوا أَنْفُسَكُمْ بِذِكْرِ النَّاس فَإِنَّهُ بَلَاءٌ، وَعَلَيْكُمْ بِذِكْرِ الله فَإِنَّهُ رَحْمَةٌ»(١).

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يحثُّ أمير المؤمنين رضي الله عنه سامعيه على ملازمة ذكر الله - تعالى -، والإعراض عن ذكر الناس، مبينًا عاقبة كلٍّ منهما.

البيان والبلاغة: بدأ عمر رضي الله عنه هذه النَّصيحة بقوله: (**لَا تَشْغَلُوا**)؛ حيث ينهى مَن يخاطبهم عن الانشغال بما لا يعود عليهم بالنفع، ويفهم منه الأمر بالاهتمام بما هو أهم وأولى من غيره. ويوازن بين ذكر الناس وذكر الله، وأن ذكر الله فيه النجاة، وذكر الناس فيه البلاء. وقوله: (**فإنه بَلَاءٌ**): أكد كلامه بـ (**إنَّ**) الثقيلة، وفيه كناية عن أنَّ ذكر الناس يشغل الذهن بتفاهات الأمور، والبحث عن الصغائر، وعليه تصبح حياة الإنسان مضطربة وغير مستقرة. وكلمة (**عَلَيكُم**): اسم فعل أمر فيه تحفيز للمسلمين وترغيب لهم على استبدال ذكر الله - عز وجل - بذكر الناس. و(الفاء) في قوله: (**فإنه بَلَاءٌ**) وقوله: (**فإنَّهُ رَحْمَةٌ**): هي الفاء السببية التعليلية. وقوله: (**إنَّهُ رَحْمَةٌ**): عبَّر بالجملة الاسمية المؤكدة بـ (**إنَّ**) الثقيلة؛ ليؤكد المعنى، ويؤكد رفعة

١- رواهُ ابنُ أبي الدُّنيا في «الصَّمتِ» (١٩٥)، و«ذمِّ الغِيبةِ والنَّميمةِ» (٥٨).

ذكر الله، ويحط ذكر ما دونه. وفي الجملتين إطنابٌ بتعليل النهي في الأولى والأمر في الثانية، كما أنَّ في النصِّ مقابلة بين الجملتين؛ حيث قابل بين (**لا تَشغلوا أنفسكم**) مع (**علَيكُم**)، وبين (**ذِكر النَّاس**) مع (**ذكر الله**)، وبين (**فإنَّه بلاء**) مع (**إنَّه رحمة**)، وتلك المقابلة أبرزت المعنى وزادته قوة وتجسيدا.

[٣٥٣]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«مَا أَعْلَمَنِي بِطَرِيقِ الدُّنْيَا! لَوْلَا الْمَوْتُ وَخَوْفُ الْحِسَابِ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يبوح أمير المؤمنين رضي الله عنه لمستمعيه ببعض خواطر نفسه، مبينًا أنَّهم كانوا سيتعجبون من علمه بالدنيا وطرائقها، وشدة انشغاله بها = لولا ذكره الموت وخشيته الحساب.

البيان والبلاغة: قوله: (**مَا أَعْلَمَنِي بِـ**): أسلوب تعجب، جاء بصيغة (**ما أفعَلَ**) ليدلَّ على المبالغة في العلمِ بالدنيا، وأنَّ هذه السعة في العلم بالدنيا كادت أن تكون سعة في العمل لها لولا خشيته الآخرة. وقوله: (**لَوْلا الموتُ وخوفُ الحساب**): (**لولا**) حرف امتناع لوجود، أي: امتناع انشغاله بالدنيا لخشيته الحساب بين يدي الله – تعالى –. وفي الجملة إيجاز بالقِصَر، والتقدير: ما أعلَمني بطريق الدنيا وأكثر انشغالي بها، لولا تذكري الموت وخشيتي الحساب.

١- رواهُ البَلاذريُّ في «أنسابِ الأشرافِ» ١٠/ ٣١٣.

[٣٥٤]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

لِمَمْلُوكٍ رُومِيٍّ لَهُ يُدْعَى: (وُسَّقَ)[١]

«أَسْلِمْ؛ فَإِنَّكَ إِنْ أَسْلَمْتَ اسْتَعَنْتُ بِكَ عَلَى أَمَانَةِ الْمُسْلِمِينَ؛ فَإِنَّهُ لَا يَنْبَغِي لِي أَنْ أَسْتَعِينَ عَلَى أَمَانَتِهِمْ مَنْ لَيْسَ مِنْهُمْ». قَالَ وُسَّقُ: فَأَبَيْتُ، فَقَالَ: ﴿**لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ**﴾ [البقرة: ٢٥٦]. قَالَ وُسَّقُ: فَلَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ أَعْتَقَنِي، وَقَالَ: «اذْهَبْ حَيْثُ شِئْتَ»[٢].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يخاطب أمير المؤمنين رضي الله عنه مملوكا له روميا غير مسلم اسمه وُسَّق، ويبدو أن عمر رضي الله عنه وجد فيه القوة والأمانة فأراد أن يستعمله، لكن منعه من ذلك أن وُسَّق كان كافرا، فعرض عليه الإسلام فأبى، فلم يُكرهه على ترك دينه - امتثالا لأمر الله تعالى -، ثم أعتقه عند وفاته.

البيان والبلاغة: قوله: (**أَسْلِمْ**): بدأ أمير المؤمنين رضي الله عنه حديثه إلى وُسق بهذا الأمر الجازم؛ إذ موضوع الحديث من الأهمية بمكان؛ بحيث لا يحتمل الكناية ولا التورية. ثمَّ أردف ذلك بتعليل هذا الأمر فقال: (**فإنَّك إنْ أسلمتَ استعنتُ بك على أمانة المسلمين**). وبدأ هذه الجملة التعليلية بـ (**إنَّ**) ليؤكِّد حديثه، ويُزيل من

١- ذكرَ ابنُ سعدٍ في «الطَّبقاتِ الكُبرى» ٦/ ١٥٨ أنَّه اسمُه (أُسَّقُ).

٢- رواهُ سعيدُ بنُ منصورٍ في (التَّفسيرِ) مِن «سُنَنِهِ» (٤٣١)، والقاسمُ بنُ سلَّامٍ في «الأموالِ» (٨٧)، وابنُ أبي شيبةَ في «المُصنَّفِ» (١٢٦٩٠) مُختصَرًا، وابنُ زَنْجُوَيْهِ في «الأموالِ» (١٣٣)، وأبو نُعَيمٍ في «حِليةِ الأولياءِ» ٩/ ٣٤.

صدر سامعه كلَّ شك فيه، وليكون ذلك أقوى في تأليف قلبه وترغيبه في اعتناق الإسلام. والجملة الشرطية: (**إنْ أسلمتَ استعنتُ بكَ عَلى أمانةِ المُسلمين**) تفيد اشتراط حصول فعل الشرط ليتحقق جوابه، وذلك فيه ما فيه من الترغيب في حصول الشرط، وهو اعتناق ذلك الرومي للإسلام. ثم أطنب أمير المؤمنين ﷺ فعلَّل التعليل، وبيَّن سبب ذلك الاشتراط فقال: (**فإنه لا ينبغي لي أن أستعين على أمانتهم من ليس منهم**). والضمير في قوله: (**فإنه**): هو ضمير الشأن الذي يدلُّ على محذوف سابق، ظاهر معناه في السياق. وقوله: (**لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ**) اقتباسٌ من قول الله - تعالى -: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، وهذا الاقتباس يدلُّ على ارتباط أمير المؤمنين ﷺ بالقرآن الكريم، وحرصه على العمل به. وقوله: (**اذْهَبْ حَيْثُ شِئْتَ**): إسناد المشيئة إلى المملوك - هنا - كناية عن عتقه؛ إذ المملوك لا يملك ذلك إلا بإذن سيده.

[٣٥٥]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

حِينَ أَتَاهُ فَتْحُ الْقَادِسِيَّةِ

«أَعُوذُ بِاللهِ أَنْ يُبْقِيَنِي اللهُ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ حَتَّى يُدْرِكَنِي أَوْلَادُكُمْ مِنْ هَؤُلَاءِ». قَالُوا: «وَلِمَ، يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؟ قَالَ: «مَا ظَنُّكُمْ بِمَكْرِ الْعَرَبِيِّ وَدَهَاءِ الْعَجَمِيِّ، إِذَا اجْتَمَعَا فِي رَجُلٍ؟!»[1].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: (مكر): قال صاحب تاج العروس: «(**المكر**): الخديعة والاحتيال. وقال الليث: احتيال في خفية. وقد مكر يمكُر مكرا. ومَكَر به: كاده ... والمَكْرُ: التَّدبير والحيلة في الحرب». وأما (**الدهاء**)، فجاء في المعجم الوسيط: «(**الدهاء**): العقل، وجودة الرَّأي».

مقتضى الحال: الرواية تبين أن عمر رضي الله عنه قال هذا الكلام عندما بلغه فتح القادسية وانتصار المسلمين.

لطائف لغوية: للمكر معانٍ كثيرة مختلفة، ذكر صاحب تاج العروس بعض هذه المعاني، فقال: «والمَكْرُ: المَغَرَةُ، والمَمْكورُ: الثوب المصبوغ به، كالمُمْتكِر، وقد مَكَرَه فامْتكَرَ، إذا صُبِغَ. والمكر: حُسن خَدَالَةِ السَّاقين، عن ابن سِيده، أي: في المرأة، وقد مَكُرَتْ، بالضم. والمكر: الصَّفير، وصوت نفخ الأسد. والمكر: سَقْيُ الأرض، يقال: امْكُروا الأرض؛ فإنَّها صُلْبَة، ثم احرثوها، يريد: اسقوها».

١- رواهُ الدِّينوريُّ في «المُجالَسةِ وجواهرِ العلمِ» (١٥٣١).

البيان والبلاغة: قوله: (**أَعُوذُ بالله**): أسلوب خبري يراد به الإنشاء، والمعني: اللهم أعذني ...؛ فهو يستعيذ بالله أن يبقى حيا حتى يرى بعينيه ما يتوقع من شر هذا الجيل المختلط من العرب والعجم. وقوله: (**بين أظهركم**): كناية عن الحياة. ثم أجاب رضي الله عنه سائله الذي قال: ولم يا أمير المؤمنين؟ بقوله: (**مَا ظَنُّكُمْ بِمَكْرِ الْعَرَبِيِّ وَدَهَاءِ الْعَجَمِيِّ، إِذَا اجْتَمَعَا فِي رَجُلٍ؟!**)، والسؤال - هنا - ليس حقيقيا، وإنَّما هو سؤال تعجُّبي تقريري، يراد منه تعليل الجملة التي سبقته. وهذا السؤال يفتح المجال للذهن ليذهب كلَّ مذهب في تخيل السوء والشر الذي يمكن أن يصدر ممن اجتمع فيه هاتان الصفتان في آن واحد. وإسناد المكر إلى العربي في قوله: (**بِمَكْرِ**): كناية عن شدة مكره حتَّى صار المكر كأنه خاصٌّ به متجذر فيه. ونفس الكلام يقال في قوله رضي الله عنه: (**وَدَهَاءِ الْعَجَمِيِّ**).

[٣٥٦]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«يَا أَيُّهَا النَّاس، إِنِّي دَاعٍ فَأَمِّنُوا: اللَّهُمَّ إِنِّي غَلِيظٌ فَلَيِّنِّي لِأَهْلِ طَاعَتِكَ بِمُوَافَقَةِ الْحَقِّ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ وَالدَّارِ الْآخِرَةِ، وَارْزُقْنِي الْغِلْظَةَ وَالشِّدَّةَ عَلَى أَعْدَائِكَ وَأَهْلِ الدَّعَارَةِ[1] وَالنِّفَاقِ، مِنْ غَيْرِ ظُلْمٍ مِنِّي لَهُم، وَلَا اعْتِدَاءٍ عَلَيْهِمْ. اللَّهُمَّ إِنِّي شَحِيحٌ فَسَخِّنِي فِي نَوَائِبِ الْمَعْرُوفِ، قَصْدًا مِنْ غَيْرِ سَرَفٍ وَلَا تَبْذِيرٍ، وَلَا رِيَاءٍ وَلَا سُمْعَةٍ، وَاجْعَلْنِي أَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَكَ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ. اللَّهُمَّ ارْزُقْنِي خَفْضَ الْجَنَاحِ وَلِينَ الْجَانِبِ لِلْمُؤْمِنِينَ. اللَّهُمَّ إِنِّي كَثِيرُ الْغَفْلَةِ وَالنِّسْيَانِ، فَأَلْهِمْنِي ذِكْرَكَ عَلَى كُلِّ حَالٍ، وَذِكْرَ الْمَوْتِ فِي كُلِّ حِينٍ. اللَّهُمَّ إِنِّي ضَعِيفٌ عَنِ الْعَمَلِ بِطَاعَتِكَ، فَارْزُقْنِي النَّشَاطَ فِيهَا وَالْقُوَّةَ عَلَيْهَا، بِالنِّيَّةِ الْحَسَنَةِ الَّتِي لَا تَكُونُ إِلَّا بِعَوْنِكَ وَتَوْفِيقِكَ. اللَّهُمَّ ثَبِّتْنِي بِالْيَقِينِ وَالْبِرِّ وَالتَّقْوَى، وَذِكْرِ الْمَقَامِ بَيْنَ يَدَيْكَ، وَالْحَيَاءِ مِنْكَ، وَارْزُقْنِي الْخُشُوعَ فِيمَا يُرْضِيكَ عَنِّي، وَالْمُحَاسَبَةَ لِنَفْسِي، وَإِصْلَاحَ السَّاعَاتِ، وَالْحَذَرَ مِنَ الشُّبُهَاتِ. اللَّهُمَّ ارْزُقْنِي التَّفَكُّرَ وَالتَّدَبُّرَ لِمَا يَتْلُوهُ لِسَانِي مِنْ كِتَابِكَ، وَالْفَهْمَ لَهُ، وَالْمَعْرِفَةَ بِمَعَانِيهِ، وَالنَّظَرَ فِي عَجَائِبِهِ، وَالْعَمَلَ بِذَلِكَ مَا بَقِيتُ؛ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ»[2].

١- قالَ ابنُ الأثيرِ في «النِّهايةِ» (٢/ ١١٩): (الدَّعارة: الفسادُ والشَّرُّ. ورجلٌ داعرٌ: خبيثٌ مُفسِدٌ).

٢- «العِقد الفريد» ٤/ ١٥٦.

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: الظاهر من النَّص أن عمر ﷺ قال هذا الكلام في جمع من المسلمين، فربما كان ذلك عند توليه الإمارة أو في خطبة من خطبه.

البيان والبلاغة: قوله: (**يَا أَيُّهَا النَّاسُ**): أسلوب نداء غرضه تنبيه المخاطبين وجذب انتباههم. وقوله: (**الناس**): يقصد به المسلمين، وفيه تعميم يوضح أن المسلمين عنده هم الناس؛ لأنهم أغلب الرعية، ولأنهم الأقرب إليه دينا. وقوله: (**إِنِّي دَاعٍ**): جملة خبرية مؤكدة بـ (**إنَّ**) غرضها الإخبار. وقوله: (**فَأَمِّنُوا**): جملة طلبية غرضها الحث على الاقتداء. وقوله: (**اللَّهُمَّ**): جملة دعائية غرضها التوسل إلى الله – تعالى – ودعاؤه. وقوله: (**إِنِّي غَلِيظٌ**): جملة خبرية مؤكدة بـ (**إنَّ**)، وفيها إدراك من عمر ﷺ لنفسه، ووقوفه على ما يراه عيبا فيها، وسعي للإصلاح من شأنه. وقوله: (**فَلَيِّـنِّي**): دعاء إلى الله أن يجعله ليِّنا ولكن بقيود سيذكرها في باقي الجملة. وقوله: (**لِأَهْلِ طَاعَتِكَ**): تخصيص لموضع اللين الذي يطلبه عمر، يوضح أنَّ همَّه الأوَّل واهتمامه الرئيس هو إرضاء الله والحرص على طاعته. وقوله: (**بِمُوَافَقَةِ الحَقِّ**): تخصيص آخر، وتقييد للِّين المطلوب بأن يكون موافقا للحق وليس على إطلاقه. وقوله: (**ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ وَالدَّارِ الآخِرَةِ**): تقييد ثالث وتخصيص لطلبه بأن يكون اللين ابتغاء وجه الله؛ احترازا من أن يكون اللين مصانعة للرعية أو مداهنة لهم. وقوله: (**وَارْزُقْنِي**): فيه إيمان وتسليم بأن الأمر كله لله، وأن كل ما يصيب العبد هو من عند الله. وقوله: (**الغِلْظَةَ وَالشِّدَّةَ**): العطف للتوكيد. وقوله: (**عَلَى أَعْدَائِكَ**): تخصيص واحتراز وتقييد للدعاء، وإضافة الأعداء إلى الله – تعالى – فيه لوم لهم وتوبيخ. والعطف في قوله: (**وَأَهْلِ الدَّعَارَةِ والنِّفَاقِ**) للتوكيد. وقوله: (**مِنْ**

غَيْرِ ظُلْمٍ): احتراز يبين حرص الفاروق رضي الله عنه على تحري العدل وعدم الظلم، حتى لأعداء الله وأهل الدعارة والنفاق. وقوله: (**مِنِّي**): حرص على أن لا يكون الظلم صادرا منه؛ لأنه قد يصدر منهم لأنفسهم بفعلهم للمعصية والمخالفة. وقوله: (**ولَا اعْتِدَاءٍ**): العطف للتوكيد. وقوله: (**اللَّهُمَّ إِنِّي شَحِيحٌ**): رحم الله امرأ عرف قدر نفسه، هكذا كان الفاروق في تواضعه وسماحته ومعرفته لنفسه وحرصه على تقويمها وإصلاحها. وقوله: (**فَسَخِّنِي فِي نَوَائِبِ المَعْرُوفِ**): تقييد لطلب السخاء وتحديد لمواضعه. وقوله: (**قَصْدًا مِنْ غَيْرِ سَرَفٍ ولَا تَبْذِيرٍ، وَلَا رِيَاءٍ وَلَا سُمْعَةٍ**): هذه هي الاشتراطات والحدود التي يرجوها الفاروق لطلبه. وفي الجملة تضاد بين (**قصد**) و(**سرف**) يوضح المعنى ويبرزه. وقوله: (**وَاجْعَلْنِي أَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَكَ والدَّارَ الآخِرَةَ**): هذا هو مرجع عمر رضي الله عنه دائما ومقصده في كل قول وعمل = ابتغاء وجه الله والدار الآخرة. وقوله: (**اللَّهُمَّ ارْزُقْنِي خَفْضَ الجَنَاحِ وَلِينَ الجَانِبِ لِلْمُؤْمِنِينَ**): من يعرف سيرة الفاروق يعلم أنه من أشد الناس زهدا وعدلا وتواضعا، ولكنه كان شديدا في الحق، وهو هنا يستشعر في نفسه هذه الشدة ويدعو الله أن يلين جانبه للمؤمنين، ما أعظمك أيها الفاروق!، وما أعظم شدتك وقوتك في الحق! فبها أقمت دولة الإسلام. وقوله: (**اللَّهُمَّ إِنِّي كَثِيرُ الغَفْلَةِ والنِّسْيَانِ**): رجل يحكم نصف الكرة الأرضية – تقريبا –، وتثقل كاهله المهام الجسام والمسئوليات، فهو يشعر بالتقصير ويظهر ذلك في ذكره ودعائه. وقوله: (**فَأَلْهِمْنِي ذِكْرَكَ عَلَى كُلِّ حَالٍ**): إقرار بأنَّ الذكر والطاعة إلهام وهبة من الله، فهو يطلبه على كل حال. وقوله: (**وَذِكْرَ المَوْتِ فِي كُلِّ حِينٍ**): يدعو الفاروق رضي الله عنه بأن يداوم على ذكر الموت في كل حين؛ لما في ذكره من وازع للزهد في الدنيا، ورادع عن حب الدنيا والركون إليها وواعظ بمن سبق. وقوله: (**اللَّهُمَّ إِنِّي ضَعِيفٌ عَنِ العَمَلِ بِطَاعَتِكَ**): فيه دوام الالتجاء إلى

الله، واستشعار الضعف والتقصير، وذلك من علامات إيمان الفاروق رضي الله عنه. وقوله: (**بِاليَقِينِ وَالبرِّ والتَّقْوَى**): العطف للتوكيد. وتكرار لفظ (**اللَّهم**) في النصِّ للتلذذ بذكر الله - تعالى - والإلحاح عليه في الدعاء. وفي النصِّ إطنابٌ اقتضاه مقام الإلحاح على الله والتوسل له والطمع في جوده وكرمه والتلذذ بذكره - سبحانه وبحمده -.

[٣٥٧]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«إِنَّ الْحِجَازَ لَيْسَ لَكُمْ بِدَارٍ إِلَّا عَلَى النُّجْعَةِ، وَلَا يَقْوَى عَلَيْهِ أَهْلُهُ إِلَّا بِذَلِكَ. أَيْنَ الطُّرَّاءُ الْمُهَاجِرُونَ عَنْ مَوْعُودِ اللهِ؟! سِيرُوا فِي الْأَرْضِ الَّتِي وَعَدَكُمُ اللهُ فِي الْكِتَابِ أَنْ يُورِثَكُمُوهَا؛ فَإِنَّهُ قَالَ: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾، وَاللهُ مُظْهِرٌ دِينَهُ، وَمُعِزٌّ نَاصِرَهُ، وَمُولِي أَهْلِهِ مَوَارِيثَ الْأُمَمِ. أَيْنَ عِبَادُ اللهِ الصَّالِحُونَ؟».

فَكَانَ أَوَّلُ مُنْتَدِبٍ أَبُو عُبَيْدِ بْنُ مَسْعُودٍ[1]، ثُمَّ ثَنَّى سَعْدُ بْنُ عُبَيْدٍ[2]- أَوْ سَلِيطُ بْنُ قَيْسٍ[3]- فَلَمَّا اجْتَمَعَ ذَلِكَ الْبَعْثُ، قِيلَ لِعُمَرَ: أَمِّرْ عَلَيْهِمْ رَجُلًا مِنَ السَّابِقِينَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ. قَالَ: «لَا وَاللهِ لَا أَفْعَلُ؛ إِنَّ اللهَ إِنَّمَا رَفَعَكُمْ بِسَبْقِكُمْ وَسُرْعَتِكُمْ إِلَى الْعَدُوِّ، فَإِذَا جَبُنْتُمْ وَكَرِهْتُمُ اللِّقَاءَ؛ فَأَوْلَى

١- أبو عُبَيدِ بنُ مسعودِ بنِ عمرٍو الثَّقفيُّ، والدُ المختارِ وصفيَّةَ زوجةِ ابنِ عمرَ. أسلمَ في عهدِ النَّبيِّ - صلَّى اللهُ عليهِ وآلِه وسلَّمَ -، واستعمله عمرُ وسيَّرهُ على جيشٍ كثيفٍ إلى العراقِ، وإليهِ يُنسَبُ جِسرُ أبي عُبيدٍ، وكانتِ الوقعةُ عندَ هذا الجسرِ كما ذكرنا، وقُتل يومئذٍ أبو عُبيدٍ، والجسرُ بينَ القادسيَّةِ والحِيرةِ، ولم يذكرْهُ أحدٌ في الصَّحابةِ إلَّا ابنَ عبدِ البرِّ، ولا يَبعُدُ أن يكونَ لهُ رؤيةٌ وإسلامٌ. «تاريخ الإسلام» ٢/ ٨٠.

٢- سعدُ بنُ عُبَيدِ بنِ النُّعمانِ، أبو زيدٍ الأنصاريُّ الأوسيُّ، أحدُ القُرَّاءِ الَّذينَ حفظوا القرآنَ على عهدِ رسولِ اللهِ - صلَّى اللهُ عليهِ وآلِه وسلَّمَ -، استُشهِدَ بوقعةِ القادسيَّةِ، وقيلَ: إنَّه والدُ عُمَيرِ بنِ سعدٍ الزَّاهدِ أميرِ حِمصَ لعمرَ. شهِدَ سعدٌ بدرًا وغيرَها، وكانَ يُقالُ لهُ: سعدٌ القارئُ. وذكرَ مُحمَّدُ بنُ سعدٍ أنَّ القادسيَّةَ سنةَ ستَّ عشرةَ، وأنَّه قُتِل بها ولهُ أربعٌ وستُّونَ سنةً. ونقلوا عنهُ أنَّه خطبَ النَّاسَ بالقادسيَّةِ فقالَ: إنَّا لاقو العدوِّ غدًا، وإنَّا مُستشهِدون غدًا، فلا تَغسِلوا عنَّا دمًا ولا نُكفَّنُ إلَّا في ثوبٍ كانَ علينا. «تاريخ الإسلام» ٢/ ٨٨.

٣- سَلِيطُ بنُ قَيسٍ النجاريُّ الأنصاريُّ، شهِد بدرًا وما بعدَها مِن المشاهدِ، وكانَ مِن الشُّجعانِ والمُبادِرينَ إلى البِرازِ، استُشهِد يومَ الجسرِ معَ أبي عُبيدِ بنِ مسعودٍ الثَّقفيِّ في خلافةِ عمرَ. «مشاهير علماء الأمصار» ص٢٤، و«الاستيعاب» ٢/ ٦٤٦.

بِالرِّئَاسَةِ مِنْكُمْ مَنْ سَبَقَ إِلَى الدَّفْعِ، وَأَجَابَ إِلَى الدُّعَاءِ! وَاللهِ لَا أُؤَمِّرُ عَلَيْهِمْ إِلَّا أَوَّلَهُمُ انْتِدَابًا»(١).

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: قوله: (**النُّجْعَة**): هي - في الأصل -: طلب الكلأ في موضعه، كما في الصحاح. ولعلَّ أمير المؤمنين ﵁ أراد بذلك: أنَّها لا تصلح لسُكناهم إلا بصورة عارضة لا دائمة. وقوله: (**الطُّرَّاء**): قال الإمام ابن منظور - رحمه الله - في لسان العرب: «طَرَأَ على القوم يَطْرَأ طَرْءا وطُرُوْءا: أتاهم من مكان، أو طلع عليهم من بلد آخر، أو خرج عليهم من مكان بعيد فَجاءة، أو أتاهم من غير أن يعلموا، أو خرج عليهم من فَجْوة. وهم الطُّرَّاءُ والطُّرَآءُ. ويقال للغُرباء: الطرآء، وهم الذين يأتون من مكان بعيد». وقوله: (منتدِب)، أي: مجيب. قال في مختار الصِّحاح: «و(نَدَبَه) لأمر (فانْتَدَب) له، أي: دعاه له فأجاب. ورَجل (نَدْبٌ)، بوزن ضَرْب، أي: خفيف في الحاجة».

مقتضى الحال: قال الإمام الطبري في تاريخه: «أول ما عمل به عمر أن ندب الناس مع المثنى بن حارثة الشيباني إلى أهل فارس قبل صلاة الفجر من الليلة التي مات فيها أبو بكر ﵁، ثم أصبح فبايع الناس، وعاد فندب الناس إلى فارس وتتابع الناس على البيعة ففرغوا في ثلاث كل يوم يندبهم فلا ينتدب أحد إلى فارس، وكان وَجْهُ فارس من أكره الوجوه إليهم وأثقلها عليهم؛ لشدة سلطانهم وشوكتهم وعزهم وقهرهم الأمم، قالوا: فلما كان اليوم الرابع عاد فندب الناس إلى العراق فكان أول منتدب أبو عبيد بن مسعود، وسعد بن عبيد الأنصاري ... وقام عمر -

---

١- رواهُ الطَّبريُّ في «تاريخِه» ٣/ ٤٤٥، وابنُ الجوزيِّ في «المنتظمِ في التَّاريخِ» ٤/ ١٤٥.

رحمه الله – في الناس فقال: ...» هذا النَّص. فعمر رضي الله عنه قال هذا الكلام بعد أن تولى الخلافة بأربعة أيام، لما أراد أن يوجِّه جيش المسلمين إلى بلاد فارس، ثم أمَّر عليهم أبو عبيد بن مسعود الثقفي.

البيان والبلاغة: قوله: (**إِنَّ الْحِجَازَ لَيْسَ**): جملة خبرية مؤكدة بـ (**إنَّ**). وقوله: (**بِدَارٍ**): استخدام حرف الجر الزائد للتوكيد، وزيادة المبنى تدل على زيادة المعنى. وقوله: (**إِلا عَلَى النُّجْعَةِ**): الاستثناء بعد النفي أفاد القصر والتخصيص. وفي الجملة استعارة؛ حيث شبه الإقامة في الحجاز بالنُّجعة التي هي طلب الكلأ في موضعه، والجامع بين المشبه وهو المشبه به هو قلة المكث وعدم القرار في المكان. وقوله: (**وَلا يَقْوَى عَلَيْهِ أَهْلُهُ إِلا بِذَلِكَ**): الاستثناء بعد النفي أفاد القصر والتخصيص، أيضا. وقوله: (**أَيْنَ الطُّرَّاءُ الْمُهَاجِرُونَ عَنْ مَوْعُودِ اللهِّ**): الاستفهام – هنا – ليس حقيقيا، وإنما هو استفهام استنكاري غرضه الحثُّ على المبادرة بالخروج في سبيل الله – تعالى –. وقوله: (**سِيرُوا فِي الأَرْضِ**): جملة طلبية غرضها الحث والتوجيه. وقوله: (**لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ**): اقتباس من القرآن الكريم، يدلُّ على تعلُّق عمر رضي الله عنه بالقرآن وتمسكه به. والغرض من الاقتباس تأكيد المعنى والتدليل عليه بدليل قاطع وحجة دامغة. وقوله: (**أَيْنَ عِبَادُ اللهِّ الصَّالِحُونَ؟**): استفهام تحفيزي غرضه الحث والتشجيع. وقوله: (**لا – وَاللهِّ – لا أَفْعَلُ**): جملة خبرية منفية ومؤكدة بالقسم. وقوله: (**إِنَّ اللهَ إِنَّمَا رَفَعَكُمْ**): جملة خبرية تعليلية مؤكدة بـ (**إنَّ**)، وفيها قصر وحصر أفادته (**إنَّما**). وقوله: (**وَاللهِ لا أُؤَمِّرُ**): جملة خبرية منفية ومؤكدة.

[٣٥٨]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«الْحَمْدُ لله الَّذِي أَعَزَّنَا بِالْإِسْلَامِ، وَأَكْرَمَنَا بِالْإِيمَانِ، وَخَصَّنَا بِنَبِيِّهِ ﷺ، وَهَدَانَا مِنَ الضَّلَالَةِ، وَجَمَعَنَا بَعْدَ الشَّتَاتِ عَلَى كَلِمَةِ التَّقْوَى، وَأَلَّف بَيْنَ قُلُوبِنَا، وَنَصَرَنَا عَلَى عَدُوِّنَا، وَمَكَّنَ لَنَا فِي بِلَادِهِ، وَجَعَلَنَا إِخْوَانًا مُتَحَابِّينَ؛ فَاحْمَدُوا اللهَ عِبَادَ الله عَلَى هَذِهِ النِّعْمَةِ السَّابِغَةِ وَالْمِنَنِ الظَّاهِرَةِ؛ فَإِنَّ اللهَ يَزِيدُ الْمُسْتَزِيدِينَ الرَّاغِبِينَ فِيمَا لَدَيْهِ، وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَى الشَّاكِرِينَ»[1].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: ذكر الواقدي في فتوح الشام أن عمر رضي الله عنه لما خرج من المدينة مع أصحابه متجها إلى بيت المقدس = كان إذ نزل منزلا لا يبرح منه حتى يصلي الصبح، فإذا انفتل من الصلاة أقبل على المسلمين وقال: ....، هذا النَّص.

البيان والبلاغة: قوله: (**الحمْدُ لله**): بِدء الخطاب بحمد الله فيه اقتداء بسنة النبي ﷺ. وقوله: (**أَعَزَّنَا بِالإِسْلَامِ**): إقرار من عمر رضي الله عنه بأن الإسلام هو سبب كل عِزَّة وخير يصيب المسلمين. وقوله: (**وَهَدَانَا مِنَ الضَّلَالَةِ، وجَمَعَنَا بَعْدَ الشَّتَاتِ**): بين هذه الكلمات تضاد يبرز المعنى ويوضحه. وقوله: (**فَاحْمَدُوا الله**): جملة طلبية غرضها النصح والإرشاد. وقوله: (**فَإِنَّ اللهَ يَزِيدُ**): جملة خبرية، غرضها تعليل الطلب السابق.

١- ذكره الواقديُّ في «فتوحِ الشَّامِ» ١/ ٢٢٨، وابنُ عبدِ ربِّه في «العقدِ الفريدِ» ٤/ ١٥٣-١٥٤.

[٣٥٩]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ لِكَعْبِ بْنِ سُورٍ[١] قَاضِي الْبَصْرَةِ

«نِعْمَ الْقَاضِي أَنْتَ»[٢].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يخاطبُ أمير المؤمنين ﷺ قاضيه على البصرة - كعبَ بنَ سُور، مادحًا إياه بحسن القضاء. وليس في النص ما يبين الزمان أو المكان الذي التقاه فيه عمر ﷺ.

البيان والبلاغة: قوله: (**نِعْمَ القَاضِي أَنْتَ**): أسلوب مدح، والغرض منه تحفيزه، وتحفيز غيره أن ينتهج نهجه.

١- كعبُ بنُ سَوْرٍ الأزديُّ، قاضي البصرةِ، وليَها لعمرَ وعثمانَ. وكانَ مِن نُبلاءِ الرِّجالِ وعُلَمائِهم. قُتِل يومَ الجملِ، قامَ يعظُ النَّاس ويذِّكرُهم، فجاءَه سهمُ غَرْبٍ فقتلَه، رحمهُ اللهُ تعالى. «سير أعلام النُّبلاء» ٣/ ٥٢٤.

٢- رواهُ وكيعٌ البغداديُّ في «أخبارِ القضاةِ» ١/ ٢٨٣.

[٣٦٠]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

لِأَبِي عُبَيْدِ بْنِ مَسْعُودٍ الثَّقَفِيِّ، وَقَدْ بَعَثَهُ إِلَى الْعِرَاقِ

«اسْمَعْ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ، وَأَشْرِكْهُمْ فِي الْأَمْرِ، وَلَا تَجْتَهِدْ مُسْرِعًا حَتَّى تَتَبَيَّنَ؛ فَإِنَّهَا الْحَرْبُ، وَالْحَرْبُ لَا يُصْلِحُهَا إِلَّا الرَّجُلُ الْمَكِيثُ[1] الَّذِي يَعْرِفُ الْفُرْصَةَ وَالْكَفَّ. إِنَّهُ لَمْ يَمْنَعْنِي أَنْ أُؤَمِّرَ سَلِيطًا[2] إِلَّا سُرْعَتُهُ إِلَى الْحَرْبِ، وَفِي التَّسَرُّعِ إِلَى الْحَرْبِ ضَيَاعٌ إِلَّا عَنْ بَيَانٍ، وَاللهِ لَوْلَا سُرْعَتُهُ لَأَمَّرْتُهُ، وَلَكِنَّ الْحَرْبَ لَا يُصْلِحُهَا إِلَّا الْمَكِيثُ»[3].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: قوله: **(الرَّجل المَكِيث)**: قال ابن منظور - رحمه الله - في لسان العرب: «المكيثُ: الرَّزينُ الذي لا يعجل في أمره، وهم المُكَثاءُ والمَكِيثون».

مقتضى الحال: تُبين الرواية أن عمر ﷺ قال هذا الكلام لأبي عبيد بن مسعود الثقفي قبل بعثه للعراق، وقد أمَّره على الجيش لِما رأى من إسراعه في الاستجابة للخروج في سبيل الله - تعالى -. وهذا النَّص هو تكملة للحوار الذي ذُكِر في النَّص رقم سبعة وخمسين وثلاثمئة، كما ورد في تاريخ الأمم للطبري.

١- يُقالُ: رَجُلٌ مَكِيثٌ؛ أي: رَزِينٌ غَيْرُ عَجُولٍ. «مقاييس اللُّغة» لابنِ فارسٍ (مكث).

٢- هو سَلِيطُ بنُ عمرٍو الأنصاريُّ - رضيَ اللهُ عنهُ -.

٣- رواهُ الطَّبريُّ في «تاريخِه» ٣/ ٤٤٥، وابنُ الأثيرِ في «الكاملِ» ٢/ ٢٧٣.

البيان والبلاغة: قوله: (**اِسْمَعْ ... وَأَشْرِكْهُمْ ... وَلا تَجْتَهِدْ**): بدأ أمير المؤمنين رضي الله عنه بهذه الأوامر والنواهي الجازمة مع تعددها وتكررها؛ لأنَّ الأمر لا يحتمل التعريض ولا التواني. وقوله: (**وأَشرِكْهِم في الأمر**): كنَّى عن القرارات العظيمة بـ (**الأمر**)، و(**أل**) للعهد الذهني، والمقصود: أمر الحرب وشئونها. وقوله: (**حَتَّى تَتَبَيَّنَ**): حتَّى هي الغائية، والمقصود: أنه لابدَّ أن يتريث ويستمر في المشاورة حتى يصل إلى اليقين في أمره قبل بدء الحرب. وقوله: (**إِنَّمَا الْحَرْبُ**): بدأ بـ (**إنَّ**) التي تفيد التأكيد، والتأكيد - هنا - يراد به التعظيم والتهويل. وقوله: (**لا يُصْلِحُهَا**)، أي: لا يصلح لها. وقوله: (**يَعْرِفُ الْفُرْصَةَ وَالْكَفَّ**): في الجملة إيجاز بلاغي شديد، والتقدير: يعرف كيف يقتنص الفرصة، ومتى يلجأ إلى الكف. وقوله: (**إلا سُرْعَتُهُ**): الاستثناء بعد النفي يفيد الحصر. وقوله: (**وَفِي التَّسَرُّعِ إِلَى الْحَرْبِ ضَيَاعٌ إِلَّا عَنْ بَيَانٍ**): ساق كلامه مساقَ الأمثال السائرة؛ ليكون كالدليل على ما يقول. وقوله: (**وَلَكِنَّ الْحَرْبَ لَا يُصْلِحُهَا إِلَّا الْمَكِيثُ**): أعاد تقرير هذا المبدأ بذات الصيغة المؤكدة التي تفيد الحصر، وختم به تأكيدا عليه، وليكون أرسخ وأبقى في ذهن مستمعه.

[٣٦١]

وَمِنْ كَلَام لَهُ

لأَبِي عُبَيْدِ بْنِ مَسْعُودٍ الثَّقَفِيِّ لِفَتْحِ فَارِسَ

«إِنَّكَ تَقْدَمُ عَلَى أَرْضِ الْمَكْرِ وَالْخَدِيعَةِ وَالْخِيَانَةِ وَالْجَبْرِيَّةِ، تَقْدَمُ عَلَى قَوْم قَدْ جَرُؤُوا عَلَى الشَّرِّ فَعَلِمُوهُ، وَتَنَاسَوُا الْخَيْرَ فَجَهِلُوهُ، فَانْظُرْ كَيْفَ تَكُونُ! وَاخْزُنْ لِسَانَكَ، وَلَا تُفْشِيَنَّ سِرَّكَ؛ فَإِنَّ صَاحِبَ السِّرِّ، مَا ضَبَطَهُ، مُتَحَصِّنٌ، لَا يُؤْتَى مِنْ وَجْهٍ يَكْرَهُهُ، وَإِذَا ضَيَّعَهُ كَانَ بِمَضِيعَةٍ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: تُبين الرواية أن عمر ﷺ قال هذا الكلام لأبي عبيد بن مسعود الثقفي عند توجهه لفتح فارس، وكان هذا بعد توليه الخلافة بوقت قصير كما مرَّ في نصَّين سابقين.

البيان والبلاغة: قوله: (**إِنَّكَ تَقْدَمُ**): تأكيد على أنه قرَّر إرساله فعليه سماع النصيحة؛ لأنه غدًا سيكون في موضع المسئولية، والآن عليه أن يستثمر وجوده معه ويسترشد بكلامه. وقوله: (**أَرْضِ الْمَكْرِ**): استعارة مكنية، فليست هناك أرض مكر وأرض غير ذلك، وإنما استعار صفة خاصة بالبشر ليلصقها بغير البشر. وقوله: (**الْمَكْرِ وَالْخَدِيعَةِ وَالْخِيَانَةِ وَالْجَبْرِيَّةِ**): هنا استعارات ممتدة، فيها حسن تفصيل وتقسيم، تؤكد أن أهل هذه الأرض يقطنها أناس صفاتهم تحتاج إلى الحذر. و(**قوم**) في قوله: (**تَقْدَمُ عَلَى قَوْمٍ**): نكرة للتعظيم من شأنهم، وأنهم قوم فيهم خصال كثيرة،

١- رواهُ الطَّبريُّ في «تاريخِه» ٣/ ٤٥٤، وابنُ الأثيرِ في «الكاملِ» ٢/ ٢٧٦.

والتعامل معهم أمر غير هين. وقوله: (**قَدْ جَرؤوا عَلَى الشَّرِّ فَعَلِمُوهُ**): كناية عن فسقهم وجرأتهم على الله - تعالى -، وأنهم لا يأبهون بالضعيف ولا يحترمون إلا القوي الذي يكسرهم. وقوله: (**وَتَنَاسَوُا الخَيْرَ فَجَهِلُوهُ**): كناية عن قلوبهم الجاحدة المليئة بالقسوة والغلظة. وقوله: (**فَانْظُرْ**): فعل أمر فيه البصيرة والنظر والتفكير والحكمة. وقوله: (**كَيْفَ تَكُونُ؟!**): الاستفهام هنا ليس من أجل المعرفة، ولكن من أجل التفكر والتدبر. وقوله: (**وَاخْزُنْ لِسَانَكَ**): أمر أراد به الجزم والقطع بتوخي الحذر؛ لأن الأمر جلل يرى أمير المؤمنين أنه يحتاج للحزم، وعدم الميوعة. وقوله: (**وَلا تُفْشِيَنَّ سِرَّكَ**): استخدم الفعل المضارع؛ ليحمله معنى الأمر الممتد من زمن المتكلم إلى زمن المستقبل. وقوله: (**فَإِنَّ ... وَإِذَا كَانَ بِمَضْيَعَةٍ**): استعارة تصريحية صرح بما هو متخوف منه، وهو الضياع، واعتبره جنديا خرج بدون سلاح من حصن يقف على بابه ألف جندي وجندي، وأصبح صدره خاويا، يضرب عليه من يضرب.

[٣٦٢]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

وَقَدْ بَلَغَهُ مَا جَرَى لِأَبِي عُبَيْدِ بْنِ مَسْعُودٍ الثَّقَفِيِّ وَأَصْحَابِهِ مِنَ الِاسْتِبْسَالِ ثُمَّ الِاسْتِشْهَادِ

«اللَّهُمَّ، كُلُّ مُسْلِمٍ فِي حِلٍّ مِنِّي. أَنَا فِئَةُ كُلِّ مُسْلِمٍ؛ مَنْ لَقِيَ الْعَدُوَّ فَفَظِعَ بِشَيْءٍ مِنْ أَمْرِهِ فَأَنَا لَهُ فِئَةٌ. يَرْحَمُ اللهُ أَبَا عُبَيْدٍ، لَوْ كَانَ انْحَازَ إِلَيَّ لَكُنْتُ لَهُ فِئَةً»[1].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: قوله: (**فَفَظِعَ بِشَيْءٍ**): قال ابن منظور – رحمه الله – في لسان العرب: «أَفْظَعَه الأمر، **وفَظِعَ به** فظاعة وفَظَعا واسْتَفْظَعَه وأَفْظَعَه: رآه فظيعا».

مقتضى الحال: تبين الرواية أن عمر رضي الله عنه قال هذا الكلام عندما بلغه ما جرى لأبي عبيد بن مسعود الثقفي وأصحابه من الاستبسال في قتال الفرسِ ثم الاستشهاد.

لطائف لغوية: قوله: (**اللهُمَّ**) بمعنى: يالله، وقد سبق الحديث عنها غير مرة. وقوله: (**يرحمُ اللهُ أبا عبيد**): جملةٌ خبرية لفظا إنشائيةٌ معنى، والغرض منها الدعاء.

البيان والبلاغة: وقوله: (**اللَّهُمَّ**): دعاء ونداء لله – عز وجل –، فيه إجلال وتعظيم له – سبحانه –. وقوله: (**كُلُّ**): لفظ يدل على استغراق الحكم على الكل. وقوله: (**فِي حِلٍّ مِنِّي**): كناية على أنه لم يقصر في نصيحة، وفعل ما عليه. وقوله: (**أَنَا**

١- رواهُ ابنُ أبي شيبةَ في «المُصنَّفِ» (٣٤٤٢٩)، والطَّبريُّ في «تاريخه» ٣/ ٤٥٤ و٤٥٨، و«المُنتظمِ في التَّاريخِ» ٤/ ١٤٨، وابنُ الأثيرِ في «الكاملِ» ٢/ ٢٧٨.

فِئَة): يشير إلى قوله تعالى: ﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [الأنفال: ١٦]. وقوله: **(لَوْ كَانَ)**: **(لو)** حرف امتناع لامتناع مع تمني حدوث الشيء والرغبة فيه وإن كان محالا؛ لاستحالة عودة الماضي إلى الحاضر. وقوله: **(لَكُنْتُ لَهُ فِئَة)**: وهنا جواب شرط **(لو)**؛ لأنه كان يتمنى ويتحسر على ما كان، ويعرف مسبقا استحالة عودة ما حصل كي يكون له رأي جديد فيه.

[٣٦٣]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

لِغُزَاةٍ مِنْ بَنِي كِنَانَةَ وَالْأَزْدِ سَأَلُوهُ أَنْ يُرْسِلَهُمْ إِلَى الشَّامِ

«ذَلِكَ قَدْ كُفِيتُمُوهُ، الْعِرَاقَ الْعِرَاقَ! ذَرُوا بَلْدَةً قَدْ قَلَّلَ اللهُ شَوْكَتَهَا وَعَدَدَهَا، وَاسْتَقْبِلُوا جِهَادَ قَوْمٍ قَدْ حَوَوْا فُنُونَ الْعَيْشِ؛ لَعَلَّ اللهَ أَنْ يُورِثَكُمْ بِقِسْطِكُمْ مِنْ ذَلِكَ، فَتَعِيشُوا مَعَ مَنْ عَاشَ مِنَ النَّاسِ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: قدم على عمر رضي الله عنه غزاة بني كنانة والأزد في سبعمئة مقاتل - كما في بعض الروايات - فقال لهم رضي الله عنه: أي الوجوه أحب إليكم؟ قالوا: الشأم أسلافنا، فقال لهم: ... هذا النَّص.

لطائف لغوية: قوله (**كُفِيتُمُوهُ**): جملة تامة؛ فيها: فعل مبني للمفعول، ونائب فاعل، ومفعول. والميم علامة الجمع، والواو ناتجة من إشباع حركة الميم.

البيان والبلاغة: وقوله: (**ذَلِكَ**): إشارة إلى ما عرضوه عليه، واستخدم اسم الإشارة للبعيد؛ لبُعد ما بينهم وبين الشام، ولبعد هذا الرأي الذي طرحوه عن الصواب. وقوله: (**قَدْ كُفِيتُمُوهُ**): توكيد الأمر بـ (**قد**)، وجاء الفعل بعد (**قد**) في صيغة الماضي؛ ليبين أن الفعل انتهى وتأكد انتهاؤه ولا عودة فيه. وقوله: (**الْعِرَاقَ الْعِرَاقَ!**): أسلوب إغراء، يقصد توجهوا إلى العراق، والزموا طريقه؛ كي يكونوا

١- رواهُ الطَّبريُّ في «تاريخِه» ٣/ ٤٦٣.

سيفا من سيوف الله على عدوه وعدوهم هناك. وقوله: (**قَلَّلَ اللهُ شَوْكَتَهَا**): كناية عن ضعفها وعدم حاجتهم لكل هذه القوة. وقوله: (**قَدْ حَوَوْا**): أكد الكلام بـ (**قد**)، وأنهم جمعوا كل ما يمتعهم في دنياهم من عيش جميل، والجملة كناية عن الرفاهية التي يعيشون فيها. وقوله: (**لعلَّ اللهَ أَنْ يُورِثَكُمْ**): يفيد الترجِّي، وهو كناية عن رزق الله لهم وسعة عطائه.

[٣٦٤]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«كُونُوا أَوْعِيَةَ الْكِتَابِ، وَيَنَابِيعَ الْعِلْمِ، وَسَلُوا اللهَ رِزْقَ يَوْمٍ بِيَوْمٍ، وَلَا يَضُرُّكُمْ أَنْ لَا يُكْثِرَ لَكُمْ»(١).

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: ليس في النصِّ ما يبين المكان ولا الزمان ولا الحال التي قال فيها عمر رضي الله عنه هذا القول الذي هو أليق بالخطب والمواعظ العامة، أو الخاصة بالقراء وطلبة العلم.

البيان والبلاغة: قوله: (**كُونُوا**): بدأ أمير المؤمنين رضي الله عنه بهذا الأسلوب الإنشائي المباشر ليلقي في نفس مستمعيه أهمية الأمر الذي سيتحدث عنه. ثم بيَّن المراد، فقال: (**كُونُوا أَوْعِيَةَ الْكِتَابِ، وَيَنَابِيعَ الْعِلْمِ**)، وهاتان استعارتان متتاليتان؛ حيث شبَّه صدور العلماء بالأوعية التي تُحفظ فيها الكتب، بجامع الحفظ بينهما، كما شبه العلم بالماء الذي ينبع من العيون، وشبه صدور العلماء بتلك العيون؛ ووجه الشبه - هنا -: أنَّ العلم يصدُر عن صدور العلماء كما يصدر الماء عن العيون، والعلم يحيي الله به القلوب، كما يحيي اللهُ الأرض الميْتة بالماء. وهاتان الاستعارتان الرائعتان

١- رواهُ أحمدُ بنُ حنبلٍ في «الزُّهدِ» (٦٣٢)، وابنُ أبي الدُّنيا في «التَّواضعِ والخمولِ» (١٢) بزيادة: (وَعُدُّوا أَنْفُسَكُمْ مَعَ الْمُوْتَى). وأبو نُعَيمٍ في «حليةِ الأولياءِ» ١/ ٥١ [وهو في البيان والتبيين (٢/ ٣٠٣) بلفظ (يضيركم)].

أسهمتا في إبراز وتجسيد وتقوية المعنى المراد، وسوقِه في صورة بديعة محببة إلى النفوس. وقوله: (رِزْقَ يَوْمٍ بِيَوْمٍ): كناية عن الكفاف، وترغيب في الرضى باليسير.

[٣٦٥]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

فِي الشَّامِ، وَقَدْ عَزَمَ الْقُفُولَ إِلَى الْمَدِينَةِ

«أَلَا إِنِّي قَدْ وُلِّيتُ عَلَيْكُمْ، وَقَضَيْتُ الَّذِي عَلَيَّ فِي الَّذِي وَلَّانِي اللهُ مِنْ أَمْرِكُمْ، إِنْ شَاءَ اللهُ، قَسَطْنَا بَيْنَكُمْ فَيْئَكُمْ وَمَنَازِلَكُمْ وَمَغَازِيكُمْ، وَأَبْلَغْنَا مَا لَدَيْكُمْ، فَجَنَّدْنَا لَكُمُ الْجُنُودَ، وَهَيَّأْنَا لَكُمُ الْفُرُوجَ، وَبَوَّأْنَاكُمْ وَوَسَّعْنَا عَلَيْكُمْ مَا بَلَغَ فَيْئُكُمْ وَمَا قَاتَلْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ شَامِكُمْ، وَسَمَّيْنَا لَكُمْ أَطْمَاعَكُمْ، وَأَمَرْنَا لَكُمْ بِأَعْطِيَاتِكُمْ، وَأَرْزَاقِكُمْ وَمَغَانِمِكُمْ، فَمَنْ عَلِمَ عِلْمَ شَيْءٍ يَنْبَغِي الْعَمَلُ بِهِ فَبَلَّغَنَا، نَعْمَلُ بِهِ إِنْ شَاءَ اللهُ، وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ»[١].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: قوله: (**قَسَطْنَا بَيْنَكُمْ فَيْئَكُمْ**)، أي: قسمناه بالعدل. قال ابن منظور - رحمه الله - في لسان العرب: «والإقساط والقِسْط: العدل. ويقال: أَقْسَطَ وقَسَطَ إذا عدل ...، فقد جاء قَسَطَ في معنى عَدَلَ؛ ففي العدل لغتان: قَسَطَ وأَقْسَطَ، وفي الجور لغة واحدة: قَسَط، بغير الألف». وقوله: (**بَوَّأْنَاكُمْ**): جاء في مختار الصحاح: «(تبَوَّأ) منزلا: نزله، و(بَوَّأ) له منزلا و(بَوَّأَهُ) منزلا: هَيَّأه ومَكَّن له فيه».

مقتضى الحال: تبين الرواية أن عمر رضي الله عنه قال هذا الكلام لمَّا أراد العودة إلى المدينة بعد زيارته للشام.

١- رواهُ الطَّبريُّ في «تاريخِه» ٤/ ٦٦، وابنُ كثيرٍ في «البدايةِ والنِّهايةِ» ١٠/ ٤٥.

البيان والبلاغة: قوله: (**أَلا**): أداة استفتاح وتنبيه، غرضها تنبيه السامعين. وقوله: (**إِنِّي قَدْ وُلِّيتُ**): جملة خبرية مؤكدة بـ (**إنَّ**) و(**قد**) والفعل الماضي. وقوله: (**بينكُم فَيْئَكُمْ**): فيه جناسٌ ناقص. وقوله: (**بينكُم فَيْئَكُمْ وَمَنَازِلَكُمْ**): فيه سجعٌ أعطى الكلام جرسا حلوا. وإضافة هذه الأشياء وما بعدها إلى المخاطبين يشعرهم بقيمتهم، وملكيتهم، وحفظِ حقوقهم. وقوله: (**وَهَيَّأْنَا لَكُمُ الْفُرُوجَ**): كناية عن التزويج من النساء. وقوله: (**نَعْمَلُ بِهِ إِنْ شَاءَ اللهُ**): من تواضع الخليفة ﷺ قبوله للنصح، وحثه للرعية على إسداء النصح إليه، واستعداده الكامل لتقبله. ثم ختم الرسالة بالجملة الإيمانية التي تنفي القوة والحول عن غير الله - تعالى - فقال: (**وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ**)، والاستثناء بعد النفي في هذه الجملة - وغيرها - يفيد الحصر. وقد استعمل أمير المؤمنين ﷺ التقسيم في هذا النصِّ، وأطنب في بعض مواضعه؛ إذ المقام مقام تفصيل وبيانٍ، وهذا هو الأنسب للمقام.

[٣٦٦]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«أَنَا أُحَدِّثُكُمْ مَا أَسْتَحِلُّ مِنْ مَالِ الله: حُلَّتَانِ: حُلَّةُ الْقَيْظِ، وَحُلَّةُ الشِّتَاءِ، وَمَا أَحُجُّ عَلَيْهِ مِنَ الظُّهُورِ وَأَعْتَمِرُ، وَقُوتِي وَقُوتُ أَهْلِي كَقُوتِ رَجُلٍ مِنْ قُرَيْشٍ، لَيْسَ بِأَغْنَاهُمْ وَلَا بِأَفْقَرِهِمْ، ثُمَّ أَنَا رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ بَعْدُ، يُصِيبُنِي مَا أَصَابَهُمْ». وَأُرَاهُ قَالَ: «بَعْدُ إِنَّمَا أَنَا رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ»[1].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: قوله: (**حُلَّة الْقَيْظِ**): الحُلَّة: إزار ورداء، والقيظ: شدة الحر.

مقتضى الحال: يخاطب أمير المؤمنين رضي الله عنه رعيته مبينا لهم ما يأخذه من بيت المال عطاءً له؛ ليفرغ لحاجات الناس وأمور المسلمين؛ إذ لا ينبغي لمثله أن يشغله كسب المعاش عما ولاه الله - تعالى - من الإمرة والخلافة.

البيان والبلاغة: قوله: (**أَنَا أُحَدِّثُكُمْ مَا أَسْتَحِلُّ**): بدأ أمير المؤمنين رضي الله عنه بالجملة الخبرية، وبضمير المتكلِّم؛ ليعلم الجميعُ أنه سيتحدث عن نفسه بنفسه، ويطلعهم عمَّا ينالُه من بيت مال المسلمين. ثم استعمل أسلوب التقسيم والتفصيل؛ ليكون أقوى بيانا وإيضاحا. وقوله: (**حلة القَيظ وحُلَّة الشتاء**): إضافة الحُلَّة إلى الصيف والشتاء إضافة عقلية مجازية، وهي من باب إضافة الشيء إلى زمنه. والتنكير في

١- رواهُ أبو عُبَيدٍ في «الأموالِ» (٦٦٣)، وابنُ سعدٍ في «الطَّبقاتِ الكُبرَى» ٣/ ٢٧٥، وابنُ أبي شيبةَ في «المُصنَّفِ» (٣٣٥٨٣)، وابنُ زَنْجُوَيْهِ في «الأموالِ» (٩٨٩) واللَّفظُ له، والبَلاذريُّ في «أنسابِ الأشرافِ» ١٠/ ٣٠٧، والدِّينوريُّ في «المُجالَسةِ وجواهرِ العلمِ» (٢٣٩٤).

قوله: (**كَقُوتِ رَجُلٍ**) للإفراد والشيوع، أي: كقوت أيِّ رجل من قريشٍ. ثم قيَّد هذا العموم بقوله: (**لَيْسَ بِأَغْنَاهُمْ وَلَا بِأَفْقَرِهِمْ**). والنصُّ مليءٌ بالصور التي تبرز زهد أمير المؤمنين رضي الله عنه وحرصه على السلامة في مال الله - سبحانه وتعالى -.

[٣٦٧]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«لا تَخُورُ[١] قُوَّةٌ مَا كَانَ صَاحِبُها يَنْزُو وَيَنزِعُ»[٢].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: قوله: (**تَخُورُ**): جاء في مختار الصحاح «(خار) الحَرُّ والرَّجُل يَخُور (خُئُورة) - بوزن فُعُولة - ضَعُف وانكسر. و (الخَوَر) بفتحتين: الضعف، تقول: (خَوِرَ) يخُور (خَوارا)، ورَجُل (خَوَّار) بالتشديد، والجمع (خُور) بوزن طُور». وقوله: (**ينزو**): النَّزو: الوثبان، وأكثر ما يستعمل في إتيان الدواب بعضها البعض. وقوله: (**يَنزِعُ**): جاء في مختار الصحاح: «ونَزَع عن كذا: انتهى عنه».

مقتضى الحال: يُبيِّن أمير المؤمنين ﷺ الحال التي بها يحفظ ذو القوة قوَّته.

البيان والبلاغة: قوله: (**لا تَخُورُ**): بدأ كلامه بالنفي الجازم الذي يجعل السامع متشوقا لمعرفة ما سيتنزل عليه هذا النفي، ثم بين ذلك فقال: (**لا تَخُورُ قُوَّة**). وقوله: (**قُوَّةٌ**): نكرة في سياق النفي أفادت العموم؛ فيدخل فيها قوة الجسم والمال والجيش والسلطان ... الخ. ثم أتبع هذا التعميم بذكر قيد خرج مخرج الشرط، فقال: (**مَا كَانَ صَاحِبُها يَنْزُو وَيَنزِعُ**). وقد ذكر أصحاب الغريب معاني في تفسير هذه الجملة، والذي نختاره فيها أنَّ المعنى: ما كان صاحبها وسطا في أموره؛ يأتي الشيء أحيانا

١- قالَ ابنُ الأثيرِ في «النِّهايةِ» (٢/ ٨٧): (أي لن يضعفَ صاحبُ قوَّةٍ يقدرُ أن ينزعَ في قوسِه، ويثبَ إلى ظهرِ دابَّتِه).

٢- ذكرهُ في «البيانِ والتَّبيينِ» ٢/ ٢٠٨، قالَ الجاحظُ: يقولُ: لا تنتكثُ قوَّتُه ما دامَ ينزعُ في القوسِ، وينزو في السَّرجِ مِن غيرِ أن يستعينَ بِركابٍ.

ويذره أحيانا أخرى. وعلى ذلك، يكون بين قوله (ينزو) و(ينزع) طباقٌ ساهم في إبراز المعنى وتقويته. وقد ساق أمير المؤمنين رضي الله عنه كلامه مساق الأمثال السائرة؛ ليكون ذلك أقوى في إبراز المعنى وترسيخه في نفس السامع.

[٣٦٨]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«أَفْضَلُ اللِّينِ مَا كَانَ مَعَ سُلْطَانٍ، وَأَفْضَلُ الْعَفْوِ مَا كَانَ عَنْ قُدْرَةٍ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يضع أمير المؤمنين ﵁ قاعدةً يوضِّحُ فيها أفضل صور اللين وحسن صور العفو.

لطائف لغوية: قوله (**أفضل**): صيغة أفعل التفضيل تدلُّ على اشتراك شيئين أو أكثر في صفة، مع زيادتها في أحدهما. وربَّما جاءت تلك الصيغة في حال الاستواء في الصفة أو عدم الاشتراك فيها. فمن الأول: قول الله - تعالى - في الإخبار عن ذاته العلية: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [الروم: ٢٧]، فمن المعلوم أنَّ بدء الخلق أول مرة وإعادته يستويان في قدرة الله - تعالى -، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوۡلُنَا لِشَىۡءٍ إِذَآ أَرَدۡنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠]، وكون الثاني أهون من الأول إنَّما هو في عقل البشر وقياسهم فحسب. ومن الثاني: قول النسوة لعمر ﵁ وقد قال لهن - كما في صحيح البخاري وغيره -: أي عدوات أنفسهن، أتهبنني ولا تهبن رسول الله ﷺ؟ قلن: نعم، أنت أفظ وأغلظ من رسول الله ﷺ. ومعلوم أنَّ رسول الله ﷺ لم يشارك عمر ﵁ ولا غيره في هاتين الصفتين، وذلك ظاهر في سيرته ﷺ وفي سياق الحديث، كيف وقد قال الله - تعالى - في وصفه ﷺ: ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ

١- رواهُ البلاذريُّ في «أنسابِ الأشراف» ١٠/ ٣٢٦.

﴿وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]؟! وإنَّما أردن نفي الصفة عن رسول الله ﷺ وإثباتها لعمر رضي الله عنه.

البيان والبلاغة: قوله: (**أَفْضَلُ اللِّينِ**)، و(**أفضل العفو**): صيغة أفعل التفضيل تدلُّ على فضل اللين عند القوة والسلطان وفضل العفو عند المقدرة على اللين والعفو في غير هاتين الحالتين. وقوله: (**قُدْرَةٍ**): كناية عن توفر أسباب البطش، والامتناع عنه - حينئذ - يكون خوفا من الله - تعالى - وطمعا فيما عنده.

[٣٦٩]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«جَالِسُوا التَّوَّابِينَ؛ فَإِنَّهُمْ أَرَقُّ شَيْءٍ أَفْئِدَةً»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: ينصحُ أمير المؤمنين رضي الله عنه مستمعيه بالإكثار من مجالسة التوَّابين؛ شافعا ذلك ببيان فائدة تلك النصيحة.

البيان والبلاغة: قوله: (**جَالِسُوا التَّوَّابِينَ**): (**التَّوابين**): جمعُ توَّاب، على زِنة (فعَّال)، وهي من أوزان المبالغة الدالة على كثرة الفعل وتكراره. والفاء في قوله: (**فَإِنَّهُمْ أَرَقُّ شَيْءٍ أَفْئِدَةً**) هي الفاء السببية التعليلية. وقد أكد كلامه بـ (**إنَّ**)؛ ليُذهِب من نفس السامع كلَّ شك فيما يقول. وتنكير (**شيءٍ**) لإفادة العموم، ثم أتبع هذا التعميم بالتمييز الذي خصصه، وهو قوله: (**أفئدةً**).

١- رواهُ وكيعٌ في «الزُّهدِ» (٢٧٩)، وأحمدُ بنُ حنبلٍ في «الزُّهدِ» (٦٣١)، وابنُ أبي شيبةَ في «المُصنَّفِ» (٣٥٦٠٦)، وهنَّادٌ في «الزُّهدِ» ٢/ ٤٥١، وابنُ أبي الدُّنيا في «التَّوبةِ» (١٤٤)، وأبو نعيمٍ في «حليةِ الأولياءِ» ١/ ٥١.

[٣٧٠]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«السَّيِّدُ: الْجَوَادُ حِينَ يُسْأَلُ، الْحَلِيمُ حِينَ يُسْتَجْهَلُ، الْكَرِيمُ الْمُجَالَسَةِ لِمَنْ جَالَسَهُ، الْحَسَنُ الْخُلُقِ عِنْدَ مَنْ جَاوَرَهُ» أَوْ قَالَ: «حَاوَرَهُ»[1].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يُبين أمير المؤمنين ﵁ المعنى الصحيح لـ (السيِّد)، مصحِّحا لمستمعيه ما قد يكون عندهم من مفاهيم خاطئة.

لطائف لغوية: قوله: **(الجواد)**: هو الكريم المعطاءُ. ويشيع عند الكثيرين نطق (الجواد) بتشديد الواو. والصحيح التخفيف، وهو المذكور في عامَّة المصادر اللغوية وغيرها.

البيان والبلاغة: **(أل)** في قوله: **(السَّيِّدُ)**: لبيان الحقيقة. وبين قوله: **(الْجَوَادُ حِينَ يُسْأَلُ)** وقوله: **(الْحَلِيمُ حِينَ يُسْتَجْهَلُ)** موازنة، كما أنَّ بين **(يُسأل)** و**(يُستجهل)** سجعًا. ومثل ذلك يقال في الجملتين التاليتين. وبناء الفعلين **(يُسْأَلُ)** و**(يُسْتَجْهَلُ)** للمفعول؛ لإفادة العموم، ولأنَّ العبرة بتحليه بهاتين الصفتين، بغض النظر عن الفاعل.

١- رواهُ البلاذريُّ في «أنسابِ الأشرافِ» ١٠/ ٣٢٦ [وأول جملتين منه في عيون الأخبار (١/ ٢٢٥) وزاد (البار بمن يعاشر)].

[٣٧١]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«تَعَلَّمُوا الْمِهْنَةَ؛ فَإِنَّهُ يُوشِكُ أَنْ يَحْتَاجَ أَحَدُكُمْ إِلَى مِهْنَتِهِ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: ينصح أمير المؤمنين رضي الله عنه سامعيه بتعلم المهن؛ معللا ذلك بما يؤكد قوله.

البيان والبلاغة: قوله: (**تَعَلَّمُوا**): الأمر هنا للاستحباب وليس للإيجاب؛ فهو يأمر كي يعدِّل كل امرئٍ من سلوكه. وقوله: (**فإنَّه**): الفاء سببية وما بعدها سبب لما قبلها، و(**إنَّهُ**) ضمير الشأن الذي سبق الحديث عنه مرارا. واستعمل فعل المقاربة (**يُوشِكُ**)؛ ليُلقي في نفس السامع أنَّ احتياجه للعمل بهذه النصيحة قد يكون قريبا جدًّا. وقوله: (**أَنْ يَحْتَاجَ**): استعمل المصدر المؤوَّل لما له من ميزة في إفادة زمن الفعل وبيان الفاعل.

١- رواهُ ابنُ أبي الدُّنيا في «إصلاحِ المالِ» (٣١٧).

[٣٧٢]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«إِنِّي أُحِبُّ أَنْ يَكُونَ الرَّجُلُ فِي أَهْلِهِ كَالصَّبِيِّ، فَإِذَا احْتِيجَ إِلَيْهِ كَانَ رَجُلًا»(١).

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يبين أمير المؤمنين رضي الله عنه ما ينبغي أن يكون عليه الرجل في بيته وبين أهله.

البيان والبلاغة: قوله: (**إِنِّي أُحِبُّ**): بدأ بالجملة الخبرية مؤكِّدا كلامه بـ (**إنَّ**)؛ ليعلم سامعه أنَّ الأمر من الأهمية بمكان، وإن كان متعلقا بجانب يخفى على الكثيرين. و(**أل**) في (**الرَّجل**) للعموم. وقوله: (**فِي أَهْلِهِ**): كناية عن الزوجة والبيت. وقوله: (**كَالصَّبِيِّ**): الكاف للتشبيه، و(**أل**) للجنس، وشبه الرجل بالطفل في وداعته ولِينه وخفَّة ظله. وقوله: (**كَانَ رَجُلاً**): كناية عن استقامة أفعاله وسلوكه وقدرته على تحمل المسئولية. واستعمل اسم الشرط (**إذا**) تعبيرا عن قرب وقوع فعل الشرط، ثم جوابه.

١- ذكرهُ ابنُ دُرَيدٍ في «أماليهِ» ص١٦٠، وابنُ الجوزيِّ في «مناقبِ أميرِ المؤمنينَ عمرَ بنِ الخطَّابِ» ص١٨٠.

[٣٧٣]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«بَلَغَنِي أَنَّكُمْ تَتَّخِذُونَ مَجَالِسَ، لَا يَجْلِسِ اثْنَانِ مَعًا حَتَّى يُقَالَ: مِنْ صَحَابَةِ فُلَانٍ؟ مِنْ جُلَسَاءِ فُلَانٍ؟ حَتَّى تُحُومِيَتِ الْمَجَالِسُ. وَايْمِ اللهِ إِنَّ هَذَا لَسَرِيعٌ فِي دِينِكُمْ، سَرِيعٌ فِي شَرَفِكُمْ، سَرِيعٌ فِي ذَاتِ بَيْنِكُمْ، وَلَكَأَنِّي بِمَنْ يَأْتِي بَعْدَكُمْ يَقُولُ: هَذَا رَأْيُ فُلَانٍ، قَدْ قَسَمُوا الْإِسْلَامَ أَقْسَامًا، أَفِيضُوا مَجَالِسَكُمْ بَيْنَكُمْ، وَتَجَالَسُوا مَعًا؛ فَإِنَّهُ أَدْوَمُ لِأُلْفَتِكُمْ، وَأَهْيَبُ لَكُمْ فِي النَّاسِ. اللَّهُمَّ مَلُّونِي وَمَلَلْتُهُمْ، وَأَحْسَسْتُ مِنْ نَفْسِي وَأَحَسُّوا مِنِّي، وَلَا أَدْرِي بِأَيِّنَا يَكُونُ الْكَوْنُ، وَقَدْ أَعْلَمُ أَنَّ لَهُمْ قَبِيلًا مِنْهُمْ، فَاقْبِضْنِي إِلَيْكَ»[1].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: قوله: (**تُحُومِيَت**): قال ابن منظور - رحمه الله - في لسان العرب: «يقال: أَحْمَيْت المكان، فهو مُحْمىً: إذا جعلته حِمىً». وقوله: (**قَبِيلا**): قال الرازي - رحمه الله - في مختار الصحاح: «(**القَبِيل**): الجماعةُ تكون من الثلاثة فصاعدا من قوم شتى؛ مثل: الروم والزِّنج والعرب والجمع (قُبُل)».

مقتضى الحال: ذكر الطبري في تاريخ الأمم أن عمر رضي الله عنه قال هذا الكلام لرجال من قريش. ويبدو أن عمر حين بلغه عنهم هذا الفعل أراد أن ينبههم لمغبته وسوء عاقبته، فقال لهم هذا النَّص.

١- رواهُ الطَّبريُّ في «تاريخِه» ٤/ ٢١٣-٢١٤، والبلاذريُّ في «أنسابِ الأشرافِ» ١٠/ ٣٧٣ مُختصرًا.

البيان والبلاغة: قوله: (**بَلَغَنِي**): استخدم زمن الماضي؛ ليؤكد لهم متابعته لكل صغيرة وكبيرة في شأن المسلمين، مما يستوجب عليه النصح من جانبه، والسمع والطاعة منهم له. وقوله: (**أَنَّكُمْ تَتَّخِذُونَ**): أكد الكلام بالجملة الاسمية؛ ليبين أن ما سيقوله مازال مستمرا في مجالسهم؛ ولذلك جعل اهتمامه بالفعل المضارع المرفوع بثبوت النون. وقوله: (**لا يَجْلِس اثْنَانِ**): جاء النهي باستخدام صيغة المضارع؛ ليؤكد استمرار الأمر وانتقاله من وقت التكلم إلى وقت المستقبل. وقوله: (**حَتَّى تُحُومِيَتِ**): استخدم (**حتَّى**) الغائية؛ ليتصور السامع إلى أي حدٍّ بلغ الأمر. وقوله: (**وَايْم اللهِّ**): أسلوب قسم عربي مشهور تخلله اسم الله، والقسم أقوى المؤكدات. وقوله: (**لَسَرِيعٌ**): (**اللام**) زائدة، تفيد تأكيد مضمون الجملة التي بعدها، وفي الجملة كناية عن سرعة انتشار الأمر بما يتطلب الوقوف ضده ومجابهته. وقوله: (**وَلَكَأَني**): (**اللام**) للتأكيد، والجملة المنسوخة بعدها تفيد تشبيهه وكأنه شاخص معهم. وقوله: (**هَذَا رَأْيُ فُلانٍ**): كناية عن مرجعية الرأي واتكائها على رأي صحابي؛ فينشق الناس ويزداد الانشقاق بينهم. وقوله: (**قَدْ قَسَمُوا الإِسْلامَ أَقْسَامًا**): عبر بالمفعول المطلق؛ ليؤكد الفعل السابق عليه، ويثير الغيرة في نفوس السامعين، ويستنفر الهمم، واستخدم أكثر من أداة لتأكيد قوله. وقوله: (**أَدْوَمُ لأُلْفَتِكُمْ**): جاءت الكلمة على وزن أفعل التي تفيد التفضيل؛ فما ذكره من أسباب هو أعون على دوام الألفة من غيره. وقوله: (**وَأَهْيَبُ**): يقال فيها ما قيل في سابقتها. وقوله: (**اللَّهُمَّ مَلُّونِي وَمَلَلْتُهُمْ**): في الجملة إيجاز حذف، والتقدير: اللهم إنَّهم ملُّوني

وإنِّي مللتهم. وقوله: (**فَاقْبِضْنِي إِلَيْكَ**): الفاء هي السببية التعليلية، والقبضُ: يراد به الموت. وقوله: (**وَأَحْسَسْتُ مِنْ نَفْسِي وَأَحَسُّوا مِنِّي**): في الجملة طباقٌ، وكناية عن الضيق من مخالطة الناس.

[٣٧٤]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«تَفَقَّهُوا قَبْلَ أَنْ تُسَوَّدُوا[١]»[٢].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: قوله: **(تُسَوَّدُوا)**: قال ابن الأثير - رحمه الله - في النهاية في غريب الحديث والأثر: «وفي حديث عمر ﷺ **«تَفَقَّهُوا قَبْلَ أَنْ تُسَوَّدُوا»**، أي: تعلموا العلم مادمتم صغارا، قبل أن تصيروا سادة منظورا إليكم فتستحيوا أن تتعلموه بعد الكبر فتبقوا جهالا. وقيل: أراد قبل أن تتزوجوا وتشتغلوا بالزواج عن العلم، من قولهم: اسْتَادَ الرَّجُل، إذا تزوج في سادَةٍ».

مقتضى الحال: ينصح أمير المؤمنين ﷺ بالمبادرة إلى التفقه، قبل أن تحول الشواغل بين المرء وبين التفقه.

البيان والبلاغة: بدأ بقوله: **(تَفَقَّهُوا)**: وهو فعل أمر؛ ليفضي إلى المقصود من الكلام مباشرة، وأطلق الأمر ولم يقيده بقيدٍ إما ليكون شاملا لكلِّ فقه نافع أو

١- قالَ ابنُ الأثيرِ في «النِّهايةِ» (٢/ ٤١٨): (أي تعلَّموا العلمَ ما دمتم صغارًا، قبلَ أن تَصيروا سادةً منظورًا إليكم، فتَستحيوا أن تتعلَّموه بعدَ الكِبَرِ، فتبقوا جُهَّالًا).

٢- رواهُ البخاريُّ في «صحيحِه» مُعلَّقًا (باب ١٥)، والدَّارميُّ في «السُّنَنِ» (٢٥٦)، ووكيعٌ في «الزُّهدِ» (١٠٢)، وزهيرُ بنُ حربٍ في «العلمِ» (٩)، وابنُ أبي شيبةَ في «المُصنَّفِ» (٢٦٦٤٠)، والمروُّذيُّ في «أخبارِ الشُّيوخِ وأخلاقِهم» (٢٨٣)، وابنُ البختريِّ في «الأمالي» (١٢٩)، والبيهقيُّ في «شُعَبِ الإيمانِ» (١٥٤٩)، وابنُ عبدِ البرِّ في «جامعِ بيانِ العلمِ وفضلِه» (٥٠٨) و(٥٠٩)، والشَّجريُّ في «ترتيبِ الأمالي» (٢٥١).

اعتمادًا على ما في أذهان السامعين من أنَّ الفقه هو الفقه في الدين والتفقه في كتاب رب العالمين. وقوله: **(قبل أنْ تسودوا)**: استعمل المصدر المؤوَّل لما له من ميزة في إفادة زمن الفعل وبيان الفاعل.

[٣٧٥]

وَمِنْ كَلَام لَهُ

فِي لُزُومِ السُّنَّةِ

«رُدُّوا الجَهَالَاتِ إِلَى السُّنَّةِ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يأمر أمير المؤمنين ﷺ بردِّ الشبهات ونحوها إلى السنة؛ لأنها محكمة مفصلة.

البيان والبلاغة: بدأ بقوله: **(رُدُّوا)**: وهو فعل أمر؛ ليفضي إلى المقصود من الكلام مباشرة. و**(أل)** في قوله **(الجهالات)**: إما أنَّها للعهد؛ فيكون المقصود بها جهالات ذكرت في مجلس أمير المؤمنين أو قُبيله، وعلى ذلك يكون التقدير: ردُّوا الجهالات المذكورة إلى السنة. وإمَّا أنَّها للاستغراق، أي: ردُّوا كل الجهالات إلى السنة. وقوله: **(إِلَى السُّنَّةِ)**، أي: إلى ما صح من سنة رسول الله ﷺ، فـ **(أل)** - هنا - لا يصلح أن تكون إلَّا للعهد.

١- رواهُ سعيدُ بنُ منصورٍ في «السُّنَنِ» (١٣٢٦)، والبيهقيُّ في «السُّنَنِ الكُبرَى» (١٥٥٤٥)، و«الصُّغرَى» (٢٨٢٣).

[٣٧٦]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«نِعْمَ الْعِدْلَانِ[1]، وَنِعْمَ الْعِلَاوَةُ[2]: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٧]، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥]»[3].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: قوله: (**الْعِدْلَانِ**): جاء في معجم العين للخليل بن أحمد - رحمه الله -: «**العِدلان**: الحِملان على الدَّابَّة من جانبَين، وجمعه: أعْدالٌ، عُدِلَ أحدهما بالآخر في الاستواء؛ كي لا يرجح أحدهما بصاحبه». وقوله: (**الْعِلَاوَةُ**): قال الرازي - رحمه الله - في مختار الصحاح: «(**العِلاوة**) بالكسر ما علَّيت به على البعير بعد تمام الوِقْر، أو علَّقْته عليه كالسِّقاء والسَّفُّودِ. والجمع (العَلاوَى)، بفتح الواو؛ مثل: إداوة وأداوَى».

مقتضى الحال: يمدحُ أمير المؤمنين رَضِيَ اللهُ عَنْهُ آيتين من كتاب الله - تعالى -، مبيِّنا أنهما كافيتان في الدلالة على المطلوب من الصبر عند الشدائد.

١- العِدْل والعَدْل، بالكسرِ والفتحِ: المِثْلُ. والعِدلانِ: المِثلانِ «النِّهاية» ٣/ ١٩١، «فتح الباري» ٣/ ١٧٢.

٢- العِلاوة: ما يُحمَلُ على البعيرِ وغيرِه، وهو ما وُضِع بينَ العِدلينِ. «لسان العرب» ١٥/ ٨٩.

٣- رواهُ البخاريُّ في «صحيحِه» مُعلَّقًا، باب: الصَّبر عندَ الصَّدمةِ الأُولَى. والحاكمُ في «المُستدرَكِ» (٣٠٦٨)، والبيهقيُّ في «السُّنَنِ الكُبرَى» (٧١٢٦)، و«شُعَبِ الإيمانِ» (١٤٨٤) و(٩٢٣٩).

البيان والبلاغة: قوله: (**نِعمَ العِدلانِ**): بدأ بأسلوب المدح ليجذب انتباه سامعِه إلى ما سيأتي من ذكر الممدوح؛ فيكون ذلك أرسخ في ذهنه وأوعى في قلبه. ثم قال: (**نِعمَ العِدلانِ، ونِعمَ العِلاوةُ**): فكنَّى بـ (**العِدلان**) عن الصلاة والرحمة من الله – تعالى –، وبـ (**العلاوة**) عن الهداية، كما قال الحافظ في الفتح. وفي النصِّ اقتباسان من كتاب الله – تعالى – يدلان على تمسُّك أمير المؤمنين رضي الله عنه بكتاب الله – تعالى – وارتباطه به.

[٣٧٧]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«لَوْلَا ثَلَاثٌ لَأَحْبَبْتُ أَنْ أَكُونَ قَدْ لَقِيتُ اللهَ - عَزَّ وَجَلَّ -: لَوْلَا أَنْ أَضَعَ جَبْهَتِي لله - عَزَّ وَجَلَّ -، وَأَجْلِسَ فِي مَجَالِسَ يُنْتَقَى فِيهَا طَيِّبُ الْكَلَامِ كَمَا يُنْتَقَى فِيهَا طَيِّبُ الثَّمَرِ، وَأَنْ أَسِيرَ فِي سَبِيلِ اللهِ - عَزَّ وَجَلَّ -»[1].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يبوح أمير المؤمنين رضي الله عنه بما في نفسه من أسباب لولاها لكان الموتُ أحبَّ إليه من الحياة.

البيان والبلاغة: قوله: (**لولا**): حرف امتناع لوجود، وهو دالٌّ على الشرط كذلك، وقد سبق الحديث عنه غير مرة. وقوله: (**لَأَحْبَبْتُ**): (**اللام**) لام العاقبة، والفعل بعدها نتيجة لما قبلها. وقوله: (**أَنْ أَكُونَ قَدْ لَقِيتُ**): استعمل المصدر المؤوَّل لما له من ميزة في إفادة زمن الفعل وبيان الفاعل، وصدَّر كلامه بـ (**قد**) فأفادت الجزم والتوكيد. وجملة: (**عزَّ وجلَّ**): تكررت ثلاث مرات، وهي إطنابٌ يراد به ذكر الله - تعالى -، وتعظيمه، والتلذذ بذكره. وقوله: (**لله**): دلت (**اللام**) على اختصاص السجود بكونه لله، فلا يكون ولا ينبغي أن يكونَ إلا لله - تعالى -. وقوله: (**كَمَا يُنْتَقَى**): تشبيه تام؛ حيث شبه الكلام بأطايب الطعام، واستخدم (**كما**) لتدل على التشبيه المقصود.

١- رواهُ أحمدُ بنُ حنبلٍ في «الزُّهدِ» (٦٠٧).

[٣٧٨]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«لَنْ يَزَالُوا بِخَيْرٍ مَا عَجَّلُوا الْفِطْرَ، وَلَمْ يَتَنَطَّعُوا تَنَطُّعَ أَهْلِ الْعِرَاقِ»[١].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: قوله: (**يَتَنَطَّعُوا**): قال ابن الأثير - رحمه الله - في النهاية في غريب الحديث والأثر: «ومنه حديث عمر: «**لَنْ تَزَالُوا بِخَيْرٍ مَا عَجَّلْتم الفِطرَ، وَلَمَ تَنَطَّعُوا تَنَطُّعَ أَهْلِ العِراق**»، أي: تتكلفوا القول والعمل».

مقتضى الحال: يبين أمير المؤمنين ﵁ أن تعجيل الفطر علامةٌ على بقاء الخير في هذه الأمة، خلافا لما اعتاده أهل العراق من التكلف بتأخيره.

البيان والبلاغة: قوله: (**لَنْ يَزَالُوا**): بدأ بهذه العبارة الدالة على الاستقبال؛ تأكيدا لاستمرار هذا الحكم في المستقبل ما استمر شرطُه. وقوله: (**مَا عَجَّلُوا الْفِطْرَ**): (**ما**) هي المصدرية الظرفية، بمعنى: مدة استمرارهم في تعجيل الفطر. ومجيء المصدر في قوله: (**تَنَطُّعَ أَهْلِ الْعِرَاقِ**) دلَّ على تأكيد الفعل وبيان صورته أو نوعه، فهو تنطُّعٌ من جنس ما يفعله أهل العراق من التنطع. وإضافة التنطع إلى أهل العراق يدلُّ على أنَّهم بلغوا فيه الغاية حتى صار صفة غالبة عليهم. وفي النصِّ تأثر واقتباس من حديث النبيِّ ﷺ المتفق عليه: «**لاَ يَزَالُ النَّاسُ بِخَيْرٍ مَا عَجَّلُوا الفِطْرَ**».

١- رواهُ الفريابيُّ في «الصِّيامِ» (٤٦)، وابنُ عساكرَ في «تاريخِ دمشقَ» ٥٨/ ١٨٤.

[٣٧٩]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«زَوِّجُوا أَوْلَادَكُمْ إِذَا بَلَغُوا، وَلَا تَحْمِلُوا آثَامَهُمْ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: ينصح أمير المؤمنين رضي الله عنه الآباء بالمبادرة إلى تزويج أولادهم فور البلوغ؛ كيلا يتحملوا سيئاتهم التي تسببها شهوة الولد إذا بلغ.

البيان والبلاغة: قوله: (**زَوِّجُوا أَوْلَادَكُمْ**): هو جواب شرط قُدِّم على أداة الشرط وفعلها لأهميته، والتقدير: إذا بلغ أولادكم فزوِّجوهم ... وقوله: (**إِذَا بَلَغُوا**): استعمل (**إذا**) الشرطية دون غيرها؛ للدلالة على قرب وقوع فعل الشرط. وقوله: (**وَلَا تَحْمِلُوا آثَامَهُمْ**): فيه إيجاز قِصَر شديد بليغ، والتقدير: ولا تؤخِّروا زواجهم فيقعوا في المعاصي بسبب شهوتهم، فيأثموا، فتحملوا آثامهم.

١- «مُسنَد الفاروقِ» لابنِ كثيرٍ ١/ ٣٩٧.

[٣٨٠]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«أَيُّهَا النَّاسُ، كُتِبَ عَلَيْكُمْ ثَلَاثَةُ أَسْفَارٍ: كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْحَجُّ وَالْعُمْرَةُ، كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْجِهَادُ، كُتِبَ عَلَيْكُمْ أَنْ يَبْتَغِيَ الرَّجُلُ بِمَالِهِ فِي وَجْهٍ مِنَ الْوُجُوهِ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَالْمُسْتَعِينُ وَالتَّصْدِيقُ. فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَأَنْ أَمُوتَ وَأَنَا أَبْتَغِي بِنَفْسِي وَمَالِي فِي وَجْهٍ مِنْ هَذِهِ الْوُجُوهِ فِي سَبِيلِ اللهِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَمُوتَ عَلَى فِرَاشِي، وَلَوْ قُلْتُ: إِنَّهَا شَهَادَةٌ. رَأَيْتُ أَنَّهَا شَهَادَةٌ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يحدِّث أمير المؤمنين ﷺ ببعض فرائض الله على عباده، ثمَّ يؤكِّد على أهمية العمل والسعي في سبيل الله - تعالى -.

البيان والبلاغة: قوله: (**أَيُّهَا النَّاسُ**): تنبيه للناس لقربهم من نفسه، وحرصه على تعليمهم ما لهم وما عليهم من أمور الدنيا والدين. وقوله: (**كُتِبَ عَلَيْكُمْ ثَلَاثَة**)، أي: فرضت عليكم أمور ثلاثة حتمية عندما يتطلبها الأمر، ويستدعيها الموقف. وقوله: (**أَنْ يَبْتَغِيَ**)، أي: يتخذها وجهة له يقصدها في مرضاة الله، ويعقد عليها النية في الحاضر وما يستقبل من الزمان. وقوله: (**وَجْهٍ مِنَ الْوُجُوهِ**): كناية عن عرض جميع الوجوه الممكنة، وأن يتخير منها ما يتطلبه الأمر وتختاره وتميل إليه النفس وتقتنع به. وقوله: (**فَالْمُسْتَغْنِي وَالْمُتَصَدِّقُ**): تفصيل بتعديد الوجوه الممكنة، وكأن المتحدث يوجه السامع إلى التفصيلات التي تغيب عن ذهنه. وقوله: (**فَوَالَّذِي**

١- رواهُ ابنُ شبَّةَ في «تاريخِ المدينةِ» ٢/ ٧٤٦، وابنُ أبي شيبةَ في «المُصنَّفِ» (٢٢٦٢٦)، والخَلَّالُ في «الحثِّ على التِّجارةِ (٦٢).

نَفْسِي بِيَدِهِ): أسلوب قسم عرفت صيغته من سنة النبي ﷺ، وكثرت في أحاديثه الشريفة، وتناقلتها ألسن الصحابة ﷺ، وفيها الاعتماد في الأولى والأخرة على خالق الكون الذي بيده مقاليد الأمور. وقوله: (**لَأَنْ أَمُوتَ وَأَنَا أَبْتَغِي**): صدر جملته هذه باللام المؤكدة؛ لأهمية وخطر ما يأتي بعدها، والواو: حالية. وقوله: (**أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَمُوتَ** ...): استعمل المصدر المؤوَّل في (**أنْ أموتَ**) مرتين؛ لما له من ميزة في إفادة زمن الفعل وبيان الفاعل، وجاء الخبر على صيغة (أفعل) الدالة على المفاضلة بين شيئين. وقوله: (**وَلَوْ**): (**الواو**) وصلت السابق باللاحق، و(**لو**) أداة شرط تحمل معنى الامتناع للامتناع.

[٣٨١]

وَمِنْ كَلَام لَهُ

لِرَاعٍ شَكَا إِلَيْهِ الْجُوعَ بِأَرْضِهِ

«لَأَنْ أُخْطِئَ سَبْعِينَ خَطِيئَةً بِرُكْبَةَ[١]، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أُخْطِئَ خَطِيئَةً وَاحِدَةً بِمَكَّةَ»[٢].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يبين أمير المؤمنين ﷺ حرمة البلد الحرام، وأنَّ الذنب فيه أعظم من غيره.

البيان والبلاغة: قوله: (**لَأَنْ أُخْطِئَ**): بدأ كلامه باللام الموطئة للقسم، والتي تفيد التوكيد، ثم أتبعها بالمصدر المؤول ليحمل معه الدلالة على الزمن والتذكير بالفاعل. وقوله: (**سَبْعِينَ خَطِيئَةً**): العدد - هنا - خرج مخرج المبالغة، وليس مقصودا في ذاته. وهذا التعبير مأخوذ من قول الله - تعالى -: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٨٠]. وقوله: (**أَحَبُّ إِلَيَّ**): عبر بالمضارع؛ ليبعث روح الاستمرار في توجيه المعنى إلى المستقبل. وقد جاء لفظ النصِّ مساويا للمعنى؛ فلا إيجاز ولا إطناب.

١- رُكْبَة: مَوضِعٌ بالحجازِ بينَ غَمْرةَ وذاتِ عِرْقٍ. «النِّهاية» لابنِ الأثيرِ (ركب).

٢- رواهُ عبدُ الرَّزَّاقِ في «المُصنَّفِ» (٨٨٧١)، والأزرقيُّ في «أخبارِ مكَّةَ» ٢/ ١٣٤، والفاكهيُّ في «أخبارِ مكَّةَ» (١٤٣١).

[٣٨٢]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

وَقَدْ رَأَى رَجُلا يَسْحَبُ شَاةً بِرِجْلِهَا لِيَذْبَحَهَا

«وَيْلَكَ! قُدْهَا إِلَى الْمَوْتِ قَوْدًا جَمِيلًا»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يزجر أمير المؤمنين ﵁ رجلا رآه مخالفا لسنة الإسلام في الرأفة بالحيوان.

البيان والبلاغة: بدأ ﵁ بقوله: (**وَيْلَكَ**)، وهي جملة دعائية بالشر، وفيها توبيخ وتحذير من غضب الله - تعالى -؛ واختيارها للبدء جعل الكلام صادما للسامع رادعا له عن الاسترسال فيما هو عليه من الخطأ. وقوله: (**قُدْهَا**): أمر، الغرض منه الإرشاد والنصح. وقوله: (**قَوْدًا جَمِيلا**): التعبير بالمصدر له قوته الدلالية في تأكيد المعنى، وزيادة التوضيح عند بيان النوع.

١- رواهُ عبدُ الرَّزَّاقِ في «المُصنَّفِ» (٨٦٠٥)، والبيهقيُّ في «السُّنَنِ الكُبرَى» (١٩١٤٣).

[٣٨٣]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

لِرَاعٍ شَكَا إِلَيْهِ الجُوعَ بِأَرْضِهِ

«أَلَسْتَ بِأَرْضٍ مَضَبَّةٍ[1]؟» قَالَ: بَلَى، يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ. قَالَ عُمَرُ: «مَا أُحِبُّ أَنَّ لِي بِالضِّبَابِ حُمْرَ النَّعَمِ»[2].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: قال ابن الأثير - رحمه الله - في النهاية في غريب الحديث والأثر: «وهي أرض مَضَبَّة، أي: ذات ضِبَابٍ، مثل مأسَدَة، ومَذْأَبَة، ومَرْبَعة، أي: ذات أسود وذئاب ويَرَابيع».

البيان والبلاغة: قوله: (**أَلَسْتَ بِأَرْضٍ مَضَبَّةٍ؟!**): الاستفهام - هنا - ليس حقيقيًّا، وإنَّما هو استفهام تقريري؛ فعمر ﷺ يعلم طبيعة أرض الرَّجل، لكنه يريد أن يقرره بهذه الحقيقة؛ كي يبني عليها كلامه. ثمَّ انطلق من هذا التقرير ليعلم الرَّجل أنَّ لأرضه ميزة لا تقدَّر بثمن، فقال: (**مَا أُحِبُّ أَنَّ لِي بِالضِّبَابِ حُمْرَ النَّعَمِ**). وقدَّم كلمة (**بالضِّباب**) على اسم إنَّ (**حُمرَ النَّعم**) للتخصيص والاهتمام والتأكيد. وقوله: (**حُمْرَ النَّعَمِ**): كناية عن الثمين من الأموال والأشياء؛ فقد كانت هذه الكلمة عند العرب كالمثل السائر يضرب للشيء النفيس.

١- أَرْضٌ مَضَبَّةٌ: أَي ذَاتُ ضِبَابٍ، مِثْلُ: مَأْسَدَةٍ، ومَذْأَبةٍ. «النِّهاية» لابنِ الأثيرِ (ضبب).

٢- رواهُ عبدُ الرَّزَّاقِ في «المُصنَّفِ» (٨٦٧٧).

[٣٨٤]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«إِنَّ الرَّجْفَ مِنْ كَثْرَةِ الزِّنَا، وَإِنَّ قُحُوطَ الْمَطَرِ مِنْ قُضَاةِ السُّوءِ وَأَئِمَّةِ الْجَوْرِ»[1].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يبين - أمير المؤمنين ﷺ بعض الحقائق الغيبية التي تتعلق ببعض الذنوب وسوء عاقبتها.

البيان والبلاغة: قوله: (**إِنَّ الرَّجْفَ**): بدأ كلامه بـ (**إنَّ**) التوكيدية؛ لأنَّ البعض قد يتشكك فيه؛ لأنه غيب غير ظاهر للعيان؛ ولأنَّ الأمر من الأهمية والخطورة بمكان. ثم فعل نفس الشيء في الجملة التالية، فقال: (**وإنَّ قحوط** ...). والإضافة إلى المصدر في قوله: (**قُضاة السوء وأئمة الجور**) أفادت المعنى قوَّة وتجسيدًا، فكأنَّ السُّوء صار عَلَمًا على هؤلاء القضاة، والجورَ صار كذلك على أولئك الأئمة، وهو كناية عن بلوغهم في السوء والجَور أقصاه. وفي النصِّ إيجازٌ بالقِصَرِ شديد، والتقدير: إنَّ الرَّجف عقوبة من الله على كثرة الزنا بين الناس، وإنَّ قحوط المطر عقوبة من الله على قضاء قضاة السوء وجور أئمة الجور.

١- رواهُ ابنُ أبي الدُّنيا في «المطرِ والرَّعدِ والبرقِ» (٥٦).

[٣٨٥]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«لَبَيْتٌ بِرُكْبَةَ[١] أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ عَشَرَةِ أَبْيَاتٍ بِالشَّامِ»[٢].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: جاء في روايات هذا الأثر وشروحه أنَّ عمر رضي الله عنه خرج من المدينة يريد الشام، وفي الطريق بلغه نزول الطَّاعون بها، فقفَّى راجعا إلى المدينة، ثم قال هذا النصَّ.

البيان والبلاغة: قوله: (**لَبَيْتٌ بِرُكْبَةَ**): بدأ باللام الموطئة للقَسمِ؛ استدعاءً لانتباه السامع وليذهب بالشكِّ عنه في كون الكلام حقيقيًّا مقصودًا لا مجازيًا عابرا. وقوله: (**أَحَبُّ إِلَيَّ**): استعمل (أفعل) التفضيل ليكون أبلغ في بيان المعنى ونقل الشعور. وقوله: (**عَشَرة أبيات**): ذِكرُ العدد - هنا - لا اعتبار له وإنَّما خرج مخرج المُبالغةِ. والجملة جاءتْ كناية عن الصِّحَّة والحياة من جهة وعن المرض والموت من جهة أخرى، كما بيَّنت كتب الشروح. وعلى ذلك يكون في الجملة طباق بين قوله: (**بيتٌ بركبة**)، وقوله: (**عشرة أبيات بالشام**).

١- رُكْبة: مَوضِعٌ بالحجازِ بينَ غَمْرةَ وذاتِ عِرْقٍ. «النِّهاية» لابنِ الأثيرِ (ركب).

٢- رواهُ مالكٌ في «الموطَّإ» (٣٣٣٣).

[٣٨٦]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ
لِأَبِي سُفْيَانَ بْنِ حَرْبٍ

«لَا أُحِبُّكَ أَبَدًا؛ رُبَّ لَيْلَةٍ غَمَمْتَ فِيهَا رَسُولَ اللهِ»[1].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يوجِّه أمير المؤمنين خطابه لأبي سفيان ﵄، مبينا تحفظه في حبِّه وعلة ذلك.

البيان والبلاغة: بدأ أمير المؤمنين خطابه لأبي سفيان ﵄ بالنفي وبهذا الحرف الممدود الذي يُعِين المتحدِّث على قضاء نَهمته من النفي والتأكد من بلوغه أسماع المخاطب وجذب انتباهه له. ثم بين المنفيَّ بهذا الحرف فقال: (**لا أُحِبُّكَ أَبَدًا**). وقد أكَّد نفيَه بكلمة (**أَبَدًا**) التي تفيد استمرار النفي في المستقبل. وعقَّب على ذلك ببيان علة هذا الحكم، فقال: (**رُبَّ ليلةٍ غَمَمْتُ فِيها رَسُولَ الله**) ﷺ. ومع أنَّ (**رُبَّ**) تفيد الشكَّ والتقليل، ومع أنَّ أبا سفيان كان – حينئذٍ – مشرِكًا، إلا أنَّ ذلك كافٍ عند عمرَ ﵁ لمعاتبة أبي سفيان هذا العتاب الشديد، وفي ذلك كناية قوية عن شدة حبه لرسول الله ﷺ.

١- رواهُ ابنُ عساكرَ في «تاريخِ دمشقَ» ٢٣/ ٤٧١.

[٣٨٧]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«أَرَأَيْتُمْ إِنِ اسْتَعْمَلْتُ عَلَيْكُمْ خَيْرَ مَنْ أَعْلَمُ، وَأَمَرْتُهُ بِالْعَدْلِ؛ أَقَضَيْتُ مَا عَلَيَّ؟» قَالُوا: نَعَمْ. قَالَ: «لَا، حَتَّى أَنْظُرَ فِي عَمَلِهِ: أَعَمِلَ مَا أَمَرْتُهُ، أَمْ لَا؟»(١).

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يخاطب أمير المؤمنين رضي الله عنه مستمعيه مبينا لهم منهجه في اختيار وتقويم الولاة.

لطائف لغوية: قوله: (خَير): هو من صيغة أفعل التفضيل وإن لم يأخذ صورتها. وذلك أنَّ أصل (خير) و(شر): أخير وأشرُّ، ثم حذفت همزتها لكثرة الاستعمال حذفًا على غير قياس. ومن الجائز إرجاعها إلى الأصل عند استعمالهما، كما في قول الراجز:

بـلال خـيرُ النـاسِ وابنُ الأَخْيَرِ

وقد قُرِئ ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَنِ الْكَذَّابُ الْأَشَرُّ﴾ [القمر: ٢٦]، بفتح الشين وتشديد الراء.

وقد اجتمع في آية قرآنية واحدة استعمال كلمة (خير) لغير التفضيل، ثم

١- رواهُ عبدُ الرَّزَّاقِ في «المُصنَّفِ» (٢٠٦٦٥)، والبيهقيُّ في «السُّنَنِ الكُبرَى» (١٦٦٥٥)، و«شُعَبِ الإيمانِ» (٧٠١٠)، وابنُ عساكرَ في «تاريخِ دمشقَ» ١٠/ ٢٦٢ و٤٤/ ٢٨٠.

للتفضيل، وذلك في قوله تعالى: ﴿... إِنْ يَعْلَمِ اللهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْراً يُؤْتِكُمْ خَيْراً مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ﴾ [الأنفال: ٧٠].

البيان والبلاغة: الهمزة في قوله: (**أَرَأَيْتُمْ**) هي همزة الاستفهام، وبِدْء أمير المؤمنين رضي الله عنه بها = فيه من إثارة الذهن وجذب الانتباه ما فيه، وهذا أسلوب نبويٌّ بليغ له عشرات الأمثلة في سنة النبي ﷺ. واستعمل بعد ذلك أسلوب الشرط الذي يعلِّق تحقق الجواب على تحقق الشرط. وقوله: (**خَيْرَ مَنْ أَعْلَمُ**): عبَّر بصيغة التفضيل (**خير**) تقوية للمعنى ومبالغة في بيانه، وأتى بالفعل المضارع (**أعلم**) للدلالة على الاستمرار في هذا النَّهج حتى زمن الاستعمال. وقوله: (**أَقَضَيْتُ مَا عَلَيَّ؟**): فيه إيجاز بالحذف، والتقدير: أأكون - حينئذٍ - قضيتُ ما عليَّ أم لا؟ ويقال نفس الكلام في قوله: (**لا، حتَّى ...**)، والتقدير: لا أكون - حينئذٍ - قضيتُ ما عليَّ حتَّى ... ثم انتقل من الإيجاز إلى الإطناب في قوله: (**حَتَّى أَنْظُرَ فِي عَمَلِهِ: أَعَمِلَ مَا أَمَرْتُهُ، أَمْ لا**)؛ لأنَّ النظر في عملِه لا يُفهم منه إلا ما ذكره بعدُ. والغرض من هذا الإطناب والتفصيل بعد الإجمال: زيادة التأكيد والبيان. وإن كان هذا الإطناب لا يخلو من إيجاز، فقوله: (**أَعَمِلَ مَا أَمَرْتُهُ، أَمْ لا؟**) تقديره: أعمل ما أمرته به من العمل أم لم يعمل به؟

[٣٨٨]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

لِأَبِي ظَبْيَانَ[١]

«يَا أَبَا ظَبْيَانَ، اتَّخِذْ مِنَ الْحَرْثِ وَالسَّابِيَاءِ[٢]، مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلِيَكُمْ غِلْمَةُ قُرَيْشٍ، لَا يُعَدُّ الْعَطَاءُ مَعَهُمْ مَالًا»[٣].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: قوله: **(السَّابِياء)**: قال ابن الأثير - رحمه الله - في النهاية في غريب الحديث والأثر «يريد به النِّتاج في المواشي وكثرتها. يُقال: إنَّ لآل فلان سابِياءَ، أي: مواشي كثيرة. والجمعُ: السَّوَابِي. وهي في الأصل: الجلدة التي يخرجُ فيها الولدُ، وقيل: هي المشيمة».

مقتضى الحال: يخاطبُ أمير المؤمنين رضي الله عنه أبا ظبيانَ آمرا إياه باتخاذ الزرع والإنتاج قبل أن يلي الأمر غلمان قريش فيقلَّ العطاء. وقد بيَّن ابن الأثير - رحمه الله - في النهاية: أنَّ عمر رضي الله عنه بدأ بسؤال أبي ظبيان عن مقدار عطائه.

١- حُصَيْنُ بنُ جُنْدُبِ بنِ عمرٍو، مِن علماءِ الكوفةِ. وكانَ ممَّن غزا القسطنطينيَّةَ معَ يزيدَ بنِ معاويةَ سنةَ خمسينَ. تُوفِّي سنةَ تسعٍ وثمانينَ. وقيلَ: سنةَ تسعينَ. «سير أعلام النُّبلاءِ» ٤/ ٣٦٢.

٢- يريدُ الزِّراعةَ والنِّتاجَ. والسَّابياءُ هي النِّتاجُ.

٣- رواهُ ابنُ أبي شيبةَ في «المُصنَّفِ» (٣٨٨٧٠)، والبخاريُّ في «الأدبِ المفردِ» (٥٧٦)، وابنُ عبدِ البرِّ في «جامعِ بيانِ العلمِ وفضلِه» (١٣١٧)، واللَّفظُ للبخاريِّ.

البيان والبلاغة: قوله: (**يَا أَبَا ظَبْيَانَ**): بدأ أمير المؤمنين ﵁ حديثه بهذا النداء الذي يفيض رقة وعذوبة، وذلك: ظاهر في أمرين: الأول: أداة النداء (**يا**) التي للبعيد، والبعد هنا بعد مكانة لا مكان، أو يقال: إنَّه عدل إلى أداة النداء التي للبعيد؛ دفعا لغفلة المنادَى وطلبا لتنبيهه. والثاني: عدوله عن الاسم إلى الكنية، والعرب تعدُّ الكنية علامة على التوقير والتبجيل. وهذا من براعة استهلال أمير المؤمنين ﵁ حيث جعل هذا النداء اللطيف مقدمة بين يدي نصيحته، وذلك أدعى لقبولها. فلما رأى عمر ﵁ أنَّ حُصينًا قد تهيَّأ لاستقبال النصيحة شرع في نصحه فقال: (**اتَّخِذْ مِنَ الْحَرْثِ وَالسَّابِيَاءِ، مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلِيَكُمْ غِلْمَةُ قُرَيْشٍ، لَا يُعَدُّ الْعَطَاءُ مَعَهُمْ مَالا**). وفي قوله: (**غِلْمَةُ قُرَيْشٍ**): جاءت (**غِلْمَة**): على وزن فِعلة، وهو من جموع القلة، تحقيرًا لشأنهم وإن كثُر عددهم.

[٣٨٩]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

لِسَلَمَةَ بْنِ قَيْسٍ الْأَشْجَعِيِّ[١]، وَمَنْ نَدَبَهُمْ مَعَهُ لِلْخُرُوجِ لِلْقِتَالِ

«انْطَلِقُوا بِاسْمِ اللهِ، وَفِي سَبِيلِ اللهِ؛ تُقَاتِلُونَ مَنْ كَفَرَ بِاللهِ، لَا تَغُلُّوا، وَلَا تَغْدِرُوا، وَلَا تُمَثِّلُوا، وَلَا تَقْتُلُوا امْرَأَةً، وَلَا صَبِيًّا، وَلَا شَيْخًا هِمًّا، وَإِذَا انْتَهَيْتَ إِلَى الْقَوْمِ فَادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ وَالْجِهَادِ، فَإِنْ قَبِلُوا فَهُمْ مِنْكُمْ، فَلَهُمْ مَا لَكُمْ، وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَيْكُمْ، وَإِنْ أَبَوْا فَادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ بِلَا جِهَادٍ، فَإِنْ قَبِلُوا فَاقْبَلْ مِنْهُمْ، وَأَعْلِمْهُمْ أَنَّهُ لَا نَصِيبَ لَهُمْ فِي الْفَيْءِ، فَإِنْ أَبَوْا فَادْعُهُمْ إِلَى الْجِزْيَةِ، فَإِنْ قَبِلُوا فَضَعْ عَنْهُمْ بِقَدْرِ طَاقَتِهِمْ، وَضَعْ فِيهِمْ جَيْشًا يُقَاتِلُ مَنْ وَرَاءَهُمْ، وَخَلِّهِمْ وَمَا وَضَعْتَ عَلَيْهِمْ، فَإِنْ أَبَوْا فَقَاتِلْهُمْ، فَإِنْ دَعَوْكُمْ إِلَى أَنْ تُعْطُوهُمْ ذِمَّةَ اللهِ وَذِمَّةَ مُحَمَّدٍ ﷺ فَلَا تُعْطُوهُمْ ذِمَّةَ اللهِ وَلَا ذِمَّةَ مُحَمَّدٍ، وَلَكِنْ أَعْطُوهُمْ ذِمَمَ أَنْفُسِكُمْ، ثُمَّ قُولُوا لَهُمْ، فَإِنْ أَبَوْا عَلَيْكُمْ فَقَاتِلْهُمْ؛ فَإِنَّ اللهَ نَاصِرُكُمْ عَلَيْهِمِ»[٢].

١- سَلَمَةُ بنُ قَيْسٍ الأَشْجَعِيُّ الغَطَفانيُّ، لهُ صحبةٌ، ولهُ روايةٌ عنِ النَّبيِّ - صلَّى اللهُ عليهِ وآلِه وسلَّمَ -، يُقالُ: نزلَ الكوفةَ. «الإصابة» ٣/ ١٢٨.

٢- رواهُ أبو يوسفَ في «الخراج» ص٢١١-٢١٢ مُختصَرًا، وسعيدُ بنُ منصورٍ في «سُنَنِهِ» (٢٤٧٦) واللَّفظُ لهُ، و«المنتظم في التَّاريخِ» ٤/ ٢٧٧.

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يخاطب أمير المؤمنين رضي الله عنه أحد قادته ناصحا ومذكرا إياه ببعض الأمور والأحكام والأخلاق التي لابدَّ وأن ينتبه لها في قتاله عدوَّه.

البيان والبلاغة: قوله: (**انْطَلِقُوا**): أسلوب إنشائي، واستعمال فعل الأمر يحمل مدلول الإرشاد والتوجيه. وقوله: (**بِاسْمِ الله**): الباء للاستعانة والتبرك باسم الله - تعالى -. وقوله: (**تُقَاتِلُونَ مَنْ كَفَرَ بِالله**): أَسلوب خبري الغرض منه التفصيل بعد الإجمال. وقوله: (**لَا تَغُلُّوا، وَلَا تَغْدِرُوا، وَلَا تُمَثِّلُوا، وَلَا تَقْتُلُوا امْرَأَةً**): اعتمد على المضارع الذي انتقلت صيغته من المضارع إلى الأمر بـ (**لا**) الناهية، وتمديد العمل بالأمر من الحاضر إلى المستقبل الممتد إلى زمان آخر. وهنا في هذا التعدد حسن تقسيم، والتفصيل فيه دقة كبيرة، يبدأ بالتحذير من الغلو، والغدر، والتمثيل بالأجساد، والتعدي على المرأة. وقوله: (**فَادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ**): الفاء تدل على الترتيب والتعقيب، والأسلوب إنشائي الغرض منه الأمر والإلزام بهذا الترتيب. وقوله: (**فَإِنْ قَبِلُوا**)، (**وَإِنْ أَبَوْا**) الجملة الشرطية تحمل الرأفة والرحمة في عرض القضية، ويكون جواب الشرط مبينا للحقوق والواجبات التابعة. وقوله: (**بِقَدْرِ طَاقَتِهِمْ**) القدر فيه الاستطاعة والديمومة عليه، وكناية عما يستطيعون من مال أو أعمال. وقوله: (**يُقَاتِلُ مَنْ وَرَاءَهُمْ**)، أي: يحميهم، وهو حقهم؛ فما داموا سلموا بدفع الجزية فعلى المسلمين حمايتهم، وإلا ترد إليهم جزيتهم.

[٣٩٠]

وَمِنْ كَلَام لَهُ

وَقَدْ بَلَغَهُ أَنَّ قَوْمًا يُفَضِّلُونَهُ عَلَى أَبِي بَكْرٍ

«إِنِّي سَأُخْبِرُكُمْ عَنِّي وَعَنْ أَبِي بَكْرٍ: لَمَّا تُوُفِّيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ارْتَدَّتِ الْعَرَبُ، وَمَنَعَتْ شَاتَهَا وَبَعِيرَهَا، فَأَجْمَعَ رَأْيُنَا كُلِّنَا - أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ - أَنْ قُلْنَا: يَا خَلِيفَةَ رَسُولِ اللهِ، إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يُقَاتِلُ الْعَرَبَ بِالْوَحْيِ وَالْمَلَائِكَةِ يَمُدُّهُ اللهُ بِهِمْ، وَقَدِ انْقَطَعَ ذَلِكَ الْيَوْمَ، فَالْزَمْ بَيْتَكَ وَمَسْجِدَكَ؛ فَإِنَّهُ لَا طَاقَةَ لَكَ بِقِتَالِ الْعَرَبِ. فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَوَكُلُّكُمْ رَأْيُهُ عَلَى هَذَا؟ فَقُلْنَا: نَعَمْ. فَقَالَ: وَاللهِ لَأَنْ أَخِرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفَنِي الطَّيْرُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ يَكُونَ هَذَا رَأْيِي!

ثُمَّ صَعِدَ الْمِنْبَرَ، فَحَمِدَ اللهَ، وَكَبَّرَهُ، وَصَلَّى عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ، فَقَالَ: «أَيُّهَا النَّاس، مَنْ كَانَ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا فَإِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ مَاتَ، وَمَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللهَ فَإِنَّ اللهَ حَيٌّ لَا يَمُوتُ. أَيُّهَا النَّاس، أَأَنْ كَثُرَ أَعْدَاؤُكُمْ، وَقَلَّ عَدَدُكُمْ؛ رَكِبَ الشَّيْطَانُ مِنْكُمْ هَذَا الْمَرْكَبَ؟! وَاللهِ لَيُظْهِرَنَّ اللهُ هَذَا الدِّينَ عَلَى الْأَدْيَانِ كُلِّهَا وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ. قَوْلُهُ الْحَقُّ، وَوَعْدُهُ الصِّدْقُ، {**بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ**}[1] وَ{**كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ**

١- سورة الأنبياء: آية ١٨.

غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ}[١]، وَاللهِ - أَيُّهَا النَّاس -، لَوْ أُفْرِدْتُ مِنْ جَمِيعِكُمْ لَجَاهَدْتُهُمْ فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ حَتَّى أُبْلِيَ بِنَفْسِي عُذْرًا أَوْ أُقْتَلَ قَتْلًا. وَاللهِ - أَيُّهَا النَّاس -، لَوْ مَنَعُونِي عِقَالًا لَجَاهَدْتُهُمْ عَلَيْهِ، وَاسْتَعَنْتُ عَلَيْهِمُ اللهَ وَهُوَ خَيْرُ مُعِينٍ».

ثُمَّ نَزَلَ فَجَاهَدَ فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ حَتَّى أَذْعَنَتِ الْعَرَبُ بِالْحَقِّ»[٢].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يخاطب أمير المؤمنين رضي الله عنه الناس، وقد بلغه تفضيل بعضهم له على أبي بكرٍ رضي الله عنه، مبينا جانبا من فضائل أبي بكر وسيرته التي فاق فيها سائر الصحابة - رضي الله عنهم أجمعين -.

البيان والبلاغة: عبارات هذا النصِّ موزَّعة بين صاحبي رسول الله ﷺ عمر الفاروق وأبي بكر الصديق رضي الله عنهما . وقد افتتح عمر رضي الله عنه حديثه بالتأكيد بـ (**إِنَّ**)؛ لأنَّ بعض المخاطبين في شك مما سيقول؛ حيث يفضلونه على أبي بكر رضي الله عنه. وقوله: (**وَمَنَعَتْ شَاتَهَا وَبَعِيرَهَا**): كناية عن منع زكاة المال؛ لأن الأنعام كانت أكثر أموال العرب آنذاك. وبين (**شَاتَهَا**) و(**بَعِيرَهَا**) سجع أعطى الكلام جرسا حلوا. وقوله: (**أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ**): إطناب بالتخصيص؛ أراد منه بيان ما في الضمير من إبهام. وقوله: (**فَالْزَمْ بَيْتَكَ وَمَسْجِدَكَ**): كناية عن طلب الانقطاع عن الناس، وترك الانشغال بأحوالهم. وقوله: (**ثُمَّ نَزَلَ فَجَاهَدَ**): استعمل الفاء الدالة على الترتيب

١- سورة البقرة: آية ٢٤٩.

٢- ذكرهُ المبرّدُ في «الكاملِ» ٢/ ٥٠٦-٥٠٧ ط الرِّسالة، والآبِيُّ في «نثرِ الدُّرِّ» ٢/ ١٠-١١، وابنُ حمدونٍ في «التَّذكرةِ» ١/ ١٢٠-١٢١.

مع التعقيب والسرعة = فيه دليل على أنَّ أبا بكر رضي الله عنه لم يلبث أن انشغل وانخرط في الجهاد في سبيل الله - تعالى - حتى حفظ الله - عز وجل - به هذا الدين.

[٣٩١]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

لِأَبِي مَرْيَمَ الْحَنَفِيِّ[١] «وَاللهِ لَا أُحِبُّكَ حَتَّى تُحِبَّ الْأَرْضُ الدَّمَ الْمَسْفوحَ[٢]». قَالَ: فَتَمْنَعُنِي لِذَلِكَ حَقًّا؟ قَالَ عُمَرُ: «لَا». قَالَ: فَلَا ضَيْرَ، إِنَّمَا يَأْسَفُ عَلَى الْحُبِّ النِّسَاءُ[٣].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يخاطب أمير المؤمنين رضي الله عنه أبا مريم الحنفي قاتلَ زيد بن الخطاب (أخي عمر)، مبينا له أنَّه لا يستطيع حبَّه أبدًا بسبب فعلته تلك، وإن تاب منها.

البيان والبلاغة: قوله: **(والله لَا أُحِبُّكَ)**: بدأ عمر رضي الله عنه بالقسم أقوى أنواع المؤكِّدات؛ لأنَّ الخبر الذي سيلقيه على مسامع أبي مريم الحنفي شديد الوقع فلابدَّ أن يصحبه ما ينفي الشكَّ عنه، ولأنَّ القسم له ما ليس لغيره من قوة في استدعاء الانتباه وإصغاء السماع تشوقا لمعرفة المقسم عليه. وقوله: **(حتى تُحِبَّ الأَرْضُ)**: علَّق حبَّه إياه على أمر محال؛ كناية عن استحالة وقوع ذلك الحبِّ. وفي إسناد الحبِّ للأرض استعارة مكنية؛ حيث شبه الأرض بالإنسان، ثمَّ حذف المشبه به وأتي بشيء من لوازمه، وهو الحبُّ. وقوله: **(لا)**: فيه إيجاز بالحذف، والتقدير: لا أمنعك

١- أبو مريمَ إِيَاسُ بنُ ضُبَيْحٍ الحنفيُّ، وكانَ مِن أهلِ اليمامةِ، وكانَ مِن أصحابِ مُسيلمةَ، وهو قتلَ زيدَ بنَ الخطَّابِ بنِ نُفَيلٍ يومَ اليمامةِ، ثمَّ تابَ وأسلمَ، وحسُن إسلامُه، ووليَ قضاءَ البصرةِ بعدَ عمرانَ بنِ الحصينِ في زمنِ عمرَ بنِ الخطَّابِ. «الطَّبقات الكبرى» ٧/ ٩١.

٢- دَمٌ مَسفوحٌ: أي مُرَاقٌ. «النِّهاية» لابنِ الأثيرِ (سفح).

٣- ذكرهُ الجاحظُ في «البيانِ والتَّبيينِ» ٢/ ٦٠، والمبرّدُ في «الكاملِ» ٢/ ١٤٥، والآبيُّ في «نثرِ الدُّرِّ» ٢/ ٢٧.

لذلك حقًّا. وهذا جريٌّ من عمر رضي الله عنه على سنن العرب والعربية الفصيحة في حذف ما يُعلم من الكلام. قال ابن مالك النحوي - رحمه الله -:

وحذف ما يُعلم جائزٌ، كما تقول: زيد، بعد: من عندكما؟

[٣٩٢]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

فِي فَضْلِ مَسْجِدِ قُبَاءٍ

«وَاللهِ لَأَنْ أُصَلِّيَ فِي هَذَا الْمَسْجِدِ صَلَاةً وَاحِدَةً أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أُصَلِّيَ فِي بَيْتِ الْمَقْدِسِ أَرْبَعًا، بَعْدَ أَنْ أُصَلِّيَ فِي بَيْتِ الْمَقْدِسِ صَلَاةً وَاحِدَةً. وَلَوْ كَانَ هَذَا الْمَسْجِدُ بِأُفُقٍ مِنَ الْآفَاقِ لَضَرَبْنَا إِلَيْهِ آبَاطَ الْإِبِلِ»[1].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يحدِّث أمير المؤمنين رضي الله عنه عن مسجد قباء وفضله.

البيان والبلاغة: قوله: (**وَاللهِ**): بدأ بالقسم الذي هو أقوى أنواع المؤكِّدات؛ لأنَّ الخبر الذي سيلقيه على مسامع الناس قد يكون غريبا عندهم، فيتشككون فيه. والبدء بالقسم - كذلك - يجبر الأسماع على الالتفات والانتباه لما سيقال؛ إذ لا يصدر القسم من أمثال عمر رضي الله عنه إلا في الأمور العظام والأحداث الجسام. ثم أردف التأكيد بالقسم بالتأكيد باللام؛ فازداد التأكيدُ تأكيدا. وقوله: (**لَأَنْ أُصَلِّيَ**): استعمل المصدر المؤول - الذي تقديره: لصلاتي ... - لما له من دلالة على الزمن، وإشارة إلى الفاعل، وهو يتميز بذلك عن المصدر الصريح. وقوله: (**فِي هَذَا المسجِدِ**): إمعانٌ في التَّحديد والتخصيص، يذهب بكلِّ احتمال لإرادة غير هذا المسجد. وقوله: (**صلاةً واحدةً**): أتي بذكر العدد - هنا - للتأكيد لا للتمييز؛ إذ العدد (واحد) و(اثنان) يشتق من لفظ المعدود، ولا يحتاج إلى تمييز. وقوله: (**أَحبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أُصَلِّيَ فِي بَيْتِ**

١- رواهُ عبدُ الرَّزَّاقِ في «المُصنَّفِ» (٩١٤١) و(٩١٦٣)، وابنُ سعدٍ في «الطَّبقاتِ الكُبرى» ١/ ٢٤٥، وابنُ شبَّةَ في «تاريخِ المدينةِ» ١/ ٤٦.

الْمَقْدِسِ أَرْبَعًا): استعمل أفعل التفضيل لبيان شدة المحبة، وأتي بالمصدر المؤول لنفس العلة السابقة. وفي الجملة إيجاز بالحذف، والتقدير: أحبُّ إلي من أن أصلي في مسجد بيت المقدس أربع صلوات. وقوله: (**بَعْدَ أَنْ أُصَلِّيَ فِي بَيْتِ الْمَقْدِسِ صَلَاةً وَاحِدَةً**): إطناب يراد به التقييد والاحتراز من أن يفهم أحدٌ أن التفضيل - هنا - عامٌّ على كلِّ حال، وأنَّ الصلاة في مسجد قباء أفضل من الصلاة في المسجد الأقصى مطلقا. وقوله: (**وَلَوْ كَانَ هَذَا الْمَسْجِدُ بِأُفُقٍ مِنَ الْآفَاقِ لَضَرَبْنَا إِلَيْهِ آبَاطَ الْإِبِلِ**): (**لو**) حرف امتناع لوجود دالٌّ على الشرط. والشرط - هنا - كون المسجد بأفق من الآفاق، وجوابه (**ضربنا له آباط الإبل**)، وقد امتنع الجواب لامتناع الشرط؛ إذ المسجد بالمدينة وليس بأفق من الآفاق. وتنكير (**أفقٍ**) للتعميم. وقوله: (**لَضَرَبْنَا إِلَيْهِ آبَاطَ الْإِبِلِ**): اللام للتأكيد، والجملة كناية عن السفر الطويل الشاق، وعن تعظيم مسجد قباء؛ إذ لا يكون مثل هذا السفر إلا إلى مكان عظيم فاضل.

[٣٩٣]

وَمِنْ كَلَام لَهُ

وَقَدْ رَأَى رَجُلًا مُتَمَاوِتًا يُظْهِرُ النُّسُكَ

«لَا تُمِتْ عَلَيْنَا دِينَنَا، أَمَاتَكَ اللهُ»[1].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: **(المتماوت)**: هو الذي يُبالغ في إظهار التخشُّع والسكينة، وكأنَّه مشرف على الموت.

مقتضى الحال: يخاطب أمير المؤمنين رضي الله عنه رجلا يظنُّ أنَّ من التنسُّك والتعبُّد المبالغةَ في الخضوع والخشوع أمام النَّاس.

البيان والبلاغة: قوله: **(لا تُمِتْ عَلَيْنا دِيْنَنا)**: فيه استعارة مكنيَّة؛ إذ شبَّه عمر رضي الله عنه الدينَ بكائن حيٍّ، ثمَّ حذف المشبَّه به، وهو هذا الكائن، وذكر شيئًا من لوازمه، وهو الموت، ثمَّ شبَّه تخشُّع الرجل وخضوعه بالإقدام على إماتة ذلك الكائن. وفي تعلُّق الفعل **(تُمِت)** بحرف الجرِّ **(على)** تضمُّن لمعنى **(تفسد)**، أي: لا تُفسِد علينا ديننا؛ إذ يستقيم اللفظ بحذف **(على)** ومجرورها. وفي ذكر هذا الجار والمجرور فائدة أخرى وهي: التخصيص والعناية، كأنَّ عمر رضي الله عنه يقول لذلك المتماوت: إنَّك بعملك هذا تفسد علينا نحن ديننا؛ فمغبَّة عملك ليست عليك وحدك. وقوله: **(أماتك الله)**:

١- ذكرهُ المبرّدُ في «الكاملِ» ٢/ ١٢٢ ط دار الفكر العربيّ، وأبو حيَّانَ التَّوحيديُّ في «البصائرِ والذَّخائرِ» ٦/ ٣٨، والآبيُّ في «نثرِ الدُّرِّ» ٢/ ٢٧، والزَّمخشريُّ في «ربيعِ الأبرارِ» ٢/ ١٧٠.

فيه مشاكلة لفظيَّة لقوله: **(لا تمت)**. وهذه الجملة دعاء لا يراد بها ظاهره، فهو ممَّا يجري على الألسنة من غير قصد لحقيقة معناه، كقولهم: ثكلتك أمُّك، وتربت يداك، ونحوها.

[٣٩٤]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ رضي الله عنه

«إِنَّ اللهَ - سُبْحَانَهُ وَبِحَمْدِهِ - قَدِ اسْتَوْجَبَ عَلَيْكُمُ الشُّكْرَ، وَاتَّخَذَ عَلَيْكُمُ الحُجَّ فِيمَا آتَاكُمْ مِنْ كَرَامَةِ الْآخِرَةِ وَالدُّنْيَا، عَنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ مِنْكُمْ لَهُ، وَلَا رَغْبَةٍ مِنْكُمْ فِيهِ إِلَيْهِ، فَخَلَقَكُمْ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- وَلَمْ تَكُونُوا شَيْئًا، لِنَفْسِهِ وَعِبَادَتِهِ، وَكَانَ قَادِرًا أَنْ يَجْعَلَكُمْ لِأَهْوَنِ خَلْقِهِ عَلَيْهِ، فَجَعَلَ لَكُمْ عَامَّةَ خَلْقِهِ، وَلَمْ يَجْعَلْكُمْ لِشَيْءٍ غَيْرِهِ، ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾[1].

ثُمَّ جَعَلَ لَكُمْ سَمْعًا وَبَصَرًا. وَمِنْ نِعَمِ اللهِ عَلَيْكُمْ نِعَمٌ عَمَّ بِهَا بَنِي آدَمَ، وَمِنْهَا نِعَمٌ اخْتَصَّ بِهَا أَهْلَ دِينِكُمْ، ثُمَّ صَارَتْ تِلْكَ النِّعَمُ خَوَاصُّهَا وَعَوَامُّهَا فِي دَوْلَتِكُمْ وَزَمَانِكُمْ وَطَبَقَتِكُمْ، وَلَيْسَ مِنْ تِلْكَ النِّعَمِ نِعْمَةٌ وَصَلَتْ إِلَى امْرِئٍ خَاصَّةً إِلَّا لَوْ قُسِّمَ مَا وَصَلَ إِلَيْهِ مِنْهَا بَيْنَ النَّاسِ كُلِّهِمْ أَتْعَبَهُمْ شُكْرُهَا، وَفَدَحَهُمْ حَقُّهَا، إِلَّا بِعَوْنِ اللهِ مَعَ الْإِيمَانِ بِاللهِ وَرَسُولِهِ، فَأَنْتُمْ مُسْتَخْلَفُونَ فِي الْأَرْضِ، قَاهِرُونَ لِأَهْلِهَا، قَدْ نَصَرَ اللهُ دِينَكُمْ، فَلَمْ تُصْبِحْ أُمَّةٌ مُخَالِفَةً لِدِينِكُمْ إِلَّا أُمَّتَانِ: أُمَّةٌ مُسْتَعْبَدَةٌ لِلْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ، يَجْزُونَ لَكُمْ، يُسْتَصْفَوْنَ مَعَايِشَهُمْ وَكَدَائِحَهُمْ وَرَشْحَ جِبَاهِهِمْ، عَلَيْهِمُ الْمُؤْنَةُ وَلَكُمُ الْمَنْفَعَةُ. وَأُمَّةٌ تَنْتَظِرُ وَقَائِعَ اللهِ وَسَطْوَاتِهِ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، قَدْ مَلَأَ اللهُ قُلُوبَهُمْ رُعْبًا، فَلَيْسَ لَهُمْ مَعْقِلٌ يَلْجَؤُونَ إِلَيْهِ، وَلَا مَهْرَبٌ يَتَّقُونَ بِهِ،

١- سورة لقمان: آية ٢٠.

قَدْ دَهِمَتْهُمْ جُنُودُ الله - عَزَّ وَجَلَّ - وَنَزَلَتْ بِسَاحَتِهِمْ، مَعَ رَفَاغَةِ الْعَيْشِ، وَاسْتِفَاضَةِ الْمَالِ، وَتَتَابُعِ الْبُعُوثِ، وَسَدِّ الثُّغُورِ بِإِذْنِ الله، مَعَ الْعَافِيَةِ الْجَلِيلَةِ الْعَامَّةِ الَّتِي لَمْ تَكُنْ هَذِهِ الْأُمَّةُ عَلَى أَحْسَنَ مِنْهَا مُذْ كَانَ الْإِسْلَامُ، وَاللهُ الْمَحْمُودُ، مَعَ الْفُتُوحِ الْعِظَامِ فِي كُلِّ بَلَدٍ، فَمَا عَسَى أَنْ يَبْلُغَ مَعَ هَذَا شُكْرُ الشَّاكِرِينَ وَذِكْرُ الذَّاكِرِينَ وَاجْتِهَادُ الْمُجْتَهِدِينَ، مَعَ هَذِهِ النِّعَمِ الَّتِي لَا يُحْصَى عَدَدُهَا، وَلَا يُقْدَرُ قَدْرُهَا، وَلَا يُسْتَطَاعُ أَدَاءُ حَقِّهَا إِلَّا بِعَوْنِ الله وَرَحْمَتِهِ وَلُطْفِهِ! فَنَسْأَلُ اللهَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الَّذِي أَبْلَانَا هَذَا، أَنْ يَرْزُقَنَا الْعَمَلَ بِطَاعَتِهِ، وَالْمُسَارَعَةَ إِلَى مَرْضَاتِهِ.

وَاذْكُرُوا - عِبَادَ الله - بَلَاءَ الله عِنْدَكُمْ، وَاسْتَتِمُّوا نِعْمَةَ الله عَلَيْكُمْ وَفِي مَجَالِسِكُمْ مَثْنَى وَفُرَادَى، فَإِنَّ اللهَ - عَزَّ وَجَلَّ - قَالَ لِمُوسَى: ﴿أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾[1]، وَقَالَ لِمُحَمَّدٍ ﷺ: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾[2]، فَلَوْ كُنْتُمْ إِذْ كُنْتُمْ مُسْتَضْعَفِينَ مَحْرُومِينَ خَيْرَ الدُّنْيَا عَلَى شُعْبَةٍ مِنَ الْحَقِّ، تُؤْمِنُونَ بِهَا، وَتَسْتَرِيحُونَ إِلَيْهَا، مَعَ الْمَعْرِفَةِ بِالله وَدِينِهِ، وَتَرْجُونَ بِهَا الْخَيْرَ فِيمَا بَعْدَ الْمَوْتِ؛ لَكَانَ ذَلِكَ، وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ أَشَدَّ النَّاسِ مَعِيشَةً، وَأَثْبَتَهُمْ بِالله جَهَالَةً، فَلَوْ كَانَ هَذَا الَّذِي اسْتَشْلَاكُمْ بِهِ لَمْ يَكُنْ مَعَهُ حَظٌّ فِي دُنْيَاكُمْ، غَيْرَ أَنَّهُ ثِقَةٌ لَكُمْ فِي آخِرَتِكُمُ الَّتِي إِلَيْهَا الْمَعَادُ وَالْمُنْقَلَبُ، وَأَنْتُمْ مِنْ جَهْدِ الْمَعِيشَةِ عَلَى مَا كُنْتُمْ عَلَيْهِ أَحْرِيَاءُ أَنْ تَشُحُّوا عَلَى نَصِيبِكُمْ مِنْهُ، وَأَنْ تَظْهَرُوهُ عَلَى غَيْرِهِ، فَبَلْهَ مَا إِنَّهُ قَدْ جَمَعَ لَكُمْ فَضِيلَةَ الدُّنْيَا وَكَرَامَةَ الْآخِرَةِ، وَمَنْ شَاءَ أَنْ يُجْمَعَ لَهُ

١- سورة ابراهيم: آية ٥.

٢- سورة الأنفال: آية ٢٦.

ذَلِكَ مِنكُمْ، فَأُذَكِّرُكُمُ اللهَ الحَائِلَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ إِلَّا مَا عَرَفْتُمْ حَقَّ اللهِ فَعَمِلْتُمْ لَهُ، وَقَسَرْتُمْ أَنْفُسَكُمْ عَلَى طَاعَتِهِ، وَجَمَعْتُمْ مَعَ السُّرُورِ بِالنِّعَمِ خَوْفًا لَهَا وَلِانْتِقَالِهَا، وَوَجَلًا مِنْهَا وَمِنْ تَحْوِيلِهَا؛ فَإِنَّهُ لَا شَيْءَ أَسْلَبُ لِلنِّعْمَةِ مِنْ كُفْرَانِهَا، وَإِنَّ الشُّكْرَ أَمْنٌ لِلْغَيْرِ، وَنَمَاءٌ لِلنِّعْمَةِ، وَاسْتِيجَابٌ لِلزِّيَادَةِ، هَذَا للهِ عَلَيَّ مِنْ أَمْرِكُمْ وَنَهْيِكُمْ وَاجِبٌ»[١].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: قوله: (**فَدَحَهُمْ حقُّها**)، أي: أعياهم وأثقلهم قضاء حقِّها. وقوله: (**رَفَاغَةِ العَيْشِ**): جاء في الصحاح: «الرَفْغُ: السعة والخصب. يقال: رَفُغَ عيشُه بالضم رَفاغَةً: اتَّسع ... وتَرَفَّغَ الرجل: توسَّع، فهو في رَفاغِيةٍ من العيش، مثال ثمانية». وقوله: (**اسْتَشْلَاكُمْ**): جاء في الصحاح: «واستشلاه واشْتَلاهُ، أي: استنقذه. وكلُّ مَن دعوته حتى تخرجه تنجيه من موضع هلكة، فقد استشليته وأشتليته».

مقتضى الحال: هذا النصُّ نصيحة نفيسة من أمير المؤمنين رضي الله عنه لأمة الإسلام في حياته وبعد مماته، ولعل تلك النصيحة كانت في إحدى خطبه ومواعظه رضي الله عنه.

البيان والبلاغة: استهلَّ أمير المؤمنين رضي الله عنه حديثه بـ (**إنَّ**) ثم (**قد**) المؤكِّدتين؛ ليعلم السامع أنه على يقين تامٍّ مما سيقول، ثم قال: (**إِنَّ اللهَ - سُبْحَانَهُ وَبِحَمْدِهِ - قَدِ اسْتَوْجَبَ عَلَيْكُمُ الشُّكْرَ**)، وقوله: (**سبحانه وبحمده**): إطناب أراد به تنزيه الله - تعالى - والتلذذ بذكره، والباء في العبارة للمصاحبة، أي: أسبحه حامدا إياه. قوله: (**ولم تكونوا شيئا**): تنكير (**شيئا**) في العبارة للتعميم والتحقير. وبين قوله: (**إليه**)

١- رواهُ الطَّبريُّ في «تاريخِه» ٤/ ٢١٦ - ٢١٨.

و(**عليه**): سجعٌ أبرز المعنى وأعطى الكلام جرسا حلوا. وبين الجملتين (**جعل لكم ... ولم يجعلكم لشيء غيره**) مقابلة تبرز المعنى وتقويه. وقد أردف ذلك كلَّه بآية قرآنية أكَّدت كلامه، وكانت دليلا على صحَّته، وقد أعطاه ذلك قوة، وأظهر ارتباط أمير المؤمنين بكتاب الله - تعالى -. وقوله: (**ثُمَّ صَارَتْ تِلْكَ النِّعَمُ خَوَاصُّهَا وَعَوَامُّهَا فِي دَوْلَتِكُمْ وَزَمَانِكُمْ وَطَبَقَتِكُمْ**): بين (**خواصها وعوامها**): سجع وطباق، أعطى المعنى قوة في الوضوح وحلاوة في الصوت، وكذا السجع في قوله: (**دَوْلَتِكُمْ وَزَمَانِكُمْ وَطَبَقَتِكُمْ**)، والعطف بين هذه المفردات متقاربة المعنى = يراد به التأكيد والمبالغة في إظهار المنة. وبين الجملتين (**أَتْعَبَهُمْ شُكْرُهَا، وَفَدَحَهُمْ حَقُّهَا**): ترادفٌ يقوي المعنى، وسجعٌ يعطي اللفظ جرسا حلوا. وقوله: (**فَلَمْ تُصْبِحْ أُمَّةٌ مُخَالِفَةً لِدِينِكُمْ إِلَّا أُمَّتَانِ**): الاستثناء بعد النفي يفيد الحصر، والحصر هنا حصر حقيقي. وقد شرع بعد هذا الإجمال في التفصيل، فذكر أوصاف كلِّ أمة بما يدل عليها ويبين المقصود. وفي قوله: (**يَسْتَصْفُوْنَ مَعَايِشَهُمْ وَكَدَائِحَهُمْ وَرَشْحَ جِبَاهِهِمْ، عَلَيْهِمُ الْمُؤُونَةُ وَلَكُمُ الْمَنْفَعَةُ**): كناية عن شدة جهدهم، وأنه تسخير من الله - سبحانه وتعالى - لهم؛ كرامة لأمة الإسلام وفضلا من الله عليهم. وفيه أيضا سجع بين (**مَعَايِشَهُمْ**) و(**كَدَائِحَهُمْ**) و(**جِبَاهِهِمْ**)، ومقابلة بين (**عَلَيْهِمُ الْمُؤُونَةُ**) و(**لَكُمُ الْمَنْفَعَةُ**)، مما أسهم في إبراز المعنى وتقويته. وقوله: (**وَقَائِعَ اللهِ وَسَطْوَاتِهِ**): كناية عن الجهاد وشدة بأس المسلمين. وقوله: (**قَدْ مَلأَ اللهُ قُلُوبَهُمْ رُعْبًا**): استعارة مكنية؛ حيث شبه القلوب بالأوعية تملأ ثم حذف المشبه به، وأتى بشيء من لوازمه وهو الملء، لكنها لا تملأ ماء، بل تملأ رعبا، وهذه استعارة ثانية في تجسيد الرعب وتشبيهه بالسوائل تملأ الآنية، والجملة كناية عن رعبهم المستمر. وقوله: (**رَفَاغَةِ الْعَيْشِ، وَاسْتِفَاضَةِ الْمَالِ، وَتَتَابُعِ الْبُعُوثِ**): العطف مع تقارب المعنى؛ للتأكيد، وهو إطناب ناسب موطن

الامتنان وإظهار نعمة الله - سبحانه وتعالى -. وفي قوله: (**شُكْرُ الشَّاكِرِينَ وَذِكْرُ الذَّاكِرِينَ وَاجْتِهَادُ الْمُجْتَهِدِينَ**) سجع ظاهر، أعطى المعنى وضوحا وجرسا حلوا، كما ساهم العطف في تقوية المعنى وتأكيده. ومثل ذلك يقال في قوله: (**النِّعَم الَّتِي لَا يُحْصَى عَدَدُهَا، وَلَا يُقْدَرُ قَدْرُهَا، وَلَا يُسْتَطَاعُ أَدَاءُ حَقِّهَا**)، وقوله: (**يَرْزُقَنَا الْعَمَلَ بِطَاعَتِهِ، وَالْمُسَارَعَةَ إِلَى مَرْضَاتِهِ**)، وقوله: (**خَوْفًا لَهَا وَلِانْتِقَالِهَا، وَوَجَلًا مِنْهَا وَمِنْ تَحْوِيلِهَا**). وقوله: (**عَلَى شُعْبَةٍ مِنَ الْحَقِّ**): استعارة مكنية؛ حيث شبه الحق بشيء محسوس ذي شعب، ثم حذف المشبه به، وأتى بشيء من لوازمه وهو الشعبة. وتعبيره بالأفعال المضارعة: (**تُؤْمِنُونَ، وَتَسْتَرِيحُونَ، وَتَرْجُونَ**) وغيرها = يدلُّ على تجدد واستمرار المعنى إلى المستقبل. وقد تميز النصُّ - بوجه عام - بالإطناب؛ حيث المقام مقام تعديد لنعم الله - سبحانه وتعالى - وامتنان بها؛ ولذلك استعمل أسلوب التقسيم والتفصيل غير مرة، وأكثر من المحسِّنات اللفظية التي أبرزت المعاني وأعطت الكلام رونقا وجرسا حلوا.

[٣٩٥]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

وَقَدْ رَأَى قَوْمًا سَمَرُوا بَعْدَ الْعِشَاءِ

«أَسَمَرًا مِنْ أَوَّلِهِ، وَنَوْمًا مِنْ آخِرِهِ؟!»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: دلَّت الرواية أن عمر ﷺ قال هذا الكلام لقوم رآهم جالسين للسمر بعد العشاء، فقال لهم ذلك مستنكرا عليهم فعلهم، ومتعجبا من تفريطهم في اغتنام الفضائل التي تكون في آخر الليل.

البيان والبلاغة: قوله: (**أَسَمَرًا**) مفعول مطلق لفعل محذوف تقديره: أتسمرون سمرًا، والاستفهام هنا استفهام إنكاري؛ فهو ينكر عليهم ما يقومون به، فيقضون أول الليل في السمر، ثم ينامون آخره غافلين عن فضائله. وقوله: (**وَنَوْمًا**): مفعول مطلق لفعل محذوف تقديره: تنامون نومًا. وقوله: (**مِنْ أَوَّلِهِ، ... مِنْ آخِرِهِ**): المطابقة بين التعبيرين أبرزت المعنى ووضحته وأفادت المضمون.

١- رواهُ عبدُ الرَّزَّاقِ في «المُصنَّفِ» (٢١٣٤).

[٣٩٦]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«لَا تَزْهَدُنَّ فِي إِخْفَاءِ الْحَقْوِ[١]؛ فَإِنَّهُ إِنْ يَكُ مَا تَحْتَ الْحَقْوِ خَافِيًا فَهُوَ أَسْتَرُ، فَإِنْ يَكُ فِيهِ شَيْءٌ فَهُوَ أَخْفَى لَهُ»[٢].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: (الحَقْو): الخَصر، أو معقد الإزار من الإنسان. ويُطلقُ - كذلك - على الإزار ذاته، وهو المقصود - هنا -. وفي الحديث المتفق عليه عن أمِّ عطية الأنصارية رضي الله عنها قالت: دخل علينا رسول الله ﷺ حين توفيت ابنته، فقال: «**اغْسِلْنَهَا ثَلَاثًا، أَوْ خَمْسًا، أَوْ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ إِنْ رَأَيْتُنَّ ذَلِكَ، بِمَاءٍ وَسِدْرٍ، وَاجْعَلْنَ فِي الآخِرَةِ كَافُورًا - أَوْ شَيْئًا مِنْ كَافُورٍ - فَإِذَا فَرَغْتُنَّ فَآذِنَّنِي**»، فلمَّا فرغنا آذانه، فأعطانا حقوَه، فقال: «**أَشْعِرْنَهَا إِيَّاهُ**»، تعني: إزاره.

مقتضى الحال: يخاطب عمر رضي الله عنه النساء ناصحا إياهُنَّ بمزيد من الستر وإخفاء ما تحت الحقو.

البيان والبلاغة: استهل أمير المؤمنين رضي الله عنه حديثه للنساء بالنهي الصريح المباشر، فقال: (**لَا تَزْهَدُنَّ ...**): فالأسلوب إنشائي، نهي، الغرض منه الإرشاد والتأديب والحث على المبالغة في الستر. ثمَّ أتبع أمير المؤمنين النهي بذكر علته، مؤكِّدا تلك العلة بحرف التوكيد (**إنَّ**)؛ كي يزيل كلَّ شك فيها من نفوس السامعات، فقال:

١- أي: لا تزهدن في غِلَظِ الإزارِ، وهو حثٌّ على تركِ التَّنعُّمِ. «النِّهاية» لابنِ الأثيرِ (جفا).

٢- رواهُ عبدُ الرَّزَّاقِ في «المُصنَّفِ» (٥٠٣٧).

(**فَإِنَّهُ إِنْ ...**)، والضمير – هنا – هو ضمير الشأن الذي سبق الحديث عنه غير مرة. واستعمل أسلوبَي الشرط والتقسيم؛ زيادة في الإيضاح والبيان، وتعديدا لفوائد الستر والإخفاء. وقوله: (**فَهُوَ أَخْفَى لَهُ**): استعمل الجملة الاسمية للدلالة على ثبوت الحكم واستقراره، وأتى بالضمير لأنه أنقى للجرس الصوتي من تكرار كلمة الحقو.

[٣٩٧]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«مَنِ اشْتَدَّ عَلَيْهِ الْحَرُّ يَوْمَ الْجُمُعَةِ فِي الْمَسْجِدِ فَلْيُصَلِّ عَلَى ثَوْبِهِ، وَمَنْ زَحَمَهُ النَّاسُ فَلْيَسْجُدْ عَلَى ظَهْرِ أَخِيهِ»(١).

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يبدو أنَّ أمير المؤمنين ﷺ قال هذا القول يوم الجمعة أو في إحدى خطبه لما اشتد الحر وازدحم الناس في المسجد.

البيان والبلاغة: قوله: (مَن): اسم موصول للعاقل، واستعماله يدلُّ على تعميم الحكم. وهو - أيضا - من أدوات الشرط، وقد أفاد تعليق الجواب - وهو الصلاة على الثوب أو السجود على ظهر الأخ - على حصول الشرط - وهو اشتداد الحر على المصلي أو ازدحام المسجد -. وقوله: (**يومَ الجُمُعة في المسْجد**): إطنابٌ بذكر قيد خرج مخرج الغالب، ولم يُرِدْ به حقيقة التقييد. وقوله: (**فَلْيُصَلِّ**): جواب الشرط مقترن بالفاء، وفيه دلالة على التعقيب من غير تراخٍ، وهو ما يناسب أمر الصلاة التي لا عذر لأحد في تركها أو التهاون فيها. ويقال في الجملة الثانية ما قيل في الأولى. وبين الجملتين موازنة في المقدار والأسلوب وانتقاء العبارات والألفاظ.

١- رواهُ عبدُ الرَّزَّاقِ في «المُصنَّفِ» (٥٤٦٩)، وابنُ أبي شيبةَ في «المُصنَّفِ» (٢٧٣٥)، وأحمدُ في «المُسنَدِ» (٢١٧)، والطَّيالسيُّ في «المُسنَدِ» (٧٠)، والبيهقيُّ في «السُّنَنِ الكُبرَى» (٥٦٢٩) و(٥٦٣٠)، و«معرفةِ السُّنَنِ والآثارِ» (٦٣٥٧).

[٣٩٨]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

وَقَدْ رَأَى رَجُلًا عَلَيْهِ هَيْئَةُ السَّفَرِ يَنْتَظِرُ صَلَاةَ الجُمُعَةِ

«إِنَّ الْجُمُعَةَ لَا تَحْبِسُ مُسَافِرًا؛ فَاخْرُجْ مَا لَمْ يَحِنِ الرَّوَاحُ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: دلَّت الرواية أن عمر رضي الله عنه قال هذا الكلام يوم الجمعة لرجل عليه هيئة السفر، قد أجَّل سفره وجلس ينتظر صلاة الجمعة.

البيان والبلاغة: قوله: (**إِنَّ الجُمُعَةَ لَا تَحْبِسُ مُسَافِرًا**): بدأ عمر رضي الله عنه حديثه بأداة التوكيد (**إِنَّ**) وبالجملة الاسمية الدلة على ثبات الحكم واستقراره؛ لأنَّ حال المخاطَب يدلُّ على أنه معتقد خلاف ما سيقول. وفي الجملة استعارة مكنية؛ حيث شبَّه الجمعة بالشخص الذي يمنع ويحبس عن فعل الشيء، ثم حذف المشبه به وأبقى شيئا من لوازمه، وهو الحبس. قوله: (**مُسافِرًا**): التنكير -هنا - لإرادة التعميم في الحكم. وقوله: (**فَاخْرُجْ**): الفاء هي الفصيحة، والتقدير: إذا كان الأمر كذلك، فاخرج ... والأمر - هنا - للإباحة لا الإيجاب، كما يدلُّ عليه السياق. وقوله: (**ما لَمْ يَحِن الرَّواح**): قيدٌ وشرط قيَّد به الإباحة السابقة، أي: إباحة الخروج والشروع في السفر يوم الجمعة.

١- رواهُ الشَّافعيُّ في «المُسنَدِ» (٤٥٨)، وعبدُ الرَّزَّاقِ في «المُصنَّفِ» (٥٥٣٧) بهذا اللَّفظِ.

[٣٩٩]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

وَقَدِ اسْتَنْكَرَ النَّاس مِنْهُ الِاكْتِفَاءَ بِالِاسْتِغْفَارِ فِي الِاسْتِسْقَاءِ

«لَقَدْ طَلَبْتُ الْمَطَرَ بِمَجَادِيحِ[1] السَّمَاءِ الَّتِي تُسْتَنْزَلُ بِهَا الْمَطَرُ: ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ ﴾ [نوح: ١١-١٢]. ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ ﴾ [هود: ٥٢] »[2].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: جاء في الرواية أنَّ أمير المؤمنين ﵁ قال هذا القول لَمَّا استنكر الناس منه الاكتفاء بالاستغفار في دعاء الاستسقاء.

١- المَجَادِيحُ: واحدُها مِجْدَحٌ، والياءُ زائدةٌ للإشباعِ. والقياسُ أن يكونَ واحدُها مِجْدَاحٌ، فأمَّا «مِجْدَحٌ» فجمعُه مَجَادِحُ. والمِجْدَحُ: نجمٌ مِن النُّجومِ. وقيلَ: هو الدَّبَرانِ. وقيلَ: هو ثلاثةُ كواكبَ كالأَثافي؛ تشبيهًا بالمِجْدَحِ الَّذي لهُ ثلاثُ شُعَبٍ، وهو عندَ العربِ مِن الأنواءِ الدَّالَّةِ على المطرِ، فجُعِلَ الاستغفارُ مُشبَّهًا بالأنواءِ؛ مُخاطَبَةً لهم بما يَعرِفونهُ، لا قولًا بالأنواءِ. وجاءَ بلفظِ الجمعِ؛ لأنَّه أرادَ الأنواءَ جميعَها الَّتي يزعمونَ أنَّ مِن شأنِها المطرُ. «النِّهاية» لابنِ الأثيرِ (جدح).

٢- رواهُ عبدُ الرَّزَّاقِ في «المُصنَّفِ» (٤٩٠٢)، وسعيدُ بنُ منصورٍ في (التَّفسيرِ) مِن «سُنَنِه» (١٠٩٥)، وابنُ سعدٍ في «الطَّبقاتِ الكُبرى» ٣/ ٣٢٠، وابنُ أبي شيبةَ في «المُصنَّفِ» (٨٤٢٩)، وابنُ شبَّةَ في «تاريخِ المدينةِ» ٢/ ٧٣٧، وابنُ أبي الدُّنيا في «المطرِ والرَّعدِ والبرقِ» (٨٤)، والطَّبرانيُّ في «الدُّعاءِ» (٩٦٤).

البيان والبلاغة: قوله: (**لَقَدْ طلبتُ**): بدأ أمير المؤمنين ﵁ كلامه مؤكِّدا باللام وقد؛ لأنَّ المستمع مخالف له. وقوله: (**بِمَجَادِيحِ السَّمَاءِ**)، أي: نجومها الكبار التي كانت العرب تعتقد أنَّها تؤثِّر في إنزال الأمطار، وهو كناية عن عظمة الاستغفار وشدة أثره في إنزال الأمطار. وقوله: (**تُسْتَنْزَلُ**): بنى الفعل للمفعول؛ لصرف الاهتمام إليه، ولأنه غير خاص بفاعل دون آخر. ثم أتى بدليل قوله مقتبسا آيتين من كتاب الله - تعالى - تدلان على ذلك، وهذا فيه إظهارٌ لحجته ودحض لحجة المخالف، وبيان لتعلق عمر ﵁ بالقرآن الكريم وتمسكه به.

[٤٠٠]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

عَامِ الرَّمَادَةِ

«أَيُّهَا النَّاس، اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ، اللَّهُمَّ إِنَّا نَتَقَرَّبُ إِلَيْكَ بِعَمِّ نَبِيِّكَ وَبَقِيَّةِ آبَائِهِ وَكِبَارِ رِجَالٍ؛ فَإِنَّكَ تَقُولُ، وَقَوْلُكَ الْحَقُّ: ﴿ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا ﴾[1]؛ فَحَفِظْتَهُمَا لِصَلَاحِ أَبِيهِمَا؛ فَاحْفَظِ اللَّهُمَّ نَبِيَّكَ فِي عَمِّهِ؛ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ كُنْتَ غَفَّارًا، اللَّهُمَّ أَنْتَ الرَّاعِي لَا تُهْمِلُ الضَّالَّةَ، وَلَا تَدَعُ الْكَسِيرَةَ بِمَضِيعَةٍ[2]، اللَّهُمَّ قَدْ ضَرَعَ الصَّغِيرُ، وَرَقَّ الْكَبِيرُ، وَارْتَفَعَتِ الشَّكْوَى، وَأَنْتَ تَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى. اللَّهُمَّ أَغِثْهُمْ بِغِيَاثِكَ قَبْلَ أَنْ يَقْنَطُوا فَيَهْلِكُوا، فَإِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ».

فَمَا بَرِحُوا حَتَّى عَلَّقُوا الْحِذَاءَ، وَقَلَصُوا الْمَآزِرَ، وَطَفِقَ النَّاس بِالْعَبَّاسِ يَقُولُونَ: هَنِيئًا لَكَ يَا سَاقِيَ الْحَرَمَيْنِ[3].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: (ضَرَعَ) في قوله: (ضَرَعَ الصَّغير): قال صاحب الصحاح: «الضَرَعُ، بالتحريك: الضعيف. وإنَّ فلانا لضارعُ الجسم، أي: نحيفٌ ضعيفٌ».

١- سورة الكهف: آية ٨٢.

٢- قالَ ابنُ الأثيرِ في «النِّهايةِ» ٣/ ١٠٨: (المَضِيعة، بكسرِ الضَّادِ: مَفعِلةٌ مِن الضَّياعِ: الاطِّراح والهوان).

٣- ذكرهُ ابنُ عبدِ ربِّه في «العِقدِ الفريدِ» ٤ / ١٥٥.

مقتضى الحال: هذا النَّص قاله عمر ﷺ في عام الرمادة، وقد ذكر ابن الأثير في كتاب الكامل في التاريخ قصة هذا النَّص فقال: «قال أهل بيت من مزينة لصاحبهم، وهو بلال بن الحارث: قد هلَكنا فاذبح لنا شاة. قال: ليس فيهن شيء. فلم يزالوا به حتى ذبح فسلخ عن عظم أحمر، فنادى: يا محمداه! فأُرِي في المنام أن رسول الله ﷺ أتاه فقال: أبشر بالحيا، إيت عمر فأقرئه مني السلام، وقل له إني عهدتك وأنت وفي العهد شديد العقد، فالكيس الكيس يا عمر! فجاء حتى أتى باب عمر فقال لغلامه: استأذن لرسول رسول الله ﷺ فأتى عمر فأخبره، ففزع وقال: رأيت به مَسًّا؟ قال: لا، فأدخله، وأخبره الخبر، فخرج فنادى في الناس وصعد المنبر فقال: نشدتكم الله الذي هداكم هل رأيتم مني شيئا تكرهون؟ قالوا: اللهم لا، ولم ذاك؟ فأخبرهم ففطنوا ولم يفطن عمر، فقالوا: إنما استبطأك في الاستسقاء فاستسق بنا. فنادى في الناس، وخرج معه العباس ماشيا، فخطب وأوجز وصلى ثم جثا لركبتيه، وقال: اللهم عجزت عنا أنصارنا وعجز عنا حولُنا وقوتنا وعجزت عنا أنفسنا، ولا حول ولا قوة إلا بك، اللهم فاسقنا وأحي العباد والبلاد، وأخذ بيد العباس بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ وإن دموع العباس لتتحادر على لحيته، فقال: ...» هذا النَّص.

وهذا الأثر واللذان بعده وردوا في عام الرمادة، وهذا العام كان في آخر السنة السابعة عشر من هجرة النبي ﷺ إلى أول السنة الثامنة عشر، وسُمِّيَ بعام الرمادة لأسباب ذكرها الحافظ ابن كثير – رحمه الله تعالى –، فقال: «وسميت عام الرمادة؛ لأن الأرض اسودت من قلة المطر، حتى عاد لونُها شبيها بالرماد، وقيل: لأنها كانت تسفي الريح ترابا كالرماد، ويمكن أن تكونِ سميت لكل منهما، والله أعلم»[1] وقد

١- البداية والنهاية (١٠/ ٦٨).

اتبع الفاروق ﷺ العديد من السبل لمحاربة هذا البلاء الذي حل بالأمة وسوف نستعرض السبل التي عمل الفاروق بها في إدارة الأزمة من خلال الأحاديث التالية.

البيان والبلاغة: كان أول منزل من المنازل التي عكف عليها الفاروق لإدارة الأزمة التي حلت بالبلاد والعباد هو: الاستعانة بالله - عز وجل - والتضرع إليه، والتوسل إليه بدعاء الصالحين؛ فالمقام - هاهنا - مقام تضرع ودعاء لرب العباد - سبحانه وتعالى -، فعلى الرغم من الإجراءات الإدارية العديدة التي قام بها الفاروق ﷺ إلا أنه جعل التضرع لله - عز وجل - منزله الدائم الذي أقام فيه قبل الأزمة وأثنائها وبعدها. فيبدأ خطبته البليغة باسترعاء انتباه المستمعين، قائلا: (**أَيُّهَا النَّاسُ**): وكأنه استخدم (**أيها**) لما فيها من مدٍّ للصَّوْت وطول النفس معه، وكأن المتلقي شارد الذهن فينفذ هذا النداء إلى أركانه فيهزها، ويوقظ حواسه لاستشعار الخطر الذي يلم بهم، ثم يمضي إلى صلب الموضوع: (**اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا**): السين والتاء في (**استغفروا**) يُزادان في الفعل لتضمينه طلب شيء مرغوب في حصوله لحاجة ملحة إليه من قِبَلِ الطالب. وتتجلي ظاهرة التناص في القول السابق من قوله تعالى: ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴾ [نوح : ١٠]. وفي اختيار الفاروق ﷺ للآية مناسبة للسياق الذي هو بصدد الحديث عنه؛ فلما كان الغرض الاستسقاء وطلب الغيث جاء الاستغفار مناسبًا للسياق؛ إذ إن الآية التالية لهذا الآية: ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴾ [نوح : ١١]. واستخدام الأمر - هاهنا - للحث على الدعاء والإرشاد. ثم يقول: (**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَغْفِرُكَ، وَأَتُوبُ إِلَيْكَ**): والدعاء هنا الغرض منه التذلل والتضرع، وفي ذلك تأصيل للفكرة التي مارسها الفاروق ﷺ في تلك الأيام العصيبة فقد روي أنه في تلك الأزمة ألزم

نفسه أن لا يأكل سمنًا ولا سمينًا حتى يكشف الله ما بالنَّاس، فاسودَّ لونه وتغير جسمه حتى كاد يخشى عليه من الضعف، وهو - هنا - أمرهم بالاستغفار وكان أول المستغفرين، مستخدمًا التوكيد بـ (**إِنَّ**). وأما قوله: (**وَأَتُوبُ إِلَيْكَ**) ففيه إشارة لما ثبت عن الفاروق ﵁ في تلك المحنة أنه قال: (**اللَّهُمَّ إِنَّهُ لَمْ يَنْزِلْ بَلَاءٌ إِلَّا بِذَنْبٍ وَلَمْ يُكْشَفْ إِلَّا بِتَوْبَةٍ**). ومما سبق يُلاحظ أنه ﵁ في عبارته الموجزة السابقة أشار لمعنيين في غاية العمق بكلمات يسيرة. ثم ينتقل الفاروق ﵁ للتوسل بدعاء العباس وسائر آل البيت - رضي الله عنهم أجمعين - مستخدمًا القياس بين حالهم وحال الغلامين اللذين حفظهما الله - تعالى - لصلاح أبيهما، وفي ذلك بيان لعميق فهم الفاروق ﵁ للقرآن الكريم وقدرته على تأويل آياته، وفيه دلالة - أيضًا - على أن القرآن دستور شامل لإدارة حياة المسلم في كافة الظروف. ويعود بعد ذكر عم النبي ﷺ تارة أخرى للاستغفار فيقول: (**اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ كُنْتَ غَفَّارًا**)، وفيه توكيد للدلالة على أهمية الاستغفار في النوازل التي تلم بالنَّاس. وقوله: (**اللَّهُمَّ أَنْتَ الرَّاعِي لَا تُهْمِلُ الضَّالَّةَ، وَلَا تَدَعُ الْكَسِيرَةَ بِمَضْيَعَةٍ، اللَّهُمَّ قَدْ ضَرَعَ الصَّغِيرُ، وَرَقَّ الْكَبِيرُ، وارْتَفَعَتِ الشَّكْوَى، وَأَنْتَ تَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى**): في هذه السطور يثني الفاروق على ربه - سبحانه وتعالى - ويتذلل إليه فيقول: إنك سبحانك قيوم السماء والأرض حتى البهيمة الضالة ترعاها وترزقها، وكذلك تقوم على البهيمة الضعيفة بالمفازة؛ فيا رب إن الصغار قد ضعفوا، والكبار قد نحفوا، فارتفعت شكواهم إليك مستغيثين برحمتك؛ وإنك سبحانك تعلم ما نخفي وما نعلن. وقد تجلت في الفقرة السابقة العديد من المظاهر البلاغية؛ فنجد السجع في الأزواج التالية: (**الضَّالَّةَ، مَضْيَعَةٍ**)، و(**الصَّغِيرُ، الْكَبِيرُ**)، (**الشَّكْوَى، أَخْفَى**)، وجمال السجع يكمن في إعطاء جرس موسيقي يجذب انتباه المتلقي، ويظهر مقدرة وبلاغة المُلْقِي. وكذلك نجد

التضاد بين: (**الصَّغِيرُ، الْكَبِيرُ**)، (**الرَّاعِي، الضَّالَة**)، وجماله يكمن في تأكيد المعنى وتوضيحه. ومراعاة النظير بين: (**الرَّاعِي، الضَّالَة**) (**الكَسِيرَة، مَضْيَعَة**) (**ضَرَعَ، الصَّغِير**) (**رَقَّ الكَبِير**)، فتوافَق وائتلف كل لفظ من الألفاظ السابقة واللفظ الذي تلاه، وفي ذلك تأكيد للمعنى - أيضًا -. وفي الفقرة السابقة - ككل - مساواة؛ حيث جاءت المعاني بقدر الألفاظ، والألفاظ بقدر المعاني لا يزيد بعضها عن بعض دون حشو أو إطناب. وفي قوله: (**وَأَنْتَ تَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى**): تأثر بقول الله تعالى: ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: ٧]، وكذا بقول النبي ﷺ: «**أَيُّهَا النَّاس؛ ارْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ؛ فَإِنَّكُمْ مَا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا، إِنَّمَا تَدْعُونَ سَمِيعًا بَصِيرًا إِنَّ الَّذِى تَدْعُونَ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ عُنُقِ رَاحِلَتِهِ**»، وقد يجوز الاصطلاح على هذا بالتناص الخفي. ثم يعود بعد التضرع والتذلل والابتهال لجلال الله الوهاب الرزاق للسؤال: (**اللَّهُمَّ أَغِثْهُمْ بِغِيَاثِكَ**)، وهذا أسلوب إنشائي أمرٌ، الغرض منه الدعاء والتذلل. وفي قوله: (**قَبْلَ أَنْ يَقْنَطُوا**): دلالة على حرص عمر بن الخطاب رضي الله عنه على رعيته أن يصيبهم غضب من الله تعالى. وقوله: (**فَيَهْلَكُوا**): الفاء هنا للسرعة، وكأن من يقنط من روح الله يصيبه هلاك وعذاب سريعٌ من الله - تعالى -. ثم يقول: (**فَإِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ**) وهنا يتجلى التناص مرة أخرى مع قول الله تعالى: ﴿**إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ**﴾ [يوسف : ٨٧] والفاء - أيضًا - للسرعة والتعقيب.

[٤٠١]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

فِي عَامِ الرَّمَادَةِ

«أَيُّهَا النَّاس، اتَّقُوا اللهَ فِي أَنْفُسِكُمْ وَفِيمَا غَابَ عَنِ النَّاس مِنْ أَمْرِكُمْ؛ فَقَدِ ابْتُلِيتُ بِكُمْ، وَابْتُلِيتُمْ بِي، فَمَا أَدْرِي: السَّخْطَةُ عَلَيَّ دُونَكُمْ، أَوْ عَلَيْكُمْ دُونِي، أَوْ قَدْ عَمَّتْنِي وَعَمَّتْكُمْ؟! فَهَلُمُّوا فَلْنَدْعُ اللهَ يُصْلِحْ قُلُوبَنَا، وَأَنْ يَرْحَمَنَا، وَأَنْ يَرْفَعَ عَنَّا الْمَحْلَ»، فَرُئِيَ عُمَرُ يَوْمَئِذٍ رَافِعًا يَدَيْهِ يَدْعُو اللهَ، وَدَعَا النَّاس، وَبَكَى وَبَكَى النَّاس مَلِيًّا، ثُمَّ نَزَلَ[1].

الشرح والتحليل

الألفاظ والغريب: (المَحْل): قال صاحب معجم الصحاح: «المَحْلُ: الجَدبُ، وهو انقطاع المطر، ويُبس الأرض من الكلاء».

مقتضى الحال: سبقت الإشارة إليه عند شرح النص السابق.

البيان والبلاغة: مازال الفاروق ﷺ يلح على الأمة في طلب الدعاء من الله – تعالى –كاشف الضر عن عباده، فبعد أن أمر الرعية بالاستغفار ذهب إلى علاج أمراض الأمة وأمرهم بتقوى الله – تعالى –، قال: (**أَيُّهَا النَّاس**) وقد سبق الكلام على أن الغرض من النداء استرعاء الانتباه، و(**أي**): من المعروف أنها لنداء القريب، وهنا استخدمها عمر ﷺ للناس كافة؛ لحثهم على سرعة الاستجابة لما يقول. ثم

١- رواهُ ابنُ سعدٍ في «الطَّبقاتِ الكُبرَى» ٣/ ٣٢٢، والبلاذريُّ في «أنسابِ الأشرافِ» ١٠/ ٤٠٢.

قال: (**اتَّقُوا اللهَّ فِي أَنْفُسِكُمْ**): الأسلوب إنشائي أمر الغرض منه الحث والإرشاد، وفيه تناص خفي أيضًا؛ حيث تأثر بالعديد من الآيات التي ربطت بين فتح أبواب الخير والسعة وبين تقوى الله تعالى، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ **وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ** ﴾ [الأعراف : ٩٦]، ﴿ **وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ** ﴾ [الطلاق : ٢-٣]. وقوله: (**وَفِيمَا غَابَ عَنِ النَّاس مِنْ أَمْرِكُمْ**): عطف على (**فِي أَنْفُسِكُمْ**) و(**مِنْ**) في قوله: (**مِنْ أَمْرِكُمْ**): للتبعيض؛ لحث النَّاس على مراعاة الله في الخلوات، وفيه دلالة على أن القوم يُمنعون الخير بذنوب البعض. ثم قال: (**فَقَدِ ابْتُلِيتُ بِكُمْ، وَابْتُلِيتُمْ بِي**) وابتلاء الفاروق بالأمة من قول النبي ﷺ لأبي ذر: «**إِنَّهَا أَمَانَةٌ، وَإِنَّهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ خِزْيٌ وَنَدَامَةٌ، إِلاَّ مَنْ أَخَذَهَا بِحَقِّهَا وَأَدَّى الَّذِى عَلَيْهِ فِيهَا**»، وكذا قوله ﷺ: «**مَا مِنْ عَبْدٍ يَسْتَرْعِيهِ اللهُ رَعِيَّةً يَمُوتُ يَوْمَ يَمُوتُ وَهُوَ غَاشٌّ لِرَعِيَّتِهِ، إِلَّا حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ**»، وغيرها من الآثار الواردة عن النبي ﷺ في الوالي الذي لا يقوم بحق رعيته. و(**قد**) للتحقيق. وقدَّم ابتلاءه بالرعية؛ للدلالة على استشعاره المسئولية، ثم ذكر عدم معرفته لسبب هذا البلاء بقوله: (**فَمَا أَدْرِي، السُّخْطَةُ عَلَيَّ دُونَكُمْ، أَوْ عَلَيْكُمْ دُونِي، أَوْ قَدْ عَمَّتْنِي وَعَمَّتْكُمْ؟!**)، واستخدم أسلوب الاستفهام للدلالة على حيرته في الأمر، وكذا توجيه اللوم لنفسه ولرعيته بأنَّ ما ألمَّ بالرعية جاء بذنب، فبعدما دعاهم للتقوى والحرص على مراقبة الله في الخلوات، جاء الاستفهام؛ ليكون إيقاظا لضمائرهم وكأنَّ لسان حال الفاروق: سلوا أنفسكم من أين أتينا؟! وتقديم نفسه في قوله: (**السُّخْطَةُ عَلَيَّ دُونَكُمْ**) دلالة على تواضعه رضي الله عنه ومعاتبة نفسه بشكل دائم. ثم أتبع سؤاله بقوله: (**فَهَلُمُّوا فَلْنَدْعُ اللهَ**): الفاء هنا تفيد السرعة، وكأنه يأمرهم

بالمسارعة إلى مغفرة ربهم، واستخدم اسم الفعل الأمر (**هلم**) و(لام الأمر) في (**لندع**)؛ للدلالة - أيضا - على أمرهم بتلبية الأمر والتضرع لله - تعالى -. ثم ذكر ما يدعون الله به فقال: (**يُصْلِحْ قُلُوبَنَا، وَأَنْ يَرْحَمَنَا، وَأَنْ يَرْفَعَ عَنَّا الْمَحْلَ**).

[٤٠٢]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

فِي عَامِ الرَّمَادَةِ

«لَوْ لَمْ أَجِدْ لِلنَّاسِ مِنَ الْمَالِ مَا يَسَعُهُمْ لَأَدْخَلْتُ عَلَى كُلِّ أَهْلِ بَيْتٍ عُدَّتَهُمْ، فَقَاسَمُوهُمْ أَنْصَافَ بُطُونِهِمْ، حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِالْحَيَا؛ فَإِنَّهُمْ لَنْ يَهْلِكُوا عَلَى أَنْصَافِ بُطُونِهِم»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: سبق الإشارة إليه عند شرح النص رقم أربعمئة.

البيان والبلاغة: وردت هذه الكلمات بعد أن فتح الله - سبحانه وتعالى - على المسلمين بالخير والبركات من السماء بالغيث، ومن باقي الأقطار الإسلامية بالمؤن والخيرات، فبعد أن حمد الفاروق رضي الله عنه ربه - عز وجل - قال تلك الكلمات. وتلحظ هنا أن الفاروق استخدم أسلوب الشرط بـ(لَوْ) و(لو) كما قال عنه سيبويه: «حرف لما كان سيقع لوقوع غير»، أي: لتعليق الأمر في المستقبل، ومن فوائد استخدامه التحذير، أي: إن وقع للمسلمين أمر مثل هذا الأمر مستقبلا. وقوله: (**لَأَدْخَلْتُ**): اللام الواقعة هنا في جواب (لو) تدل على المماطلة في جعل الأمر واقعًا، وقد اصطلح الزركشيُّ[٢] على تسمية هذه اللام بـ (مسبوقة)، وينبغي أن تسمَّى (لام

١- رواهُ البلاذريُّ في «أنسابِ الأشرافِ» ١٠/ ٣٩٥-٣٩٦.

٢- يُنظر البرهان في علوم القرآن (٤/ ٣٣٧، ٣٣٨).

التسويف)[١]؛ لأنها تفيد ما يفيده كلٌّ من (السين، وسوف) من دلالة على التسويف تارة، والمماطلة تارة أخرى في إيقاع الفعل. وفي كل الأحوال جاء الأسلوب مناسبًا لمقتضى الحال؛ نظرا لأن الفاروق قد علَّق الفعل في المستقبل، فكأنه قال: (إذا حدث كذا سوف أفعل كذا). وفي قوله: (**فَقَاسَمُوهُمْ أَنْصَافَ بُطُونِهِمْ**): تناص خفي بقول النبي ﷺ: «**طَعَامُ الاثْنَيْنِ كَافِي الثَّلَاثَةِ، وَطَعَامُ الثَّلَاثَةِ كَافِي الأَرْبَعَةِ**»، وفي ذلك دلالة على عقلية الفاروق رضي الله عنه في تطويع النَّص الديني للنوائب والنوازل الدنيوية. والفاء في قوله: (**فَقَاسَمُوهُمْ**) للترتيب والتعقيب. واستخدامه (**حتى**) في قوله: (**حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِالْحَيَا**) مناسبة للسياق؛ لأنها لما يستقبل من الزمان، وتحديد الغاية المرجوة جعلها الفاروق رضي الله عنه مقرونة بمشيئة الله - سبحانه وتعالى - من باب الخضوع لجلاله - سبحانه -. وقوله: (**فَإِنَّهُمْ لَنْ يَهْلَكُوا عَلَى أَنْصَافِ بُطُونِهِم**): أسلوب مؤكد بـ (**إنَّ**) واستخدام الأداة (**لن**) تفيد النفي في المستقبل. وقوله: (**أَنْصَافِ بُطُونِهِم**): كناية عن حالة التقشف التي سوف يفرضها عليهم، ويلاحظ اعتماد الفاروق رضي الله عنه في المقولة السابقة على تعليق الأمر كله في المستقبل؛ فاستخدم أدوات الإيجاب والنفي كلها لتعليق الأمر في المستقبل، فكان البناء اللغوي البلاغي متناسقًا مناسبًا لأسلوب الشرط الذي بدأ بـ (**لو**) وجاء كل ما بعدها في جملة جواب الشرط مُعَلَّقًا في المستقبل.

١- يُنظر النحو الوافي (٤/ ٤٩٧، ٤٩٨).

[٤٠٣]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ

«أَمَا عَلِمْتَ أَنَّا كُنَّا نَقْرَأُ: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ [الحج: ٧٨] فِي آخِرِ الزَّمَانِ كَمَا جَاهَدْتُمْ فِي أَوَّلِهِ»، فَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ: وَمَتَى ذَلِكَ، يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؟ قَالَ: «إِذَا كَانَ بَنُو أُمَيَّةَ الْأُمَرَاءَ، وَبَنُو الْمُغِيرَةِ الْوُزَرَاءَ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: اختلفت نظرة المفسرين عن نظرة المؤرخين للأثر السابق؛ فقد ساق المفسرون[٢] الأثر في سياق التدليل على أن قوله: (**في آخر الزمان كما جاهدتم في أوله**) كان تفسيرًا من النبي ﷺ للآية. أما المؤرخون فقد ساقوا الأثر الذي ساقه البيهقي في الدلائل مستشهدين به على أن الفئة الباغية هي التي قتلت عمارًا رضي الله عنه؛

١- رواهُ عبدُ الرَّزَّاقِ في «الأمالي» (٦٩)، والبيهقيُّ في «دلائلِ النُّبوَّةِ» ٦/ ٤٢٢، وعزاهُ السُّيوطيُّ في «الدُّرِّ المنثورِ» لابنِ مَرْدَوَيْهِ ٦/ ٧٨.

قالَ الحافظُ ابنُ كثيرٍ في «مُسنَدِ الفاروقِ» ٢/ ٥٩٦: (وهو غريبٌ معَ نظافةِ إسنادِه، واللهُ أعلمُ).

وقالَ في «البدايةِ والنِّهايةِ» ٩/ ١٩٦: (ذكرهُ البيهقيُّ هاهنا، وكأنَّهُ يَستشهِدُ به على ما عَقَدَ لهُ البابَ بعدَهُ مِن ذِكرِ الحَكَمَيْنِ وما كانَ مِن أمرِهما، فقالَ: بابُ ما جاءَ في إخبارِهِ - صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ - عنِ الحَكَمَيْنِ اللَّذَيْنِ بُعِثَا في زمنِ عليٍّ - رضيَ اللهُ عنهُ -).

٢- وفي «تفسير الرازي» (٢٣/ ٢٥٥) قال: «واعلم أنه يبعد أن تكون هذه الزيادة من القرآن، وإلا لنقل كنقل نظائره، ولعله إن صح ذلك عن الرسول فإنما قاله كالتفسير للآية». ونقل ابن عادل كلامه في «اللباب» (١٤/ ١٥٧)، وفي «غرائب القرآن» للنيسابوري (٥/ ١٠٢) قال: «قال العلماء: لو صحت هذه الرواية فلعل هذه الزيادة من تفسير الرسول ﷺ ليست من نفس القرآن وإلا لتواترت». وكذا في «روح المعاني» (٩/ ١٩٩) قال الألوسي: «ولا يخفى عليك حكم هذه القراءة»، ثم نقل كلام النيسابوري.

فقد ساقه الذهبي مرتين[١] الأولى في تاريخ الإسلام تحت باب (من إخباره ﷺ بالكوائن بعده فوقعت كما أخبر)، والثانية في سير أعلام النبلاء تحت فصل (في معجزاته ﷺ) وسبقه حديث النبي ﷺ قال لعمار: «**تَقْتُلُكَ الفِئَةُ البَاغِيَةُ**»، ولحقه حديث النبي ﷺ: «**تَمْرُقُ مارِقَةٌ عِنْدَ فُرْقَةٍ مِن الْمُسْلِمِينَ يَقْتُلُها أَوْلَى الطَّائِفَتَيْنِ بِالْحَقِّ**». وقد ساقه ابن كثير رحمه الله في البداية والنهاية[٢] تحت باب: (إخباره ﷺ عن الفتن الواقعة في خلافة عثمان)، وللعلماء كلام كثير في الفتنة التي دارت بين الصحابة[٣].

وإن كان المتن مخالفًا لما ورد من أفعال الفاروق رضي الله عنه؛ فعندما توفي الصديق عام ١٣هـ بويع الفاروق بالخلافة فسار على نهج صاحبيه في استعمال بني أمية والثقة بهم، فلم يعزل أحدًا منهم مِن عمل، ولم يجد على أحد منهم مأخذًا والكل يعرف صرامة عمر، وتحريه أمر ولاته وعماله وتقصيه أعمالهم وأخبارهم، ومحاسبتهم بكل دقة وحزم، فاستمرارهم في عهده يدل على أمانتهم وكفايتهم، فقد بقي يزيد بن أبي سفيان واليًا على دمشق، كما زاد عمر في عمل معاوية بالشام[٤] فإن كان جهادهم واجبًا كما ورد في المتن السابق؛ فكان أحرى بالفاروق رضي الله عنه أن يقصيهم عن المناصب ولا يضع فيهم ثقة تؤهلهم فيما بعد لتولي مناصب عليا. أما المكان والزمان الذي قال فيه عمر رضي الله عنه هذا الكلام فغير معروفين.

١- «تاريخ الإسلام» تحقيق الدكتور بشار عواد (١/ ٧١٩)، «سير أعلام النبلاء» تحقيق شعيب الأرناؤوط (٢/ ٣٣٩).

٢- البداية والنهاية، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي (٩/ ١٩٦).

٣- وقد حقق القضية الشيخ محب الدين الخطيب في تعليقه على كتاب العواصم من القواصم للإمام المالكي أبي بكر بن العربي طبعة مكتبة السنة، وكذا الدكتور علي محمد الصلابي في أكثر من مؤلَّف من مؤلفاته ولعل أبرزها كتاب فتنة مقتل عثمان بن عفان وموقف الصحابة منها، طبعة مؤسسة اقرأ.

٤- الدولة الأموية، علي محمد الصلابي (١/ ٥٢-٥٣).

البيان والبلاغة: في قوله: (**أَمَا عَلِمْتَ أَنَّا كُنَّا نَقْرَأُ**): أسلوب إنشائي استفهام الغرض منه التقرير، واستخدم الأسلوب الإنشائي لجذب انتباه المتلقي، ولأن كلامه لا يحتمل إلا الصدق. واستخدم (**كنا**) للدلالة على تأكيد الفعل في الماضي، أما قوله تعالى: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ﴾ [الحج: ٧٨]، فالجهاد بصيغة المفاعلة حقيقة شرعية في قتال أعداء المسلمين في الدين؛ لأجل إعلاء كلمة الإسلام أو للدفع عنه، ومعنى (في) التعليل، أي: لأجل الله ولأجل نصر دينه، وإضافة جهاد إلى ضمير الجلالة لأدنى ملابسة، أي: حق الجهاد لأجله. أما قوله: (**فِي آخِرِ الزَّمَانِ كَمَا جَاهَدْتُمْ فِي أَوَّلِهِ**): فقد ورد في (مقتضى الحال) أنها تفسيرية وليست من نفس القرآن، والكاف في (**كما**)؛ لتشبيه حالهم في آخر الزمان بحالهم في أوله، وبين (**آخر**) و(**أوله**): تضاد يؤكد المعنى ويبرزه. وفي قوله: (**إِذَا كَانَ بَنُو أُمَيَّةَ الْأُمَرَاءَ، وَبَنُو الْمُغِيرَةِ الْوزَرَاءَ**): عبر هنا عن المستقبل بالماضي (**كان**)؛ لأنه بمثابة الأمر الواقع لا محيد عنه لبيان تحقق الخبر، والفعل الماضي هنا جاء لفظًا لا حكمًا، و(**إذا**) ظرف لما يستقبل من الزمن. والأصل في (**إذا**) أن يكون الشرط فيها مقطوعًا بوقوعه[1]، فاستخدم (**إذا**) الشرطية و(**كان**) الماضية الدالة على وقوع الخبر في المستقبل لا محيد عن ذلك؛ لتأكيد تحقق الجهاد في الله إذا صار بنو أمية الأمراء، وبنو المغيرة وزراءهم.

١- «الإيضاح في علوم البلاغة»، للقزويني، تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي (٢/ ١١٧).

[٤٠٤]

وَمِنْ كَلَام لَهُ

فِي الِاسْتِسْقَاءِ بِالْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ حِينَ قُحِطَ النَّاس[1]:

«اللَّهُمَّ إِنَّا كُنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّنَا[2] فَتَسْقِينَا، وَإِنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِعَمِّ نَبِيِّنَا فَاسْقِنَا»[3].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: قد فَصَّلْنَا القول في بيان ما حدث في عام الرمادة فيما مضى، فراجع غير مأمور.

١- قالَ ابنُ بطَّالٍ في «شرحِه لصحيحِ البخاريِّ» ٣/ ٩: «وأمَّا استسقاءُ عمرَ بالعبَّاسِ؛ فإنَّما هو للرَّحِمِ الَّتي كانتْ بينَه وبينَ النَّبيِّ - صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ -، فأرادَ عمرُ أن يَصِلَها بمراعاةِ حقِّهِ، ويتوسَّلَ إلى مَن أمرَ بصِلةِ الأرحامِ بِما وصلوهُ مِن رَحِمِ العبَّاسِ، وأن يجعلوا ذلكَ السَّببَ إلى رحمةِ الله - تعالى -».

٢- ومعنى قولِه: «كُنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّنَا» أي: بدُعائِه وشفاعتِه. ولِهذا تَوسَّلوا بعدَ موتِه بدُعاءِ العبَّاسِ وشفاعتِه، لَمَّا تَعذَّرَ عليهمُ التَّوسُّلُ بِهِ بعدَ موتِه، كما كانوا يَتوسَّلونَ بِهِ في حياتِه. ولم يُرِدْ عُمرُ بقولِه: «كُنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّنَا» أن نسألك بحُرمتِهِ أو نُقسِمُ عليكَ بِهِ مِن غيرِ أن يكونَ هو داعيًا شافعًا لنا، كما يفعلُه بعضُ النَّاس بعدَ موتِه؛ فإنَّ هذا لم يكونوا يفعلونهُ في حياتِه، إنَّما كانوا يتوسَّلون بدعائِه. ولو كانوا يفعلونهُ في حياتِه؛ لكانَ ذلكَ مُمكِنًا بعدَ موتِه كما كانَ في حياتِه، ولم يكونوا يحتاجونَ أن يتوسَّلوا بالعبَّاس. وكثيرٌ مِن النَّاس يغلطُ في معنى قولِ عمرَ، وإذا تدبَّره عرفَ الفرقَ. ولو كانَ التَّوسُّلُ بِهِ بعدَ موتِه مُمكِنًا كالتَّوسُّلِ بِهِ في حياتِه؛ لَما عَدَلُوا عنِ الرَّسُولِ - صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ - إلى العبَّاسِ. «الأَخنائيَّة» لابنِ تيميَّةَ ص٤٦٤.

٣- رواهُ البخاريُّ في «صحيحِه» (١٠١٠) و(٣٧١٠)، وابنُ أبي عاصمٍ في «الآحادِ والمثاني» (٣٥١)، وأبو عوانةَ في «المُسنَدِ» (٢٥٢٠)، والآجُرِّيُّ في «الشَّريعةِ» (١٧٤٤)، والطَّبرانيُّ في «المعجمِ الكبيرِ» (٨٤)، والبيهقيُّ في «السُّنَنِ الكُبرَى» (٦٤٢٧)، والبغويُّ في «شرحِ السُّنَّةِ» (١١٦٥)، والفسويُّ في «المعرفةِ والتَّاريخ» ١/ ٥٠٤، وابنُ سعدٍ في «الطَّبقاتِ الكُبرَى» ٤/ ٢٨، وابنُ عساكرَ في «تاريخِ دمشقَ» ٢٦/ ٣٥٥-٣٥٦.

البيان والبلاغة: تدور كل الشروح والفتاوى التي تناولت هذا الحديث بالكلام حول مشروعية التوسل، وبالنظر للجانب البلاغي لحديث الفاروق ﵁ نجد أنه بدأ حديثه متضرعًا لله - سبحانه وتعالى - بقوله: (**اللهم**)، وهذا أسلوب إنشائي نداء غرضه الدعاء والتضرع، ثم يتبع تضرعه لله بـ (**إنَّا**) ويُلاحظ التوكيد بـ (**إنَّ**) الثقيلة؛ للدلالة على أنهم كانوا يهرعون للنبي ﷺ في كل أمر. أما قوله: (**كنَّا**): فتفيد أن ذلك كان في حياته، وأنهم توقفوا عن ذلك بعد مماته، وإذا كان التوسل به ﷺ غير جائز بعد مماته، فهو غير جائز بمن دونه بعد مماته من باب أولى، وهو ما استشهد به المانعون للتوسل. أما قوله: (**فَتَسْقِينَا**): الفاء هنا للسرعة والتعقيب. وقوله: (**نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِعَمِّ نَبِيِّنَا**)، أي: بدعائه إليك، واعتمد الفاروق ﵁ في قوله السابق على ثقافة المتلقي بما عرفه مما شرَّع النبي ﷺ للأمة. وقوله: (**فَاسْقِنَا**): أسلوب إنشائي أمر، الغرض منه الدعاء والتذلل لله - عز وجل -، والفاء للدلالة على أمله في سرعة استجابته - سبحانه وتعالى -؛ طمعا فيما في خزائنه من الجود والخير.

[٤٠٥]

وَمِنْ دُعَاءٍ لَهُ

وَهُوَ يَطُوفُ بِالْبَيْتِ

«اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ كَتَبْتَنِي فِي السَّعَادَةِ فَأَثْبِتْنِي فِيهَا، وَإِنْ كُنْتَ كَتَبْتَنِي عَلَى الشِّقْوَةِ فَامْحُنِي مِنْهَا وَأَثْبِتْنِي فِي السَّعَادَةِ؛ فَإِنَّكَ تَمْحُو مَا تَشَاءُ وَتُثْبِتُ، وَعِنْدَكَ أُمُّ الْكِتَابِ»[1].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: المكان مكة المكرمة في بيت الله الحرام، الزمان غير محدد، وقد تناول العلماء هذا الأثر في سياق حديثهم عن مسألة المحو والإثبات في الصحف، ومعروف أن مسألة المحو والإثبات إنما تكون في الصحف التي بأيدي الملائكة، وأما أُم الكتاب (وهو اللوح المحفوظ) ففيه القضاء المبرم الذي لا يقبل الزيادة ولا النقصان. فبناءً على ما تقدم يكون معنى دعاء الفاروق ﵁: اللهم إن كنت كتبتني في الصحف التي بأيدي الملائكة شقيًّا فامحني من الشقاء وأثبتني في أهل السعادة، وأعني على ذلك، وهذا إيمان جازم من عمر ﵁ أن الذي يملك السعادة والشقاء هو الله - عز وجل -، وأنه سبحانه بيده الخير، وهو على كل شيء قدير. أما حاصل استشهاده ﵁ بقوله - سبحانه وتعالى -: ﴿**يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ**﴾ من الأقدار ﴿**وَيُثْبِتُ**﴾ ما يشاء منها، فهذا المحو والتغيير في غير ما سبق به علمه وكتبه

١- رواهُ اللَّالكائيُّ في «شرحِ أصولِ الاعتقادِ» (١٢٠٧).

قلمه، فإن هذا لا يقع فيه تبديل ولا تغيير؛ لأن ذلك محال على الله - سبحانه وتعالى - أن يقع في علمه نقص أو خلل، ولهذا قال: ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾، أي: اللوح المحفوظ الذي ترجع إليه سائر الأشياء، فهو أصلها وهي فروع له وشعب؛ فالتغيير والتبديل يقع في الفروع والشعب، كأعمال اليوم والليلة التي تكتبها الملائكة، ويجعل الله لثبوتها أسبابًا ولمحوها أسبابًا، لا تتعدى تلك الأسباب ما رسم في اللوح المحفوظ، كما جعل الله البر والصلة والإحسان من أسباب طول العمر وسعة الرزق، وكما جعل المعاصي سببًا لمحق بركة الرزق والعمر، وكما جعل أسباب النجاة من المهالك والمعاطب سببًا للسلامة، وجعل التعرض لذلك سببًا للعطب، فهو الذي يدبر الأمور بحسب قدرته وإرادته، وما يدبره منها لا يخالف ما قد علمه وكتبه في اللوح المحفوظ[1].

البيان والبلاغة: المتأمل في ضراعة الفاروق رضي الله عنه يجد أن الحديث كله يحتوي على أصوات مهموسة كالتاء والسين والهاء والفاء والثاء والشين والكاف والحاء، وقد ناسب ذلك سياق التضرع والخفاء والخفض في دعاء الرب - سبحانه وتعالى -. واعتمد رضي الله عنه في حديثه على الطباق في قوله: (**فَأَثْبِتْنِي، فَامْحُنِي**)، (**السَّعَادَةِ، الشِّقْوَةِ**)، (**تَمْحُو، وَتُثْبِتُ**) (**فِيهَا، مِنْهَا**) والمقابلة بين: (**إِنْ كُنْتَ كَتَبْتَنِي فِي السَّعَادَةِ فَأَثْبِتْنِي فِيهَا**)، (**وَإِنْ كُنْتَ كَتَبْتَنِي عَلَى الشِّقْوَةِ فَامْحُنِي مِنْهَا**)، وكل ما سبق يؤكد المعنى ويبرزه. ثم يبرز الفاروق رضي الله عنه بلاغة وبيانًا وثقافة دينية وفهمًا عاليًا للنص القرآني؛ إذ يردُّ قول نفسه إلى قول الله - تعالى -: ﴿يَمۡحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثۡبِتُۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ

١- «تفسير العلامة السعدي» ص٤١٩، ٤٢٠.

ٱلْكِتَٰبِ ﴾ [الرعد : ٣٩]، وكأنه أراد أن يقول: أن دعوته في سياق فهم المتلقي لقوله – تعالى – السابق الإشارة إليه. ففي قوله تناص خفي مع قول الله – تعالى –، وقد أكده باقتباس النَّص القرآني.

[٤٠٦]

وَمِنْ دُعَاءٍ لَهُ

«اللَّهُمَّ كَبِرَتْ سِنِّي، وَضَعُفَتْ قُوَّتِي، وَخَشِيتُ الِانْتِشَارَ مِنْ رَعِيَّتِي؛ فَاقْبِضْنِي إِلَيْكَ غَيْرَ عَاجِزٍ وَلَا مَلُومٍ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: ذُكر[٢] أن المكان الذي كان فيه الفاروق وقتئذ البقيع؛ وأنه لم يلبث شهرًا حتى مات، أي: في العام الثالث والعشرين من هجرة النبي ﷺ.

البيان والبلاغة: انظر للحقل الدلالي الذي اختاره الفاروق رضي الله عنه لطرح فكرته: (**الكِبر، الضعف، الخشية، العجز**) فكل تلك الكلمات عندما يستمع إليها المتلقي في حديث واحد تنتقل إليه الحالة الشعورية التي كان يعانيها الفاروق رضي الله عنه وهي حالة الشعور بدنو الأجل؛ فقد استطاع بتفرد أن يطرح مقدمات تتناسب مع الدعاء الذي اختتم به مقولته البليغة؛ فبعد مناداة الرب - عز وجل - بقول: (**اللَّهُمَّ**) قدم ما يعانيه من كبر السن، وضعف القوة، والخوف من تفرق الأمة، ثم مضى لسبيله قائلا: (**فَاقْبِضْنِي إِلَيْكَ غَيْرَ عَاجِزٍ وَلَا مَلُومٍ**). وتمني الفاروق رضي الله عنه الموت في هذا

١- رواهُ مالكٌ في «المُوطَّإِ» (٣٠٤٤)، وعبدُ الرَّزَّاقِ في «المُصنَّفِ» (٢٠٦٣٨) و(٢٠٦٣٩)، وابنُ سعدٍ في «الطَّبقاتِ الكُبرَى» ٣/ ٣٣٤ و٣٣٥، وأحمدُ في «فضائلِ الصَّحابةِ» (٦٠٨)، وابنُ شبَّةَ في «تاريخ المدينةِ» ٣/ ٨٧٢ و٨٧٦ و٨٧٧، والفاكهيُّ في «أخبارِ مكَّةَ» (١٧٩٧)، والبلاذريُّ في «أنسابِ الأشرافِ» ١٠/ ٤١١، وابنُ أبي الدُّنيا في «مُجابي الدَّعوةِ» (٢٤)، وابنُ أبي عاصمٍ في «الآحادِ والمثاني» (٩٠)، والخطَّابيُّ في «العزلةِ» ص٧٧، وأبو نُعَيمٍ في «حليةِ الأولياءِ» ١/ ٥٤ و٢/ ١٤، والخطيبُ في «تاريخِ بغدادَ» (٢٦٠٩)، وابنُ عساكرَ في «تاريخِ دمشقَ» ٤٤/ ٣٠٩.

٢- في «جامع معمر بن راشد» (١١/ ٣١٥).

الحديث جائز؛ لأنه محمول على خشية الفتنة، ومنه قوله ﷺ: «**وَإِذَا أَرَدْتَ بِعِبَادِكَ فِتْنَةً فَاقْبِضْنِي إِلَيْكَ غَيْرَ مَفْتُونٍ**»، فلما خشي الفاروق رضي الله عنه تفرق الرعية ودب روح الفتنة بينهم تمنى الموت وعلق موته بأن يكون (**غير عاجز**)، أي: على درأ الفتنة، (**ولا ملوم**)، أي: غير مسئول فيها. والسجع في: (**سِنِّي، قُوَّتِي، رَعِيَّتِي**) يعطي جرسا موسيقيا يجذب ذهن المتلقي. وبين (**ضَعُفَتْ، عَاجِزٍ**): ترادف يؤكد المعنى المراد إيصاله للمتلقي. وكذا الطباق بين: (**ضَعُفَتْ**) و (**قُوَّتِي**) يؤكد المعنى ويبرزه.

[٤٠٧]

وَمِنْ دُعَاءٍ لَهُ

يَطْلُبُ فِيهِ الشَّهَادَةَ فِي سَبِيلِ اللهِ

«اللَّهُمَّ ارْزُقْنِي شَهَادَةً فِي سَبِيلِكَ، وَاجْعَلْ مَوْتِي فِي بَلَدِ رَسُولِكَ ﷺ»[1].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: ذكر صاحب عمدة القاري أن سبب قول عمر رضي الله عنه ذلك أنه لما سمع النَّبيَّ ﷺ دعا بقوله: «**اللَّهُمَّ حَبِّبْ إِلَيْنَا الْمَدِينَةَ كَحُبِّنَا لِمَكَّةَ**»، سأل عمر الله - تعالى - أن يجعل موتَه في المدينة؛ إظهارا لمحبته إياها كمحبته لمكة، وإعلاما بصدقه في ذلك بسؤاله الموت فيها. وقيل: ذكر ابن سعد سبب دعائه بذلك، وهو ما أخرجه بإسناد صحيح عن عوف بن مالك أنَّه رأى رؤيا فيها أنَّ عمر شهيد يستشهد، فقال لما قصها عليه: أنَّى لي بالشهادة وأنا بين ظهراني جزيرة العرب، لستُ أغزو، والناس حولي؟! ثم قال: بلى وبلى، يأتي بها الله، إن شاء الله تعالى.

البيان والبلاغة: قال تعالى: ﴿**إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ**﴾ [المائدة : ٢٧]، فحصر المولى - تبارك وتعالى - تقبل الدعاء في مَن اتقى ربه، وإنَّا لنشهد أن الفاروق رضي الله عنه من المتقين؛ فقد دعا بقوله: (**شهادة في سبيلك**)، فقبل الله دعاءه ورزق الشهادة، وقتله أبو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة، ضربه في خاصرته وهو في صلاة الصبح. وقوله: (**واجعل موتي في بلد رسولك**)، ووقع كذلك، ودفن عند أبي بكر، وأبو بكر

١- رواهُ البخاريُّ في «صحيحِه» (١٨٩٠)، ومالكٌ في «المُوطَّإ» (١٦٨٠)، وعبدُ الرَّزَّاقِ في «المُصنَّفِ» (٩٥٥٠) و(١٩٦٣٧)، وابنُ سعدٍ في «الطَّبقاتِ الكُبرَى» ٣/ ٣٣١.

عند النبي ﷺ، فالثلاثة في بقعة واحدة هي من أشرف البقاع[1]. وقد حقت دعوة المصطفى ﷺ: «**اللَّهُمَّ حَبِّبْ إِلَيْنَا المَدِينَةَ كَحُبِّنَا مَكَّةَ أَوْ أَشَدَّ**» بشوق الفاروق رضي الله عنه للدفن بتلك البقعة؛ فالمرء لا يسأل الله - عز وجل - أن يُقبر إلا في أحب البقاع إلى قلبه. والأثر السابق موجز اعتمد الفاروق فيه على المباشرة ولكنه أحدث في الأثر - المؤلف من جملتين فقط - جرسًا موسيقيًّا يجذب انتباه المتلقي في: (**سَبِيلِكَ**) و (**رَسُولِكَ**).

١- يُنظر: «عمدة القاري»، بتصرف يسير (١٠/ ٢٥٢).

[٤٠٨]

وَمِنْ دُعَاءٍ لَهُ

«اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ قَتْلِي بِيَدِ رَجُلٍ صَلَّى لَكَ سَجْدَةً وَاحِدَةً، يُحَاجُّنِي بِهَا عِنْدَكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: ينادي أمير المؤمنين رضي الله عنه ربَّه داعيا إياه ألا يكون موتُهُ على يد مسلم، وقد استجاب الله - سبحانه وتعالى - دعوته وحقق رجاءه.

البيان والبلاغة: مات رسول الله صلى الله عليه وسلم وظلت كلماته تجوب صدور أصحابه ليل نهار، فبشارة النبي صلى الله عليه وسلم للفاروق رضي الله عنه ظلت عقيدة في نفسه ينتظر أن يأتيه أجله شهيدًا بين يدي الله - عزَّ وجلَّ -؛ ألم يرد في السنة عن ابْنِ عُمَرَ قَالَ: رَأَى النَّبِيُّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عَلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - ثَوْبًا أَبْيَضَ، فَقَالَ: «**أَجَدِيدٌ قَمِيصُكَ أَمْ غَسِيلٌ**؟ فَقَالَ: بَلْ جَدِيدٌ، فَقَالَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: **الْبَسْ جَدِيدًا، وَعِشْ حَمِيدًا، وَمُتْ شهيدًا**»، فلما علم الفاروق رضي الله عنه أنه سيموت شهيدًا رأى أن قاتله إن كان من أهل الإسلام، لابد أن يكون له حسنات، فَرُبَّما وفَّت حسناتُه بعد القصاص، وبقي له ما يدخل به الجنَّة، وإذا دخل الجنَّة لم يبلغ انتصاره منه، وقال أبو الوليد الباجي: «إنَّما قال ذلك عمر إشفاقًا للمسلم»[٢]. وقال ابن عبد البرِّ: «أراد أن يكون قاتله مخلدًا في النار، ولا يكون كذلك إلا من لم يسجد لله سجدة ولم يعمل

١- رواهُ مالكٌ في «المُوطَّإ» (١٦٧٥)، وابنُ شبَّةَ في «تاريخِ المدينةِ» ٣/ ٩٠٣، والآجُرِّيُّ في «الشَّريعةِ» (١٣٩٩)، وأبو نُعَيم في «حليةِ الأولياءِ» ١/ ٥٣.

٢- «المسالك في شرح موطأ مالك» (٥/ ٨٦،٨٥).

من الخير والإيمان مثقال ذرة، وقد استجاب الله له فجعل قتله بالمدينة بيد فيروز النَّصراني أو المجوسي أبي لؤلؤة، عَبد المغيرة بن شعبة الصحابي»[١]، قال محمد بن رشد: «وقد قيل إنه إنما أراد ألا يقتله أحد من أهل القبلة بتأويل يستحل به قتله، فيكون له بذلك عند الله عذر بسبب أنه لم يقتله إلا وهو يعتقد الطاعة لله - عز وجل - بقتله فيخف عنه دينه، فهذا أظهر»[٢]. وقد جعل أمير المؤمنين رضي الله عنه السجود في قوله: (**سَجْدَةً واحِدَةً**) كناية عن الإسلام. ومعلوم أن الكافر لا يقام له يوم القيامة وزنًا، ولا تسمع منه حجة؛ لأن حجته داحضة ولا تأويل إلا لمؤمن موحد؛ لذا سأل الله أن يكتب شهادته على يد كافر وقد كان؛ فصلى الله على من بشر بالشهادة، ورضي الله عمن انتظرها بإيمان ويقين.

١- «الاستذكار» لابن عبد البر (٥/ ٩٩).

٢- «البيان والتحصيل» (١٨/ ٦٤).

[٤٠٩]

وَمِنْ دُعَاءٍ لَهُ

«اللَّهُمَّ تَوَفَّنِي مَعَ الْأَبْرَارِ، وَلَا تُخَلِّفْنِي فِي الْأَشْرَارِ، وَقِنِي عَذَابَ النَّارِ، وَأَلْحِقْنِي بِالْأَخْيَارِ»[1].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يناجي أمير المؤمنين ﷺ ربه، راجيا وسائلا إياه أمورا من أمور الآخرة تدور حول الفوز بالجنة والنجاة من النار.

البيان والبلاغة: تضرُّع الفاروق ﷺ لربه - جل وعلا - لا ينقطع. والمعاني واضحة في الأثر السابق، ولكن الفاروق ﷺ نظمها بشكل جذب فيها انتباه السامع فاعتمد في المقام الأول في حديثه على السجع؛ فبالنظر في فواصل الجمل تجدها متفقة في الحرف الأخير: (**الْأَبْرَارِ، الْأَشْرَارِ، النَّارِ، بِالْأَخْيَارِ**). كما أنه اعتمد على إبراز المعنى وتأكيده في الطباق بين الأزواج التالية: (**تَوَفَّنِي، تُخَلِّفْنِي**) و(**الْأَبْرَارِ، الْأَشْرَارِ**)، والمقابلة بين: (**تَوَفَّنِي مَعَ الْأَبْرَارِ، تُخَلِّفْنِي فِي الْأَشْرَارِ**)، والترادف بين: (**الْأَبْرَارِ، الْأَخْيَارِ**). وكل المحسنات السابقة لها أثر في تأكيد المعنى وإبرازه، كما عمل السجع على جذب انتباه السامع.

١- رواهُ ابنُ سعدٍ في «الطَّبقاتِ» ٣/ ٣٣٠، والبخاريُّ في «الأدبِ المفردِ» (٦٢٩)، والبلاذريُّ في «أنسابِ الأشرافِ» ١٠/ ٤٠٩.

[٤١٠]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

فِي السَّنَةِ الَّتِي قُتِلَ بِهَا

«يَا أَيُّهَا النَّاس، أَلَا إِنَّا إِنَّمَا كُنَّا نَعْرِفُكُمْ إِذْ بَيْنَ ظَهْرَانَيْنَا النَّبِيُّ ﷺ، وَإِذْ يَنْزِلُ الْوَحْيُ، وَإِذْ يُنْبِئُنَا اللهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ. أَلَا وَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَدِ انْطَلَقَ، وَقَدِ انْقَطَعَ الْوَحْيُ، وَإِنَّمَا نَعْرِفُكُمْ بِمَا نَقُولُ لَكُمْ: مَنْ أَظْهَرَ مِنْكُمْ خَيْرًا ظَنَنَّا بِهِ خَيْرًا، وَأَحْبَبْنَاهُ عَلَيْهِ، وَمَنْ أَظْهَرَ مِنْكُمْ لَنَا شَرًّا ظَنَنَّا بِهِ شَرًّا، وَأَبْغَضْنَاهُ عَلَيْهِ، سَرَائِرُكُمْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ رَبِّكُمْ. أَلَا إِنَّهُ قَدْ أَتَى عَلَيَّ حِينٌ وَأَنَا أَحْسَبُ أَنَّ مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ يُرِيدُ اللهَ وَمَا عِنْدَهُ، فَقَدْ خُيِّلَ إِلَيَّ بِآخِرَةٍ أَنَّ رِجَالًا قَدْ قَرَؤُوهُ يُرِيدُونَ بِهِ مَا عِنْدَ النَّاس، فَأَرِيدُوا اللهَ بِقِرَاءَتِكُمْ، وَأَرِيدُوهُ بِأَعْمَالِكُمْ.

أَلَا إِنِّي وَاللهِ مَا أُرْسِلُ عُمَّالِي إِلَيْكُمْ لِيَضْرِبُوا أَبْشَارَكُمْ[١]، وَلَا لِيَأْخُذُوا أَمْوَالَكُمْ، وَلَكِنْ أُرْسِلُهُمْ إِلَيْكُمْ لِيُعَلِّمُوكُمْ دِينَكُمْ وَسُنَّتَكُمْ، فَمَنْ فُعِلَ بِهِ شَيْءٌ سِوَى ذَلِكَ فَلْيَرْفَعْهُ إِلَيَّ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِذًا لَأُقِصَّنَّهُ مِنْهُ[٢]». فَوَثَبَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ، فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، أَوَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى رَعِيَّةٍ، فَأَدَّبَ بَعْضَ رَعِيَّتِهِ، أَئِنَّكَ لَمُقْتَصُّهُ مِنْهُ؟ قَالَ: «إِي وَالَّذِي نَفْسُ عُمَرَ بِيَدِهِ، إِذًا لَأُقِصَّنَّهُ مِنْهُ، أَنَّى لَا أُقِصَّنَّهُ مِنْهُ، وَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يُقِصُّ مِنْ نَفْسِهِ؟ أَلَا لَا تَضْرِبُوا الْمُسْلِمِينَ فَتُذِلُّوهُمْ، وَلَا

١- أَبْشَاركم: جمعُ بَشَرةٍ، وهيَ ظاهرُ جِلْدِ الإنسانِ. «جامع الأصول» لابنِ الأثيرِ (٢٠٦٩).

٢- (أُقِصُّنَّهُ): آخُذُ مِنهُ القِصَاصَ بما فَعَلَ بِهِ. «جامع الأصول» لابنِ الأثيرِ (٢٠٦٩).

تُجَمِّرُوهُمْ[١] فَتَفْتِنُوهُمْ، وَلَا تَمْنَعُوهُمْ حُقُوقَهُمْ فَتُكَفِّرُوهُمْ[٢]، وَلَا تُنْزِلُوهُمُ الْغِيَاضَ[٣] فَتُضَيِّعُوهُمْ»[٤].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: المقام مقام ترهيب وإلزام بتقوى الله - تعالى -، والزمان في عام ثلاثة وعشرين من هجرة النبي ﷺ، والمكان لم يجزم به ولعله مقر الخلافة الراشدة في مدينة النبي - ﷺ.

البيان والبلاغة: ظل اقتران العدل بذكر الفاروق رضي الله عنه من البديهيات؛ فإذا أَلَّفَ الكُتَّابُ وخطب الخطباء في العدل لابد من ذكر مواقف لعمر الخير رضي الله عنه فاتحين أمام الناس مجالات جديدة لمن أراد الاقتداء بالفاروق رضي الله عنه. وخطاب الفاروق رضي الله عنه موجَّه - هنا - للناس عامة ملوحٌ بذكر المنافقين. فبدأ خطبته البليغة قائلا: **(أيها النَّاس)**: وفي هذا النداء تنبيه للغافل، وهو يُعِدُّ السامع للحديث التالي؛ فالخطاب - هاهنا - ليس لكل من يستمع إلى الحديث من النَّاس الحاضرين، بل هو للناس قاطبة القاصي منهم والداني، ثم يمضي إلى الغرض من حديثه فيفتتح بقوله: **(أَلا)**، وهي افتتاحية يراد بها العناية بما بعدها وتوجيه ذهن السامع إليه، وتفيد المبالغة في

١- قولُه: «وَلَا تُجَمِّرُوهُم»، قالَ السِّندِيُّ: مِنَ التَّجمِيرِ، بالجيمِ والرَّاءِ المُهمَلةِ. وتَجمِيرُ الجيشِ: جمعُهم في الثُّغورِ، وحَبْسُهم عنِ العَوْدِ إلى أهلِيهِم.

٢- فَتُكَفِّرُوهُم: أي تَحمِلُوهم على الكُفْرانِ وعَدَمِ الرِّضا بِكُم، أو على الكُفرِ باللهِ؛ لِظَنِّهم أنَّهُ ما شَرَعَ الإِنصافَ في الدِّينِ.

٣- الغِيَاض: جمعُ غَيْضةٍ، بِفَتحِ الغَينِ: وهِيَ الشَّجرُ المُلتَفُّ، قِيلَ: لِأنَّهم إذا نَزلُوها تَفرَّقُوا فِيهَا، فتَمكَّنَ مِنهُم العَدُوُّ.

٤- رواهُ أحمدُ في «المُسنَدِ» (٢٨٦)، وابنُ أبي شيبةَ في «المُصنَّفِ» (٣٣٥٩٢)، وابنُ شبَّةَ في «تاريخ المدينةِ» ٣/ ٨٠٧، و«مُسنَد أبي يَعْلَى» (١٩٦)، و«شرح مُشكِل الآثارِ» (٣٥٢٨)، والحاكمُ في «المُستَدرَكِ» (٨٣٥٦).

تقريره وتأكيد مضمونه ووجوب الاهتمام بالاعتبار به، وسنلاحظ أنها الفاصلة التي سيضعها الفاروق كلما انتقل من عنصر إلى عنصر آخر. وفي العنصر الأول يقول ﷺ: (**إِنَّا إِنَّمَا كُنَّا نَعْرِفُكُمْ**): انظر للوسائل التي استخدمها الفاروق للتوكيد؛ فيبدأ بـ (**إنَّا**) للتوكيد، ثم يليها بـ (**إنَّما**) للحصر، ثم (**كنَّا**) التي يعمل استخدامها في المقام السردي على إجبار المتلقي لاستحضار صورة الماضي والعيش فيه. واستخدام الفعل الماضي هنا (**نعرفكم**) للتأكيد. ثم يقول: (**إِذْ بَيْنَ ظَهْرَانَيْنَا النَّبِيُّ ﷺ، وَإِذْ يَنْزِلُ الْوَحْيُ، وَإِذْ يُنْبِئُنَا اللهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ**): وبالنظر للحروف - من حيث الجهر والهمس -، تجد حرف: الذال، والظاء، والباء، واستخدام الأصوات المجهورة في الخطابة بعد النداء بـ (**يا أيها النَّاس**)، فيه استرعاء تام للانتباه، فتشعر أنك في مقام وعظي، وكأن المستمع يقول: من أراد الفاروق بقوله؟ فيبدأ كل جملة بـ (**إذ**) الفجائية فتستشعر أن المنافقين في هذا الوقت في حالة ترقب وذعر كلما استكانت جوارحهم باغتهم بإذ الفجائية .. وإذ .. وإذ. ولم يكتف بتلك المؤثرات الصوتية فينتقل إلى استخدام أسلوب الالتفات في الانتقال من الماضي (**كنا نعرفكم**) للمستقبل الذي يعبر عن الماضي (**ينـزل، ينبئنا**) وذلك يزيد المستمع إغراقا في الماضي، فكأنه أخذهم لتلك الأيام فراحوا يتصورون نزول تلك الآيات في أيام النبي ﷺ. أما تعبير (**بين ظهرانينا النبي ﷺ**): فقد يُرى أنها مباشرة خالية من المجاز، والحقيقة أن فيها جمالا، وإلا فما الفارق بين قوله: (**بين ظهرانينا النبي**)، وبين: (بيننا النبي)؟! فكأنه أراد بقوله هذا أن يعبر عن سعادتهم وطمأنينتهم بوجود رسول الله ﷺ بينهم، كمن أراد أن يعبر عن اطمئنانه بوجود شخص فيقول: (**فلان في ظهري**)، أي: أنه مرتكن إليه يأوي إليه في كل صغيرة وكبيرة. ويعود عمر ﷺ إلى تكرار: (**أَلا**)، كما أشرنا آنفا أنها الفاصلة التي سيأخذ بها المستمع من عنصر لآخر. وهذه المرة يقول: (**وَإِنَّ**

النَّبِيَّ ﷺ قَدِ انْطَلَقَ، وَقَدِ انْقَطَعَ الْوَحْيُ): يُلاحظ في قول الفاروق رضي الله عنه أنه لم يرد أن يقول أن النبي ﷺ قد مات، فقال: (**انطلق**)، وكأن الكلمة مازالت ثقيلة على لسان الفاروق رضي الله عنه. ثم يقول: (**وَإِنَّمَا نَعْرِفُكُمْ بِمَا نَقُولُ لَكُمْ**): هنا حصر معرفته بحال هؤلاء القوم بما يراه وبما يناسب آدميته والموقف بعد وفاة النبي ﷺ. ثم يستخدم الطباق بين الأزواج التالية: (**خَيْرًا**) و(**شَرًّا**) وبين (**أَظْهَرَ**) و(**سَرَائِرُكُمْ**) وبين (**أَحْبَبْنَاهُ**) و(**أَبْغَضْنَاهُ**)، وقد وافقت تلك المتضادات الحالة الشعورية للموقف الذي عقده الفاروق رضي الله عنه للمقارنة بين حالين فالطباق بجانب تأكيده للمعاني أضاف لونًا من استحضار المستمع للصورة التي أرادها الفاروق. وبالنظر للحقل المستخدم في توصيل الفكرة: (**أَظْهَرَ، أَحْسِبُ، خُيِّلَ**): كلها كلمات تدل على عدم الجزم بالأمر؛ فلو (**أظهر**) أخذه وبما أظهره؛ لعدم معرفته بما أخفى سواء كان خيرا أو شرا، و(**أحسب**): لغلبة الظن هو يحسب كذا ولكنه غير متيقن من الصواب، و(**خيل**): كذا التخييل قد يأتي بالأمر على حقيقته وقد ينافي الحقيقة بالضد تمامًا. أما في قوله: (**أَلا إِنَّ رِجَالًا قَدْ قَرَؤُوهُ يُرِيدُونَ بِهِ مَا عِنْدَ النَّاس، فَأَرِيدُوا اللهَ بِقِرَاءَتِكُمْ، وَأَرِيدُوهُ بِأَعْمَالِكُمْ**): تضمين لمعنى الحديث الشريف لأول من تسعر بهم النار يوم القيامة، فقد قال الرسول ﷺ: «**فَأَوَّلُ مَنْ يَدْعُو بِهِ رَجُلٌ جَمَعَ الْقُرْآنَ، وَرَجُلٌ قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَرَجُلٌ كَثِيرُ الْمَالِ. فَيَقُولُ اللهُ لِلْقَارِئِ: أَلَمْ أُعَلِّمْكَ مَا أَنْزَلْتُ عَلَى رَسُولِي؟! قَالَ: بَلَى يَا رَبِّ. قَالَ: فَمَاذَا عَمِلْتَ فِيمَا عُلِّمْتَ؟! قَالَ: كُنْتُ أَقُومُ بِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ. فَيَقُولُ اللهُ: لَهُ كَذَبْتَ، وَتَقُولُ لَهُ الْمَلائِكَةُ: كَذَبْتَ! وَيَقُولُ اللهُ: لَهُ بَلْ أَرَدْتَ أَنْ يُقَالَ: إِنَّ فُلَانًا قَارِئٌ. فَقَدْ قِيلَ ذَاكَ!**» فكأنما الفاروق رضي الله عنه أراد إنقاذ القارئ من أجل النَّاس من مصير ينتظره، وكأنه يقول له: إن كنت تخدعني بجميل ما تُظهر فعند الله ما تُظهر وما تخفي. ثم ينتقل لعنصر جديد بدأه كعادته قائلا: (**أَلا**) وهذا العنصر

ابتعد فيه عن محادثة النفس البشرية الأمارة بالسوء، انتقل من المقام الوعظي إلى المقام الإداري في سياق متسق متصل لا يشعر المتلقي بهذا الانتقال، فيقول: (**إِنِّي - وَاللهِ - مَا أُرْسِلُ عُمَّالِي إِلَيْكُمْ لِيَضْرِبُوا أَبْشَارَكُمْ، وَلا لِيَأْخُذُوا أَمْوَالَكُمْ**): يبدأ الفاروق كلمته بالتوكيد بـ(إنَّ) الثقيلة والقسم؛ تأكيدا لكلامه حتى لا يتخلل نفس المتلقي أي إحساس خلاف ما يقوله الفاروق ﷺ. ثم يستخدم المجاز المرسل في قوله: (**أَبْشَارَكُمْ**)، وعلاقته الجزئية. وكذا في تخصيصه للبشر بالذكر دون الجسد؛ لعل ذلك لأن البشرة والجلد أول ما يتأثر بهذا الإيلام الجسدي الذي قد يكون في أكثره أكثر إيلاما على النفس. فيقر من خلال الفكرة السابقة أنه لم يرسل الأمراء لضرب الخلق أو لجباية المال، ثم يستدرك على ذلك بقوله: (**وَلَكِنْ أُرْسِلُهُمْ إِلَيْكُمْ لِيُعَلِّمُوكُمْ دِينَكُمْ وَسُنَّتَكُمْ**)، فالغاية من إرسال الأمراء تعليم الدين، ثم يستخدم أسلوب الزجر لمن تخطى ما أقره في قوله: (**فَمَنْ فُعِلَ بِهِ شَيْءٌ سِوَى ذَلِكَ فَلْيَرْفَعْهُ إِلَيَّ**). وأسلوب التوكيد في قوله: (**فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِذًا لَأُقِصَّنَّهُ مِنْهُ**): أكد القول بالقَسَمِ واللام، ومما يدل على صرامته: ردُّ فعل الصحابي الجليل عمرو بن العاص ﷺ إذ وثب - كما نقل الراوي - متسائلا عمن يؤدب رعيته، فتتجلى عدالة وبلاغة الفاروق في رد بليغ، فقال: (**إِي - وَالَّذِي نَفْسُ عُمَرَ بِيَدِهِ -، إِذًا لَأُقِصَّنَّهُ مِنْهُ**) فـ(**إي**): حرف إيجاب لا يستعمل إلا في القسم، وهمزتها مكسورة والياء فيها ساكنة، والقسم بعده واللام ونون التوكيد الثقيلة في (**لَأُقِصَّنَّهُ**)، كلها للتأكيد عن مضي الفاروق في قوله دون رجعة مهما كانت دوافع الأمير لإهانة فرد من أفراد الرعية. ثم يقول: (**أَنَّى لا أُقِصَّنَّهُ مِنْهُ، وَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يُقِصُّ مِنْ نَفْسِهِ؟!**): أسلوب إنشائي استفهام الغرض منه الاستنكار والتعجب، كيف لا أقتص لمسلم حقه وقد اقتص النبي ﷺ من نفسه؟! ولعل في ذلك إشارةً للقصة المشهورة أنَّ رسول الله

ﷺ عدل صفوف أصحابه يوم بدر، وفي يده قدح يعدل به القوم، فمر بسواد بن غزيَّة؛ حليف بني عدي ابن النجار، قال: وهو مستنتل من الصف، فطعنه رسولُ الله ﷺ بالقدح في بطنه، وقال: «**اسْتَوِ يا سَواد**». فقال: يا رسول الله، أوجعتني، وقد بعثك الله بالعدل، فأقدني. قال: فقال له رسول الله ﷺ: «**اسْتَقِدْ**». قال: يا رسول الله، إنَّك طعنتني، وليس عليَّ قميص. قال: فكشف رسول الله ﷺ عن بطنه، وقال: «**اسْتَقِدْ**» قال: فاعتنقه، وقبَّل بطنه! قال: «**ما حَمَلَكَ عَلَى هَذا يا سَوَاد؟**» قال: يا رسول الله، حضرني ما ترى، ولم آمن القتل، فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمس جلدي جلدك، فدعا رسول الله ﷺ له بخير. والآن نمضي مع (**ألا**) الأخيرة التي تضمنت الفكرة الأخيرة والتي أراد أن يختتمها بكلمة جامعة لكل ما أوضحه في الأثر وأضاف إليه أفكارا جديدة، فيقول: (**لَا تَضْرِبُوا الْمُسْلِمِينَ فَتُذِلُّوهُمْ**): وفيه تأكيد على عزة المسلم، (**وَلا تُجَمِّرُوهُمْ فَتَفْتِنُوهُمْ**)، أي: لا تبعدوهم عن زوجاتهم فيفتتنوا، وفي ذلك أثر ورد عن الفاروق ﷺ، عن عبد الله بن دينار قال: خرج عمر بن الخطاب من الليل فسمع امرأة تقول:

تطاول هذا الليل واسود جانبه ... وأرقني أن لا خليل ألاعبه

فوالله لولا الله أني أراقبه ... لحرك من هذا السرير جوانبه

فسأل عمر ابنته حفصة: كم أكثر ما تصبر المرأة عن زوجها؟ فقالت: ستة أشهر، أو أربعة أشهر، فقال عمر: لا أحبس أحدًا من الجيوش أكثر من ذلك. ثم يقول: (**وَلا تَمْنَعُوهُمْ حُقُوقَهُمْ فَتُكَفِّرُوهُمْ**) وفي هذا القول بيان لبُعد نظر الفاروق ﷺ أن يولد جحدهم حقوقهم شعورا بالكفر بالله لعدم إنصافهم. ثم يقول: (**وَلا تُنْزِلُوهُمُ الْغِيَاضَ فَتُضَيِّعُوهُمْ**)؛ حرصا منه على حياة المسلم؛ ففي الأولى يحفظ كرامة المسلم،

وفي الثانية يحفظ عفة المسلمة والمسلم، وفي الثالثة يحفظ للمسلم إقرار مبدأ العدل والمساواة، وفي الرابعة يحفظ للمسلم حياته. وفي ذلك النسق استخدم الأسلوب الإنشائي النهي والغرض منه الزجر والتحذير، واستخدم الجرس الموسيقي المتمثل في السجع في المقطع الأخير في قوله: (**فَتُذِلُّوهُمْ، فَتَفْتِنُوهُمْ، فَتُكَفِّرُوهُمْ، فَتُضَيِّعُوهُمْ**)، والسجع يعمل على جذب انتباه المستمع كما أشرنا آنفًا. وهذا النصُّ قد تكررت أجزاء منه في النصوص رقم اثنين وستين ومئة، وخمسة وأربعين ومئتين، ورقم ستة وثلاثين وخمسمئة.

[٤١١]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

يَذْكُرُ فِيهَا أَمْرَ الِاسْتِخْلَافِ مِنْ بَعْدِهِ

«إِنِّي رَأَيْتُ كَأَنَّ دِيكًا نَقَرَنِي ثَلَاثَ نَقَرَاتٍ، وَإِنِّي لَا أُرَاهُ إِلَّا حُضُورَ أَجَلِي، وَإِنَّ أَقْوَامًا يَأْمُرُونَنِي أَنْ أَسْتَخْلِفَ، وَإِنَّ اللهَ لَمْ يَكُنْ لِيُضِيعَ دِينَهُ، وَلَا خِلَافَتَهُ، وَلَا الَّذِي بَعَثَ بِهِ نَبِيَّهُ ﷺ، فَإِنْ عَجِلَ بِي أَمْرٌ؛ فَالْخِلَافَةُ شُورَى بَيْنَ هَؤُلَاءِ السِّتَّةِ[1] الَّذِينَ تُوُفِّيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَهُوَ عَنْهُمْ رَاضٍ، وَإِنِّي قَدْ عَلِمْتُ أَنَّ أَقْوَامًا يَطْعَنُونَ فِي هَذَا الْأَمْرِ، أَنَا ضَرَبْتُهُمْ بِيَدِي هَذِهِ عَلَى الْإِسْلَامِ، فَإِنْ فَعَلُوا ذَلِكَ فَأُولَئِكَ أَعْدَاءُ اللهِ الْكَفَرَةُ الضُّلَّالُ، ثُمَّ إِنِّي لَا أَدَعُ بَعْدِي شَيْئًا أَهَمَّ عِنْدِي مِنَ الْكَلَالَةِ، مَا رَاجَعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ فِي شَيْءٍ مَا رَاجَعْتُهُ فِي الْكَلَالَةِ، وَمَا أَغْلَظَ لِي فِي شَيْءٍ مَا أَغْلَظَ لِي فِيهِ، حَتَّى طَعَنَ بِإِصْبَعِهِ فِي صَدْرِي، فَقَالَ: «**يَا عُمَرُ، أَلَا تَكْفِيكَ آيَةُ الصَّيْفِ الَّتِي فِي آخِرِ سُورَةِ النِّسَاءِ؟**»، وَإِنِّي إِنْ أَعِشْ أَقْضِ فِيهَا بِقَضِيَّةٍ يَقْضِي بِهَا مَنْ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَمَنْ لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ» ثُمَّ قَالَ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أُشْهِدُكَ عَلَى أُمَرَاءِ الْأَمْصَارِ، وَإِنِّي إِنَّمَا بَعَثْتُهُمْ عَلَيْهِمْ لِيَعْدِلُوا عَلَيْهِمْ، وَلِيُعَلِّمُوا النَّاسَ دِينَهُمْ وَسُنَّةَ نَبِيِّهِمْ ﷺ، وَيَقْسِمُوا فِيهِمْ فَيْئَهُمْ، وَيَرْفَعُوا إِلَيَّ مَا أَشْكَلَ عَلَيْهِمْ مِنْ أَمْرِهِمْ. ثُمَّ إِنَّكُمْ - أَيُّهَا النَّاس - تَأْكُلُونَ شَجَرَتَيْنِ لَا أُرَاهُمَا إِلَّا خَبِيثَتَيْنِ: هَذَا الْبَصَلَ، وَالثُّومَ، لَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ إِذَا وَجَدَ رِيحَهُمَا مِنَ الرَّجُلِ فِي الْمَسْجِدِ أَمَرَ بِهِ

١- السِّتَّةُ: عُثْمانُ، وعَلِيٌّ، وطَلحَةُ، والزُّبَيرُ، وسَعدُ بنُ أبي وَقَّاصٍ، وعَبدُ الرَّحمنِ بنُ عَوفٍ. ولم يُدخِلْ سَعيدَ بنَ زيدٍ معَهم، وإِنْ كانَ مِن العشرةِ المُبشَّرينَ بالجنَّةِ؛ لأنَّه مِن أقاربِه.

فَأُخْرِجَ إِلَى الْبَقِيعِ؛ فَمَنْ أَكَلَهُمَا فَلْيُمِتْهُمَا طَبْخًا»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: المكان: مدينة رسول الله ﷺ، والزمان: قبيل وفاة الفاروق رضي الله عنه أي: في عام الثالث والعشرين من هجرة النبي ﷺ، والمقام: هنا تنوع بين إصدار أوامر إدارية، والتأصيل لمسائل قضائية خاصة بالمواريث، وتعليم النَّاس مهام أمراء الأمصار، ووعظ ديني.

البيان والبلاغة: المتأمل في الخطبة يجد الفاروق رضي الله عنه قد تناول أربعة أفكار من خلالها؛ أما الفكرة الأولى فتتمثل في قضية الاستخلاف، وهي قضية سياسية تناولها في قوله: (**إِنِّي رَأَيْتُ كَأَنَّ دِيكًا نَقَرَنِي**) إلى قوله: (**فَإِنْ فَعَلُوا ذَلِكَ فَأُولَئِكَ أَعْدَاءُ الله، الْكَفَرَةُ الضُّلَّالُ**). استحضِر معي المشهد: الآن الفاروق رضي الله عنه يقف في النَّاس خطيبًا، فيصدِّر قوله بالحديث عن رؤيا رآها قائلا: (**إِنِّي رَأَيْتُ**)، أي: في المنام، (**كَأَنَّ دِيكًا نَقَرَنِي**)، أي: ضربني بمنقاره، وهنا يتوقف المتلقي ويدور في خلده وما الخير أو الشر في ذلك؛ فيبادره الفاروق قائلا: (**وَإِنِّي لَا أُرَاهُ إِلَّا حُضُورَ أَجَلِي**): أسلوب مؤكد بـ (**إِنَّ**) كما استخدم أسلوب القصر المراد منه التخصيص، فيقول: وإني لا أظن الرؤيا إلا أنها إشارة إلى حضور أجلي وقربه، وكان كما رأى، فقد ضربه أبو لؤلؤة فيروز غلام المغيرة بالخنجر في صلاة الصبح ثلاث طعنات، فاحتُمِل إلى البيت واستشهد، وقد تحققت له دعواته التي تعرضنا لها في الآثار السابقة فمات شهيدًا ومات في بلد الرسول؛ فهو من قوم ﴿صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب : ٢٣] فصدقهم

١- رواهُ مسلمٌ في «صحيحِه» (٥٦٧)، وأحمدُ في «المُسنَدِ» (٨٩) و(١٨٦) و(٣٤١) و(٣٦٢) و(٣٦٣)، والطَّيالِسيُّ في «المُسنَدِ» (٥٣)، والحُميديُّ في «المُسنَدِ» (٢٩) مُختصَرًا، وابنُ الجعدِ في «المُسنَدِ» (١٢٨٢)، وابنُ أبي شيبةَ في «المُصنَّفِ» (٣٨٢١٧)، وابنُ حبَّانَ في «صحيحِه» (٢٠٩١).

الله. وهنا قد استقبل المتلقي الرؤيا وعرف تأويلها: الخليفة الصارم العادل يُصرِّح بدنو أجله فالخلق بين اثنين؛ حزين وسعيد. أما الحزين فالمؤمن ودعوى حزنه: أولًا: على فَقْدِ فاروق الأمة مَن سدَّ باب الفتن بقوته وصرامته وعدله، ثانيًا: خشيته على الأمة وتفرقها بعد وفاة هذا القائد الذي أجبر أكثر الكارهين للإسلام والمسلمين على الاعتراف بحكمته وحنكته في تدبير الأمور. أما السعيد فالمنافق والكافر، ودعوى سعادته: أنه خلص ممن جعله ذليلا كسيرًا غير قادر على إشعال الفتن حتى في أحلك وأصعب الظروف التي أصابت المسلمين في عهد الفاروق ﵁، وبعد موته ستجتهد تلك الفئة الضالة على إشعال نيران الفتن من جديد؛ لتفتيت عضد الأمة الإسلامية، وقد كان ما سعِدوا لأجله. وهنا ينتقل بنا الفاروق لداعي يطمئن به الأمة من بعده؛ فرضي الله عنه، كان يعمل لتلك الأمة لا لنفسه، فمن يعمل في منصب ما فإنه لا يضره ما يكون من بعده، أمَّا مَن يعمل لله فإنه يؤمِّن الحال للرعية كي يستقروا بعد عزله أو استقالته أو موته، فيقول: (**وَإِنَّ أَقْوَامًا يَأْمُرُونَنِي أَنَّ أَسْتَخْلِفَ**): في القول دليل على تواضع الفاروق ﵁، وخفض الجناح للناصح في أمر الأمة؛ فإنه يُؤْمَر - وهو أمير المؤمنين - من رجل من رعاياه! والمراد من قوله: إن أقواما طلبوا أن أعين خليفة بعدي. ثم يقول: (**وَإِنَّ اللهَ لَمْ يَكُنْ لِيُضَيِّعَ دِينَهُ، وَلَا خِلَافَتَهُ، وَلَا الَّذِي بَعَثَ بِهِ نَبِيَّهُ ﷺ**): وثق الفاروق ﵁ أن الله لن يضيع الإسلام ولا المسلمين، وفيه الجملة حذف تقديره: سواء استخلفتُ أم لم أستخلف = لن يضيع الله دينه. فكان الفاروق ﵁ بين أمرين: فإن استخلف فإن أبا بكر قد استخلف، وإن ترك الاستخلاف فقد تركه رسول الله ﷺ. ثم يقول: (**فَإِنْ عَجِلَ بِي أَمْرٌ، فَالْخِلَافَةُ شُورَى بَيْنَ هَؤُلَاءِ السِّتَّةِ، الَّذِينَ تُوُفِّيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَهُوَ عَنْهُمْ رَاضٍ**)، أي: يتشاورون فيما بينهم بشأنها، ويتفقون على واحد منهم، وليس المراد

أن يحكموا معًا، وهؤلاء الستة هم: عثمان، وعلي، وطلحة، والزبير، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الرحمن بن عوف، ولم يدخل سعيد بن زيد معهم - وإن كان من العشرة المبشرين بالجنة -؛ لأنه من أقاربه؛ فإلى أي حدٍّ كان عدله ﵁ ففي آخر أيامه يخشى أن يُقال قد ولى رجلًا من أقاربه. ثم يقول: (**وَإِنِّي قَدْ عَلِمْتُ أَنَّ أَقْوَامًا يَطْعَنُونَ فِي هَذَا الْأَمْرِ**): والمراد بـ (**الأمر**) جعل الخلافة في أحد الستة، وقد كان ما تنبأ به ﵁، وفيه دليل على بُعد نظر الفاروق ﵁. ثم يقول: (**أَنَا ضَرَبْتُهُمْ بِيَدِي هَذِهِ عَلَى الْإِسْلَامِ**): وفيه نصح وإرشاد لمن بعده بأن يسلك نفس الطريق الذي سلكه لدرءِ الفتن؛ فإنه بحزمه وقوته أرغمهم على الاستسلام وعدم الخروج وعدم إثارة الفتن. ثم يقول: (**فَإِنْ فَعَلُوا ذَلِكَ فَأُولَئِكَ أَعْدَاءُ اللهِ، الْكَفَرَةُ الضُّلَّالُ**): فإن طعنوا في استخلافي وأثاروا الفتن واستحلوا ذلك فهم كَفرة ضُلَّال، وإن لم يستحلوا ذلك ففعلهم فعل الكفرة. وفي وصفهم بالكفرة الضُّلال تصريح لمن بعده بأن يُنزلوا بهم ما يستحقه الكفار إن أرادوا إشعال الفتن. ثم انتهى الفاروق ﵁ من الحديث عن أمر الاستخلاف ودمج بين رؤية النبي ﷺ ورؤية الصديق ﵁ فترك حرية الاختيار للمسلمين بين ستة من صحابة النبي ﷺ، وأمرَهم بردع من خالف تلك الفكرة حتى يستقر حال الأمة بعد وفاته. وهنا ينطلق للفكرة الثانية وهي مسألة من مسائل المواريث؛ فالمتأمل لنسق الحديث يجده تغير تمامًا عن الفكرة الأولى التي تعرض لها، وتلك الفكرة أخذت من قوله: (**ثُمَّ إِنِّي لَا أَدَعُ بَعْدِي شَيْئًا أَهَمَّ عِنْدِي مِنَ الْكَلَالَةِ**) إلى قوله: (**يَقْضِي بِهَا مِنْ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَمَنْ لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ**). **والكلالة**: الميت يكون له إخوة وليس له أصل ولا فرعٌ وارث. ومشكلتها فيمن مات عن إخوة أشقاء وإخوة لأم وزوج، وقد أشرك عمر الأشقاء مع الإخوة لأم؛ لأن تطبيق الأنصباء النَّصف للزوج والثلث للإخوة لأم، لا يبقى للأشقاء

سوى السدس، فقال الأشقاء لعمر: اجعل أبانا حجرًا في اليم؛ فنحن نشاركهم في الأم التي يرثون بسببها، فأشركهم، وهذه المسألة تسمى الحجرية أو المشتركة أو العمرية. وقوله: (**ألا يكفِيْكَ آيةُ الصَّيْفِ**)، أي: الآية التي نزلت في الصيف، وهي قوله تعالى: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي ٱلْكَلَٰلَةِ ﴾ [النساء : ١٧٦]. وسبب طعن النبي ﷺ بإصبعه في صدره ما قاله الإمام النووي: «ولعلَّ النبي ﷺ إنما أغلظ له لخوفه من اتكاله واتكال غيره على ما نص عليه صريحا وتركهم الاستنباط من النصوص، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ﴾ [النساء: ٨٣]، فالاعتناء بالاستنباط من آكد الواجبات المطلوبة؛ لأن النصوص الصريحة لا تفي إلا بيسير من المسائل الحادثة، فإذا أهمل الاستنباط فات القضاءُ في معظم الأحكام النازلة أو في بعضها. والله أعلم»[١]. ثم ينتقل إلى الأمر الثالث الذي يتضمن توصية أمرائه على الأمصار بالرعية، وتلك الفكرة تبدأ من قوله: (**اللهُمَّ إِنِّي أُشْهِدُكَ عَلَى أُمَرَاءِ الْأَمْصَارِ**) إلى قوله: (**وَيَرْفَعُوا إِلَيَّ مَا أَشْكَلَ عَلَيْهِمْ مِنْ أَمْرِهِمْ**). وقد تعرضنا لمثل هذا في الأثر السابق، وتكلمنا فيه بما يغني عن الإعادة هنا. وقد استخدم السجع في تلك الفكرة دون غيرها من الأفكار التي تعرض لها في الأثر، وكأنه أراد جذب الانتباه إليه، وعندما يخرج من النسق الذي وضع فيه الفكرة إلى نسق آخر سيجذب ذهن المتلقي = فسوف يشعر المتلقي أن تلك النغمة التي كانت في الفواصل قد انتهت فيستعد لتلقي فكرة جديدة. ثم يتعرض للأمر الأخير الذي يختص بجانب العبادات وتعاليم دخول المسجد، وهو من قوله: (**ثُمَّ إِنَّكُمْ، أَيُّهَا النَّاس، تَأْكُلُونَ شَجَرَتَيْنِ**) إلى آخر الأثر؛ فيتحدث عمَّن أكل ثوما أو بصلا، وفيه اقتباس من قول النبي ﷺ: «**مَنْ أَكَلَ مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ**

١- شرح صحيح مسلم للإمام النووي (١١/ ٥٧-٥٨).

الْخَبِيثَةِ شَيْئًا، فَلَا يَقْرَبَنَّا فِي الْمَسْجِدِ»، ثم يقول: (**فَمَنْ أَكَلَهُمَا فَلْيُمِتْهُمَا طَبْخًا**): فمن أراد أكلهما فليُمِت رائحتهما بالطبخ، وإماتة كل شيء كسر قوته وحدته. ويُلاحظ على خطبة الفاروق السابقة: تنوع الموضوعات بها، وفيه أكثر من فائدة. لكنا نخصُّ منها فائدتين: أما الأولى: فللحاكم؛ وهي: أن يتطرق إلى كل شئون الرعية السياسية والدينية والقضائية. والثانية: فللخطيب؛ وهي: أن ينوع في حديثه فلا يظل طوال خطبته في موضوع واحد يمله المتلقي فيشرد، فكلما تنوعت الموضوعات كلما استطاع المتلقي التركيز، والخروج بالفائدة المرجوة، فرضي الله عن الفاروق وعن سائر الصحابة.

[٤١٢]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

فِي آخِرِ حَجَّةٍ حَجَّهَا

«أَمَّا بَعْدُ؛ فَإِنِّي قَائِلٌ لَكُمْ مَقَالَةً قَدْ قُدِّرَ لِي أَنْ أَقُولَهَا، لَا أَدْرِي لَعَلَّهَا بَيْنَ يَدَيْ أَجَلِي، فَمَنْ عَقَلَهَا وَوَعَاهَا فَلْيُحَدِّثْ بِهَا حَيْثُ انْتَهَتْ بِهِ رَاحِلَتُهُ، وَمَنْ خَشِيَ أَنْ لَا يَعْقِلَهَا فَلَا أُحِلُّ لِأَحَدٍ أَنْ يَكْذِبَ عَلَيَّ: إِنَّ اللهَ بَعَثَ مُحَمَّدًا ﷺ بِالْحَقِّ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ الْكِتَابَ، فَكَانَ مِمَّا أَنْزَلَ اللهُ = آيَةُ الرَّجْمِ، فَقَرَأْنَاهَا وَعَقَلْنَاهَا وَوَعَيْنَاهَا، رَجَمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَرَجَمْنَا بَعْدَهُ، فَأَخْشَى إِنْ طَالَ بِالنَّاسِ زَمَانٌ أَنْ يَقُولَ قَائِلٌ: وَاللهِ مَا نَجِدُ آيَةَ الرَّجْمِ فِي كِتَابِ اللهِ. فَيَضِلُّوا بِتَرْكِ فَرِيضَةٍ أَنْزَلَهَا اللهُ، وَالرَّجْمُ فِي كِتَابِ اللهِ حَقٌّ عَلَى مَنْ زَنَى إِذَا أُحْصِنَ، مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ، إِذَا قَامَتِ الْبَيِّنَةُ، أَوْ كَانَ الْحَبَلُ أَوِ الِاعْتِرَافُ. ثُمَّ إِنَّا كُنَّا نَقْرَأُ فِيمَا نَقْرَأُ مِنْ كِتَابِ اللهِ: «أَنْ لَا تَرْغَبُوا عَنْ آبَائِكُمْ؛ فَإِنَّهُ كُفْرٌ بِكُمْ أَنْ تَرْغَبُوا عَنْ آبَائِكُمْ، أَوْ إِنَّ كُفْرًا بِكُمْ أَنْ تَرْغَبُوا عَنْ آبَائِكُمْ». أَلَا، ثُمَّ إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**لَا تُطْرُونِي كَمَا أُطْرِيَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ، وَقُولُوا: عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ**». ثُمَّ إِنَّهُ بَلَغَنِي أَنَّ قَائِلًا مِنْكُمْ يَقُولُ: وَاللهِ، لَوْ قَدْ مَاتَ عُمَرُ بَايَعْتُ فُلَانًا. فَلَا يَغْتَرَّنَّ امْرُؤٌ أَنْ يَقُولَ: إِنَّمَا كَانَتْ بَيْعَةُ أَبِي بَكْرٍ فَلْتَةً، وَتَمَّتْ. أَلَا، وَإِنَّهَا قَدْ كَانَتْ كَذَلِكَ، وَلَكِنَّ اللهَ وَقَى شَرَّهَا، وَلَيْسَ مِنْكُمْ مَنْ تُقْطَعُ الْأَعْنَاقُ إِلَيْهِ مِثْلَ أَبِي بَكْرٍ. مَنْ بَايَعَ رَجُلًا عَنْ غَيْرِ مَشُورَةٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَلَا يُبَايَعُ هُوَ وَلَا الَّذِي بَايَعَهُ؛ تَغِرَّةً[1] أَنْ يُقْتَلَا. وَإِنَّهُ قَدْ كَانَ مِنْ خَبَرِنَا،

١- قالَ ابنُ الأثيرِ في «النِّهاية» ٣/ ٣٥٦: (التَّغِرَّةُ: مصدرُ غَرَّرْتُهُ؛ إِذَا أَلقَيْتَهُ في الغَرَرِ ... وفي الكَلامِ مُضافٌ محذوفٌ تقديرُه: خَوْفَ تَغِرَّةٍ أَن يُقتَلَا؛ أي خَوْفَ وُقُوعِهما في القَتلِ ... ويَجوزُ أَنْ يكونَ قولُه: «أَنْ يُقْتَلَا» بدلًا مِن «تَغِرَّة»، ويكونُ المُضافُ محذُوفًا كالأَوَّلِ. ومَن أضافَ «تَغِرَّة» إلى «أَنْ يُقْتَلَا» فمعناهُ خوفَ تَغِرَّتِهِ=

حِينَ تَوَفَّى اللهُ نَبِيَّهُ ﷺ: أَنَّ الْأَنْصَارَ خَالَفُونَا، وَاجْتَمَعُوا بِأَسْرِهِمْ فِي سَقِيفَةِ بَنِي سَاعِدَةَ، وَخَالَفَ عَنَّا عَلِيٌّ وَالزُّبَيْرُ وَمَنْ مَعَهُمَا، وَاجْتَمَعَ الْمُهَاجِرُونَ إِلَى أَبِي بَكْرٍ، فَقُلْتُ لِأَبِي بَكْرٍ: يَا أَبَا بَكْرٍ، انْطَلِقْ بِنَا إِلَى إِخْوَانِنَا هَؤُلَاءِ مِنَ الْأَنْصَارِ. فَانْطَلَقْنَا نُرِيدُهُمْ، فَلَمَّا دَنَوْنَا مِنْهُمْ، لَقِينَا مِنْهُمْ رَجُلَانِ صَالِحَانِ، فَذَكَرَا مَا تَمَالَأَ عَلَيْهِ الْقَوْمُ، فَقَالَا: أَيْنَ تُرِيدُونَ يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ؟ فَقُلْنَا: نُرِيدُ إِخْوَانَنَا هَؤُلَاءِ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَقَالَا: لَا عَلَيْكُمْ أَنْ لَا تَقْرَبُوهُمْ، اقْضُوا أَمْرَكُمْ. فَقُلْتُ: وَاللهِ لَنَأْتِيَنَّهُمْ. فَانْطَلَقْنَا حَتَّى أَتَيْنَاهُمْ فِي سَقِيفَةِ بَنِي سَاعِدَةَ، فَإِذَا رَجُلٌ مُزَمَّلٌ بَيْنَ ظَهْرَانَيْهِمْ، فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ فَقَالُوا: هَذَا سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ. فَقُلْتُ: مَا لَهُ؟ قَالُوا: يُوعَكُ. فَلَمَّا جَلَسْنَا قَلِيلًا تَشَهَّدَ خَطِيبُهُمْ، فَأَثْنَى عَلَى اللهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ، ثُمَّ قَالَ: أَمَّا بَعْدُ؛ فَنَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ وَكَتِيبَةُ الْإِسْلَامِ، وَأَنْتُمْ مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ رَهْطٌ، وَقَدْ دَفَّتْ دَافَّةٌ مِنْ قَوْمِكُمْ، فَإِذَا هُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يَخْتَزِلُونَا مِنْ أَصْلِنَا، وَأَنْ يَحْضُنُونَا مِنَ الْأَمْرِ. فَلَمَّا سَكَتَ أَرَدْتُ أَنْ أَتَكَلَّمَ، وَكُنْتُ قَدْ زَوَّرْتُ[١] مَقَالَةً أَعْجَبَتْنِي، أُرِيدُ أَنْ أُقَدِّمَهَا بَيْنَ يَدَيْ أَبِي بَكْرٍ، وَكُنْتُ أُدَارِي مِنْهُ بَعْضَ الْحَدِّ[٢]، فَلَمَّا أَرَدْتُ أَنْ أَتَكَلَّمَ قَالَ أَبُو بَكْرٍ: عَلَى رِسْلِكَ. فَكَرِهْتُ أَنْ أُغْضِبَهُ، فَتَكَلَّمَ أَبُو بَكْرٍ، فَكَانَ هُوَ أَحْلَمَ

= قَتلِهِما. ومعنى الحديثِ: أنَّ البيعةَ حقُّها أن تقعَ صادرةً عنِ المشورةِ والاتِّفاقِ، فإذا استبدَّ رجلانِ دونَ الجماعةِ، فبايعَ أحدُهما الآخرَ؛ فذلكَ تظاهرٌ منهما بشقِّ العصا، واطِّراحِ الجماعةِ. فإنْ عُقِدَ لأحدٍ بيعةٌ؛ فلا يكونُ المعقودُ لهُ واحدًا منهما، وليكونا مَعزولَينِ مِن الطَّائفةِ الَّتي تتَّفقُ على تمييزِ الإمامِ منها؛ لأنَّه إنْ عُقِد لواحدٍ منهما وقدِ ارتكَبا تلكَ الفَعْلةَ الشَّنيعةَ الَّتي أَحفظَتِ الجماعةَ، مِنَ التَّهاوُنِ بهم، والاستغناءِ عَن رأيِهم؛ لم يُؤمَنْ أن يُقتَلا).

١- قالَ ابنُ الأثيرِ في «النِّهاية» ٢/ ٣١٨: (أي هَيَّأتُ وأَصلَحتُ. والتَّزوِيرُ: إِصلاحُ الشَّيءِ. وكلامٌ مُزَوَّرٌ: أي مُحسَّنٌ).

٢- قالَ ابنُ الأثيرِ في «النِّهاية» ١/ ٣٥٣: (الحَدُّ والحِدَّةُ سواءٌ، مِنَ الغَضَبِ. يُقالُ: حَدَّ يَحِدُّ حَدًّا وحِدَّةً؛ إذا غَضِبَ).

مِنِّي وَأَوْقَرَ، وَاللهِ مَا تَرَكَ مِنْ كَلِمَةٍ أَعْجَبَتْنِي فِي تَزْوِيرِي، إِلَّا قَالَ فِي بَدِيهَتِهِ مِثْلَهَا أَوْ أَفْضَلَ مِنْهَا حَتَّى سَكَتَ، فَقَالَ: مَا ذَكَرْتُمْ فِيكُمْ مِنْ خَيْرٍ فَأَنْتُمْ لَهُ أَهْلٌ، وَلَنْ يُعْرَفَ هَذَا الْأَمْرُ إِلَّا لِهَذَا الْحَيِّ مِنْ قُرَيْشٍ، هُمْ أَوْسَطُ الْعَرَبِ نَسَبًا وَدَارًا، وَقَدْ رَضِيتُ لَكُمْ أَحَدَ هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ، فَبَايِعُوا أَيَّهُمَا شِئْتُمْ. فَأَخَذَ بِيَدِي، وَبِيَدِ أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ الْجَرَّاحِ، وَهُوَ جَالِسٌ بَيْنَنَا، فَلَمْ أَكْرَهْ مِمَّا قَالَ غَيْرَهَا، كَانَ - وَاللهِ - أَنْ أُقَدَّمَ فَتُضْرَبَ عُنُقِي، لَا يُقَرِّبُنِي ذَلِكَ مِنْ إِثْمٍ، أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَتَأَمَّرَ عَلَى قَوْمٍ فِيهِمْ أَبُو بَكْرٍ، اللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ تُسَوِّلَ[1] إِلَيَّ نَفْسِي عِنْدَ الْمَوْتِ شَيْئًا لَا أَجِدُهُ الْآنَ. فَقَالَ قَائِلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ: أَنَا جُذَيْلُهَا الْمُحَكَّكُ[2]، وَعُذَيْقُهَا الْمُرَجَّبُ[3]، مِنَّا أَمِيرٌ، وَمِنْكُمْ أَمِيرٌ، يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ. فَكَثُرَ اللَّغَطُ، وَارْتَفَعَتِ الْأَصْوَاتُ، حَتَّى فَرِقْتُ مِنَ الِاخْتِلَافِ، فَقُلْتُ: ابْسُطْ يَدَكَ، يَا أَبَا بَكْرٍ. فَبَسَطَ يَدَهُ، فَبَايَعْتُهُ، وَبَايَعَهُ الْمُهَاجِرُونَ، ثُمَّ بَايَعَتْهُ الْأَنْصَارُ. وَنَزَوْنَا عَلَى سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ، فَقَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ: قَتَلْتُمْ سَعْدَ بْنَ عُبَادَةَ. فَقُلْتُ: قَتَلَ اللهُ سَعْدَ بْنَ عُبَادَةَ. قَالَ عُمَرُ: وَإِنَّا - وَاللهِ - مَا وَجَدْنَا فِيمَا حَضَرْنَا مِنْ أَمْرٍ أَقْوَى مِنْ مُبَايَعَةِ أَبِي بَكْرٍ، خَشِينَا إِنْ فَارَقْنَا الْقَوْمَ - وَلَمْ تَكُنْ بَيْعَةٌ - أَنْ يُبَايِعُوا رَجُلًا مِنْهُمْ بَعْدَنَا، فَإِمَّا بَايَعْنَاهُمْ عَلَى مَا لَا نَرْضَى،

١- قَالَ ابنُ الأثيرِ في «النِّهاية» ٢/ ٤٢٥: (التَّسوِيلُ: تَحسِينُ الشَّيءِ وَتَزيِينُهُ وتَحبِيبُهُ إِلى الإنسانِ لِيَفعلَهُ أو يَقُولَهُ).

٢- هو تصغيرُ (جِذْلٍ)، وهو العُودُ الَّذي يُنصَبُ للإبلِ الجَرْبَى لِتَحْتَكَّ به، وهو تصغيرُ تعظِيم، أي: أنا مِمَّن يُستَشْفَى بِرَأْيِه، كما تَسْتَشْفِي الإبلُ الجَرْبَى بالاحْتِكاكِ بهذا العُودِ. «النِّهاية» لابنِ الأثيرِ (جذل).

٣- (عُذَيْقُها): تصغيرُ العَذْقِ، بفتحِ العينِ: وهو النَّخلةُ. و(المُرَجَّبُ): المُسندُ بالرُّجْبةِ، وهي خشبةٌ ذاتُ شُعبتينِ، وذلكَ إذا طالتِ الشَّجرةُ وكثُر حملُها؛ اتَّخذوا ذلكَ لها، لِضَعفِها عن كثرةِ حملِها. والمعنى أنِّي ذُو رأيٍ يُستَشفَى بهِ في الحوادثِ، لا سيَّما في مثلِ هذهِ الحادثةِ، وأنِّي في ذلكَ كالعودِ الَّذي يَشفِي الجَربَى، وكالنَّخلةِ الكثيرةِ الحملِ، مِن توفُّرِ مَوادِّ الآراءِ عندِي، ثمَّ إنَّه أشار بالرَّأيِ الصَّائبِ عندَه، فقالَ: «مِنَّا أَميرٌ، وَمِنْكُمْ أَميرٌ». «جامع الأصول» لابنِ الأثيرِ (٢٠٧٦).

وَإِمَّا نُخَالِفُهُمْ فَيَكُونُ فَسَادٌ؛ فَمَنْ بَايَعَ رَجُلًا عَلَى غَيْرِ مَشُورَةٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَلَا يُتَابَعُ هُوَ وَلَا الَّذِي بَايَعَهُ؛ تَغِرَّةً أَنْ يُقْتَلَا»[1].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: جاء في الروايات أنَّ عمر رضي الله عنه خطب هذه الخطبة في المدينة عقب عودته من آخر حجة حجَّها، وقد أودع هذه الخطبة طائفة من النصائح والتحذيرات الهامة التي رأى أنَّ الناس لا يستغنون عنها بعده، لاسيما أمر البيعة والخلافة.

البيان والبلاغة: اشتمل الأثر السابق للفاروق رضي الله عنه على فكرتين: أما الفكرة الأولى: فمن قوله: (**أَمَّابَعْدُ، فَإِنِّي قَائِلٌ لَكُمْ مَقَالَةً قَدْ قُدِّرَ لِي أَنْ أَقُولَهَا**) إلى قوله: (**إِنَّ كُفْرًا بِكُمْ أَنْ تَرْغَبُواعَنْ آبَائِكُمْ**). والنَّص الذي بين أيدينا يبدأ بقوله: (**أَمَّا بَعْدُ**): وهي فصل الخطاب، وقد مرت الإشارة إليها سابقًا. ثم يضع مقدمة قبل المضي في الفكرة الأولى؛ لاسترعاء الانتباه فيقول: (**فَإِنِّي قَائِلٌ لَكُمْ مَقَالَةً ... إلخ**). والغرض من تلك المقدمة حث المتلقي على الأخذ عنه وحفظ ووعي ما يقول، وقد قصرت تلك المقدمة وقصر المقدمات من البلاغة والجزالة. يقول الطاهر ابن عاشور في معرض حديثه عن المقدمات القصيرة: «وليكون سنة للخطباء فلا يطيلوا المقدمة؛ كي لا ينسبوا إلى العي؛ فإنه بمقدار ما تطال المقدمة يقصر الغرض»، ثم يمضي للغرض الرئيس من مقالته، والتي تضمنت الحديث عن آية الرجم، وآية الرجم كانت قرآنًا يتلى مدة في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نسخ الله لفظها وبقي حكمها، والحكمة من نسخ التلاوة مع بقاء الحكم الابتلاء والاختبار لقوة إيمان هذه الأمة

١- رواهُ البخاريُّ في «صحيحِه» (٦٨٣٠)، وأحمدُ في «المُسنَدِ» (٣٩١)، وعبدُ الرَّزَّاقِ في «المُصنَّفِ» (٩٧٥٨)، وابنُ أبي شيبةَ في «المُصنَّفِ» (٣٨١٩٨)، وابنُ حبَّانَ في «صحيحِه» (٤١٣)، واللَّالكائيُّ في «شرحِ أصولِ الاعتقادِ» (٢٤٣٦)، وأبو نُعَيمٍ في «تثبيتِ الإمامةِ» (٥٢).

ومسارعتها إلى طاعة ربها، وقد أجاب الزركشي عن الحكمة في رفع التلاوة مع بقاء الحكم بقوله: «هنا سؤال، وهو أن يقال: ما الحكمة في رفع التلاوة مع بقاء الحكم؟ وهلا أبقيت التلاوة ليجتمع العمل بحكمها وثواب تلاوتها؟ وأجاب صاحب الفنون، فقال: إنما كان كذلك ليظهر به مقدار طاعة هذه الأمة في المسارعة إلى بذل النفوس بطريق الظن، من غير استفصال لطلب طريق مقطوع به فيسرعون بأيسر شيء، كما سارع الخليل إلى ذبح ولده بمنام، والمنام أدنى طرق الوحي»[1].

يقول الفاروق: (**فَقَرَأْنَاهَا وَعَقَلْنَاهَا وَوَعَيْنَاهَا**)، وإن مراحل الترتيب المنطقي في التلقي لابد أن تمر بتلك المراحل (القراءة) ثم (التعقل) ثم (الوعي)، وفي ذلك العرض يقر الفاروق ﷺ بأمرين: الأول: أن تنفيذ الأحكام على عهد النبي ﷺ كان يخضع لمعيارين: أولهما: فسمعنا وأطعنا، وثانيهما: ما طرحه الفاروق ﷺ من القراءة والتعقل والوعي الذي لا يأتي إلا بعد تفهيم النبي ﷺ كيفية الحكم وكيفية تنفيذه ... إلخ. الثاني: أن الأمر أصبح حتمًا مقضيًّا لا يحتاج لتأويل أو احتمال. ويؤكد كلامه بقوله: (**رَجَمَ رَسُولُ الله ﷺ وَرَجَمْنَا بَعْدَهُ**): والمراد من هذا القول أن الأمر بالنسبة إليهم صار فرضًا عُمل به في حياة النبي ﷺ وبعد وفاته، مما يسد باب الفتن في الأمر. وقوله: (**فَأَخْشَى، فَيَضِلُّوا**): استخدم الفاروق ﷺ تلك الأفعال؛ ليؤكد مدى حرصه على ألا يقع المسلمون فيما بعد في محظور شرعي فتكون النتيجة (**فَيَضِلُّوا بِتَرْكِ فَرِيضَةٍ أَنْزَلَهَا اللهُ**)، وفيه دليل أن الأمم تضل وتهلِك بترك ما أمر الله به. ومن قوله: (**وَالرَّجْمُ فِي كِتَابِ الله حَقٌّ**) إلى قوله: (**أَوِ الِاعْتِرَافُ**) تفصيل بعد إجمال، أي: أنه فصل في تلك العبارة ما أجمله في قوله: (**فَكَانَ مِمَّا أَنْزَلَ اللهُ آيَةُ الرَّجْمِ، فَقَرَأْنَاهَا وَ عَقَلْنَاهَا وَوَعَيْنَاهَا**). وينتقل الفاروق هنا للفكرة الثانية وتتضمن تلك

١- «البرهان» للزركشي (٢/ ٣٧).

الفكرة الحديث عن حادثة سقيفة بني ساعدة، فيبدأ كبدايته في أول الأثر بمقدمة؛ لجذب انتباه المتلقي فيقول: (**أَلاَ ثُمَّ إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ**: ...). وقد أُشير إلى (**ألا**) والغرض منها في الانتقال من فكرة إلى أخرى. وقد أتبع (**ألا**) الاستفتاحية بـ (**ثم**) التي تفيد الترتيب والتراخي، و(**إنَّ**) التي تفيد التأكيد، وأورد حديث النبي ﷺ، وهذا الحديث غير مرتبط بالموضوع الأول الذي تناوله، فيعمل هذا الحديث على عصف ذهن المتلقي؛ فيتوارد لذهنه: ماذا يريد الفاروق بهذا الحديث؟! فيقول الفاروق: (**ثُمَّ إِنَّه بَلَغَنِي أَنَّ قَائِلًا مِنْكُمْ**): وتلك العبارة توازي قول الرسول ﷺ: «**ما بالُ أَقْوامٍ**»، وهذا الأسلوب يسمى بأسلوب التعريض، ويستخدم حين يرتكب فرد أو جماعة خطأً، فلا يحب أن يواجه أيا منهم بالإنكار المباشر الصريح؛ حفظًا لماء الحياء في وجوههم، ورعاية لطيب خواطرهم، أو لغرض تعميم النَّصيحة لئلا يقع غيرهم في مثل ما وقعوا فيه. وقوله: (**وَلَيْسَ مِنْكُمْ مَنْ تُقْطَعُ الأَعْنَاقُ إِلَيْهِ مِثْلُ أَبِي بَكْرٍ**): قطع أعناق الإبل كناية عن طول وكثرة السير، أي: ليس فيكم مثل أبي بكر في الفضل والتقدم بحيث يستحق السفر إليه والحرص عليه؛ لأنه سبق كل سابق فلذلك مضت بيعته على حال فجأة وقى الله شرها فلا يطمعن أحد في مثل ذلك. والقول كناية عن عظيم فضل الصديق رضي الله عنه وعظم مكانته في قلب عمر رضي الله عنه. وقوله: (**إِلَى إِخْوَانِنَا هَؤُلاَءِ مِنَ الأَنْصَارِ**) استخدام لفظة (**إِخْوَانِنا**) في مقام يخيل للجهال أنه مقام تصارع على سلطة أو دنيا = درأ ما في تلك النفوس الخبيثة، ودل على أن الوازع الأول والدافع هو دافع الأخوة والحفاظ على ترابط الأمة. وقوله: (**فَلَمَّا دَنَوْنَا مِنْهُمْ**): يلاحظ في اختيار الفاروق للألفاظ المستخدمة أنها تدل على الرفق؛ مثل: (**دنونا**)، فالعبارة للدلالة على أن المحرك الأصلي هو الود بين المؤمنين. وقوله: (**وَاللهِ لَنَأْتِيَنَّهُمْ**): استخدام القَسَم ولام التأكيد ونون التوكيد الثقيلة للدلالة

على عزمهم في المضي إلى السقيفة درءًا للفتن. وقوله: (**كُنْتُ قَدْ زَوَّرْتُ مَقَالَةً أَعْجَبَتْنِي**): كناية عن بلاغة الفاروق ﷺ وترويه؛ فقد استمع لمقالة ابن عبادة ﷺ وأخذ يرتب في ذهنه مقالة توحد الصف، وذلك لا يتأتى إلا لرجل متقد الذهن حاضر العبارة لديه قدرة على الإقناع تنبع تلك القدرة من شخصية يجلها الحضور ويقدرون قيمتها. وقوله: (**أُرِيدُ أَنْ أُقَدِّمَهَا بَيْنَ يَدَيْ أَبِي بَكْرٍ**): تلك العبارات كأن الفاروق أراد بها أن يخبر المتلقي بعظيم قدر الصدِّيق في قلبه، فحين يقول: (**أُقَدِّمَهَا بَيْنَ يَدَيْ أَبِي بَكْرٍ**) وكأن المجلس ليس فيه إلا الصديق. ففي ذلك دلالة على مكانته ﷺ في قلب الفاروق وسائر الصحابة ﷺ. وقوله: (**فَكَرِهْتُ أَنْ أُغْضِبَهُ**): كناية – أيضًا – عن احترامه للصديق وتقديمه إياه. وقوله: (**فَتَكَلَّمَ أَبُو بَكْر فَكَانَ هُوَ أَحْلَمَ مِنِّي وَأَوْقَرَ**): في استخدام أفعل التفضيل (**أحلم**) و (**أوقر**) إقرار من الفاروق ﷺ على أفضلية الصديق ﷺ. وقوله: (**وَاللهِ مَا تَرَكَ مِنْ كَلِمَةٍ أَعْجَبَتْنِي فِي تَزْوِيرِي، إِلَّا قَالَ فِي بَدِيهَتِهِ مِثْلَهَا أَوْ أَفْضَلَ مِنْهَا**) كناية عن أمرين: الأول: بلاغة الصديق ﷺ وأنه كان الأصلح لقيادة تلك المرحلة العصيبة بعد وفاة المعلم الأكبر، والثاني: بُعد نظر الفاروق ﷺ وإنصافه وإقراره بالفضل لأهله وإن فاقوه فضلا. وقوله: (**كَانَ – وَاللهِ – أَنْ أُقَدَّمَ فَتُضْرَبَ عُنُقِي، لاَ يُقَرِّبُنِي ذَلِكَ مِنْ إِثْمٍ، أَحَبَّ إِلَيَّ مِن أَنْ أَتَأَمَّرَ عَلَى قَوْمٍ فِيهِمْ أَبُو بَكْرٍ**): كناية عن توقير الصديق ﷺ، ألا يعد هذا الموقف ككل وهذا السكوت والتقديم في كل شيء تقديرًا من الفاروق ﷺ وبرًّا لقسمه فيما ورد عن زيد بن أسلم عن أبيه قال: سَمِعْتُ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ – رضى الله عنه – يَقُولُ: أَمَرَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ يَوْمًا أَنْ نَتَصَدَّقَ فَوَافَقَ ذَلِكَ مَالًا عِنْدِي؛ فَقُلْتُ: الْيَوْمَ أَسْبِقُ أَبَا بَكْرٍ إِنْ سَبَقْتُهُ يَوْمًا؛ فَجِئْتُ بِنِصْفِ مَالِي؛ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَا أَبْقَيْتَ لأَهْلِكَ؟**» قُلْتُ: مِثْلَهُ. قَالَ: وَأَتَى أَبُو بَكْرٍ – رضى الله عنه – بِكُلِّ مَا عِنْدَهُ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ:

«**مَا أَبْقَيْتَ لأَهْلِكَ؟**» قَالَ: أَبْقَيْتُ لَهُمُ اللهَ وَرَسُولَهُ. قُلْتُ: لاَ أُسَابِقُكَ إِلَى شَيْءٍ أَبَدًا.

وقوله: (**فَكَثُرَ اللَّغَطُ، وَارْتَفَعَتِ الأَصْوَاتُ، حَتَّى فَرِقْتُ مِنَ الِاخْتِلاَفِ**): يحرص الفاروق - ههنا - على تصوير المشهد بطريقة حيَّة واضحة؛ فالحركة في الذهاب والقيام والصوت في مثل العبارة السابقة = كلها من المثيرات الحسية التي تعمل على استحضار المشهد، وحرص المتلقي على ألا يفوت أي لحظة ولو لم تكن مؤثرة في الحدث. وقوله: (**قَتَلَ اللهُ سَعْدَ بْنَ عُبَادَةَ**): وجه قول عمر: (قتل الله سعد) هو: الإخبار عما قدر الله - تعالى - من إهماله وعدم صيرورته خليفة، وإما دعاء صدر عنه عليه في مقابلة عدم نصرته للحق، وقيل: إنما هو من باب الزجر عن الإقبال على ما يفرق كلمة المسلمين. وقوله: (**فَمَنْ بَايَعَ رَجُلًا عَلَى غَيْرِ مَشُورَةٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فَلاَ يُتَابَعُ هُوَ وَلاَ الَّذِي بَايَعَهُ، تَغِرَّةً أَنْ يُقْتَلا**): هذا القول تكرر مرتين وإنما كرره الفاروق ﷺ من باب ترسيخ الفكرة في الأذهان، وفيه حث على تقديم المشورة لجميع المسلمين وعدم انفراد قوم بالبيعة دون غيرهم. و(**التغرة**): يقال: غرر بنفسه تغريرًا وتغرة، إذا عرَّضها للهلكة، أي: لأن ذلك تغرير لأنفسهما بالقتل، أي: إذا فعل ذلك فقد غرر بنفسه ونفس صاحبه وعرضهما للقتل.

[٤١٣]

وَمِنْ وَصِيَّةٍ لَهُ

بَعْدَ أَنْ طَعَنَهُ أَبُو لُؤْلُؤَةَ الْمَجُوسِيُّ

«أُوصِيكُمْ بِكِتَابِ اللهِ - عَزَّ وَجَلَّ -؛ فَإِنَّكُمْ لَنْ تَضِلُّوا مَا اتَّبَعْتُمُوهُ». قَالَ: قُلْنَا: أَوْصِنَا. قَالَ: «أُوصِيكُمْ بِالْمُهَاجِرِينَ؛ فَإِنَّ النَّاس سَيَكْثُرُونَ، وَيَقِلُّونَ، وَأُوصِيكُمْ بِالْأَنْصَارِ؛ فَإِنَّهُمْ شِعْبُ الْإِسْلَامِ الَّذِي لَجَأَ إِلَيْهِ، وَأُوصِيكُمْ بِالْأَعْرَابِ؛ فَإِنَّهُمْ أَصْلُكُمْ وَمَادَّتُكُمْ». ثُمَّ سَأَلْتُهُ بَعْدَ ذَلِكَ، فَقَالَ: «إِنَّهُمْ إِخْوَانُكُمْ، وَعَدُوُّ عَدُوِّكُمْ، وَأُوصِيكُمْ بِذِمَّتِكُمْ؛ فَإِنَّهَا ذِمَّةُ نَبِيِّكُمْ ﷺ، وَرِزْقُ عِيَالِكُمْ، قُومُوا عَنِّي». فَمَا زَادَ عَلَى هَؤُلَاءِ الْكَلِمَاتِ[1].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: هذه وصية مودِّع، وصية أمير المؤمنين رضي الله عنه وهو على فراش الموت بعد أن طعنه أبو لؤلؤة المجوسي. وفيها يوصي أمير المؤمنين رضي الله عنه بالتمسك بكتاب الله - تعالى - ثم برعاية حق كلٍّ من المهاجرين والأنصار والأعراب وأهل الذمة.

البيان والبلاغة: المتأمل في الأثر السابق يجد الفاروق رضي الله عنه قد خامرت كلماته كلمات النبي ﷺ، وتلك الظاهرة قد أشرنا لها في غير موضع، وتسمى بظاهرة التناص. ففي قول الفاروق رضي الله عنه: (**أُوصِيكُمْ بِكِتَابِ اللهِ - عَزَّ وَجَلَّ -؛ فَإِنَّكُمْ لَنْ تَضِلُّوا مَا اتَّبَعْتُمُوهُ**) تناص جلي بقول رسول الله ﷺ في سنن الترمذي: «**إِنِّي تَارِكٌ فِيكُمْ مَا إِنْ تَمَسَّكْتُمْ بِهِ لَنْ تَضِلُّوا بَعْدِي، أَحَدُهُمَا أَعْظَمُ مِنَ الآخَرِ: كِتَابُ اللهِ**

١- رواهُ أحمدُ في «المُسنَدِ» (٣٦٢)، وابنُ الجعدِ في «المُسنَدِ» (١٢٨٢) واللَّفظُ لهُ، وابنُ سعدٍ في «الطَّبقاتِ الكُبرَى» ٣/ ٣٣٦، وابنُ شبَّةَ في «تاريخِ المدينةِ» ٣/ ٩٣٧، والبيهقيُّ في «السُّنَنِ الكُبرَى» (١٨٧٤٠).

حَبْلٌ مَمْدُودٌ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ ...». وكذلك تناص بين قول الفاروق ﷺ: (**أُوصِيكُمْ بِالْمُهَاجِرِينَ؛ فَإِنَّ النَّاس سَيَكْثُرُونَ، وَيَقِلُّونَ**) وقول رسول الله ﷺ: «**إِنَّ الْأَنْصَارَ كَرِشِي وَعَيْبَتِي، وَإِنَّ النَّاسَ سَيَكْثُرُونَ وَيَقِلُّونَ؛ فَاقْبَلُوا مِنْ مُحْسِنِهِمْ وَاعْفُوا عَنْ مُسِيئِهِمْ**»، وإن كان النبي ﷺ ذكر الأنصار وذكر الفاروق المهاجرين - رضي الله عنهم أجمعين -، وجمال التناص يتمثل في تفاعل النُّصوص بعضها ببعض؛ فالفاروق ﷺ يقول القول فيتذكر الحضور قول النبي ﷺ فما يزيدهم إلا تمسكا بتلك الوصية. أما قوله: (**فَإِنَّ النَّاس سَيَكْثُرُونَ، وَيَقِلُّونَ**) ففيه إشارة إلى دخول قبائل العرب والعجم في الإسلام، وكذا أن المهاجرين يقلون؛ لأنهم عدد معروف، ومن يلده المهاجرون من الأولاد فليسوا بمهاجرين، وفيه - أيضًا - حث على إجلال المهاجرين لما قدموا وبذلوا من أجل الإسلام. وقوله: (**شِعْبُ الْإِسْلَامِ الَّذِي لَجَأَ إِلَيْهِ**): شبههم بشِعب بين جبلين فيه مرعى احتمى المهاجرون به للامتناع عن الأعداء، وفيه ثناء على الأنصار وعلى الدور العظيم الذي قدَّموه من أجل حماية الإسلام. وقوله: (**وَأُوصِيكُمْ بِالْأَعْرَابِ**): (**أل**) التي في قوله (**الأعراب**) هي التي لبيان حقيقة الجنس وماهيته وطبيعته بقطع النظر عما يصدق عليه من أفراده، وعلى هذا تحمل (**أل**) الداخلة على (**الأعراب**)؛ فليسوا جميعًا يصدق فيهم قوله - تعالى -: ﴿ ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة : ٩٧]، بل إن منهم كافرًا شديد الكفر والنفاق والنبو عن استماع الكلام الطيب، ومنهم مؤمن يسارع إلى الخيرات، فلا تعارض بين قول الفاروق وقول الله - سبحانه وتعالى -. وقوله: (**وَأُوصِيكُمْ بِذِمَّتِكُمْ؛ فَإِنَّهَا ذِمَّةُ نَبِيِّكُمْ**): فقوله: (**ذمتكم**) ثم قوله: (**ذمة نبيكم**): للتأكيد وحثهم على العناية بالذميين؛ فإن لم تكن تلك العناية لذمتكم فلذمة النبي ﷺ. وقد قَدَّمَ

الوفاء بالعهد والرعاية على المال، فجعل المحرك الأول محرك الوفاء بالعهد، ثم أعقبه بقوله: (**ورزق عيالكم**)؛ إشارةً إلى ما يؤخذ منهم من الجزية. ويُلاحظ في الأثر عامة استخدام (أنَّ) الثقيلة في خمس مناسبات للتأكيد، كما أنه فصَل كل وصية من الوصايا الخمس بكلمة (**أوصيكم**)، فكأن الكلمة جاءت لقرع الأسماع بالبدء في وصية جديدة.

[٤١٤]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

لِابْنِ عَبَّاسٍ وَهُوَ يُحْتَضَرُ[١]

«أَمَّا مَا ذَكَرْتَ مِنْ صُحْبَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَرِضَاهُ؛ فَإِنَّمَا ذَاكَ مَنٌّ مِنَ اللهِ - تَعَالَى - مَنَّ بِهِ عَلَيَّ، وَأَمَّا مَا ذَكَرْتَ مِنْ صُحْبَةِ أَبِي بَكْرٍ وَرِضَاهُ؛ فَإِنَّمَا ذَاكَ مَنٌّ مِنَ اللهِ - جَلَّ ذِكْرُهُ - مَنَّ بِهِ عَلَيَّ، وَأَمَّا مَا تَرَى مِنْ جَزَعِي؛ فَهُوَ مِنْ أَجْلِكَ وَأَجْلِ أَصْحَابِكَ. وَاللهِ لَوْ أَنَّ لِي طِلَاعَ الْأَرْضِ ذَهَبًا لَافْتَدَيْتُ بِهِ مِنْ عَذَابِ اللهِ - عَزَّ وَجَلَّ -، قَبْلَ أَنْ أَرَاهُ»[٢].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يوجِّه أمير المؤمنين حديثه لابن عباس رضي الله عنهما رادًّا عليه حين ذكَّره بسابقته في الإسلام.

البيان والبلاغة: قوله: (**أَمَّا مَا ذَكَرْتَ مِنْ صُحْبَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَرِضَاهُ، فَإِنَّمَا ذَاكَ مَنٌّ مِنَ اللهِ - تَعَالَى - مَنَّبِهِ عَلَيَّ**): (**أَمَّا**) حرف تفصيل في قول ابن مالك، والجمهور يقدِّرون (**أَمَّا**) بـ (**مهما يكن من شيء**)، فحذف فعل الشرط وأداته، وأقيمت (**أَمَّا**) مقامها. وجواب الشرط (**فَإِنَّمَا ذَاكَ مَنٌّ**) وفي (**إنما**) قصر، واستخدم الفاروق الشرط للتشويق، والقصر للتخصيص. وقوله: (**وَأَمَّا مَا تَرَى مِنْ جَزَعِي فَهُوَ مِنْ أَجْلِكَ**

١- وقد قالَ لهُ ابنُ عبَّاسٍ: (يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، وَلَئِنْ كَانَ ذَاكَ، لَقَدْ صَحِبْتَ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَأَحْسَنْتَ صُحْبَتَهُ، ثُمَّ فَارَقْتَهُ وَهُوَ عَنْكَ رَاضٍ، ثُمَّ صَحِبْتَ أَبَا بَكْرٍ فَأَحْسَنْتَ صُحْبَتَهُ، ثُمَّ فَارَقْتَهُ وَهُوَ عَنْكَ رَاضٍ، ثُمَّ صَحِبْتَ صَحَبَتَهُمْ فَأَحْسَنْتَ صُحْبَتَهُمْ، وَلَئِنْ فَارَقْتَهُمْ لَتُفَارِقَنَّهُمْ وَهُمْ عَنْكَ رَاضُونَ).

٢- رواهُ البخاريُّ في «صحيحِه» (٣٦٩٢).

وَأَجْلِ أَصْحَابِكَ): سبق الكلام عنها في الأولى. وقوله: (**طِلاَعَ الأَرْضِ ذَهَبًا**): كناية عن زهده في الدنيا، فلو كان يملك ما يملأ الأرض حتى يطلع ويسيل لطلب أن يزول مقابل رحمة الله – تعالى –. واستخدم أسلوب القسم في قوله: (**وَاللهِ، لَوْ أَنَّ لِي طِلاَعَ الأَرْضِ ذَهَبًا لاَفْتَدَيْتُ**): استخدم القسم (**والله**) وجواب القسم (**لافتديت**)؛ للتأكيد على أن الحياة الدنيا لا تعني له شيئا، وأنه ما يريد إلا النجاة من عذاب الله – سبحانه وتعالى –، وهذا من زهد الفاروق رضي الله عنه وعظيم خلقه. وقوله: (**لَا أَجْرَ وَلَا وِزْرَ**): بين (**أجر**) و(**وزر**) تضاد يؤكد المعنى ويبرزه. وقوله: (**وَدِدْتُ أَنِّي أَنْجُو لَا أَجْرَ وَلَا وِزْرَ**): يدل على خشيته من الله – سبحانه وتعالى –، وقد ضمن طلب المغفرة والعفو من الله – سبحانه وتعالى – في هذا المعنى البديع.

[٤١٥]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

لِابْنِ عَبَّاسٍ بَعْدَ أَنْ طَعَنَهُ أَبُو لُؤْلُؤَةَ الْمَجُوسِيُّ

«وَإِنَّ لِلْأَحِبَّاءِ نَصِيبًا مِنَ الْقَلْبِ، وَمَا كُنْتُ أَظُنُّ أَنِّي أَكْرَهُ الْمَوْتَ، وَلَكِنِّي كَرِهْتُهُ حِينَ نَزَلَ، وَلَقَدْ تَرَكْتُ زَهْرَتَكُمْ كَمَا هِيَ، مَا لَبِسْتُهَا فَأَخْلَقْتُهَا[١]، وَلَمْ تَكُنْ يَانِعَةً[٢] فِي أَكْمَامِهَا[٣] أَكَلْتُهَا، وَمَا جَنَيْتُ مَا حَمَيْتُ مِنْهَا إِلَّا لَكُمْ، وَلَا أَخْرَجْتُهَا فِي سِوَاكُمْ، وَلَا فِي غَيْرِ مَصْلَحَتِكُمْ. وَمَا تَرَكْتُ وَرَائِي دِرْهَمًا مَا عَدَا اثْنَيْنِ وَأَرْبَعِينَ دِرْهَمًا، وَلَوَدِدْتُ أَنَّهَا فِي... فِي حَرْثِكُمْ هَذَا»[٤].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يواصل أمير المؤمنين حديثه لابن عباس ﵄، وهو على فراش الموت بعد أن طعنه أبو لؤلؤة المجوسي.

البيان والبلاغة: قوله: **(وَإِنَّ لِلْأَحِبَّاءِ نَصِيبًا مِنَ الْقَلْبِ)**: **(إِنَّ)** للتوكيد، و**(نصيبا)** نكرة للتعظيم؛ لأن المقام مقام تعظيم وتقدير، و**(من)** للبيان. وقوله: **(وَمَا كُنْتُ أَظُنُّ أَنِّي أَكْرَهُ الْمَوْتَ، وَلَكِنِّي كَرِهْتُهُ حِينَ نَزَلَ)**: **(لكن)** هنا للعطف والاستدراك بعد الجحود في **(وما كنت)**. وقوله: **(ظن)** جاءت هنا على حقيقتها، أي: أنها لغير

١- بالقافِ، والفاءِ. فبالقافِ: مِن إِخْلَاقِ الثَّوبِ: تَقْطِيعه، وقد خَلُقَ الثَّوبُ، وأَخْلَقَ. وأَمَّا الفاءُ فبِمعنى العِوَضِ والبَدَلِ، وهو الأَشبهُ. ورسمُ الكلمةِ يحتملُ الاثنينِ. «النِّهاية» لابنِ الأثيرِ (خلق).

٢- يانعة: أي ناضجة، يُقالُ: أَيْنَعَ؛ إذا أَدْرَكَ ونَضِجَ. «النِّهاية» لابنِ الأثيرِ (ينع).

٣- أَكْمَام: جمعُ كِمٍّ، بالكسرِ: وهو غِلافُ الثَّمرِ والحَبِّ قبلَ أَنْ يَظْهَرَ. «النِّهاية» لابنِ الأثيرِ (كمم).

٤- رواهُ أبو داودَ في «الزُّهدِ» (٥٣).

التيقن من الشيء، ويتضح مفهوم كراهة الموت - ههنا - من خلال ما ورد في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللهِ أَحَبَّ اللهُ لِقَاءَهُ، وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللهِ كَرِهَ اللهُ لِقَاءَهُ**». قَالَتْ عَائِشَةُ أَوْ بَعْضُ أَزْوَاجِهِ: إِنَّا لَنكْرَهُ المَوْتَ، قَالَ: «**لَيْسَ ذَاكِ، وَلَكِنَّ المُؤْمِنَ إِذَا حَضَرَهُ المَوْتُ بُشِّرَ بِرِضْوَانِ اللهِ وَكَرَامَتِهِ، فَلَيْسَ شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا أَمَامَهُ، فَأَحَبَّ لِقَاءَ اللهِ وَأَحَبَّ اللهُ لِقَاءَهُ، وَإِنَّ الكَافِرَ إِذَا حُضِرَ بُشِّرَ بِعَذَابِ اللهِ وَعُقُوبَتِهِ، فَلَيْسَ شَيْءٌ أَكْرَهَ إِلَيْهِ مِمَّا أَمَامَهُ، كَرِهَ لِقَاءَ اللهِ وَكَرِهَ اللهُ لِقَاءَهُ**». ثم يقول: (**وَلَقَدْ تَرَكْتُ زَهْرَتَكُمْ كَمَا هِيَ مَا لَبِسْتُهَا فَأَخْلَقْتُهَا، وَلَمْ تَكُنْ يَانِعَةً فِي أَكْمَامِهَا أَكَلْتُهَا**): (**زهرتكم**): إشارة إلى الحياة الدنيا، وقد ورد ذلك في قول الله - تبارك وتعالى -: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [طه:١٣١]، وفي قوله السابق استعارة مكنية؛ شبه فيها الحياة الدنيا برداء يلبس فيبلى، وسر جمالها التجسيد، وكذا في قوله: (**وَلَمْ تَكُنْ يَانِعَةً فِي أَكْمَامِهَا أَكَلْتُهَا**): استعارة مكنية؛ شبه الحياة الدنيا بفاكهة ناضجة في غلافها وسر جمالها التجسيد - أيضا -. والمراد من التشبيهين أنه رضي الله عنه لم ينل من الخلافة خيرا من الدنيا، ولكنه نُصِّب خليفة وهو زاهد في الخلافة، وترك الدنيا بحلاوتها دون أن يغتر بشيء من ملذاتها. أما قوله: (**وَمَا جَنَيْتُ مَا حَمَيْتُ مِنْهَا إِلَّا لَكُمْ**): (**الحِمى**) الموضع الذي يُحمى ويُدافع عنه كالدار والرعي وما إلى ذلك، وهذا القول فيه دلالة على زهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه في الدنيا وملاذها. وقوله: (**وَلَا أَخْرَجْتُهَا فِي سِوَاكُمْ، وَلَا فِي غَيْرِ مَصْلَحَتِكُمْ**): القول فيه دلالة على حرص الفاروق على توزيع المال في المسلمين بالعدل ورعاية مصالحهم بما قسم الله - عز وجل -. وقوله: (**وَمَا تَرَكْتُ وَرَائِي**):

تمثيل لحال بُعْدِهِ عنه؛ لأن ما يترُكُ المرء من متاع الدنيا بعد موته يكون بارحه وتَرَكَهُ.

والقول عامة فيه تدليل على ما قاله في العبارات بالدليل القطعي أنه ما كسب شيئًا من الدنيا.

[٤١٦]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ رضي الله عنه

لَمَّا طَعَنَهُ أَبُو لُؤْلُؤَةَ الْمَجُوسِيُّ، وَأَوْقَظُوهُ لِلصَّلَاةِ بَعْدَ أَنْ سُجِّيَ مُضَرَّجًا بِدِمَائِهِ

«نَعَمْ، وَلَا حَظَّ فِي الْإِسْلَامِ لِمَنْ تَرَكَ الصَّلَاةَ». فَقَامَ، فَصَلَّى وَجُرْحُهُ يَثْغَبُ دَمًا[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: في لحظة من أصعب وأشق لحظات أمير المؤمنين رضي الله عنه، وهو بين الحياة والموت، يُحدِّثنا عن الصلاة ومنزلتها في الإسلام.

البيان والبلاغة: ربما لم يرد في النَّص نكت بلاغية تُذكر، ولكن في الأثر ما يُسمى ببلاغة الموقف، والأثر كاملا ذُكِر على النحو التالي: لَمَّا طُعِنَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - حَمَلْنَاهُ إِلَى بَيْتِهِ فَلَمَّا أَسْفَرَ قُلْنَا: نُهَبُّهُ بِذِكْرِ الصَّلَاةِ، فَقُلْنَا لَهُ: الصَّلَاةَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ. فَقَالَ: نَعَمْ، وَلَا حَظَّ فِي الْإِسْلَامِ لِمَنْ تَرَكَ الصَّلَاةَ. فقوله: **(نعم)** ههنا حرفُ تذكير لما بعده، والمقام هنا ليس مقام تذكير، ولكن بلاغة الموقف - ههنا - اقتضت تذكيرهم بتعظيم قدر الصلاة وإن شقَّ على المرء القيام.

١- رواهُ أحمدُ بنُ حنبلٍ في «الزُّهدِ» (٦٥٦).

[٤١٧]

وَمِنْ كَلَام لَهُ رضي الله عنه

لَمَّا طَعَنَهُ أَبُو لُؤْلُؤَةَ المَجُوسِيُّ

«مَنْ طَعَنَنِي؟» قَالُوا: أَبُو لُؤْلُؤَةَ، غُلَامُ الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ. فَقَالَ عمر: «اللهُ أَكْبَرُ، الْحَمْدُ لله الَّذِي لَمْ يَجْعَلْ قَاتِلِي يُخَاصِمُنِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي سَجْدَةٍ سَجَدَهَا لله، قَدْ كُنْتُ أَظُنُّ أَنَّ الْعَرَبَ لَنْ تَقْتُلَنِي»[١].

وَقَالَ لِلْعَبَّاسِ: «هَذَا عَمَلُكَ وَعَمَلُ أَصْحَابِكَ. وَالله، لَقَدْ كُنْتُ أَنْهَاكُمْ أَنْ تَجْلِبُوا إِلَيْنَا مِنْهُمْ أَحَدًا، الْحَمْدُ لله الَّذِي لَمْ أُخَاصِمْ فِي دِينِي أَحَدًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ»[٢].

ثُمَّ أَتَاهُ طَبِيبٌ، فَسَقَاهُ نَبِيذًا، فَخَرَجَ مِنْهُ، فَقَالَ النَّاس: هَذِهِ حُمْرَةُ الدَّمِ. ثُمَّ جَاءَهُ آخَرُ، فَسَقَاهُ لَبَنًا، فَخَرَجَ اللَّبَنُ يَصْلِدُ[٣]، فَقَالَ لَهُ الَّذِي سَقَاهُ اللَّبَنَ: اعْهَدْ عَهْدَكَ، يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ. فَقَالَ عُمَرُ: «صَدَقَنِي أَخُو بَنِي مُعَاوِيَةَ»، ثُمَّ دَعَا النَّفَرَ السِّتَّةَ الَّذِينَ جَعَلَ فِيهِمُ الْخِلَافَةَ[٤]، فَقَالَ: «إِنِّي نَظَرْتُ فِي النَّاس،

١- رواهُ عبدُ الرَّزَّاقِ في «المُصنَّفِ» (٩٧٧٥).

٢- رواهُ ابنُ شبَّةَ في «تاريخ المدينةِ» ٣/ ٩٠٣، والبلاذريُّ في «أنسابِ الأشرافِ» ١٠/ ٣٧١.

٣- قالَ ابنُ الأثيرِ في «النِّهايَة» ٣/ ٤٦: أي يَبْرُقُ ويَبِضُّ.

٤- وهم: عُثمانُ بنُ عفَّانَ، وعليُّ بنُ أبي طالبٍ، وطلحةُ بنُ عُبَيدِ الله، والزُّبَيرُ بنُ العوَّامِ، وعبدُ الرَّحمنِ بنُ عوفٍ، وسعدُ بنُ أبي وقَّاصٍ، رضيَ اللهُ عنهُم أجمعينَ.

قالَ الحافظُ ابنُ كثيرٍ في «مُسنَدِ الفاروقِ» ٢/ ٦٧٦: (فهؤلاءِ رؤُوسُ قريشٍ في الجاهليَّةِ، وسادةُ المسلمينَ في الإسلامِ، وممَّن سمَّاهم رسولُ الله - صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ - ونصَّ عليهم بأنَّهم مِن أهلِ الجنَّةِ. وفيهم سعيدُ بنُ زيدِ بنِ عمرو بنِ نُفَيلٍ العَدَويُّ أنَّهُ مِن أهلِ الجنَّةِ، وإنَّما تركهُ عمرُ ولم يذكرْه معَ أهلِ الشُّورى؛ لأنَّهُ مِن قبيلتِه، وخَتَنُه على أختِه فاطمةَ بنتِ الخطَّابِ، فخشيَ - رضيَ اللهُ عنهُ - إن ذكرَهُ معَهم أن=

فَلَمْ أَرَ فِيهِمْ شِقَاقًا، فَإِنْ يَكُنْ شِقَاقٌ فَهُوَ فِيكُمْ، قُومُوا فَتَشَاوَرُوا، ثُمَّ أَمِّرُوا أَحَدَكُمْ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يدور الحديث بجوار فراش الموت الذي رقد عليه أمير المؤمنين رضي الله عنه، وحين أيقن بأنه ميتٌ، وهنا شرع يوصي بأهم ما يشغله، وهو أمر المسلمين والخلافة.

البيان والبلاغة: يبدأ الأثر بتساؤل الفاروق رضي الله عنه: (**مَنْ طَعَنَنِي؟**)، والاستفهام أراد به هنا الاطمئنان، وقد اتضح مراده لما عرف أن القاتل مجوسي كافر؛ فحمد الله - سبحانه وتعالى - وكَبَّرَ. وقوله: (**الله أكبر**): فيه محذوف تقديره: من كل شيء؛ للتعظيم وعلو الشأن. وقوله: (**الحمد لله**): تفيد استحقاق الله - تعالى - الحمد وحده دون غيره؛ لأنها تدل على الحصر. و(**اللام**) في (**الحمد**) لتعريف الجنس، فدلت على انحصار استحقاق هذا الجنس لله - تعالى -. وجاء بـ (**سَجْدَةٍ**) نكرة أراد بها أي نوع من أنواع العبادة لله - عزَّ وجلَّ -؛ فالمراد بها إطلاق التعبد لله - سبحانه وتعالى -. وقال: (**سَجَدَهَا لله**): (**اللام**) في (**لله**) للاستحقاق؛ فكأنه أراد أن هذا المجوسي الكافر قد يكون قد سجد للنار أو لشجر أو لصنم، فعيَّن السجود لله. وقوله: (**قَدْ كُنْتُ أَظُنُّ أَنَّ الْعَرَبَ لَنْ تَقْتُلَنِي**): والظن هنا في معنى التحقق؛ لأن المقام هنا مقام يقين لا يحتمل الشك، وأتى بـ (**كنت**) الدالة على الماضي في الحكاية، ثم تحول للمضارع في: (**أظن، تقتلني**) وهو أسلوب التفات أراد به جذب انتباه

=يُرجِّحوه لذلكَ، فتَرَكَهُ. وأمَّا أبو عُبَيدةَ بنُ الجرَّاحِ: فكانَ قد ماتَ قبلَ ذلكَ بنحوٍ مِن ستِّ سنينَ - رضيَ اللهُ عنهُ، وأرضاهُ -، وإلَّا فقدْ كانَ عِندَ عُمرَ أهلًا لِذلكَ وفوقَ ذلكَ).

١- رواهُ عبدُ الرَّزَّاقِ في «المُصنَّفِ» (٩٧٧٥).

المتلقي. أما قوله: (**هَذَا عَمَلُكَ وَعَمَلُ أَصْحَابِكَ**): أراد بالعبارة السابقة توجيه اللوم لكل من أتى بمثل هذا المجوسي الكافر للعمل في ديار المسلمين. وقوله: (**وَاللهِ لَقَدْ كُنْتُ أَنْهَاكُمْ**): أسلوب مؤكد بالقسم واللام وقد؛ لبيان استنكار هذا الفعل، وكذا للدلالة على تكرار النهي عن الفعل. وقوله: (**لَمْ أُخَاصِمْ فِي دِينِي أَحَدًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ**) قد أشرنا لمثله في الأثر رقم ثمانية وأربعمئة. وأما قوله: (**إِنِّي نَظَرْتُ فِي النَّاس فَلَمْ أَرَ فِيهِمْ شِقَاقًا**)؛ ففيه دلالتان: الأولى: دلالة على حالة الاستقرار التي أرسى الفاروق رضي الله عنه قواعدها في ديار المسلمين، والثانية: دلالة على استقرار النَّاس على فضلهم وعظم قدرهم وكذا ثقة النَّاس في اختيار الفاروق رضي الله عنه فيمن ترك فيهم الشورى. وقوله: (**فَإِنْ يَكُنْ شِقَاقٌ فَهُوَ فِيكُمْ**): فيه تحفيز لأهل الحل والعقد بحزم أمرهم وعدم التناحر على السلطة؛ لينتقل هذا الاستقرار فيما بينهم للرعية. وقوله: (**قُومُوا فَتَشَاوَرُوا، ثُمَّ أَمِّرُوا أَحَدَكُمْ**): أراد بالأمر الإسراع في اتخاذ القرار، والتشاور فيما بينهم، وعدم عزوف أحدهم بالأمر دون الآخرين. وقوله: (**ثم**) للتراخي، وفيه دلالة على أن يكون اختيار الأمير بعد تَرَوٍّ فيما بين أهل الحل والعقد.

[٤١٨]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

حِينَ طُعِنَ، وَقَدْ دَعَا عَلِيًّا، وَعُثْمَانَ، وَالزُّبَيْرَ، وَسَعْدًا، وَعَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ عَوْفٍ

«إِنِّي نَظَرْتُ فِي أَمْرِ النَّاسِ، فَلَمْ أَرَ عِنْدَهُمْ شِقَاقًا[١]، فَإِنْ يَكُ شِقَاقٌ فَهُوَ فِيكُمْ، ثُمَّ إِنَّ قَوْمَكُمْ إِنَّمَا يُؤَمِّرُونَ أَحَدَكُمْ أَيُّهَا الثَّلَاثَةُ. فَإِنْ كُنْتَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ النَّاسِ يَا عَلِيُّ فَاتَّقِ اللهَ، وَلَا تَحْمِلْ بَنِي هَاشِمٍ عَلَى رِقَابِ النَّاسِ. وَإِنْ كُنْتَ يَا عُثْمَانُ عَلَى شَيْءٍ فَاتَّقِ اللهَ، وَلَا تَحْمِلْ بَنِي أَبِي مُعَيْطٍ عَلَى رِقَابِ النَّاسِ. وَإِنْ كُنْتَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ أُمُورِ النَّاسِ يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ فَاتَّقِ اللهَ، وَلَا تَحْمِلْ أَقَارِبَكَ عَلَى رِقَابِ النَّاسِ. فَتَشَاوَرُوا، ثُمَّ أَمِّرُوا أَحَدَكُمْ»[٢].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: لا يزال الحديث دائرا على فراش الموت، وفي الأمر الذي يُهِم أمير المؤمنين ﵁، وهو مصلحة المسلمين وأمر الخلافة. والحديث - هنا - موجه لخمسة من أهل الشورى، ثم خصَّ منهم الثلاثة الذين غلب على ظنه أنَّ واحدا منهم سيكون خليفته.

البيان والبلاغة: قوله: (**إِنَّمَا يُؤَمِّرُونَ أَحَدَكُمْ**): أسلوب قصر، الغرض منه التخصيص، أي: تخصيص أمر الستة الذين ترك الفاروق ﵁ الشورى بينهم = في ثلاثة فقط، وهم: عثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، وعبد الرحمن بن عوف ﵃.

١- الشِّقاق: الخِلاف. «جامع الأصول» (٥٦٧).

٢- رواهُ عبدُ الرَّزَّاقِ في «المُصنَّفِ» (٩٧٧٦)، وابنُ سعدٍ في «الطَّبقاتِ الكُبرَى» ٣/ ٣٤٣ و٣٤٤، والبلاذريُّ في «أنسابِ الأشرافِ» ١٠/ ٤٢٢، وابنُ عساكرَ في «تاريخِ دمشقَ» ٤٤/ ٤٣٧.

وقوله: (**أَيُّهَا الثَّلَاثَةُ**): (**أيها**) هنا لاسترعاء انتباههم. وقوله: (**فَإِنْ كُنْتَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ النَّاس**): تنكير (**شيء**) للعموم والشمول، أي: أي شيء تُولى عليه، مهما صغر أو كبر. و(**من أمر**): (**من**) هنا بيانية، أراد بيان حقيقة الشيء الذي أطلقه، وهو ما كان متعلِّقا بالناس، وأمَّا ما كان من شأنه هو فله أن يفعل فيه ما شاء. وقوله: (**يَا عَلِيُّ**): النداء الغرض منه جذب انتباه المتلقي لما يقول. وقوله: (**فَاتَّقِ الله**): الأمر هنا الغرض منه حثه ﷺ على تقوى الله - سبحانه وتعالى - في أمر المسلمين عامة. وقوله: (**وَلَا تَحْمِلْ بَنِي هَاشِمٍ عَلَى رِقَابِ النَّاس**): أسلوب النهي - هنا - الغرض منه التحذير. وقوله: (**على رقاب النَّاس**): أسلوب بليغ فكأن مَن يولي أقاربه ويوليهم اهتمامًا أكثر مِن اهتمامه بباقي الرعية = قد وضعهم فوق أعناق النَّاس، وفيه تصوير لمدى المعاناة التي يعانيها النَّاس بتمييز فئة فوقهم دون وجه حق.

[٤١٩]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ رضي الله عنه

لِابْنِ عبَّاسٍ، وَابْنِ عُمَرَ، وَسَعِيدِ بْنِ زَيْدٍ، وَالْمَنِيَّةُ تَخْتَرِمُهُ

«اعْلَمُوا أَنِّي لَمْ أَقُلْ فِي الْكَلَالَةِ شَيْئًا، وَلَمْ أَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِي أَحَدًا، وَأَنَّهُ مَنْ أَدْرَكَ وَفَاتِي مِنْ سَبْيِ الْعَرَبِ؛ فَهُوَ حُرٌّ مِنْ مَالِ اللهِ - عَزَّ وَجَلَّ -». فَقَالَ سَعِيدُ بْنُ زَيْدٍ: أَمَا إِنَّكَ لَوْ أَشَرْتَ بِرَجُلٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ لَائْتَمَنَكَ النَّاس، وَقَدْ فَعَلَ ذَلِكَ أَبُو بَكْرٍ، وَائْتَمَنَهُ النَّاس. فَقَالَ عُمَرُ: «قَدْ رَأَيْتُ مِنْ أَصْحَابِي حِرْصًا سَيِّئًا، وَإِنِّي جَاعِلٌ هَذَا الْأَمْرَ إِلَى هَؤُلَاءِ النَّفَرِ السِّتَّةِ الَّذِينَ مَاتَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَهُوَ عَنْهُمْ رَاضٍ». ثُمَّ قَالَ عُمَرُ: «لَوْ أَدْرَكَنِي أَحَدُ رَجُلَيْنِ، ثُمَّ جَعَلْتُ هَذَا الْأَمْرَ إِلَيْهِ لَوَثِقْتُ بِهِ: سَالِمٌ مَوْلَى أَبِي حُذَيْفَةَ، وَأَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يكملُ أمير المؤمنين رضي الله عنه كلماته الأخيرة على فراش الموت، متمما ومؤكدا بعضَ ما سبق من وصاياه.

البيان والبلاغة: قوله: (**اعْلَمُوا**): افتتح كلامه بالأمر مباشرة؛ لأن المقام ضيق لا يحتمل المقدمات والتمهيدات، والأمر أجلب للانتباه وأكثر استدعاء للذهن. وقوله: (**شَيْئًا**) و(**أَحَدًا**): نكرتان في سياق النفي أفادتا العموم، والتقدير: لم أقل

١- رواهُ أحمدُ في «المُسنَدِ» (١٢٩)، وابنُ سعدٍ في «الطَّبقاتِ الكُبرَى» ٣/ ٣٤٢، والبلاذريُّ في «أنسابِ الأشرافِ» ١٠/ ٤٢١، وابنُ عساكرَ في «تاريخِ دمشقَ» ٤٤/ ٤٢٧.

في الكلالة أي شيء، ولم أستخلف بعدي أيَّ أحد. وقوله: (**وَإِنِّي جَاعِلٌ هَذَا الْأَمْرَ**): أكَّد كلامه بحرف التأكيد (**إِنَّ**) وباسم الفاعل (**جاعِلٌ**) والجملة الاسمية، وهما يدلان على ثبوت الحكم واستقراره، وهو اختيار هؤلاء النفر. ثم أشار إلى الاستخلاف باسم الإشارة (**هذا**) مبالغة في تعيين موضوع الحديث لأهميته، وأتبعه بقوله (**الأمر**): و(**أل**) هنا للعهد الذكري. وقوله: (**وَهُوَ عَنْهُمْ رَاضٍ**): قدم الجار والمجرور لمزيد من التعيين والاختصاص والتأكيد، الذي هو سمة من سمات هذا النص، والجملة الحالية تحمل بيان حجة عمر ﵁ في اختيار هؤلاء الستة، وتعليل كلامه السابق. وقوله: (**لَوْ أَدْرَكَنِي أَحَدُ رَجُلَيْنِ، ثُمَّ جَعَلْتُ هَذَا الْأَمْرَ إِلَيْهِ لَوَثِقْتُ بِهِ: سَالِمٌ مَوْلَى أَبِي حُذَيْفَةَ، وَأَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ**): (**لو**) حرف امتناع لامتناع دالٌّ على الشرط؛ فقد امتنع استخلافه سالما وأبا عبيدة ﵄ لامتناع إدراكهما إياه، وفي الجملة معنى التمني. وقد أطنب عمر ﵁ في هذه الجملة فاستعمل أسلوب التقسيم وأتى باسمي الصاحبين الكريمين كاملا = بقصد البيان، ومبالغة في توضيح الأمر للسامع.

[٤٢٠]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

فِي الِاسْتِخْلَافِ مِنْ بَعْدِهِ

«لَوْ أَدْرَكْتُ أَبَا عُبَيْدَةَ بْنَ الْجَرَّاحِ لَوَلَّيْتُهُ، فَإِنْ قَدِمْتُ عَلَى رَبِّي، فَقَالَ لِي: مَنْ وَلَّيْتَ عَلَى أُمَّةِ مُحَمَّدٍ؟ قُلْتُ: سَمِعْتُ عَبْدَكَ وَخَلِيلَكَ ﷺ يَقُولُ: «**لِكُلِّ أُمَّةٍ أَمِينٌ، وَأَمِينُ هَذِهِ الْأُمَّةِ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ**». وَلَوْ أَدْرَكْتُ مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ، ثُمَّ وَلَّيْتُهُ، ثُمَّ قَدِمْتُ عَلَى رَبِّي فَقَالَ لِي: مَنْ وَلَّيْتَ عَلَى أُمَّةِ مُحَمَّدٍ؟ قُلْتُ: إِنِّي سَمِعْتُ عَبْدَكَ وَخَلِيلَكَ ﷺ يَقُولُ: «**يَأْتِي بَيْنَ الْعُلَمَاءِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِرَتْوَةٍ**». وَلَوْ أَدْرَكْتُ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ، ثُمَّ وَلَّيْتُهُ، ثُمَّ قَدِمْتُ عَلَى رَبِّي فَسَأَلَنِي: مَنْ وَلَّيْتَ عَلَى أُمَّةِ مُحَمَّدٍ؟ لَقُلْتُ: سَمِعْتُ عَبْدَكَ وَخَلِيلَكَ ﷺ يَقُولُ: «**سَيْفٌ مِنْ سُيُوفِ اللهِ، سَلَّهُ عَلَى الْمُشْرِكِينَ**»[١]»[٢].

فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ[٣]: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، فَأَيْنَ أَنْتَ مِنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ؟ فَقَالَ عُمَرُ: «قَاتَلَكَ اللهُ، وَاللهِ مَا أَرَدْتَ اللهَ بِهَذَا! أَسْتَخْلِفُ رَجُلًا لَيْسَ يُحْسِنُ يُطَلِّقُ امْرَأَتَهُ؟!»[٤].

١- رواهُ البخاريُّ في «صحيحِه» (٣٧٥٧)، والتِّرمذيُّ في «السُّنَنِ» (٣٨٤٦)، وأحمدُ في «المُسنَدِ» (١٧٥٠)، و«فضائلِ الصَّحابةِ» (١٣) و(١٤٨٤)، وابنُ شبَّةَ في «تاريخِ المدينةِ» ٣/ ٨٨٦، وابنُ حبَّانَ في «صحيحِه» (٧٠٩١)، والحاكمُ في «المُستدرَكِ» (٥٢٩٥).

٢- رواهُ أحمدُ في «فضائلِ الصَّحابةِ» (١٢٨٧)، وابنُ شبَّةَ في «تاريخِ المدينةِ» ٣/ ٨٨٦، والبلاذريُّ في «أنسابِ الأشرافِ» ١١/ ٧٢ مُختصَرًا، وابنُ أبي عاصمٍ في «الآحادِ والمثاني» (٦٩٧) مُختصَرًا، والشَّاشيُّ في «المُسنَدِ» (٦١٧)، والمَحامِليُّ في «أماليه» (٢٠٨)، وابنُ عساكرَ في «تاريخِ دمشقَ» ٥٨/ ٤٠٤.

٣- قالَ عثمانُ بنُ مسلم، كما في رِوايةِ البلاذريِّ: (يَعني بالرَّجُلِ: المُغيرةَ بنَ شُعبةَ).

٤- رواهُ ابنُ سعدٍ في «الطَّبقاتِ الكُبرَى» ٣/ ٣٤٣، والبلاذريُّ في «أنسابِ الأشرافِ» ١٠/ ٤٢١، والخَلَّالُ=

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: لا يزال الحديث دائرا على فراش الموت، وفي الأمر الذي يُهِم أمير المؤمنين ﵁، وهو مصلحة المسلمين وأمر الخلافة.

البيان والبلاغة: قوله: (**أَدْرَكْتُ**) يقدِّر أمير المؤمنين؛ عمر بن الخطاب ﵁ صحابة رسول الله ﷺ ويعرف قدرهم، ويعدد مآثرهم، وأنه يحتكم إلى تزكية رسول الله ﷺ. وقوله: (**لَوَلَّيْتُهُ**): (اللام) دليل الحرص على اتخاد القرار وبكل حزم. و(**لَوْ**) في قوله: (**لَوْ أَدْرَكْتُ**): حرف شرط غير جازم، يربط بين جملتي الشرط والجواب، ويفيد امتناع لامتناع. واستخدام الجملة الشرطية دليل على محاسبة نفسه قبل محاسبة ربه له. وقوله: (**من وَلَّيْتَ؟**) اعتبر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﵁ أن المسؤولية قائمة على عاتقه، يُسأل عنها وفي أخر أنفاسه. وقوله: (**هَذِهِ الْأُمَّةِ**): يقصد بها أمة الإسلام. واستخدام (اللام) مع (**لَوَلَّيْتُهُ**) مع جميع الصحابة الذين ذكرهم، أما مع خالد بن الوليد القائد العسكري المخضرم، استخدم (**ثُمَّ**) يدل على أنه يقدره ويعرف مكانته، وحزمه، وحكمته وأنه رجل حرب، وهي صفة من صفات رجل الدولة ولكن قدَّم عليه من قدم من صحابة رسول الله، فكل له تقديره وتقدير ما اتصف به. وقوله: (**رَجُلٌ**) نكرة، مجهول غير معلوم. وقوله: (**قَاتَلَكَ اللهُ**): أسلوب دعاء الغرض منه الزجر والتوبيخ والاستهجان والرفض. وقول الرجل له: (**فَأَيْنَ أَنْتَ مِنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ؟**): استفهام الغرض منه الحث والتذكير، بأسلوب إنشائي. وقول عمر بن الخطاب عن خالد بن الوليد: (**سَيْفٌ مِنْ سُيُوفِ اللهِ**) اعتبار أن خالدًا واحد من كل، استخدمه ربه على المشركين.

= في «السُّنَّةِ» (٣٤٤).

[٤٢١]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ لِأَصْحَابِ الشُّورَى

«تَشَاوَرُوا فِي أَمْرِكُمْ؛ فَإِنْ كَانَ اثْنَانِ وَاثْنَانِ؛ فَارْجِعُوا فِي الشُّورَى، وَإِنْ كَانَ أَرْبَعَةٌ وَاثْنَانِ؛ فَخُذُوا صِنْفَ الْأَكْثَرِ»[١].

وَقَالَ: «إِنِ اخْتَلَفْتُمْ دَخَلَ عَلَيْكُمْ مُعَاوِيَةُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ مِنَ الشَّامِ، وَبَعْدَهُ عَبْدُ اللهِ بْنُ أَبِي رَبِيعَةَ[٢] مِنَ الْيَمَنِ، فَلَا يَرَيَانِ لَكُمْ فَضْلًا إِلَّا بِسَابِقَتِكُمْ»[٣].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: لا يزال حديث أمير المؤمنين ﵁ ممتدا حول الخليفة القادم وكيفية اختياره من بين الستة نفر الذين اختارهم عمر ﵁ للشورى.

البيان والبلاغة: يُعلي أمير المؤمنين ﵁ مبدأ الشورى ويرسِّخه في نفوس أصحابه، ويحرص عليه ويثمِّن الرغبة فيه، ويحذِّر من الفتنة التي تنشأ من التعصب للرأي الفردي غير المجمع عليه، وهذه الفتنة تهز أركان الدولة الإسلامية من

١- رواهُ ابنُ سعدٍ في «الطَّبقاتِ الكُبرى» ٣/ ٦١.

٢- عبدُ الله بنُ أبي رَبيعةَ بن المُغِيرةِ المخزوميُّ، والدُ الشَّاعرِ المشهورِ عُمرَ، وأخو عيَّاشٍ، كانَ اسمُه بَحِيرًا، فسَّاهُ النَّبيُّ - صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ - عبدَ الله. وكانَ أحدَ الأشرافِ، ومِن أحسنِ النَّاس صورةً، وهو الَّذي بَعثَتْهُ قريشٌ معَ عمرِو بنِ العاصِ إلى النَّجاشيِّ لأذيَّةِ مُهاجرةِ الحبشةِ، ثمَّ أسلمَ وحسُن إسلامُه. ولَّاهُ رسولُ الله - صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ - الجندَ ومخاليفَها، فبقِي فيها إلى أيَّامِ فتنةِ عثمانَ، فجاءَ لِينصرَهُ، فوقعَ عنْ راحلتِه، فماتَ بقربِ مكَّةَ. «تاريخ الإسلام» ٢/ ٢٥٦.

٣- رواهُ ابنُ سعدٍ في «الطَّبقاتِ الكُبرَى» [مُتمِّم الصَّحابة]: (١٤٩)، وابنُ عساكرَ في «تاريخِ دمشقَ» ٤٩/ ١٢٤.

شامها إلى يمنِها. وقوله: (**تَشَاوَرُوا فِي أَمْرِكُمْ**): يحمل الأمر الإلزام بالتنفيذ المباشر من أجل تحقيق الشورى؛ كي يعم العدل. و(**كان**) في قوله: (**فإن كان اثنان ...**) وقوله: (**وإن كان أربعةٌ واثنان**): تامة غير ناقصة، والمعنى: فإن خرج اثنان ... واستعمل أمير المؤمنين رضي الله عنه أسلوب الشرط والتفصيل في غير موضع من النص لتعديد الاحتمالات والاختيارات أمام السامع؛ لأهمية الأمر وخطورته.

[٤٢٢]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

وَقَدْ نَظَرَ إِلَى مُعَاوِيَةَ وَالْحَارِثِ بْنِ نَوْفَلِ بْنِ الْحَارِثِ[١]

«يَا ابْنَ عَبَّاسٍ، إِنَّ قَوْمَكُمْ يَكْرَهُونَ أُلْفَتَكُمْ، وَيَخَافُونَ أَنْ يَصِيرَ الْأَمْرُ لَكُمْ، وَيَرَوْنَ أَنَّهُ إِذَا كَانَ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ حَظٌّ مَعَكُمْ»[٢].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يوجه أمير المؤمنين خطابه لابن عباس في حضرة آخرَين من قريش - رضي الله عن الجميع - مبينا ما يعلمه عما في صدورهم في أمر الخلافة.

البيان والبلاغة: بدأ أمير المؤمنين رضي الله عنه بنداء عبد الله بن عباس رضي الله عنهما ، والنداء فيه استدعاء للانتباه وجذب للأسماع والأذهان، وإشارة إلى خطورة ما سيأتي من الحديث. ثم بدأ حديثه بـ (**إنَّ**) التوكيدية ليؤكِّد خطورة الأمر الذي سيتحدَّث فيه، ويزيل كل شك فيه من ذهن ابن عباس رضي الله عنهما . وفي قوله: (**قومكم، ألفتكم، لكم**): سجع يقوي المعنى ويسترعي الانتباه. وقوله: (**يَكْرَهُونَ، يَخَافُونَ، يَصِيرَ، يَرَوْنَ، يكُنْ**): التعبير بالفعل المضارع يحمل المعنى على الحاضر الممتد إلى زمن المستقبل. وقوله: (**وَيَـرَوْنَ**): الرؤية - هنا - هي القلبية التي بمعنى: يعتقدون، وليست

١- الحارثُ بنُ نوفلِ بنِ الحارثِ الهاشميُّ، أسلمَ معَ أبيهِ، ووليَ مكَّةَ لعمرَ وعثمانَ. وقدِ استعملهُ النَّبيُّ ﷺ على بعضِ العملِ، وقيلَ: إنَّه نزلَ البصرةَ، وبنى بها دارًا. ماتَ في خلافةِ عثمانَ عن نحوٍ مِن سبعينَ سنةً. «سير أعلام النُّبلاء» ١/ ١٩٩.

٢- رواهُ البلاذريُّ في «أنسابِ الأشرافِ» ١٠/ ٣٧٤.

البصرية. واستعمل اسم الشرط (إِذَا): إشارة إلى قرب تحقق الشرط وجوابه.
وقوله: (حَظٌّ): جاء نكرة في سياق النفي فأفاد العموم، والمعنى: ويعتقدون أنَّه إذا كانت الخلافة لكم لم يكن لهم فيها معكم أي حظ أو نصيب.

[٤٢٣]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

يُوصِي بِهِ الْخَلِيفَةَ مِنْ بَعْدِهِ

«أُوصِي الْخَلِيفَةَ مِنْ بَعْدِي خَيْرًا، وَأُوصِيهِ بِالْمُهَاجِرِينَ خَيْرًا: أَنْ يَعْرِفَ حُقُوقَهُمْ، وَأَنْ يُنْزِلَهُمْ عَلَى مَنَازِلِهِمْ. وَأُوصِيهِ بِالْأَنْصَارِ الَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلُ خَيْرًا: أَنْ يَقْبَلَ مِنْ مُحْسِنِهِمْ، وَيَتَجَاوَزَ عَنْ مُسِيئِهِمْ. وَأُوصِيهِ بِأَهْلِ الْأَمْصَارِ خَيْرًا؛ فَإِنَّهُمْ رِدْءُ[1] الْإِسْلَامِ، وَغَيْظُ الْعَدُوِّ، وَبَيْتُ الْمَالِ، وَلَا يَرْفَعُ فَضْلَ صَدَقَاتِهِمْ إِلَّا بِطِيبِ أَنْفُسِهِمْ. وَأُوصِيهِ بِأَعْرَابِ الْبَادِيَةِ؛ فَإِنَّهُمْ أَصْلُ الْعَرَبِ، وَمَادَّةُ الْإِسْلَامِ: أَنْ تُؤْخَذَ صَدَقَاتُهُمْ مِنْ حَوَاشِي أَمْوَالِهِمْ[2]، وَتُرَدَّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ. وَأُوصِيهِ بِأَهْلِ الذِّمَّةِ خَيْرًا: أَلَّا يُكَلِّفَهُمْ إِلَّا طَاقَتَهُمْ، وَأَنْ يُقَاتِلَ مِنْ وَرَائِهِمْ، وَأَنْ يَفِيَ لَهُمْ بِعَهْدِهِمْ»[3].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: هذه وصية من أمير المؤمنين رضي الله عنه يرسلها على فراش الموت وعبْر حُجُب الغيب إلى الخليفة الآتي بعده، يوصيه فيها بأداء حقوق الناس، لاسيما المهاجرون والأنصار والأعراب وأهل الذمة.

١- الرِّدءُ: العونُ. «جامع الأصول» لابنِ الأثيرِ (٢٠٨٥).

٢- أي: صِغار الإبِلِ؛ كابنِ المَخَاضِ، وابنِ اللَّبونِ. واحدُها حاشِيةٌ. وحاشِيةُ كُلِّ شيءٍ: جانبُهُ وطَرَفُهُ. وهو كحديثِ: «اتَّقِ كَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ». «النِّهاية» لابنِ الأثيرِ (حشا).

٣- رواهُ البخاريُّ في «صحيحِه» (٣٧٠٠)، وابنُ حبَّانَ في «صحيحِه» (٦٩١٧)، وأبو يوسفَ في «الخراجِ» ص٢٣، وعبدُ الرَّزَّاقِ في «المُصنَّفِ» (٢٠٠٥٨)، وابنُ أبي شيبةَ في «المُصنَّفِ» (٣٨٢١٤)، والبلاذريُّ في «أنسابِ الأشرافِ» ١٠/ ٣٦٤، والخلَّالُ في «السُّنَّةِ» (٦٢)، واللَّالكائيُّ في «شرحِ أصولِ الاعتقادِ» (٢٥٤١).

البيان والبلاغة: قوله: (**أُوصي**) عبَّر بالمضارع؛ كي يفيد المعنى الحال والاستمرار، ففي حاله هو يوصي، ويخلي مسئوليته الفردية أمام ربه، وينتقل بحدث الوصية من زمنه الحالي إلى زمن المستقبل، ويكون العمل بالوصية ممتدا إلى أزمان آخر. وقوله: (**خَيْرًا**)، أي: لا تكون الوصية إلا في الخير، الذي فيه الخير للناس. وقوله: (**وَأُوصِيهِ بِالْمُهَاجِرِينَ ...، الْأَنْصَارِ... ، بِأَهْلِ الْأَمْصَارِ ...، بَأَعْرَابِ الْبَادِيَةِ...، بِأَهْلِ الذِّمَّةِ**): هنا حسن تقسيم، واعتراف بدور كل فريق، وقدم المهاجرين في تحمل تبعات نشر الدين وتركهم ديارهم وأهليهم في مكة؛ لنصرة دين الله، وسابقة الأنصار في مناصرة المسلمين، وأنهم آووا المهاجرين، وآخى بينهم رسول الله، وبيَّن حقوق كل فريق وواجباته. وقوله: (**يُنزِلُهُمْ عَلَى مَنَازِلِهِمْ**): أسهم تحقق الجناس بين الكلمتين في توضيح الانسجام الصوتي، وجاء بجرس موسيقي يقع في النفس موقعا خاصا. والمقابلة بين (**يَقْبَلَ مِنْ مُحْسِنِهِمْ**)، (**يَتَجَاوَزَ عَنْ مُسِيئِهِمْ**) تبرز المعنى وتقويه. وقد سبق نحو هذا النص تحت رقم ثلاثة عشر وأربعمئة.

[٤٢٤]

وَمِنْ كَلَام لَهُ

لَمَّا طُعِنَ وَجَاءَهُ النَّاس يُثْنُونَ عَلَيْهِ وَيُوَدِّعُونَهُ

«أَبِالْإِمَارَةِ تُزَكُّونَنِي؟ لَقَدْ صَحِبْتُ رَسُولَ الله ﷺ، فَقَبَضَ اللهُ رَسُولَهُ وَهُوَ عَنِّي رَاضٍ، ثُمَّ صَحِبْتُ أَبَا بَكْرٍ، فَسَمِعْتُ وَأَطَعْتُ، فَتُوُفِّيَ أَبُو بَكْرٍ وَأَنَا سَامِعٌ مُطِيعٌ، وَمَا أَصْبَحْتُ أَخَافُ عَلَى نَفْسِي إِلَّا إِمَارَتَكُمْ هَذِهِ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يخاطب أمير المؤمنين رضي الله عنه، وهو بين يدي الموت، مَن زكاه بعدله في إمارته وسيره فيها بالحقِّ، مبينا له حقيقة الأمر، وأنه لا يخشى على نفسه سوى تلك الإمارة.

البيان والبلاغة: قوله: (**أَبالإمارَةِ تُزَكُّونَنِي؟!**): استفهام إنكاري، استعمله أمير المؤمنين رضي الله عنه إنكارا على من زكَّاه بالإمارة. ثم قال: (**لَقَدْ صَحِبْتُ**)، فأكَّد قوله بـ (اللام، وقد) لأنَّ المخاطب قد يكون مخالفا له فيما يقول. وقوله: (**وَهُوَ عَنِّي رَاضٍ**): قدم الجار والمجرور تأكيدا وتخصيصا، والجملة الحالية تبين حال النبي ﷺ حين مات، وهو الرضا عن عمر رضي الله عنه. وقوله: (**وَأَنَا سَامِعٌ مُطِيعٌ**): جعل الحال - هنا - لنفسه على خلاف الجملة الأولى؛ لأنَّ العبرة في الأولى برضا رسول الله ﷺ قبل فعل عمر وصنيعه، والعبرة في الثانية بفعل عمر قبل رضا أبي بكر رضي الله عنهما. وقوله: (**وَمَا أَصْبَحْتُ أَخَافُ عَلَى نَفْسِي إِلَّا إِمَارَتَكُمْ هَذِهِ**): الاستثناء بعد النفي يفيد الحصر، فكأنه لم يخش شيئا أتاه سوى تلبُّسه بهذه الإمارة، فلله درُّك يا عمر!

١- رواهُ ابنُ سعدٍ في «الطَّبقاتِ الكُبرَى» ٣/ ٣٥٥، وابنُ أبي شيبةَ في «المُصنَّفِ» (٣٨٢٢٨).

[٤٢٥]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

فِي الْخِلَافَةِ

«لِيَعْلَمْ مَنْ وَلِيَ هَذَا الْأَمْرَ مِنْ بَعْدِي، أَنْ سَيُرِيدُهُ عَنْهُ الْقَرِيبُ وَالْبَعِيدُ. إِنِّي لَأُقَاتِلُ النَّاسَ عَنْ نَفْسِي قِتَالًا، وَلَوْ عَلِمْتُ أَنَّ أَحَدًا مِنَ النَّاسِ أَقْوَى عَلَى هَذَا الْأَمْرِ مِنِّي لَكُنْتُ أَنْ أُقَدَّمَ فَيُضْرَبَ عُنُقِي أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ آتِيَ إِلَيْهِ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يُخاطب أمير المؤمنين ﷺ خليفة المسلمين بعده، موجِّها له بعض النصائح عبر إبراز سيرته فيها.

البيان والبلاغة: بدأ أمير المؤمنين ﷺ خطابه بالأمر المباشر للخليفة بعده عبر إدخال لام الأمر على الفعل المضارع في قوله: (**لِيعلَمْ**)، وذلك أنَّ الأمر خطير والوقت ضيق بما لا يحتمل الأسلوب غير المباشر في التوجيه. وقوله: (**هَذَا الْأَمْرَ**): استخدم اسم الإشارة (**هذا**) إمعانا في التعيين والتخصيص، و(أل) في العبارة للعهد الذهني؛ إشارة إلى الخلافة. وقوله: (**الْقَرِيبُ وَالْبَعِيدُ**): كناية عن العموم، والمقصود: سيريده عنه الجميع. وقوله: (**إِنِّي لَأُقَاتِلُ النَّاسَ عَنْ نَفْسِي قِتَالا**): أكَّد الجملة إنزالا للسامع منزلة المرتاب فيها، ثم كنَّى بالقتال عن مجاهدة نفسه

١- رواهُ ابنُ شبَّةَ في «تاريخِ المدينةِ» ٢/ ٦٩٣.

على مخالفة رغبات الناس؛ بيانا لصعوبة ومشقة هذه المجاهدة، ثم أعاد تأكيدها بالمفعول المطلق (**قتالا**) المؤكد للمعنى. وقوله: (**أَقْوَى عَلَى هَذَا الْأَمْرِ مِنِّي**): قدَّم الجارَّ والمجرور تأكيدا عليه؛ لأنَّه أهم ما يُهِمه وهو لبُّ الحديث وموضوعه.

[٤٢٦]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

لِابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، وَهُوَ يُحْتَضَرُ

«احْفَظْ عَنِّي ثَلَاثًا؛ فَإِنِّي أَخَافُ أَنْ لَا يُدْرِكَنِي النَّاسُ: أَمَّا أَنَا فَلَمْ أَقْضِ فِي الْكَلَالَةِ قَضَاءً، وَلَمْ أَسْتَخْلِفْ عَلَى النَّاسِ خَلِيفَةً، وَكُلُّ مَمْلُوكٍ لَهُ عَتِيقٌ». فَقَالَ لَهُ النَّاسُ: اسْتَخْلِفْ. فَقَالَ: «أَيَّ ذَلِكَ أَفْعَلُ فَقَدْ فَعَلَهُ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنِّي، إِنْ أَدَعْ إِلَى النَّاسِ أَمْرَهُمْ فَقَدْ تَرَكَهُ نَبِيُّ اللهِ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ -، وَإِنْ أَسْتَخْلِفْ فَقَدِ اسْتَخْلَفَ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنِّي، أَبُو بَكْرٍ». فَقُلْتُ لَهُ: أَبْشِرْ بِالْجَنَّةِ، صَاحَبْتَ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَأَطَلْتَ صُحْبَتَهُ، وَوُلِّيتَ أَمْرَ الْمُؤْمِنِينَ فَقَوِيتَ وَأَدَّيْتَ الْأَمَانَةَ. فَقَالَ: «أَمَّا تَبْشِيرُكَ إِيَّايَ بِالْجَنَّةِ؛ فَوَاللهِ لَوْ أَنَّ لِي - قَالَ عَفَّانُ: فَلَا وَاللهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، لَوْ أَنَّ لِي - الدُّنْيَا بِمَا فِيهَا؛ لَافْتَدَيْتُ بِهِ مِنْ هَوْلِ مَا أَمَامِي قَبْلَ أَنْ أَعْلَمَ الْخَبَرَ. وَأَمَّا قَوْلُكَ فِي أَمْرِ الْمُؤْمِنِينَ؛ فَوَاللهِ لَوَدِدْتُ أَنَّ ذَلِكَ كَفَافًا، لَا لِي وَلَا عَلَيَّ. وَأَمَّا مَا ذَكَرْتَ مِنْ صُحْبَةِ نَبِيِّ اللهِ ﷺ فَذَلِكَ»(١).

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: ما يزال حديث أمير المؤمنين رضي الله عنه على فراش الموت، والحديث - هنا - موجَّه لابن عباس رضي الله عنهما حول ثلاثة أمور أراد أمير المؤمنين التأكيد عليها، ثم جوابا على تبشير ابن عباس له بسابقته في الإسلام وحسن بلائه في الخلافة.

١- رواهُ أحمدُ في «المُسنَدِ» (٣٢٢)، والطَّيالسيُّ في «المُسنَدِ» (٢٦)، وابنُ شبَّةَ في «تاريخِ المدينةِ» ٣/ ٩٢٣.

البيان والبلاغة: اختص أميرُ المؤمنين ابنَ عباس بما تلاه عليه؛ لمكانة الأخير عنده، ومعرفة مقامه عند رسول الله ﷺ من قبل. والتعبير بالفعل والمصدر المشتق منه يؤكد أن الأمر مهم ويحتاج إلى نظر، ولا يجب تركه دون تحديد. وقوله: (**كُلُّ مملوك**): المعنى فيه استغراق للحكم، الغرض منه التوسع في باب العتق. وقوله: (**خَيْرٌ مِنِّي**): تميَّز أمير المؤمنين؛ عمر بن الخطاب في تعبيره بنكران الذات. وقوله: (**فَأَطَلْتَ صُحْبَتَهُ**): دليل على علم المخاطب اليقيني بما يوجهه له المتكلم. وقوله: (**لافْتَدَيْتُ، لَوَدِدْتُ**): (**اللام**) واقعة في جواب (**لو**)، وتفيد التوكيد والسرعة المبادرة للفكاك مما قد يلحق به. هذا، وقد مرَّ شيءٌ من معاني هذا النص في نصوص سابقة.

[٤٢٧]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

لِابْنِهِ عَبْدِ اللهِ وَهُوَ يحْتَضَرُ

«إِذَا وَضَعْتَنِي فِي لَحْدِي؛ فَأَفْضِ بِخَدِّي إِلَى الْأَرْضِ، حَتَّى لَا يَكُونَ بَيْنَ خَدِّي وَبَيْنَ الْأَرْضِ شَيْءٌ»[١].

وَقَالَ: «يَا بُنَيَّ، إِذَا حَضَرَتْنِي الْوَفَاةُ فَاحْرُفْنِي، وَاجْعَلْ رُكْبَتَيْكَ فِي صُلْبِي، وَضَعْ يَدَكَ الْيُمْنَى عَلَى جَبِينِي، وَيَدَكَ الْيُسْرَى عَلَى ذَقَنِي، فَإِذَا قُبِضْتُ فَأَغْمِضْنِي، وَاقْصِدُوا فِي كَفَنِي؛ فَإِنَّهُ إِنْ يَكُنْ لِي عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ أَبْدَلَنِي خَيْرًا مِنْهُ، وَإِنْ كُنْتُ عَلَى غَيْرِ ذَلِكَ سَلَبَنِي فَأَسْرَعَ سَلْبِي، وَاقْصِدُوا فِي حُفْرَتِي؛ فَإِنَّهُ إِنْ يَكُنْ لِي عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ وَسَّعَ لِي فِيهَا مَدَّ بَصَرِي، وَإِنْ كُنْتُ عَلَى غَيْرِ ذَلِكَ ضَيَّقَهَا عَلَيَّ حَتَّى تَخْتَلِفَ أَضْلَاعِي. وَلَا تُخْرِجُنَّ مَعِي امْرَأَةً، وَلَا تُزَكُّونِي بِمَا لَيْسَ فِيَّ؛ فَإِنَّ اللهَ هُوَ أَعْلَمُ بِي. وَإِذَا خَرَجْتُمْ بِي فَأَسْرِعُوا فِي الْمَشْيِ؛ فَإِنَّهُ إِنْ يَكُنْ لِي عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ قَدَّمْتُمُونِي إِلَى مَا هُوَ خَيْرٌ لِي، وَإِنْ كُنْتُ عَلَى غَيْرِ ذَلِكَ كُنْتُمْ قَدْ أَلْقَيْتُمْ عَنْ رِقَابِكُمْ شَرًّا تَحْمِلُونَهُ»[٢].

١- رواهُ ابنُ سعدٍ في «الطَّبقاتِ الكُبرَى» ٣/ ٣٦٠، وأحمدُ في «الزُّهدِ» (٦٣٤) واللَّفظُ لهُ، والبلاذريُّ في «أنسابِ الأشرافِ» ١٠/ ٤٣٧، وابنُ أبي الدُّنيا في «المُحتضَرينَ» (٤٢)، وابنُ عساكرَ في «تاريخِ دمشقَ» ٤٤/ ٤٤٥.

٢- رواهُ ابنُ سعدٍ في «الطَّبقاتِ الكُبرَى» ٣/ ٣٥٨، والبلاذريُّ في «أنسابِ الأشرافِ» ١٠/ ٤٣٦-٤٣٧، وابنُ عساكرَ في «تاريخِ دمشقَ» ٤٤/ ٤٤٦ و٦٤/ ١٥٩.

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: هذه وصية أخيرة من أمير المؤمنين لابنه عبد الله رضي الله عنهما، يوصيه فيها بما ينبغي أن يكون عقب وفاته.

البيان والبلاغة: قوله: (**إِذَا ... فَـ**) اعتمد في كلامه على الجملة الشرطية، وجاء بجواب الشرط مقترنًا بالفاء؛ للدلالة على رغبته في تنفيذ شرطه والإسراع فيه، والحزم في تنفيذ رغبته ووصيته. وقوله: (**حَتَّى لَا يَكُونَ بَيْنَ خَدِّي وَبَيْنَ الْأَرْضِ شَيْءٌ**): إطنابٌ بالتفصيل بعد الإجمال، أراد به تأكيد المعنى وألا يترك للسامع احتمالا للتأويل. وقوله: (**يَا بُنَيَّ**): نادى ابنه القريبَ مكانا ومكانة بأداة النداء (**يا**) التي للبعيد؛ إنزالا له منزلة البعيد حُكما كالساهي والغافل؛ ليكون ذلك أدعى لجذب انتباهه. وقوله: (**حَضَرَتْنِي الْوَفَاةُ**): إسناد الحضور للوفاة مجاز عقلي، والمقصود: إذا حضرني ملك الموت للموت أو قبض روحي. وقوله: (**وَإِنْ كُنْتُ عَلَى غَيْرِ ذَلِكَ**): كنَّى عن الشر بعدما صرح بذكر الخير؛ كراهية لذكر الشر ورغبة في حصول الخير. وفي النص إطناب ناشئٌ عن التفصيل بعد الإجمال والتعليل بعد ذكر الحكم، والغرض منه التأكيد وزيادة الإيضاح والبيان.

[٤٢٨]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

وَقَدْ سَمِعَ ابْنَتَهُ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ حَفْصَةَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا - تَنْدُبُهُ

«يَا عَبْدَ اللهِ، أَجْلِسْنِي؛ فَلَا صَبْرَ لِي عَلَى مَا أَسْمَعُ»، فَأَسْنَدَهُ عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ إِلَى صَدْرِهِ، فَقَالَ لَهَا: «إِنِّي أُحَرِّجُ عَلَيْكِ بِمَا لِي عَلَيْكِ مِنَ الْحَقِّ أَنْ تَنْدُبِينِي بَعْدَ مَجْلِسِكِ هَذَا، فَأَمَّا عَيْنُكِ فَلَنْ أَمْلِكَهَا؛ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ مَيِّتٍ يُنْدَبُ بِمَا لَيْسَ فِيهِ إِلَّا الْمَلَائِكَةُ تَمْقُتُهُ»[١].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: لا نزال مع الكلمات الأخيرة لأمير المؤمنين رضي الله عنه على فراش الموت، والحديث - هنا - بشأن ندب أم المؤمنين حفصةَ أباها عمر رضي الله عنهما وتشديده في النهي عن ذلك.

البيان والبلاغة: قوله: (**يَا عَبْدَ اللهِ**) في هذا الموضع يناديه باسمه؛ لأن الموقف يحتاج حزمًا وحِدَّة. وقوله: (**إِنِّي أُحَرِّجُ عَلَيْكِ**): كناية عن الرفض التام المطلق لما يسمعه من بكاء أهله عليه، وفيه تذكير لها بحقه عليها. وقوله: (**فَأَمَّا عَيْنُكِ فَلَنْ أَمْلِكَهَا**): كنَّى عن الدمع بالعين، وشبه العين بمتاع يُمتلك ويوزع على النَّاس. وقوله: (**لَيْسَ مِنْ مَيِّتٍ**): أتى بما يفيد استغراق الحكم للكل؛ فهو أمر عام لا يتجزأ.

١- رواهُ ابنُ سعدٍ في «الطَّبقاتِ الكُبرَى» ٣/ ٣٦١، والبلاذريُّ في «أنسابِ الأشرافِ» ١٠/ ٤٣٨، والحارثُ في «مُسنَدِه» كما في «بُغيةِ الباحثِ» (٢٦٤)، وابنُ عساكرَ في «تاريخِ دمشقَ» ٤٤/ ٤٤٨.

[٤٢٩]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

«يَا عَبْدَ اللهِ بْنَ عُمَرَ، اذْهَبْ إِلَى أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا -، فَقُلْ: يَقْرَأُ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ عَلَيْكِ السَّلَامَ. ثُمَّ سَلْهَا أَنْ أُدْفَنَ مَعَ صَاحِبَيَّ».

فَقَالَتْ عَائِشَةَ: كُنْتُ أُرِيدُهُ لِنَفْسِي، فَلَأُوثِرَنَّهُ الْيَوْمَ عَلَى نَفْسِي.

فَلَمَّا أَقْبَلَ عَبْدُ اللهُ بْنُ عُمَرَ، قَالَ لَهُ عُمَرُ: مَا لَدَيْكَ؟ قَالَ: أَذِنَتْ لَكَ، يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ. فَقَالَ عُمَرُ: «مَا كَانَ شَيْءٌ أَهَمَّ إِلَيَّ مِنْ ذَلِكَ الْمَضْجَعِ، فَإِذَا قُبِضْتُ فَاحْمِلُونِي، ثُمَّ سَلِّمُوا، ثُمَّ قُلْ: يَسْتَأْذِنُ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ. فَإِنْ أَذِنَتْ لِي، فَادْفِنُونِي، وَإِلَّا فَرُدُّونِي إِلَى مَقَابِرِ الْمُسْلِمِينَ. إِنِّي لَا أَعْلَمُ أَحَدًا أَحَقَّ بِهَذَا الْأَمْرِ مِنْ هَؤُلَاءِ النَّفَرِ الَّذِينَ تُوُفِّيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَهُوَ عَنْهُمْ رَاضٍ، فَمَنِ اسْتَخْلَفُوا بَعْدِي فَهُوَ الْخَلِيفَةُ، فَاسْمَعُوا لَهُ وَأَطِيعُوا» فَسَمَّى عُثْمَانَ، وَعَلِيًّا، وَطَلْحَةَ، وَالزُّبَيْرَ، وَعَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ عَوْفٍ، وَسَعْدَ بْنَ أَبِي وَقَّاصٍ. وَوَلَجَ عَلَيْهِ شَابٌّ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَقَالَ: أَبْشِرْ، يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، بِبُشْرَى اللهِ، كَانَ لَكَ مِنَ الْقَدَمِ فِي الْإِسْلَامِ مَا قَدْ عَلِمْتَ، ثُمَّ اسْتُخْلِفْتَ فَعَدَلْتَ، ثُمَّ الشَّهَادَةُ بَعْدَ هَذَا كُلِّهِ. فَقَالَ: «لَيْتَنِي يَا ابْنَ أَخِي وَذَلِكَ كَفَافًا لَا عَلَيَّ وَلَا لِي. أُوصِي الْخَلِيفَةَ مِنْ بَعْدِي بِالْمُهَاجِرِينَ الْأَوَّلِينَ خَيْرًا: أَنْ يَعْرِفَ لَهُمْ حَقَّهُمْ، وَأَنْ يَحْفَظَ لَهُمْ حُرْمَتَهُمْ. وَأُوصِيهِ بِالْأَنْصَارِ خَيْرًا، الَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ:

أَنْ يُقْبَلَ مِنْ مُحْسِنِهِمْ، وَيُعْفَى عَنْ مُسِيئِهِمْ. وَأُوصِيهِ بِذِمَّةِ اللهِ وَذِمَّةِ رَسُولِهِ ﷺ: أَنْ يُوفَى لَهُمْ بِعَهْدِهِمْ، وَأَنْ يُقَاتَلَ مِنْ وَرَائِهِمْ، وَأَنْ لَا يُكَلَّفُوا فَوْقَ طَاقَتِهِمْ»[1].

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: يخاطب أمير المؤمنين ولده عبد الله بن عمر رضي الله عنهما وقد أمره أن يستأذن أمَّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها أن يُدفن مع صاحبيه، ثم ينتقل بالحديث إلى أمر الخلافة والخليفة بعده، موجها له بعض النصائح.

البيان والبلاغة: قوله: **(سَلْهَا)** جاءت هذه الكلمة على هذا التركيب كناية عن التلطف والأدب الجم مع أم المؤمنين عائشة زوجة رسول الله ﷺ، وابنة حبيبه أبي بكر الصديق – رضى الله عنه –؛ ولذلك صدر اسمها بكنيتها: أم المؤمنين قبل ذكر اسمها. وقول أم المؤمنين: **(فَلَأُوثِرَنَّهُ اليَوْمَ عَلَى نَفْسِي)**: كناية عن الموافقة على طلبه، وهو رد على الأدب بأدب. والتعبير بكلمة **(اليَوْمَ)**: دليل على اعتبار الحال في الزمان والمكان. وقوله: **(عَلَى نَفْسِي)**: استلهام من قوله – عز وجل –: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩]. وقوله: **(مَا لَدَيْكَ؟)**: استفهام يدل على تعجل الجواب؛ لتمنيه أن يكون ردها إيجابيا كما وقع في ظنه بها، وعلمه بكرمها، وسخاء وجود نفسها.

١- رواهُ البخاريُّ في «صحيحِه» (١٣٩٢)، وابنُ أبي شيبةَ في «المُصنَّفِ» (٣٨٢١٤)، والخلَّالُ في «السُّنَّةِ» (٦٢)، وابنُ حبَّانَ في «صحيحِه» (٦٩١٧)، والآجُرِّيُّ في «الشَّريعةِ» (١٣٩٦)، واللَّالكائيُّ في «شرحِ أصولِ الاعتقادِ» (٢٥٤١)، والبيهقيُّ في «السُّنَنِ الكُبرَى» (١٦٥٧٩).

وقوله: (**مَا كَانَ شَيْءٌ أَهَمَّ**): نكَّر (**شيءٌ**) في سياق النفي لتفيد العموم، والجملة كناية عن حرصه الشديد على مرافقة حبيبيه رسول الله ﷺ، والصديق أبي بكر رضي الله عنه.

وقول الشاب من الأنصار: (**أَبْشِرْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بِبُشْرَى اللهِ**) فيه إجمال، ويحتاج إلى تفصيل. وقد مرَّ معنا قريبا ما يقارب هذا النص في اللفظ والمعنى.

[٤٣٠]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ

وَهُوَ يُحْتَضَرُ

«ظَلُومٌ لِنَفْسِي غَيْرَ أَنِّي مُسْلِمٌ ... أُصَلِّي الصَّلَاةَ كُلَّهَا وَأَصُومُ»(١).

الشرح والتحليل

مقتضى الحال: هذا النصُّ شيء من خواطر عمر رضي الله عنه التي جاشت في نفسه وهي تفيض إلى بارئها - سبحانه وتعالى -.

البيان والبلاغة: بدأ أمير المؤمنين رضي الله عنه كلامه بحذف المبتدأ وتصدير الخبر؛ للعلم بالمبتدأ ورعاية للوزن وتأكيدا على المعنى، فقال: (**ظَلُومٌ لِنَفْسِي**): و(**ظَلُومٌ**): صيغة مبالغة تدلُّ على الإكثار من الفعل، وهي كناية عن كثرة السيئات والذنوب. وقوله: (غَير أنِّي): استدراك أراد به تصحيح ما قد يسبق إلى الذهن من انعدام حسنات ذلك الظلوم لنفسه، أو أنه قد يئس من رحمة الله - تعالى -؛ ولذلك أطنب في تفصيل هذه الجملة الدالة على رجائه رحمة الله - تعالى - فقال: (**أُصَلِّي الصَّلَاةَ كُلَّهَا وَأَصُومُ**). وقوله: (**كُلَّهَا**): توكيد معنوي، وهو من ألفاظ العموم؛ فالتأكيد منصب على وفائه بجميع الصلوات المفروضة عليه من غير تقصير في شيء منها.

١- ذكرهُ ابنُ عبدِ البرِّ في «الاستيعابِ» ٣/ ١١٥٧، وابنُ الأثيرِ في «أسدِ الغابةِ» ٤/ ١٥٦، و«الكامل في التَّاريخِ» ٢/ ٤٢٩.